محاضرات الوائلي

إشراف

مصطفى الشيخ عبد الحميد

الجزء الثالث

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر


محاضرات الوائلي


بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

محاضرات الوائلي

رحمه الله

إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

الجزء الثالث

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر



مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

اسم الكتاب:	محاضرات الوائلي (رحمه الله)/الجزء الثالث
إشراف:	مصطفى الشيخ عبد الحميد
الناشر:	مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر
المطبعة:	شريعت
عدد النسخ:	(١٠٠٠) نسخة
الطبعة الأولى:	١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

لبنان / بيروت / الغبيري ص.ب ٢٧٨ / ٢٥

قم/إيران/ ٥٩٨- ٣٧١٨٥ ـ هاتف: ٧٧٣٥٦٤٦ - ٧٧٤٦٥٤٦

info@Omalqora.net

﴿٤٩﴾

في رحاب السبط المجتبىٰ عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الناس أقسام ثلاثة

نحتفل هذه الليلة بولادة ثاني نجوم أيمّة أهل البيت الإمام الحسن عليه السلام سبط الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. وقد يقول قائل: إن ولادة إنسان ليست بذلك الحدث الذي يستحقّ أن تحتفل به الدنيا، فهي تستقبل كلّ يوم طائفة وتودّع أُخرىٰ. وهذا إلىٰ حدّ ما صحيح، لكنّ هؤلاء الداخلين إلىٰ الحياة والخارجين منها لم يترك أحد منهم بصماته عليها إلّا القليل.

فالداخلون إلىٰ الدنيا يُقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم يدخل إلىٰ الدنيا كما يدخل العشب البري في أيام الربيع، لا يلبث أن تحرقه الشمس وتقسو عليه الرياح حتىٰ يعود هشيماً وينتهي. فمن الناس من

---

(١) آل عمران: ٦١.

يدخل ويخرج فلا يشعر بدخوله أو خروجه أحد، يقول أحد الأُدباء في العصر العباسي:

خليفةٌ ماتَ لم يحزنْ له أحدٌ وآخرٌ قام لم يفرح به أحدُ(١)

وقسم منهم يدخل إلىٰ الحياة كالشجرة العالية الوارفة الظلّ، الممتدّة الأغصان، الواسعة الأفياء ولكن لا ثمر فيها، فهو يدخل إلىٰ الدنيا صدىً وسمعة ومنظراً وبهرجة لكن حياته ليس فيها عطاء أبداً.

وقسم ثالث يدخل إلىٰ الحياة كالشجرة المثمرة، في كل عام يتجدّد عطاؤها وثمرها. فمثل هذا إذا دخل إلىٰ الحياة أغناها، وإن خرج منها تأسّفت عليه.

فنحن إنما نحتفل بميلاد إمام من أيمّة أهل البيت عليهم السلام لأن دخولهم إلىٰ الدنيا أغنىٰ الحياة، وخروجهم منها ترك فراغاً كبيراً؛ فلذا يحتفل الإنسان بحياة فيها خصب يغني الناس. وعندما نحتفل بميلاد الحسن عليه السلام فإنما نحتفل بامتداد طبيعي للنبي صلى الله عليه وآله، حمل الرسالة وترك آثاره في الحياة. وسوف نعرف ما هي الآثار التي تركها هذا الإمام العظيم، وليس المراد بالآثار: الآثار المادّيّة، فكم تارك آثاراً مادّيّة لكن كان بلاء علىٰ الدنيا، فهل نستطيع أن نحتفل بفرعون الذي ترك الأهرامات الضخمة؟ إننا نحتفل بابن سينا والفارابي والكندي وأُناس من هذا النمط الذي لم يترك أهرامات ضخمة وإنما بنى آثاراً فكرّية ضخمة، وهذا هو العطاء الذي يخلد، يقول أحد الأُدباء:

أرىٰ الموتَ يحييكم وبعضُ الذي مشوا علىٰ الأرضِ لو عاينت يمشي بهم قبرُ
تَشدّ بهم للطينِ سودُ فعالِهم وتسمو بكم للنورِ أمثلةٌ غرُّ
كرائمُ أعمالٍ وزادٌ من التقىٰ وفيضٌ من الإصلاحِ هذا هو العمرُ

---

(١) تاريخ بغداد ١٤: ١٧، البداية والنهاية ١٠: ٣٤٠.

رأيت الغـنى فكراً يـعيش وغـيره ... وإن مـلأ الآفـاق مـن ذهب فـقرُ
فما مات عـيسىٰ وهـو يـفترش الثرىٰ ... ولا عـاش قـارونٌ وأبـوابـه تـبرُ
تـهاوىٰ رمـاداً ألف صـرح مُـمَرَّدٍ ... وعـاش علىٰ البرديّ في ألقٍ سطرُ

المبحث الثاني: سبب نزول الآية الكريمة

وبعد هذه المقدمة نعود إلىٰ الآية، فهي نزلت في المباهلة، فالنبي ﷺ يقول: تعالوا ندع أبناءنا، فمَن هم الأبناء الذين أرادهم النبي ﷺ؟ المعروف عند الجميع[١] أن النبي ﷺ دعا للمباهلة الإمام علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فالمقصود بـ﴿أَبْنَاءَنَا﴾ في الآية الإمام الحسن والحسين عليهما السلام خاصة.

والهدف من هذا أن الإمام الحسن والحسين عليهما السلام هما ابنا رسول الله ﷺ، فإعطاؤهما صفة «سبط» وإن كان من الناحية اللغوية صحيحاً؛ حيث إن ابن البنت يسمىٰ سبطاً[٢]، لكن من الناحية العلمية هو ولد. ونحن بغض النظر عن الناحية العلمية لا ندعوهما ابني رسول الله ﷺ لأن ابن البنت ولد حقيقي ـ وإن كان حقيقيّاً في الواقع؛ بدليل أن الجدّ لا يستطيع أن يتزوج ابنته، فالنبي ﷺ لا يسعه الزواج من بنت الحسن أو بنت الحسين عليهما السلام؛ لأنهما داخلان في صلبه فيحرمون عليه[٣] ـ

---

(١) انظر: مسند أحمد ١: ١٨٥، الجامع الصحيح ٤: ٢٩٣، ٥: ٣٠٢، وغيرهما كثير.

(٢) لسان العرب ٧: ٣١٠ ـ سبط، بل نص فيه علىٰ أن الأسباط هم خاصة الأولاد والمِصاص فيهم.

(٣) فمثلاً روي عن أبي الجارود أنه قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا الجارود، ما يقولون لكم في الحسن والحسين عليهما السلام؟». قلت: ينكرون علينا أنهما ابنا رسول الله ﷺ. قال: «فأي شيء احتججتم عليهم؟». قلت: احتججنا عليهم بقول الله عزّ وجلّ في عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥. قال: «فأي شيء قالوا لكم؟». قلت: قالوا: قد يكون ولد الابنة من الولد ولا يكون من الصلب. قال: «فأي شيء احتججتم عليهم؟». قلت: احتججنا عليهم بقول الله تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ آل عمران:

وإنما قلنا ببنوّتهما لأن النبيﷺ نصّ علىٰ ذلك في أكثر من مورد، كقوله في الحسن: «إن ابني هذا سيد»[1]، لا لما مرّ من الدليل السابق من كون ابن البنت ولداً حقيقياً.

المبحث الثالث: البنوّة دموية وروحية

فالقرآن عبر عن الحسنين بأنهما ابنا رسول اللهﷺ، فماذا استهدف من هذه البنوّة؟ فلدينا هنا نوعان من البنوّة:

☚ ٦١. قال: «فأي شيء قالوا؟». قلت: قالوا: قد يكون في كلام العرب أبناء رجل وآخر يقول: أبناؤنا.

قال: فقال أبو جعفر: «يا أبا الجارود، لأُعطينّكها من كتاب الله عزّ وجلّ أنّهما من صلب رسول اللهﷺ لا يردّها إلّا كافر». قلت: فأين ذلك جعلت فداك؟ قال: «من حيث قال الله عزّ وجلّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ الآية إلىٰ أن انتهىٰ إلىٰ قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ النساء: ٢٣، فسلهم يا أبا الجارود: هل كان لرسول اللهﷺ نكاح حليلتهما؟ فإن قالوا: نعم كذبوا وفجروا، وإن قالوا: لا، فهما ابناه لصلبه». الكافي ٨: ٢٦٣ ـ ٢٦٤ / ٥٠١.

وسأل المأمون الإمام الرضا: يا أبا الحسن إني فكّرت في شيء فنتج لي الفكر الصواب فيه: فكّرت في أمرنا وأمركم، ونسبنا ونسبكم، فوجدت الفضيلة فيه واحدة، ورأيت اختلاف شيعتنا في ذلك محمولاً على الهوى والعصبية. فقال له الرضا: «إن لهذا الكلام جواباً إن شئتَ ذكرته لك، وإن شئت أمسكت». فقال له المأمون: إني لم أقله إلّا لأعلم ما عندك فيه. فقال له: «أنشدك الله يا أمير المؤمنين لو أن الله تعالى بعث نبيّه محمداًﷺ فخرج علينا من وراء أكمة من هذه الآكام يخطب إليك ابنتك، كنت مزوجه إياها؟». فقال: يا سبحان الله، وهل أحد يرغب عن رسول اللهﷺ؟ فقال له الرضا: «أفتراه كان يحلّ له أن يخطب إلي؟». فسكت المأمون هنيئة ثم قال: أنتم والله أمسّ برسول اللهﷺ.

بحار الأنوار ١٠: ٣٤٩ / ٩، ٩٤: ١٨٧ / ١٩.

ومثلها مناظرة الإمام الكاظم للرشيد. انظر الاحتجاج ٢: ٣٣٨ / ٢٧١.

(١) مسند أحمد ٥: ٣٧، ٤٤، ٤٩، ٥١، صحيح البخاري ٣: ١٦٩، ١٧٠، ٤: ١٨٤، ٢١٦، ٨: ٩٩، سنن أبي داود ٢: ٣١١ / ٤٢٩٠، ٤٠٥ / ٤٦٦١، وغيرها كثير.

النوع الأوّل: بنوّة الدم

وهي أن يتكون الولد من صلب أبيه. وهذه البنوّة مفتقرة إلىٰ بنوّة الروح، فلابد من انسجام روحي. قال تعالىٰ علىٰ لسان نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، فأتاه الجواب: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[1]. فما هو الوجه في نفي البنوّة عن ابن نوح عليه السلام؟ إن نساء الأنبياء مبرآت ولا يتطرق إليهن الشك في عفّتهن؛ لأن النبي لا يمكن أن يُبتلىٰ بهذا، فهو عارٌ منفّر عن النبوة؛ ولذلك ألقىٰ الله من افترىٰ على عائلة النبي صلى الله عليه وآله في حادثة الإفك[2] في أسفل الدرك من الجحيم.

النوع الثاني: البنوّة الروحية

فالله تعالىٰ ينفي البنوّة عن ابن نوح عليه السلام؛ لأن البنوّة ليست بنوّة دم[3] فقط، فبنوّة الحسنين عليهما السلام؛ ليست بنوّة دم فقط، وإنما هي بنوّة روح، قال الشاعر:

أيا واحداً من خمسة إن رأيتَهم   رأيت بهم في كلّ وجه محمدا

ولذا فإننا عندما ننظر إلىٰ الحسن عليه السلام فإننا ننظر إلىٰ النبي صلى الله عليه وآله.

المبحث الرابع: من ملامح الإمام الحسن عليه السلام

الأول: أنه عليه السلام أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله

فالمؤرخون يقولون: إن الحسن عليه السلام أشبه النبي صلى الله عليه وآله خَلقاً وخُلقاً، أي أشبهه

---

(١) هود: ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) مجمع الزوائد ٩: ٢٣٦، المعجم الكبير ٢٣: ١٢٤، مسند الشاميّين (الطبراني) ٣: ٣٣٤.

(٣) قال أبو فراس الحمداني:

كانت مودّة سلمان له رحماً   ولم يكن بين نوح وابنه رحمُ

ديوان أبي فراس الحمداني: ٢٥٥. فمودّة سلمان جعلت له من رسول الله صلى الله عليه وآله رحماً بقوله: «سلمان منا أهل البيت». عيون أخبار الرضا ١: ٧٠ / ٢٨٢، المعجم الكبير ٦: ٢١٣.

بأخلاقه والكثير من أعضائه الجسدية[1]. وأشبه أباه أمير المؤمنين ﷺ في قامته وبعض ملامحه، فكانت الزهراء ﷺ ترقّصه فتقول:

اشبه أباك يا حسنْ واخلع عن الحقّ الرسنْ

واعبد إلهاً ذا منَنْ ولا توالِ ذا إحَنْ[2]

وقد كان الإمام علي ﷺ يُنزل ابنه محمد بن الحنفية إلىٰ المعركة ويمنع الإمام الحسن والحسين ﷺ، وكان يقول: «املكوا عني هذين الغلامين لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله ﷺ». فقيل له في ذلك فقال: «هذان ابنا رسول الله ﷺ، وهذا ابني»[3].

ويريد بذلك أن حمل رسالة النبي ﷺ يكون عن طريق هذين. مع العلم أن الإمام الحسن ﷺ كان ممارساً للحرب في أعتىٰ الميادين وأقساها، ولا يُخاف عليه، وقد اشترك في الفتوحات قائداً لإحدىٰ الكتائب. ومن يرمِ الإمام ﷺ بحب الحياة فهو مغفّل لا يفهم من حياة الإمام ﷺ شيئاً، أو أنه أخذ التأريخ من أعدائه، وموقف التأريخ معروف بسلبيته من أهل البيت. لم لا، وهو الذي كُتب في زمن معاوية المعروف بأساليبه في تزوير التأريخ؟ فقد كان يصعد علىٰ المنبر ويقول: تعرفون من هم أهل البيت الذين عنتهم الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[4]؟ قالوا: لا. قال: نحن أهل البيت. وقد استعمل معاوية المال والسيف وغيره في هذا السبيل كما هو معروف.

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٩٧ / ١٠٢٤، الإرشاد ٢: ٥، مسند أحمد ١: ٩٩، ١٠٨، الجامع الصحيح ٥: ٣٢٥ / ٣٨٦٨.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٥٩، بحار الأنوار ٤٣: ٢٨٦ / ٥١، شجرة طوبىٰ ٢: ٢٥٧. والإحن: جمع إحنة، وهي العداوة. المعجم الوسيط: ٨ ـ أحن.

(٣) الخصال ٤٤١ / ٣٣، بحار الأنوار ١٠: ١٣٠ / ١، ٣٣: ٢٣٨ / ٥١٨.

(٤) الأحزاب: ٣٣.

إذن فانتماء الحسنين عليهما السلام للنبي صلى الله عليه وآله ليس بالدم فقط، فالكثير من أبناء الأيمّة مَن يبرأ منه الإمام، ونحن نبرأ منه من أمثال جعفر الكذاب الذي هو ابن إمام وأخو إمام. في حين أن النبي صلى الله عليه وآله اعتبر سلمان الفارسي من أهل البيت عليهم السلام. ولذا يقول محيي الدين ابن عربي صاحب (الفتوحات المكية): «إن سلمان الفارسي معصوم، بدليل أن أهل البيت معصومون، والنبي صلى الله عليه وآله يقول: **«سلمان منا أهل البيت»**، فيكون سلمان معصوماً»[1]. ولذا تجد هناك حملة علىٰ محيي الدين بن عربي بسبب الكثير من آرائه في أهل البيت عليهم السلام، منها مثلاً قوله: «إن المسلم لا يدخل النار ببركة التمسّك بأهل البيت عليهم السلام»[2]، ولو كانت آراء ابن عربي في مروان لكان له شأن آخر، ولصار سيّد العارفين.

فالبنوّة التي يثبتها القرآن للحسنين عليهما السلام هي البنوّة الروحية. والحسن هو الامتداد الطبيعي لرسول الله صلى الله عليه وآله. ولذا يقول صلى الله عليه وآله: **«كلّ بني أمّ ينتمون إلىٰ عصبتهم إلّا بني فاطمة عليها السلام فإنني أنا أبوهم»**[3]. أي هم ينتمون إليّ. وهذا الحديث يرويه كلّ مؤرخي المذاهب الإسلامية.

فهذه أوّل مزايا الإمام عليه السلام، وهي أنه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي يحمل أخلاقه.

---

(١) عيون أخبار الرضا ١: ٧٠ / ٢٨٢، المعجم الكبير ٦: ٢١٣.

(٢) قريب منه في شرح أُصول الكافي (المازندراني) ٦: ١٤٨ / شرح الحديث: ١ من باب الإشارة والنص علىٰ الحسن بن علي عليهما السلام.

(٣) مجمع الزوائد ٤: ٩٩، المعجم الكبير ٣: ٤٤ / ٢٦٣٢، تهذيب الكمال ١٩: ٤٨٣، ٤٨٤، وغيرها كثير.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله لم يبعث نبياً إلّا جعل ذريته من صلبه غيري؛ فإن الله جعل ذريتي من صلب علي». انظر كشف القناع (البهوتي) ٥: ٣٢، الفقيه ٤: ٣٦٥، وقال: «لكلّ بني أب عصبة ينتمون إليه إلّا ولد فاطمة أنا عصبتهم». نيل الأوطار ٦: ١٣٩، كنز العمّال ١٢: ٩٨ / ٣٤١٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٦: ٣١٣.

الثاني: أنه‌ؑ أحد من باهل بهم النبي‌ﷺ

فهو أحد الوجوه الكريمة التي باهل بها النبي‌ﷺ نصارىٰ نجران، وهم الأسقف والعاقب والسيّد، وذلك عندما أتوا إلىٰ المباهلة، فتقدم السيد للمباهلة وقال لمن معه: والله، إني أرىٰ أن مع محمد وجوهاً لو أقسم بهم علىٰ الله أن يزيل جبلاً من مكانه لفعل، فلا تباهلوهم فتهلكوا. والله لئن باهلتموهم لا يدور الحول عليكم ومن النصارىٰ عين تطرف. فامتنع النصارىٰ عن المباهلة وصالحوا النبي‌ﷺ ببركة هذه الوجوه الكريمة[1].

الثالث: أنه‌ؑ ممّن شملتهم آية التطهير

فالإمام الحسن‌ؑ أحد الذين احتوتهم آية التطهير من الرجس: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، فهو من الذين أبعد الله عنهم الرجس، ورفع القرآن عقيرته بتطهيرهم آناء الليل وأطراف النهار.

الرابع: أنه‌ؑ حفظ نسل الرسول‌ﷺ

أضف إلىٰ ذلك أن الحسنين‌ؑ حفظا نسل النبي‌ﷺ عبر التأريخ، وقد انحصر نسله بهما. وكم حدثت من المحاولات لقطع هذه القناة الممتدّة عبر التأريخ! وقد سمعنا في كربلاء من يقول: اقتلوهم.. لا تبقوا لأهل هذا البيت باقية. والقصد أن يقطع هذا الحبل المتّصل بالنبي‌ﷺ[2].

الخامس: أنه‌ؑ إمام قام أو قعد

فالحسن هو الإمام بشهادة النبي‌ﷺ: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[3].

---

(١) التبيان ٢: ٤٨٤، قريب منه في شواهد التنزيل ١: ١٦٣ ـ ١٦٤ / ١٧٤.
(٢) وقد أكّد الرسول الأكرم‌ﷺ هذا المعنى بما مرّ من أحاديث في الصفحة السابقة.
(٣) دعائم الإسلام ١: ٣٧، علل الشرائع ١: ٢١١، الإرشاد ٢: ٣٠.

السادس: أنه عليه السلام سيد شباب أهل الجنة

فالحسن سيد شباب أهل الجنة بصريح قول النبي صلى الله عليه وآله فيه وفي أخيه الإمام الحسين عليهما السلام: **«الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»**(١).

ومن هنا فإن الاحتفال بمولده ليس أمراً بلا جدوىٰ، فهناك الآلاف ممّن يأتون إلىٰ الدنيا يومياً، ويرحل عنها مثلهم، ومن هؤلاء من يأتي إلىٰ الدنيا وتتمنّىٰ أنه لم يولد، فهو بلاء علىٰ الدنيا، يقول أحدهم:

فكم من وليدٍ قد وددنا لو انه ... يموت بأيدي القابلات مناغيا

تبَش إليه الأمّهات ولو درت ... بما سوف يجنيه لطمن النواصيا

وكما قلنا فإن هناك أشخاصاً إذا ولجوا إلىٰ الحياة أثْروها، وإذا خرجوا منها خلفوا فراغاً. والإمام الحسن عليه السلام من هذا النوع، فقد استقبلت الدنيا هذا العطاء في السنة الثالثة من الهجرة، ليلة الخامس عشر من رمضان المبارك. وهو أول وليد يربط بين النبوّة والإمامة؛ ولذا فرح به النبي صلى الله عليه وآله فرحاً لا حدود له، وقد جاءت به الزهراء عليها السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله حين ولادته فقالت: **«يا رسول الله، هذا ولدك فسمّه»**. فقال: **«ما كنت لأسبق ربي باسمه»**. فهبط عليه جبرئيل يحمل اسمه. قال: **«إن علياً منك بمنزلة هارون من موسىٰ، فسمِّ ابنه باسم ابن هارون (شبر)»**. قال: **«ذلك عبراني وأنا عربي؟»** قال جبرئيل: **«سمه حسناً»**(٢).

فسماه كذلك، وأمر بتغيير الخرقة التي لفّ بها، وراح يلثمه، وعقّ عنه بكبشين

---

(١) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة عند إخواننا أهل السنة، انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي١٦ : ٤١، وغيرها كثير.

(٢) ذخائر العقبىٰ: ١٢٠، المعجم الكبير ٣: ٩٧ / ٢٧٧٦، ينابيع المودّة ٣: ٢٠١ / ٥٧٩.

أملحين وتصدّق عنه بوزن شعره ورِقاً. فهو أول وليد احتفل به النبي ﷺ وأدخل علىٰ قلبه السرور، وقال عنه: «إن ابني هذا سيد»[1]. وقد أُضيف إلىٰ هذا الحديث من مخترعات الرواة: «وسيُصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[2]. وقد وُضعت هذه الزيادة لغرض جعل من قاتل الحسن عليه السلام مسلماً. ولا يمكن لأحد يمتلك خلفية علمية أن يقع بمثل هذا الخطأ؛ لأن النبي ﷺ يقول لعلي عليه السلام: «حربك حربي وسلمك سلمي»[3]، «من أحبك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام»[4]. فمن حارب علياً عليه السلام حارب رسول الله ﷺ، فكيف يكون من حارب رسول الله ﷺ مسلماً؟ وعليه لا يمكن أن نعتبر من يرفع سيفه لقتل سيد شباب أهل الجنة مسلماً. فالملحق مع الحديث غير صحيح وإنما هو من اختراع الرواة. ثمّ إن الإمام الحسن عليه السلام لم يخرج للصلح، وإنما خرج للقتال، فلما أسلمه جيشه اضطر إلى الصلح.

وهناك الكثير من الأحاديث من أمثال هذا منها أن لبابة أُمّ الفضل بن العباس دخلت علىٰ النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، رأيت كأن عضواً من أعضائك انفصل فسقط في حجري، فقال ﷺ: «خيراً رأيتِ، ستلد فاطمة عليها السلام ولداً، وسترضعينه بلبن قُثَم»[5].

---

(١) مسند أحمد ٥: ٣٧، ٤٤، ٤٩، ٥١، صحيح البخاري ٣: ١٦٩، ١٧٠، ٤: ١٨٤، ٢١٦، ٨: ٩٩، سنن أبي داود ٢: ٣١١ / ٤٢٩٠، ٤٠٥ / ٤٦٦١، وغيرها كثير.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي): ١٩٩، وقاله له بهذا المعنىٰ أحاديث كثيرة، انظر الحاوي للفتاوي ٢: ٤٤.

(٤) مسند أبي يعلىٰ ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، وقال: قال البوصيري: رواته ثقات.

(٥) مسند أحمد ٦: ٣٣٩، ٣٤٠، مسند أبي يعلى ١٢: ٥٠٠، المعجم الكبير ٣: ٢٠، ٢٥: ٢٥.

ويبدو أن العباسيين دبّروا[1] هذه القصّة ليشعروا أن آباءهم شاركوا في اللبن الذي شرب منه الحسن عليه السلام، فاشتركوا في هذه المكرمة، وإلّا فإن العباس كان آنذاك لا يزال في مكّة، وبين قثم والإمام الحسن عليه السلام سنون طويلة؛ فلا لبن ولا رضاع بينهما، بل إن العباس لم يهاجر وإنما التحق بالنبي صلى الله عليه وآله في السنة العاشرة في فتح مكّة ثم جاء مع النبي إلىٰ المدينة. ولذا فإن قوله تعالىٰ: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾**[2]، قطعَ ولاية العباس عن أهل البيت عليهم السلام؛ لأنه لم يهاجر.

فالنبي صلى الله عليه وآله سرّه الله بالحسن عليه السلام، ثم أكمل سروره بالإمام الحسين عليه السلام، فكان يحمل هذين الصبيين علىٰ صدره ولا يكاد يفارقهما الليلَ والنهار، ولم يكونا يفارقانه حتىٰ في صلاته. وقد أطال السجود مرة فقال له الصحابة: نراك أطلت السجود، فهل هبط عليك الوحي؟ قال: **«لا، وإنما ولدي ارتحلني فكرهت أن أعجّله»**[3].

وكان يصعد المنبر والإمام الحسن والحسين عليهما السلام في حجره لا يكادان يفارقانه. ولك أن تتصور مقدار النكبة التي لحقت بالحسنين عليهما السلام عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله، فهما لم يناديا أمير المؤمنين عليه السلام «يا أبه» في حياة النبي صلى الله عليه وآله، وإنما راحا يناديانه بذلك بعد رحيله.

استقبل النبي صلى الله عليه وآله يوماً الخليفة الأوّل فرآه يحملهما علىٰ عاتقيه، فقال: نِعمَ

---

(١) ربما كانت الواقعة صحيحة لكنهم أضافوا إليها قصّة الرضاع.

(٢) الأنفال: ٧٢.

(٣) مسند أحمد ٣: ٤٩٤، ٦: ٧٦٤، السنن الكبرى (النسائي) ١: ٢٤٣ / ٧٢٧ تاريخ مدينة دمشق ٣١: ٢١٥، ٤١: ١٦٠، أسد الغابة ٢: ٣٨٩، تهذيب الكمال ٦: ٤٠٢، تهذيب التهذيب ٢: ٢٩٩.

الجمل جملكما، ونعم الراكبان أنتما. قال النبي ﷺ: «وأبوهما خير منهما»[1].
فأخذهما أبو بكر من حجر النبي ﷺ.

عاش الإمام﵇ الحسن سبع سنوات مع النبيّ ﷺ، وقد يسأل سائل: كيف عاش هذه الفترة القصيرة وله عن النبي ﷺ مسند يرويه أحمد بن محمد الدولابي؟ ولا تزال هذه النسخة المخطوطة في مكتبة أمير المؤمنين بالنجف، فهل يستطيع صبيّ مثل هذا أن يحفظ الأحاديث الكثيرة عن النبي ﷺ؟

إن هذا الأمر ليس فيه غرابة، وإليك بعض الأمثلة البسيطة: راجع حياة الاقتصادي والثائر الإنكليزي المعروف «جون لوك»، وانظر ما يكتبون في ترجمته، وانظر ترجمة حياة «جون مل ستيوارت» وماذا كُتب فيها، يقولون: إن عمره أربع سنوات وحفظ لغات عدّة، ووضع النظريات الكثيرة. فليست أرقام الموهوبين غير عادية، وإنما الموهوب رقم غير عادي.

وكان عمر الإمام الجواد عند وفاة والده﵇ سبع سنوات، وكان أحد الفقهاء يتردّد إليه، فكان يقول: الناس يظنّون أنني أُعلمه، وأنا والله أتعلم منه طرفي الليل والنهار. فقد تجد ابن سبع أو عشر يستوعب ما لا يستوعبه الرجل الكبير. فليست الغرابة أن يأخذ الإمام الحسن﵇ عن جدّه الأحاديث فيحفظها، أو أن يأخذها بالواسطة من أبيه أمير المؤمنين﵇. ولدينا في تأريخ المسلمين من بلغ الاجتهاد وهو ابن الثامنة عشرة[2].

والسنون السبع الأُولىٰ في حياة الإنسان هي السنون الحسّاسة فيها، وقد

---

(١) سنن ابن ماجة ١: ٤٤ / ١١٨، المعجم الكبير ٣: ٣٩ / ٢٦١٧، ٦٥ / ٢٦٧٧، ١٩: ٢٩٢، وليس فيها إشارة إلى أبي بكر.
(٢) خلاصة الأقوال: ١٠، كشف اللثام ١: ٢٥.

قضاها الإمام الحسن عليه السلام في حجر جده. ثم أُصيب الحسنان بموت جدّهما، فراحا يعيشان فراغاً كبيراً، ثم لحقتهما المصيبة الثانية بعد ثلاثة أشهر بموت أمّهما فاطمة عليها السلام، لكن الله تعالىٰ عوضهما بحجر امرأتين طيبتين طاهرتين هما أسماء بنت عميس الخثعمية من جانب وفاطمة بنت حزام أمّ البنين من جانب، تلك المرأة التي كرّست حياتها لخدمتهما، حتىٰ إن بعض المؤرّخين يقول: إنها ألحّت علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام ألّا يسميها باسمها كيلا يتألم الحسنان.

نشاط الحسن عليه السلام إبان إمامة والده عليه السلام

عاش الإمام الحسن عليه السلام هذه الفترة من سبع سنين حتىٰ نهاية حياة والده أمير المؤمنين عليه السلام ـ أي ما يقرب من ثلاثين سنة ـ وقد مرّ بأحداث ضخمة، ولكن كانت الأضواء فيها مسلطة علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام، وليس معنىٰ ذلك أن حياته كانت بلا أضواء، وإنما كان نشاطه الاجتماعي والجهادي والعلمي يشغل جانباً من تلك الفترة، فمن نشاطه الاجتماعي أنه كان يقوم بأعمال تتناسب مع ما له من مكانة، فالخلافة لم تستغنِ عنه في أحداثها ولا في فتوحاتها، فقاتل في أكثر من واقعة وواقعة[١].

وهناك مغالطة يذكرها المؤرّخون دائماً في فتح القسطنطينية، ويروون أن أول جيش يفتح القسطنطينية من أهل الجنة، ثم ينسبون ذلك إلىٰ يزيد بن معاوية؛ ليكون بذلك من أهل الجنة[٢]. ففي سنة تسع وأربعين كان سفيان بن عوف علىٰ

---

(١) طبقات المحدثين بأصبهان (ابن حبان) ١: ١٩١، تاريخ جرجان: ٤٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٦١: ٦١، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ١٠٩.

قال المناوي: «لا يلزم منه كون يزيد بن معاوية مغفوراً له لكونه منهم إذ الغفران مشروط بكون الإنسان من أهل المغفرة ويزيد ليس كذلك لخروجه بدليل خاص ويلزم من الجمود على العموم أن من ارتد ممن غزاها مغفور له وقد أُطلق جمعٌ محققون حِل لعن يزيد به حتى

رأس الجيش الذي فتح القسطنطينية، ومن بعد ذلك بسنة جاء الجيش الثاني، ولكن بعد أن أصاب جيش المسلمين طاعون وحمّى فتكا به، ويزيد مع جارية له في دير مَرَّان تغنيه، فوصل له خبر الجيش الذي أصابته الحمىٰ والطاعون، فشرب حتىٰ ثمل، ثم أنشأ يقول:

ما إن أبالي بما لاقت جموعُهُمُ ... بالفَرقَدونة من حمًّى ومن شومِ

إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً ... بدير مَرَّان عندي أمّ كلثومِ[1]

ومن بعد ذلك ألحّ عليه أبوه معاوية أن يلتحق بالجيش فالتحق، ولكن في المرة الثانية.

فالذي فتح القسطنطينية هو سفيان بن عوف، ولك أن تراجع التواريخ المعتبرة كالطبري وابن الأثير[2] وغيرهما[3].

أمير المؤمنين﴿ع﴾ يرسل الحسنين﴿عهما﴾ لحماية عثمان

وفي أيام الثورة علىٰ الخليفة الثالث كان أمير المؤمنين﴿ع﴾ يدرك ما سوف تجرّه الثورة من البلاء علىٰ المسلمين؛ ولذلك أوقف الحسنين﴿عهما﴾ علىٰ باب عثمان كيلا تُقتحم عليه الدار[4]، وكيلا يأتي التأريخ بعد ذلك فيقول: إن علياً﴿ع﴾ هو الذي

☚ قال التفتازاني: الحق أن رضا يزيد بقتل الحسين وإهانته أهل البيت مما تواتر معناه وإن كان تفاصيله آحاداً فنحن لا نتوقف في شأنه بل في إيمانه لعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه. قال الزين العراقي: وقوله بل في إيمانه أي بل لا يتوقف في عدم إيمانه بقرينة ما قبله وما بعده. البداية والنهاية ٨: ١٣٥.

(١) معجم البلدان ٢: ٥٣٤، ٤: ١٨٨.

(٢) الكامل في التاريخ ٣: ٣١٤.

(٣) الإصابة ٣: ١٠٧، تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٣٥٠.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٠٦، مسند ابن الجعد: ٣٩٠، الثقات (ابن حبّان) ٢: ٢٦٣، سير أعلام النبلاء ٨: ١٨١، الإمامة والسياسة ١: ٤٤.

سهّل عليهم الأمر. ولكن علياًعليه السلام مع كلّ ذلك لم يسلم من هذه التهمة، يقول أحد شعراء الأُمويين:

بــني هـاشم كـيفَ الهـوادةُ بـيننا	ودرع ابـن أروىٰ عـندكم ونـجائبُهْ
بني هاشم ردّوا تـراث ابنِ أُختِكم	ولا تـــنهبوه لا تـــحلُّ مـــناهبُهْ
هُــمُ قــتلوه كــي يكــونوا مكـانه	كما غدرت يوماً بكسرىٰ مرازبُـهْ[1]

ولكن انظر إلىٰ لحظة من لحظات الصدق مع النفس عند مروان، يقول ابن حجر في (الصواعق المحرقة): «سألوا مروان عن موقف عليعليه السلام من الخـليفة الثـالث فقال: والله، إنه لأبرأ الناس من دمه. فقيل له: فلم تنسبون إليه تهمةً في عـثمان؟ قال: إن أمرنا لا يستقيم إلّا بذلك»[2].

نعم، أرسل الإمام عليعليه السلام الحسنينعليهما السلام للوقوف علىٰ بـاب الدار؛ ولذلك لم يدخل الثوار من الباب، وإنما تسوروا عليه من وراء الباب وقتلوه. وأظن أن هذا هو الذي حمل طه حسين علىٰ القول: «إن الإمام الحسنعليه السلام كـان عـثمانياً بـما تحمله الكلمة من معنىٰ».

وفي المجال العلمي كانت الكثير من المسائل التي ترد علىٰ المسلمين توكل إليه، فمن ذلك أن أمير المؤمنينعليه السلام كان جالساً في مسجد النبيصلى الله عليه وآله وجاء سائل فقال: يا أمير المؤمنين، جئت إلىٰ الحج فوطئت بيض النعام، ولا أدري ما يكون عليَّ. فقال له الإمام عليعليه السلام: «سل ذا الوفرة». وأشار إلىٰ الإمام الحسنعليه السلام، فأقبل إليه فسأله، فقالعليه السلام: «**انظر إلىٰ عدد البيض الذي وطئته، وخذ عدداً مثله من النياق فاضرب النياق بالفحول، فما حملت فاهده إلىٰ بيت الله**». فقال: إن النوق يزلقنَ.

---

(١) الجمل (الشيخ المفيد): ١١٢، المحلى ١٠ : ٥١٣، شرح نهج البلاغة ١: ٢٧٠، تاريخ مدينة دمشق.

(٢) الصواعق المحرقة ١: ١٦٣.

فقال له: «والبيض يمرق». فرجع السائل إلى أمير المؤمنين وأخبره بما أفتى، فقال: «والله لقد أفتاك بحكم الله من فوق سبع سماوات»[1].

نشاطه إبان إمامته

ومن بعد هذه الفترة عاش فترة أُخرىٰ وهي ما بعد استشهاد أمير المؤمنين، ووصول الخلافة إليه، حيث ابتدأت زحمة الأحداث، فكان أن واجه تلك

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٧٦، بحار الأنوار ٣٤: ٣٥٤ / ٣٢، وليس فيهما: سل ذا الوفرة، بل ورد هذا اللقب في رواية أُخرى فقد جاء شامي لأمير المؤمنين ليسأله فقال له: «سل ذا الوفرة». فسأله عن عدة أمور منها: كم بين الحق والباطل؟ وكم بين السماء والأرض؟ وكم بين المشرق والمغرب؟ وما قوس قزح؟ وما العين التي تأوي إليها أرواح المشركين؟ وما العين التي تأوي إليها أرواح المؤمنين؟ وما المؤنث؟ وما عشرة أشياء بعضها أشدّ من بعض؟ فقال الحسن بن علي: «بين الحق والباطل أربع أصابع فما رأيته بعينك فهو الحق، وقد تسمع بأذنيك باطلاً كثيراً». قال الشامي: صدقت. قال: «وبين السماء والأرض دعوة المظلوم ومد البصر، فمن قال لك غير هذا فكذبه». قال: صدقت يابن رسول الله. قال: «وبين المشرق والمغرب مسيرة يوم للشمس تنظر إليها حين تطلع من مشرقها وحين تغيب من مغربها». قال الشامي: صدقت، فما قوس قزح؟ قال: «ويحك لا تقل قوس قزح فإن قزح اسم شيطان، وهو قوس الله وعلامة الخصب وأمان لأهل الأرض من الغرق، وأما العين التي تأوي إليها أرواح المشركين فهي عين يقال لها: برهوت، وأما العين التي تأوي إليها أرواح المؤمنين فهي عين يقال لها: سلمى، وأما المؤنث فهو الذي لا يُدرىٰ أذكر هو أم أنثى فإنه ينتظر به؛ فإن كان ذكرا احتلم وإن كانت انثى حاضت وبدا ثديها، وإلّا قيل له بُل على الحائط فإن أصاب بوله الحائط فهو ذكر وإن انتكص بوله كما ينتكص بول البعير فهي امرأة. وأما عشرة أشياء بعضها أشد من بعض، فأشد شيء خلقه الله عز وجل الحجر، وأشد من الحجر الحديد الذي يقطع به الحجر، وأشد من الحديد النار تذيب الحديد وأشد من النار الماء يطفئ النار، وأشد من الماء السحاب يحمل الماء، وأشد من السحاب الريح تحمل السحاب، وأشد من الريح الملك الذي يرسلها، وأشد من الملك ملك الموت الذي يميت الملك، وأشد من ملك الموت الموت الذي يميت ملك الموت، وأشد من الموت أمر الله رب العالمين يميت الموت». فقال الشامي: أشهد أنك ابن رسول الله حقاً، وأن علياً أولى بالأمر من معاوية.
الخصال (الصدوق): ٤٤٠، ٤٤١، الاحتجاج ١: ٣٩٩، بحار الأنوار ١٠: ١٣٠ / ٤٣، ٣٢٥.

الأحداث المتشابكة برباطة جأش وثبات، فدعا الناس إلىٰ بيعته وطاعته، وجهّز الجيش لقتال معاوية، وهيأ كلّ الفرص. غير أنه عليه السلام لمّا تزاحم الأمر بين المهمّ والأهمّ قدم الأهمّ، فهو عليه السلام رأىٰ أن حقن الدماء في هذه الفترة أهمّ، ومن ناحية أُخرىٰ رأىٰ أن الحرب ستمكّن الروم من حدود المسلمين، فالروم كانوا قد حشدوا علىٰ الحدود من جهة الشام. فلم يكن الإمام الحسن عليه السلام محبّاً للحياة كما يحلو للبعض أن يتّهمه، وكيف يحبّ الحياة من نشأ في كنف جدّه النبي صلى الله عليه وآله وأبيه أمير المؤمنين عليه السلام؟ فهو لم ينشأ في بيت دعة أو رفاهية، وقد اشترك مع أبيه في الحروب، فلم يكن بعيداً عن ساحاتها، لكن المصلحة اقتضت حقن الدماء.

ولا ننسَ خذلان أصحابه له، ذلك الذي ملأ نفسه انفعالاً، حيث خرج من الكوفة، فوقف علىٰ مشارفها فأطال النظر إليها، وراح يقول:

«وما عن قلىً فارقت دار أحبّتي ... همُ المانعوني حوزتي وذماري»[(١)]

ورجع إلىٰ المدينة يجترّ آلامه، حيث رأىٰ أن كلّ الشروط التي اشترطها علىٰ معاوية لم يُنفَّذ منها شيء أبداً، ولكن ماذا يصنع؟

والغريب في التأريخ أنه ينتقده لأنه صالح معاوية، لكن هل سلم من انتقاداته الإمام الحسينُ عليه السلام الذي نهض ضد الأُمويّين؟ أم إنه يقول عنه: خرج علىٰ إمام زمانه[(٢)]! وهذا يظهر لك أن التأريخ لا بدّ أن ينتقد الحسن

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ١٦.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، وفيه: وقد غلب على ابن العربي البغض من أهل البيت، حتى قال: قتله ـ يعني أن يزيد قتل الحسين عليه السلام ـ بسيف جدّه.
وقال: ومن مجازفات ابن العربي أنه أفتى بقتل رجل عاب لبس الأحمر؛ لأنه عاب لبسة لبسها رسول الله صلى الله عليه وآله، وقتله بفتياه كما ذكره في (المطامح). وهذا تهوّر غريب، وإقدام على سفك دماء المسلمين عجيب، وسيخاصمه هذا القتيل غداً، ويبوء بالخزي من اعتدى. وليس

والحسين﵇ على كلّ حال.

وبقي الحسن﵇ يعيش آلامه ويضمّد جراحاته، حتى جاءت المأساة الأخيرة حيث دُسّ له السم، ذلك السلاح الخفي الذي استخدمه معاوية مع الكثيرين، فقد استعمله مع سعد بن أبي وقاص[1]؛ لأن موقفه كان سلبياً منه. وقد حاول معاوية مراراً أن يحصل منه على شتم الإمام أمير المؤمنين﵇ فرفض، مع أنه كان عدوّاً لعلي﵇، لكن عداوته لم تكن خسيسة وإنما كانت عداوة نبيلة، فقد واجه معاوية بقوله: والله لو كانت لي واحدة مما كان لعلي لكان أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس: زوّجه رسول اللهﷺ ابنته، ودفع له اللواء يوم خيبر، وقال له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى». فقال معاوية: إذن لم تخلّفت عن بيعته؟ قال: ذلك لا يعنيك[2].

واستعمل معاوية السم مع الأشتر[3]، وأرسل السم إلى جعدة مع الكثير من الإغراءات، فدسّته للحسن﵇ في اللبن وكان صائماً، وقدّمته له عند الإفطار. فتناول منه جرعة فأحس بالسمّ يجري في عروقه، فعاد إلى الدار يلفظ أمعاءه والدماء قد أخذته.

ودخل عليه الإمام الحسين﵇ وهو في هذه الحالة، فراح يشرح للحسين الموقف وما سوف يحصل، ثم قال له: «لا تهرق في أمري ملء محجمة دماً، وإذا لم

☚ ذلك بأول عجرفة لهذا المفتي وجرأته وإقدامه؛ فقد ألّف كتاباً في شأن مولانا الحسين (رضي الله عنه، وكرم وجهه، وأخزى شانئه) زعم فيه أن يزيد قتله بحقّ بسيف جدّه نعوذ بالله من الخذلان. فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥: ٣١٣.

(١) شرح نهج البلاغة ٦١: ٢٩، النصائح الكافية (محمد بن عقيل): ٨٦.

(٢) مروج الذهب ٣: ٢٤ ـ ٢٤، شواهد التنزيل ٢: ٣٥، تاريخ مدينة دمشق ٢٤: ١١٢.

(٣) الغارات ١: ٢٦٣، الغدير ٩: ٤٠، ١١: ٦٣، شرح نهج البلاغة ٦: ٧٦، النصائح الكافية: ٨٧.

يمكن الدفن عند جدي فادفني عند أُمي».

ثم قال: «سجّني إلىٰ القبلة». وراح الإمام الحسين عليه السلام يودّع أخاً عاش معه وترعرع، ورضع معه لبان النبوّة والإمامة، وجرت من عين الإمام الحسين عليه السلام دمعة حارّة وهو يلحظ الروح الطيبة تصعد إلىٰ بارئها، وضع رأسه في حجره.. أغرق وجهه بدموعه ثم قام بتنفيذ وصاياه. وخرجوا يحملون النعش، وخرج بنو أُمية، وواجه الإمام الحسين عليه السلام ذلك بما عُرف عنه من ثبات وصبر، ولم يصرّ علىٰ دفنه عند جده وإنما جدّد به عهداً بالنبي صلى الله عليه وآله، ثم عاد به إلىٰ البقيع، فأنزله في قبره وجلس علىٰ شفير القبر يخطّ الأرض بأنامله.. يبلّ الثرىٰ بقطرات من دموع عينيه، ويقول:

«أأدهن رأسي أم تطيب مجالسي ... وخدّك معفور وأنت تريبُ

وليس حريباً من أُصيب بماله ... ولكنّ من وارىٰ أخاه حريبُ

بكائي طويل والدموع غزيرة ... وأنت بعيدٌ والمزارُ قريبُ»

ثم نفض يديه من تراب القبر ورجع[1]. وكان يجول بالدار ويقول:

«أجول بالدار لا أراك وبا ... لدار أُناس جوارهم غبنْ»[2]

أقول له: سيدي، مكان واحد خالٍ أقضّ مضجعك، فكيف حالك لو رأيت بيوتكم بعد واقعة الطفّ وقد أصبحت جميعها بيوتاً للأحزان؟ كيف بك لو رأيت أُختك في دارك تجول لا تهدأ حتىٰ الصباح ولسان، حالها يقول:

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٣٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٠٥، بحار الأنوار ٤٤: ١٦٠، نظم درر السمطين: ٢٠٦.

(٢) البيت لسليمان بن قتة. مقاتل الطالبيين: ٥٠، شرح الأخبار ٣: ١٣٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٠٥، بحار الأنوار ٤٤: ١٦١، شرح نهج البلاغة ١٦: ٥٢.

منازل كانت نيّراتٍ بأهلها   توالى عليها غبرة وقتامُ

ألا لا تُزان الدار إلّا بأهلها   على الدار من بعد الحسين سلامُ

* * *

يناعي اشبعد تدري اشبگالي   وشخلّفت عندي الليالي

﴿٥٠﴾

الإمامة في القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

هناك محاولة لتفسير هذه الآية بحيث تُصرف عن مضمونها الأساسي؛ لأن مضمونها ضخم جداً، فهي يمكن أن تعتبر من الفقه السياسي في الإسلام. وهذه المحاولة قد تكون غير مقصودة أو أنها إسرائيلية بحيث لا يشعر المفسر بها.

وإبراهيم هو اسم سرياني أما بالعربية فهو (أب رحيم) فيقلبون الحاء هاء فيصبح إبرهيمو. وهو ابن ناحور، أما آزر الذي ذكر في القرآن فليس أباه وإنما هو عمّه، والعم يسمىٰ أباً. فأبوه لم يكن مشركاً وإنما كان موحّداً علىٰ الفطرة.

المبحث الأوّل: آراء في الكلمات الواردة في الآية

وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، ورسالته عامة، وأراد الله أن يمتحنه بكلمات، فما هي الكلمات التي اختبر بها الله تعالىٰ نبيّه إبراهيم عليه السلام؟ هناك عدّة آراء:

---

(١) البقرة: ١٢٤.

الرأي الأوّل: أنها التكاليف

وهذا الرأي يرويه المسلمون جميعاً دون استثناء، باعتبار أن التكاليف تنزل بكلمات. وهذه التكاليف عشرة[١]: خمسة في الرأس وخمسة في الجسم؛ فالخمسة التي في الرأس: المضمضة والاستنشاق؛ واحدة لتطهير الفم، وواحدة لتطهير المجاري التنفسية، ثم السواك، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضله[٢]. ويعلل تطهير الفم واللثة والأسنان علىٰ أنها المعبر الذي يمرّ منه القرآن[٣]، وهو مكان الملكين[٤] باعتبار أنه ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد[٥]. والرابع من الخمسة قص الشارب؛ لأنه يحمل في طياته الكثير من المكاره، فهو على مدخل الفم الذي هو الطريق إلىٰ المعدة، وقد يكون مكمناً لآثار ضارة. والخامس فرق الرأس[٦].

أما الخمسة التي في البدن فهي قص الظفر، فلا يبقىٰ الظفر فيمنع إيصال الماء إلى البشرة، ويكون مكمناً للجراثيم أيضاً، وإزالة الشعر من مواضع الشعر؛ كيلا تكون مكمناً للأمراض، والثالث الختان، ويستحبّ في الأيام الأُولىٰ. ومن كرامة

---

(١) انظر: مجمع البيان ١: ٣٧٤ ـ ٣٧٥، تحرير الأحكام ١: ٧١ ـ ٧٣، المستدرك علىٰ الصحيحين ٢: ٢٦٦، الجامع لأحكام القرآن ٢: ٩٨، باختلاف فيها في هذه السنن العشرة.

(٢) انظر وسائل الشيعة ٢: ٥ ـ ٢٧ / ب١ ـ ١٣، كنز العمال ٩: ٣١٠ ـ ٣٢١ / ٢٦١٥٦ـ٢٦٢٢٨.

(٣) قال أمير المؤمنين﴿ع﴾: «إن أفواهكم طرق القرآن؛ فطهّروها». الفقيه ١: ٥٢ / ١١٢، كنز العمّال ١: ٦٠٣ / ٢٧٥١.

(٤) قال الرسول﴿ص﴾: «نقّوا أفواهكم بالخلال؛ فإنها مسكن الملكين الحافظين الكاتبين. بحار الأنوار ٥٦: ٢٠٢ / ٨٢.

(٥) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. ق: ١٨.

(٦) فرق الرأس: المفرق، وهو ما بين الجبين إلىٰ الدائرة. لسان العرب ١٠: ٣٠١، ٣٠٢ ـ فرق، ١٢: ٦٢٤ ـ هوم.

نبيّنا ﷺ على الله أنه ولد مختوناً، فقد قال ﷺ: «من كرامتي على ربي أنني ولدت مختوناً ولم يرَ أحد سوأتي»[١]. فالأغلف الذي لم يُختن طوافه باطل، وصلاته باطلة؛ لأن الغلفة تمنع وصول الماء إلى العضو فلا تتحقّق الطهارة. وإذا قطعت هذه الغلفة فيجب أن تدفن؛ لأنها جزء حي مبان من جزء حي. ثم الرابع الاستجمار بالماء، فموضع البول متعيّن فيه الاستجمار بالماء، لكن موضع الغائط إذا تعدّى المخرج كان الماء واجباً، وإلّا فيخيّر بينه وبين الاستجمار بالحجارة ثلاثاً[٢]، والخامس الغسل من الجنابة.

وأنا أستغرب أن يوقف الله تعالى أبا الأنبياء إبراهيمﷺ ليبتليه بكلمات وموضوع ضخم، فيكون هذا الموضوع هو قصّ الظفر والشارب والاستجمار وغيره. ولكن هذا الرأي على كلّ حال مروي عند المفسّرين، وإلّا فإن جوّ الآية يوحي بموضوع كبير، ويبدو أن المفسّرين المسلمين أحسنوا الظن بالرواية، فجاءهم البلاء منها.

الرأي الثاني: أنها ذبح ولده إسماعيلﷺ

وذلك لما أمره الله بذبحه[٣]. وهذا موضوع ضخم؛ لأن إقدام الإنسان على ذبح ابنه أصعب حتى من إقدامه على قتل نفسه، فيمكن أن يقتل الإنسان نفسه ولا يقتل ولده؛ لأن علاقة البنوّة والأبوّة لا يمكن أن تبرزها الكلمات، فالله تعالى أراد أن يختبر نبيهﷺ بهذا الفعل، ليظهر جوهر النبوة. وقد امتثل إبراهيمﷺ وأتم الكلمات، فاستدعى ولده إسماعيلﷺ[٤]، وهو ذو المكانة الكبيرة في نفسه؛ لأنه الولد الأوّل،

(١) المعجم الصغير ٢: ٥٩ / ٩٣٦، المعجم الأوسط ٦: ١٨٨، كنز العمّال ١١: ٤١١ / ٣١٩٢٤.

(٢) انظر المعتبر ١: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٣) تفسير القمي ١: ٥٩، جامع البيان، المجلد ١، ج١: ٧٣٤ / ١٥٩٢.

(٤) يشار إلى أن هناك خلافاً بين المفسرين حول المأمور بذبحه من ولد النبي إبراهيمﷺ،

فلم تكن سارة أُم إسحاق تلد، فلما تزوّج مولاتها هاجر غارت فحملت بإسحاق. فإسماعيل﴿ع﴾ هو الوليد الأوّل الذي كُحلت به مقلة النبي إبراهيم﴿ع﴾، فـفداه الله تعالى بكبش.

ويقول المفسرون من غير الشيعة: إن هذا الكبش من كباش الجنة، وقد نزل مع آدم﴿ع﴾ من الجنة[1]. في حين أن المدة بين نزوله مع آدم﴿ع﴾ وبين إبراهيم﴿ع﴾ هي آلاف السنين، فهل يمكن أن يعيش هذا الكبش آلاف السنين؟ مع أننا نحن الشيعة عندما نروي عن النبي﴿ص﴾ أنه قال: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[2]، ونقول: فلابد أن يكون إمام الزمان حياً؛ لذا فإن الإمام المهدي (عج) حيّ، عندما نقول ذلك يقولون لنا: أنتم مخرّفون، فكيف يعيش الإنسان كلّ هذه المدّة؟ لكنهم يصدقون أن يعيش كبش لآلاف السنين، فلماذا يرفضون فكرة أن يعيش تلك الفترةَ الطويلةَ إمام يتعبّد الله البشرَ بطاعته، ويرون ذلك خرافة؟ فأين هي الموضوعية؟

لقد أتىٰ الأمر إلىٰ إبراهيم﴿ع﴾ بذبح ولده، وهذا هو التكليف الشاقّ الذي لا يقدم عليه الإنسان إلّا أن يكون فاقداً للعقل. ولذا أُلفت النظر هنا إلىٰ أن الوالد لا يقاد بولده، فلو أقدم أب علىٰ ذبح ولده فلا يقاد النفسَ بالنفسِ، لأنه لا يمكن أن يقدم أب علىٰ قتل ولده إلّا أن يكون فاقد العقل. فلا يمكن أن يكون هناك شيء أعزّ من الولد أبداً. فالوالد يرىٰ نفسه بولده ولا يراها بأبيه؛ ذلك أن الولد هو الامتداد

☚ وهل هو إسماعيل﴿ع﴾ أو إسحاق، انظر التبيان ٨: ٥١٨، جامع البيان، المجلد ١٢، ج٢٣: ٩١_١٠٣.

(١) انظر جامع البيان، المجلد ١٢، ج٢٣: ١٠٤ / ٢٢٦٥٥، تفسير القرآن العظيم ٤: ١٧، وفيهما كبش من الجنة قد رعاها قبل ذلك أربعين خريفاً.

(٢) الإمامة والتبصرة (ابن بابويه): ١٥٢، كمال الدين: ٤٠٩ / ٩.

الطبيعي للوالد. فالاختبار ـ هذه الكلمة الضخمة ـ الوارد في الآية يناسبه هذا الموضوع، وهو موضوع مهم.

الرأي الثالث: أنها تكاليف النبوة وأعباء الإمامة

فمن أعباء الإمامة أن الإمام يتعرض للاضطهاد والاستهزاء والسخرية والمضايقة، فالمطلوب منه أن يحمل قلباً يسع الدنيا، ويتحسّس آلام البشرية. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**أأقنع من نفسي أن يقال: أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أُسوة لهم في جشوبة العيش؟ فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها...**» إلىٰ أن يقول: «**ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص**»[1].

فهو يرىٰ نفسه مسؤولاً عن هذا الذي هو بالحجاز أو اليمامة الذي يبيت وهو لا طمع له بالقرص. وهذه ليست مسألة ترف يريد الإمام عليه السلام منها أن يبين لنا معنىً من المعاني الأخلاقية، وإنما ذلك لازم من لوازم الإمام، فهو يجب عليه أن يتحسّس الناس وآلامهم.

فأعباء النبوّة والإمامة هي التي ابتلىٰ الله بها إبراهيم عليه السلام[2]، وهذا هو الذي يتناسب مع جوّ الآية؛ لأن أعباء الإمامة تحتاج إلىٰ قابليات لا حدود لها، ولا يقوم بها أيٌّ كان. فالإمام عليه السلام يرىٰ أنه لابدّ أن يصهر نفسه تماماً في سبيل تحقيق العدل، فتراه يقف في السوق مع يهودي يدّعي عليه في درع، ثم يقدمه إلىٰ القضاء[3].

---

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٢) انظر جامع البيان، المجلد ١، ج١: ٧٣٥ / ١٥٨٧، ١٥٨٨.

(٣) المغني: ١١: ٤٤٤، جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ١٢٧ ـ ١٢٨.

ثم قال في المغني: وقد روي عن علي (كرم الله وجهه) أنه نزل به رجل، فقال له: «إنك خصم؟». قال: نعم. قال: «تحول عنا؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا تضيفوا أحد

وهو‎ﷺ يساوي أبسط الرعية في الثوب الذي يلبسه[١]، ويتحمّل من أُناس ليس لهم وزن[٢]. فلابد للإمام إذن من أن يحمل نفسية كبيرة وحلماً واسعاً.

كما أن الإمام يتعرض أيضاً إلىٰ الابتلاءات هو وعائلته، فهو يتعرّض إلىٰ الجرح أو القتل أو الإبادة لعائلته أو الشدائد التي لا حدود لها. فهذه هي التكاليف التي ابتلىٰ الله تعالىٰ بها إبراهيم‎ﷺ، فلما أتمّها ووفىٰ بها صار موضع المدح من القرآن الكريم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[٣].

الرأي الصواب من هذه الوجوه الثلاثة

وهذا هو المعنىٰ الضخم الذي جاءت الآية لتقريره، فهي نزلت لتبيّن لنا أن الإمام يجب أن يتحلّىٰ بالعدل والفضل والإحسان والصدق والحلم والعلم والشجاعة وصفات الكمال، كي يكون مؤهّلاً للإمامة، وإلّا فما معنىٰ أن الله يختبر إبراهيم‎ﷺ؟ فالإمامة ليست مجرّد جلوس علىٰ العرش دون النظر إلىٰ أحوال

الخصمين إلّا ومعه خصمه».

ثم قال: لأن ذلك يوهم الخصم ميل الحاكم إلى من أضافه، ولا يلقن أحدهما حجّته ولا ما فيه ضرر على خصمه.

المغني ١١: ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

(١) انظر: كشفة الغمة ١: ١٧٣، كشف اليقين: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٣٤ / ١٥.

(٢) وعلى ذلك شواهد كثيرة منها قول أحدهم له: لا أُصلي معك في عيد ولا في جمعة ولا في جماعة، ولا أخرج معك إلىٰ جهاد. فيقول له‎ﷺ: «وأنا لا أضيرك ما دام المسلمون منك في أمان».

أو ما في (الإصابة) في ترجمة سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب الجعفي حيث قال عنه: وقال ابن الكلبي: كان سلمان اعتزل القتال في الفتنة هو وقوم ارتابوا بالقتال، فأقاموا بالرقّة، فكان علي يرسل إليهم الأعطية ويقول: «لا نمنعكم حقّكم من الفيء لأنكم مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا». الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

وقد مرّا.

(٣) النجم: ٣٧.

الدنيا والرعيّة، وإلىٰ تحقّق العدل والصدق والخير فيها وإلّا فهي ليست إمامة. فالقرآن الكريم يريد أن يبين لنا في هذه الآية أعباء الإمامة.

إذن فما هو الداعي إلىٰ صرف الآية من هذا المعنىٰ الضخم إلىٰ أن المراد بها هو التكاليف من قص الشعر أو الاختتان أو السواك أو غيره؟ هذه محاولة غريبة، ويجب أن توضع عليها علامة استفهام. والغريب هنا أن هذا المعنىٰ ترويه المذاهب الإسلامية كافّة! خصوصاً أن هذا التفسير يوجد عند العباقرة من المفسرين.

ولكن أغلب الظن أن المفسّرين أحسنوا الظنّ بهذه الرواية، وهي مروية عن ابن عباس والراوي هو عكرمة[1] المعروف بالكذب[2].

---

(١) انظر جامع البيان، المجلد ١، ج١: ٧٣٠ / ١٥٧٧ ـ ١٥٧٩، تفسير القرآن العظيم ١: ١٧٠.

(٢) روى ابن قتيبة عن علي بن عبد الله بن عباس أنه قال عن عكرمة: إن هذا يكذب على أبي. المعارف: ٢٠١.

وقال ابن سعد: ليس يحتجّ بحديثه. الطبقات الكبرى ٥: ٢٩٣.

وذكر ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير: ٣٩ أن رجلاً سأل سعيد بن المسيب عن آيات من القرآن، فقال له: لا تسألني عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء! يعني عكرمة.

أما ابن حجر في مقدمة (فتح الباري) فقد ذكر كل ما قيل فيه من مدح وذم، ثم دفع جميع الطعون عليه وصحّح مدحه وعدالته، مع أن الصحيح كما نصّ ابن الصلاح أن الجرح مقدّم على كل حال. مقدمة ابن الصلاح: ١٩٤ ـ ١٩٢.

ومما نقل ابن حجر فيه أنه كان خفيف العقل. تهذيب التهذيب ٧: ٢٣٧.

وأن المسلمين قد نبذوه وجفوه، وقد توفي هو وكثير عزة في يوم واحد، فشهد الناس جنازة كثير ولم يشهدوا جنازته. تهذيب التهذيب ٧: ٢٤٠.

وأن ابن المسيب قال لمولاه برد: لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس. تهذيب التهذيب ٧: ٢٣٧ ـ ٢٣٨، وانظر ميزان الاعتدال ٣: ٩٣ ـ ٩٧، إكمال الكمال ١: ٢٥٥، تهذيب الكمال ٢٠: ٢٧٩.

ونقل الذهبي أن مالكاً ومسلماً تركاه. ميزان الاعتدال ٣: ٩٣.

المبحث الثاني: هل العامّة مؤهلون لانتخاب الخليفة؟

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾، وهذا أوضح في كون الكلمات هي أعباء الإمامة، حيث جاء هذا المعنىٰ بعد الكلمات مباشرة. وهـذا المعنىٰ يؤشر إلىٰ نصوص أُخرىٰ في القرآن، منها: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، ومنها: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[2]. وإذا رجعت إلىٰ نظريات القرآن في هذا المجال وجدتها جميعاً تدور حول التعيين والجعل، فالنظرية صريحة في الجعل والتعيين وليس الانتخاب، فالله ينصّ علىٰ الأنبياء، والأنبياء ينصّون علىٰ الائمة من بعدهم. وهكذا يبقىٰ الإمام منصوصاً عليه من قبل النبي ﷺ. يقول تعالىٰ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[3].

فإذا نصّ الله علىٰ الإمام فلا مجال للاختيار؛ لأن مـثل هـذه المسألة المـهمّة الخطيرة لا يمكن أن يذرها الله تعالىٰ لمن هم ليسوا أهلاً لها، ولا يمكن أن يُحَكِّم فيها العامّة التي نسميها الشعب. فالشعب رأي عام، والرأي العام قليل الإدراك لا يمكن أن يحدّد الإمامة والقيادة. وحتىٰ لو كان ذا ثقافة وإدراك فهو لا يدري ما بداخل الفرد المنتخب من الإيمان وغيره. فالرأي العام قد يقوده شيء بسيط، وقد يتأثّر بعاطفة، وقد يُشترىٰ بشيء ما، وهذه أمانة ضخمة لا توكل لهؤلاء العامة.

قاضي القضاة وقرطبة

وقد قرأت للكاتب خالد محمد ما أضحكني، فقد روىٰ هذا الكاتب أنه دعي القضاة في الأزهر في يوم من الأيام إلىٰ امتحان عام لغرض تعيين قاضي القضاة، وكان من جملة الأسئلة: عَرِّف قرطبة (وهي مدينة). فكتب أحد القضاة الممتحنين:

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) الأنبياء: ٧٣.

(٣) الأحزاب: ٣٦.

قرطبة علىٰ وزن فُعْلُلَة، امرأة صحابية تزوّجها رجل من التابعين في عهد النبي ﷺ فولدت له أولاداً صالحين. فكيف نترك انتخاب الإمام إلىٰ أمثال هؤلاء العامة إذا كان القاضي هذا مبلغ علمه؟

دليل الشورىٰ غير ناهض

والآيتان اللتان يستدلّون بهما علىٰ الانتخاب ليستا صالحتين للاستدلال، فالأُولىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1]، وقد نزلت في مدح الأنصار الذين كانوا يتشاورون في حلّ مشاكلهم[2].

والثانية: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[3]، فالبعض يقول: إن هذه المشاورة هي لاستجلاب مودّتهم لا لحاجة إلىٰ رأيهم؛ لأنه مسدّد بالوحي[4]، فليس فيهما دليل ناهض. ولا أُريد هنا مناقشة هذه الآراء التي ترد حتىٰ عند الشيعة في حال عدم وجود الإمام، فلابد من وجود الأفضل من حملة العلم الذي يرشحه الجوّ العلمي من الأُمّة.

إشكال حول نظرية الشورىٰ

ولو سلمنا علىٰ فرض المحال أن نظرية الانتخاب موجودة، فهذا الانتخاب متىٰ حدث في الأُمّة؟ إذا قلنا: إن الخلافة شورىٰ وانتخاب، فمعنىٰ ذلك أن خلافة الخليفة الثاني ليست صحيحة؛ لأنها حصلت بتعيين من الخليفة الأوّل. وكذلك خلافة الخليفة الثالث غير صحيحة لأنه لم ينتخبه إلّا ثلاثة. فأين الانتخاب؟ ومتىٰ تم؟ وعندما نسأل عمّن ينتخب الإمام يقال: إنهم أهل الحل والعقد. ونسأل عن عددهم فيقال: اثنان بل حتىٰ واحد. فهل هذا انتخاب؟ إنه سخافة في مقابل رأي

---

(١) الشورىٰ: ٣٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٣٦.

(٣) آل عمران: ١٥٩.

(٤) فتح القدير ١: ٣٩٣.

الإسلام الصريح الذي يقول ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾. فالله ينصّ على النبيّ، والنبيّ ينصّ على الوصيّ، وإلى هنا لا نقاش في نظرية النص.

المبحث الثالث: صفات الإمام

ثم طلب إبراهيم من الله أن يؤهّل ذرّيته إلى حمل الإمامة: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، فجاءه الجواب أن الإمامة لا تنتهي إلى ظالم: ﴿قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. فالإمامة لا تنال الظالم؛ لأن من أول شروط الإمامة العدل.

دخل جماعة من الصوفية يوماً على الإمام الرضا﴿ع﴾، فوجدوه جالساً على فراش نظيف، وكان يتكئ على وسادة وعليه ملابس رقيقة وثمينة، فقال له أحدهم: جدك رسول الله﴿ص﴾ ما شبع من خبز الشعير، وأبوك كان يلبس الكراديس الغليظة ويأكل الطعام الجشب، وأنت تجلس على هذه المرقّقات وتلبس الملابس الناعمة؟ فاستوى الإمام جالساً، ثم قال: «أما علمت أن يوسف﴿ع﴾ نبي ابن نبي كان يلبس أقبية الديباج مزرورة بالذهب، ويجلس في مجالس آل فرعون يحكم، فلم يحتجِ الناس إلى لباسه وإنما احتاجوا إلى قسطه. وإنما يُحتاج من الإمام في أن إذا قال صدق، وإذا وعد أنجز، وإذا حكم عدل، إن الله لا يحرّم طعاماً ولا شراباً من حلال وإنما حرّم الحرام قلّ أو كثر، وقد قال الله عزّ وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[1]»[2].

فالنبي﴿ص﴾ والإمام﴿ع﴾ كانا في وقت عسر.

وإذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن يرى أثر نعمته عليه. يقول الإمام الصادق﴿ع﴾: «إن الله جميل يحب الجمال، البس وتجمّل وليكن ذلك من حلال».

وإذا كان العدل هو المطلب الأوّل من الإمام، فالظالم لا يكون إماماً؛ لأنه

---

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) الكافي ٦: ٤٥٤.

لا عدل عنده ولا صلاح فيه ولا تقوىٰ. ومعنىٰ ذلك أن الإمامة لا تصل إلىٰ الظالم شرعاً، وإلّا فهي الواقع قد وصل الظالمون إليها وسيطروا على الحكم، وقد وصل الأمر بالوليد ـ كما يذكر الدميري في (حياة الحيوان) ـ أنه فجر يوماً بجارية، ثم أخرجها وهي نجسة متنكّرة بلبس العمامة، وأنزلها الفجر لتصلي بالمسلمين. ومع ذلك يسميه التأريخ: الخليفة الوليد ويثني عليه ويحترمه؛ لأنه أصلح مسجداً بأموال نهبها من الناس.

ونذكر هنا التفاتة جميلة لقتادة نقلها عنه القرطبي في تفسيره وهي أنه قال: «وصل الظالمون إلىٰ الحكم وعاشوا وأكلوا وتمتعوا»[1].

ولا زال البعض يتباكىٰ علىٰ الخلافة العثمانية، ويعتبرها إسلامية، مع أن خلفاءهم لا يختلفون عمّن سبقهم من العباسيين والترك والأُمويّين وغيرهم، هؤلاء الذين نهبوا المسلمين واستعبدوهم[2]، وحولوا قصورهم إلىٰ بؤر للانحطاط والرذيلة، والذين وصل سفك الدماء في أيامهم إلىٰ ما لا يمكن للإنسان أن يتصوّره.

فالإمامة شرعاً لا تصل إلىٰ الظالم، أما مقاييس الدنيا وواقعها فشيء آخر، فقد تجد من لا يعقل أي طرفيه أطول يسبح بالأموال، وقد تجد من مُلئ علماً لكنه لا طمع له في الرغيف. وقد رأيت أحد العلماء الأزهريين، وهو الشيخ علي الخفيفﷺ ـ وكان أحد الأساتذة الذين أشرفوا علىٰ رسالتي في جامعة بغداد ـ رأيته لمّا مات لم يحضر جنازته سوىٰ عدد قليل لا يتجاوز المئتين والخمسين، ومات أحد المغنيين ـ وكنت آنذاك في القاهرة ـ فخرج وراءه أكثر من مليون. هذه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢: ١٠٨.

(٢) قال ابن أبي الحديد: وكانت بنو أُميّة تختم في أعناق المسلمين كما توسم الخيل؛ علامة لاستعبادهم. شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

هي مقاييس الدنيا التي لا مقاييس فيها لولا الشريعة.

القرطبي يدعم خروج الحسين ﷺ علىٰ يزيد

فالإمامة في الواقع كما ينقل القرطبي في تفسيره عن قتادة وصلت إلىٰ الظالم، وذلك بالخديعة والغشّ والحيلة[1] والخروج على الإمام الحقّ. ثم قال القرطبي بعد ذكر قول قتادة المارّ: «ولذا خرج الحسين ﷺ وعبدالله بن الزبير علىٰ يزيد لأنه فاسق»[2].

وجزىٰ الله هذا المفسّر خيراً علىٰ هذا، فهو علىٰ الأقلّ لم يقل: قتل الإمام الحسين بسيف جدّه كما يقول المفسر ابن عربي[3].

لكن القرطبي مع إيمانه بكونه فاسقاً يعود فيقول: «لكن الأولىٰ كان عدم الخروج؛ لأن في الخروج سفك الدم واستبدال الأمن بالخوف، فيكون الصبر علىٰ الظلم أفضل»[4].

ويخالف المعتزلة والخوارج في هذا الرأي، وقد أخذ المعتزلة هذا الرأي من الإمامية؛ لأن المعتزلة متأخرون عن الإمامية، فالرأي في وجوب الخروج علىٰ الظالم هو للإمامية لا للمعتزلة. وهذه الغلطة تتكرر عند الكتّاب دائماً فيتصوّرون أن الإمامية أخذوا آراءهم من المعتزلة، لكن الحال بالعكس فالمعتزلة متأخّرون عقوداً من السنين عن الإمامية.

---

(١) قال مولانا أمير المؤمنين ﷺ: «والله ما معاويةُ بأدهَىٰ منّي، ولكنّهُ يغدرُ ويفجرُ، ولولا كراهية الغَدر لكنت من أدهَىٰ النّاس». نهج البلاغة / الكلام: ٢٠٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢: ١٠٩.

(٣) انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣. وقد مرّ في ج٢ ص٦٣، من كتابنا هذا، وص٢١ ـ ٢٢ من هذا الجزء.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢: ١٠٩.

الحسين‌عليه السلام يبرر تعجله الخروج

وقد أشار الإمام الحسين‌عليه السلام إلىٰ هذا الموقف لمّا خرج يوم التروية من مكة المكرمة، فقال له الفرزدق: القلوب معك والسيوف عليك. قال‌عليه السلام: **«صدق والله أخو تميم»**. ثم قال: **«إن نزل القضاء بما نحبّ فله الحمد علىٰ آلائه ونعمائه، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يبعد من كان الحق سيرته والتقوىٰ سريرته»**. فقال له الفرزدق: ما أعجلك علىٰ الخروج في هذا الوقت؟ قال: **«لو لم أُعجّل لأخذت»**[1].

فكأنه‌عليه السلام يقول له: إن بني أُميّة طلبوا دمي، والله أمرني بحفظ النفس حتىٰ أصل المكان الذي أرىٰ فيه أن التضحية واجبة. وقد كان ذلك، فأقدم علىٰ التضحية.

وكان‌عليه السلام يعرف ذلك سلفاً، فقد قال: **«والله لا يدعوني حتىٰ يستخرجوا هذه العُلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من فرام[2] المرأة»**[3].

وأراد الإمام الحسين‌عليه السلام تجسيد الموقف أمامهم لمّا خطبهم في اليوم العاشر فقال: **«تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً، أحين استصرختمونا ولهين، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، واحتطبتم علينا ناراً اقتدحناها لعدوّنا وعدوكم، فكنتم بذلك ألباً لأعدائكم علىٰ أوليائكم من غير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم؟ فهلا ـ لكم الويلات ـ تركتمونا والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لما يستحصف! ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا، وتداعيتم عليها**

---

(١) مثير الأحزان: ٢٨. وفيها قال أيضاً: «إن أبي حدّثني أن بها كبشاً يستحلّ حرمتها، فما أُحبّ أن أكون ذلك الكبش». شجرة طوبى ١: ١٢٥، تاريخ الطبري ٤: ٢٨٩، البداية والنهاية ٨: ١٧٩، مقتل الحسين‌عليه السلام (أبو مخنف): ٦٦.

(٢) فرام المرأة: خرقة الحيض. لسان العرب ١٢: ٤٥١ ـ فرم.

(٣) الكامل في التاريخ ٣: ٤٠١، لواعج الأشجان: ٧٢.

كتهافت الفراش، فسحقاً لكم يا عبيد الأمّة وشذّاذ الأحزاب ونبذة الكتاب، أعنا تتخاذلون، وهؤلاء تنصرون؟ أجل والله غدر قديم وشجت عليه أُصولكم، وتآزرت عليه فروعكم، فكنتم بذلك أخبث ثمرة؛ شجىً للناظر وأكلة للغاصب. ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلة، وهيهات منّا مأخذ الذلّة يأبىٰ الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت ونفوس أبية وأُنوف حمية من أن نؤثر طاعة اللئام علىٰ مصارع الكرام». ثم رمق السماء بطرفه وقال: «اللهم إني زاحف بهذه الأسرة علىٰ قلّة العدد وخذلان الناصر». وتمثل بأبيات فروة بن مسيك المرادي:

«فإن نهزِم فهزّامون قدماً ... وان نُهزم فغير مُهزّمينا
وما إن طبنا جُبن ولكن ... منايانا ودولةُ آخرينا
إذا ما الموتُ رفّع عن أناس ... كلاكِلَهُ أناخ بآخرينا
فأفنىٰ ذلكم سَرَواتِ قومي ... كما أفنىٰ القُرونَ الأوّلينا
فقُل للشامتين بنا أفيقُوا ... سَيلقىٰ الشامِتُونَ كَما لَقِينا»[1]

ثم رجع، حتىٰ إذا كان آخر الأمر تلفّت في المخيم حوله فوجده خالياً، وخرجت إليه طفلة من أبناء عبد الرحمن بن عقيل فتمسّكت بطرف ثوبه، وقالت: إن أبي وعمي بكّرا إلىٰ الماء وقد وعداني أن يأتياني به وإلىٰ الآن لم يرجعا، وإن العطش فتت قلبي. قال ﷺ: «بنية وأين الماء وقد حيل بيننا وبينه»؟ قالت: عم إن كنت لا تقدر علىٰ جلب الماء خذني إلىٰ القوم واعرضني عليهم لعلهم يرقّون لحالي. قال: «نعم، ولكن إذا أخذتك من يردك؟» ثم صاح لأخته زينب ﷺ:

(١) الاحتجاج ٢: ٢٥، بحار الأنوار ٤٥: ٨٣.

«خذيها لقد أحرقت قلبي».

أقول له: يا أبا الشهداء، صبية واحدة أخذت منك كلّ هذا الأثر، فما حالك لو رأيت أُختك ظهيرة عاشوراء، يوم خرجت وقد تعلّق بثوبها أكثر من عشرين صبياً وصبية يسألونها عن آبائهم وإخوانهم وأعمامهم، وهي تجول ما بين اليتامىٰ؟

كم حرة لما أحاط بها العدى　　　برزت تُخفّ العذوَ وهي وقورُ[1]

(١) وفيات الأيمّة عليهم السلام: ١٥٩.



﴿ ٥١ ﴾

من عيون المواعظ

من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام قاله لرجل سأله أن يعظه:

«لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل، ويرجئ التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أُعطي منها لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع. يعجز عن شكر ما أُوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، ينهىٰ ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي. يحبّ الصالحين ولا يعمل عملهم، ويبغض المذنبين وهو أحدهم... إن عرضت له شهوة أسلف المعصية وسوَّف التوبة، وإن عرته محنة انفرج عن شرائط الملّة»[1].

المباحث العامة للموضوع

مغالطات في حياة الإنسان

في هذه المقاطع دراسة دقيقة لخلجات الإنسان، فالإنسان يعيش متناقضات يشعر بها، ولكن حبّه لنفسه يغطّي عليها، ولا يتركه يندفع لإصلاحها. فنحن نلاحظ أن الإنسان إذا رأىٰ خطأ من غيره يبادر إلىٰ نقده، لكنه لا ينقد نفسه مع علمه أنه

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٥٠. قال ابن أبي الحديد: انفرج عن شرائط الملّة: فعل ما يقتضي الخروج عن الدين. شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٥٩.

ارتكب الخطأ. ومن هذه المتناقضات أو المغالطات:

المبحث الأول: أنه يرجو الآخرة بغير عمل

يقول أمير المؤمنين: «**لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل**»، ووجه المغالطة في الموضوع أن من البديهيات أن الإنسان في حياته لا يستطيع أخذ شيء أو إعطاءه من دون ثمن؛ مادياً كان أو معنوياً، لكنه يريد من الله تعالىٰ أن يمنحه الجنة دون عمل أو مقابل. فعندما يطلب أحدنا من الله أن يمنحه الجنة والرضوان، فهل قدّم مقابل ذلك شيئاً أو لا؟ فكيف يحصل الإنسان من الله علىٰ شيء لم يدفع ثمنه؟

أقسام النعمة

قد يقول قائل: إن الله كريم، والكريم يعطي بدون عوض. وهذا الكلام صحيح، فالله يعطي بلا عِوض لكنه طلب منا بعض الأشياء بعِوَض. فالنعم يقسمها الفلاسفة الإلهيون إلىٰ ثلاثة أقسام: نعمة الابتداء، ونعمة الجزاء، ونعمة التفضل.

أما نعمة الابـتداء فنحو نعمة الوجود، فالإنسان ليس له سابق فضل علىٰ الله، فأراد الله أن يكافئه فأوجده من العدم. وقد كان من الممكن لنا جميعاً أن نبقىٰ في العدم الأزليّ لولا النعمة التي ابتدأنا الله بها بالخلق والإيجاد.

وأما نعمة العِوض والجزاء فهي التي بيّنها الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. والهدف من نعمة العِوض هو حفظ المقاييس؛ ذلك أنني، إذا أخذت من الله بلا عوض فقد يأتي من يقول: أنا أيضاً يحقّ لي أن آخذ في الدنيا بلا عوض، وهنا تختلّ المقاييس. فالله يريد أن يعلمنا أن العمل له جزاء، وأن الجزاء لابدّ له من عمل. وهذه النعمة يتساوىٰ فيها الجميع.

وقد يقول قائل: إذا كان ذلك جزاء، فكيف يصحّ أن نسميه نعمة؟

---

(١) يس: ٥٤.

والجواب أن فائدة العمل تعود علينا نحن، ولا تعود علىٰ الله، فالصدقة مثلاً تعود بالنفع علىٰ النوع الإنساني كلّه ولا يلحق الله منها شيئاً.

أما النوع الثالث من أنواع النعم فهو نعمة التفضّل، وهي كلّ ما زاد من الجزاء علىٰ جنس العمل. فنحن نعرف أن كلّ عمل يستحقّ جزاء معيناً، لكن الله تعالىٰ لا يعطي مقابل العمل مثلاً بمثل، وإنما يعطي بتفضّل. انظر لو أن الله ابتلىٰ إنساناً بفقد عزيز ـ لا سمح الله ـ فما هو الجزاء المتصوّر عن هذه المصيبة؟ إن كان ذلك بلا جزاء فهو ظلم، وان كان بقدر المصيبة فهو عبث، والله منزه عن العبث. فلابد إذن من كون الجزاء أفضل؛ فتكون هذه النعمة نعمة تفضّل.

فالمغالطة التي يسلط أمير المؤمنين عليه السلام الضوء عليها في سلوك الإنسان أنه يرجو الآخرة بلا عمل، مع علمه أن كلّ أعماله اليوميّة التي يقوم بها لا يمكن أن تكون بلا عوض.

المبحث الثاني: أنه طويل الأمل مع علمه بقضاء الله

ثم قال عليه السلام: «**ويرجئ التوبة بطول الأمل**»، والإرجاء هو التأخير، فهو يعرف أن عنده أعمالاً كثيرة، وذنوباً عديدة لكنه يؤخر التوبة اعتماداً علىٰ طول الأمل. وهذا العمل قد يكون سليماً إذا كان عند الإنسان وثوق بأنه سوف يعيش. لكن هل هناك من هو واثق ومتيقّن بأنه يعيش ولو لدقائق؟ إن النفَس قد يصعد ثم لا ينزل. فإذا كان الإنسان لا يملك شيئاً من الأمل فلماذا يؤخر التوبة إذن؟ يقول أبو العتاهية:

يا أيُّهذا الذي قد غره الأملُ ... ودون ما يأملُ التنغيص والأجلُ

ألا ترىٰ إنما الدنيا وساكنها ... كمنزل الركب حلّوا ثمت ارتحلوا

حتُوفُها رَصَدٌ وعيشُها نكد ... وصفوها كدر وملكها دولُ

تظل تقرع بالروعات ساكنها ... فلا يطيبُ له لينٌ ولا جَذَلُ

النفس هاربة والموت يتبعها ... وكلّ عثرة رِجْل عندها زللُ

والمرءُ يسعىٰ لما يبقىٰ لوارثه ... والقبرُ وارثُ ما يسعىٰ له الرجلُ[1]

وقد يرد في ذهنك سؤال: لماذا يفتح الشارع الإسلامي الباب في معاملاته التجارية لعقود طويلة الأجل، كعقد الإجارة لعشر سنين، أو مداينات لوقت طويل، أو غير ذلك؟

والجواب هو أن الله تعالىٰ سمح بذلك لكي ينتظم الكون، فلو نظّم الإنسان كلّ شؤونه علىٰ أساس أنه سيموت بعد دقيقة، فالدنيا لن تستقيم. فالكون يبقىٰ مستمرّاً والمجتمع يبقىٰ وإن مات الأفراد، والله تعالىٰ استخلف الإنسان في الدنيا لكي يعمر الحياة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرىٰ فالإنسان إن كان بلا أمل فإنه يعيش في جحيم، فالأمل هو النافذة التي يخرج منها الكبت النفسي، ولولاها لمات الإنسان كمداً. فالفقير يأمل أن يكون غنياً، والمظلوم يأمل أن يكون منتصراً وهكذا، يقول الطغرائي:

أُعَلِّلُ النَّفسَ بالآمالِ ارقبها ... ما أضيقَ العيشَ لولا فُسحةُ الأمَلِ[2]

ولكن هذا الأمل ينبغي أن يبقىٰ في حدود المعقول، فإن خرج عن تلك الحدود تحول إلىٰ كارثة ومصيبة. فهناك من تراه في تصرّفاته كلّها وكأن الآخرة لم تمرّ بحساباته أبداً، فترىٰ الإنسان مسروراً في الحياة ولا يدري ما تدّخر له الأقدار، وإذا كان كذلك فعليه أن يعرف أن للأمل حدوداً معقولة.

---

(١) أمثال الحديث (ابن خلّاد): ٥٨، ونقل الأبيات الثلاثة الأُول، تاريخ مدينة دمشق ٣٢: ٣٢١.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩: ٤٥٤، الكنىٰ والألقاب ٢: ٤٥٠.

المبحث الثالث: أنه يقول ما لا يفعل

ثم قال ﷺ: «**يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين**»، وهذه هي المغالطة الثالثة في سلوك الإنسان، فإنك إن استمعت إلىٰ قوله ظننته واعياً زاهداً، لكنك لو لاحظت سلوكه وجدته يصارع صراع المستميت علىٰ الدنيا، وهذه هي الازدواجية بعينها. صحيح أن الإنسان يحتاج الكثير في الدنيا، ولكن إذا خرج الأمر عن حدّ المعقول أصبح كارثة. مرّ أحدهم يوماً علىٰ بيت الوزير ابن مقلة ـ وكان ابن مقلة لا يتورّع عن أخذ أموال الناس ـ فكتب علىٰ باب البيت:

قل لابنِ مُقلةَ مهلاً لا تكن عَجِلاً	فإنما أنت في أضغاث أحلامِ
تبني بأنقاضِ دورِ النّاسِ مُجتَهِداً	داراً ستُنقَضُ حتماً بعد أيّامِ[1]

وجيء يوماً بأُم جعفر بن يحيىٰ فأُدخلت علىٰ الرشيد، وذلك بعد نكبة البرامكة، فقال لها الرشيد: ألم أهدم دوركم؟ ألم أُيتّم أولادكم؟ ألم آخذ أموالكم؟ فقالت له: أما الدار التي هدمتها فستُهدم دارك. وأما المال الذي أخذته فستُؤخذ أموالك. وأما الأُمهات اللواتي أثكلتهن بأبنائهن فستثكل بولدك[2]. وقد حصل للرشيد ذلك فعلاً، فقد جاء المأمون ابنه فهدم دورَه، وأُخذت أمواله كلها، ولم يحصل في المكان الذي كان فيه حتىٰ علىٰ قبر، فدفن في خراسان. يقول دعبل بن علي الخزاعي:

أربع بطوس علىٰ قبرِ الزَّكيِّ إذا	ما كنتَ تَربعُ من دَينٍ علىٰ وطرِ
قبران في طوس خير النّاس كلِّهُمُ	وقبرُ شَرِّهُمُ هذا من العِبَرِ
ما ينفعُ الرِّجسَ من قُربِ الزَّكي وما	علىٰ الزكيِّ بقربِ الرِّجسِ من ضَرَرِ

---

(١) البيتان لابن بسّام. شرح نهج البلاغة ١٩: ٧٢، سير أعلام النبلاء ١٥: ٢٢٨.
(٢) لم نعثر عليه، وقد نقل حديث دخولها عليه ابن قتيبة. انظر الإمامة والسياسة ٢: ١٦٩.

هيهات كلُّ امرئ رهنٌ بما كسبت له يداه فخُذ ما شئتَ أو فَذَرِ[1]

أما ابنه الأمين وهو أعز ولده فقد قتله أخوه المأمون، وحصل كلّ ما وعدته به أُم جعفر بن يحيى البرمكي.

وفي الواقع إن الكثير من الظلمة يعرفون كلّ هذا، ويعرفون أنهم سوف يموتون وينتهي كل شيء، لكن أنفسهم لا تساوي شيئاً عندهم لأنهم وضعاء، فلا يهمهم أن يحرقوا الدنيا، ولو عرفوا أنهم ذاهبون عنها. ولو شعر الإنسان بقيمته لما اعتدىٰ علىٰ الناس، ولا يعتدي إلّا من يشعر بأنه منحطّ ووضيع، والله تعالىٰ لا يترك المعتدي، وهو له بالمرصاد.

فالإمام إذن يسلّط الضوء علىٰ هؤلاء الذين يقولون في الدنيا بقول الزاهدين ويعملون فيها بعمل الراغبين. وقد نعىٰ القرآن علىٰ هؤلاء هذا السلوك المزدوج فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾**[2]. ولذلك كان أمير المؤمنين﴿ع﴾ يصعد المنبر فيقول: «إني لأرفع نفسي عن أن أنهىٰ الناس عمّا لست عنه أنتهي، أو آمرهم بما لا أسبقهم إليه بعملي، أو أرضىٰ منهم بما لا يرضىٰ ربي»[3].

والباحث عندما يمرّ بعلي﴿ع﴾ يجده منبعاً ثرّاً ضخماً من المواعظ، ولا يجد أنه ناقضَ كلّ هذه المواعظ بسلوكه العملي أبداً. فهو﴿ع﴾ أمر الناس بالعدل وكان هو سيد العادلين، وأمر الناس بالجود وكان علىٰ رأس المعطين، وأمرهم بالاستقامة ولم ينحرف هو عن الاستقامة. ولم يتّهمه حتىٰ أعداؤه بالانحراف. فلم يكن مزدوجاً في سلوكه وأعماله. وكذلك سيرة أهل البيت﴿عهم﴾ من ولده، فقد كانوا لا

---

(١) عيون أخبار الرضا﴿ع﴾ ١: ٢٨١، تاريخ مدينة دمشق ١٧: ٢٦٠ ـ ٢٦١.
(٢) الصف: ٢ ـ ٣.
(٣) عيون المواعظ والحكم: ١٧٠.

يقولون شيئاً حتى يطبقوه علىٰ أنفسهم أولاً. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ومعلم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم»[١]. فمن الناس من يعلّمهم بلسانه، ولكن لا يبدو علىٰ سيرته الهدىٰ.

كان الهذليّ أديباً كبيراً ونديماً من ندمان المنصور، وكان عنده يوماً في المدينة المنوّرة فقال له المنصور: لقد طال عهدي بالمدينة، فهل لك أن نخرج نتجول فيها؟ قال: بلىٰ، نخرج. فخرجا إلىٰ أن مرّا علىٰ دار مبنية بناء ضخماً لفتت نظر المنصور، فالتفت إليه الهذلي قائلاً: أصلح الله الخليفة، تعرف لمن هذه الدار؟ قال: لا، قال: هذه لعاتكة التي يقول فيها الشاعر:

يـا دارَ عـاتكةَ التـي أتـغَزَّلُ ... خوفَ العِدىٰ وبها الفؤاد مُوَكَّلُ

إنّـي لأمـنحُكَ الصُّـدودَ وإنّـني ... قسماً إليكَ مـع الصُّـدود لأمْـيَلُ

فاستحسن المنصور البيتين، ثم رجعا. فلما كان الليل راح المنصور يفكّر بهذين البيتين، فالهذليّ من ندماء الملوك، وهو رجل علىٰ علم وذكاء كبيرين؛ لذا راح يسأل نفسه عن سبب استشهاده بالبيتين، فبعث وراء جمع من الأُدباء، وسأل عمّن يحفظ هذه القصيدة اللامية، فوجد من يحفظها، فقرأها له حتىٰ وصل إلى هذا البيت:

وأراكَ تفعلُ ما تقولُ وبـعضُهُم ... مَذِقُ اللسانِ يـقولُ مـا لا يَـفعَلُ

فتذكّر المنصور أنه وعد الهذلي بدار وجارية وأموال، فأعطاه ما وعده به[٢].

وموضع الشاهد هنا أن الإنسان ينبغي أن يقول الشيء ثم يفعله. ومن العيب أن

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٧٣.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٤٠، وذكر أن القصة مع عمر بن عبد العزيز.

يأمر الناس بشيء لا يطبقه على نفسه، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1].

المبحث الرابع: أنه يُقبل على الدنيا ويطلب خلود الذكر

ثم قال ﷺ: «إن أُعطي منها لم يشبع، وإن منع عنها لم يقنع»، فالإنسان مهما أُعطي منها لا يشبع، فهو يدّعي مثلاً أنه يسعى لتحقيق الحدّ الأدنى من المعيشة، أو يؤمن مستقبله، لكنه يؤمن مستقبله ومستقبل أجيال من بعده، ويلاحق الفقير على رغيفه ولا يقف عند حد.

يقول الاقتصاديون: إن الرغبة تدخل في تحديد قيمة السلعة، فلو كنت مثلاً لا تملك سجادة في بيتك وترغب في شرائها، فإنك ستشتريها، لكنك بعد فترة تحس أنك أشبعت هذه الرغبة، فعندما تشتري السجادة الثانية تقلّ الرغبة، وفي السجادة الثالثة تقل أكثر وهكذا إلى أن تنعدم الرغبة تقريباً.

فينبغي ـ بناء على ذلك ـ أن تقلّ الرغبة عند الإنسان إذا حصل على الأموال الزائدة، لكننا نلاحظ أن ذلك يختلف عنده، فلو كانت عنده رغبة في تحصيل المئة الأُولى فإن هذه الرغبة تصعد إلى العشرين مثلاً في تحصيل المئة الثانية. وكلّما ازداد طلباً للدنيا ازداد تمسكاً بها[2]، مع أن حقيقة حاله أنه أشبه بدودة القز التي تخرج الحرير من بطنها وتتصوّر أنها سوف تجوع، فتلفُّ الحرير على رجليها ليكون قريباً منها فتأكل منه متى جاعت، وتبقى تلفُّه حتى تسجن نفسها بداخله ثمّ تقتل وتعطي ما تلفُّه لغيرها. والإنسان هكذا يكدّ ويكدح بدافع الازدياد ثم يموت فيطيل النظر إلى ما تركه، ولا يخرج منه بشيء.

---

(١) البقرة: ٤٤.

(٢) قال رسول الله ﷺ: لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب. مسند أحمد ٣: ١٩٢.

وهذه حقيقة مرّة، ولو خرج الإنسان إلىٰ المقبرة وسأل أهلها: هل حصلتم من الدنيا علىٰ شيء؟ فسوف يعرف الجواب هناك. وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يخرج إلىٰ الجبّانة ـ وهي هذه المقبرة القائمة حالياً في ظاهر الكوفة، وقد كانت قائمة قبل زمان أمير المؤمنين عليه السلام بمئات السنين؛ لأن هذه المنطقة قديمة وكانت مأهولة ـ فيطيل النظر ويقول: «يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق. أمّا الدور فقد سكنت، وأمّا الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قسمت. هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟»[1].

ورحم الله الشريف الرضي حيث يقول:

ما أقلَّ اعتبارَنا بالزمان	وأشدَّ اغترارَنا بالأماني
كلّ يوم رزيةٌ بفلان	أو وقوعٌ من الرّدى بفُلانِ
كم تَراني أضلُّ نفساً وألهو	فكأني وثِقتُ بالوجدانِ
قل لهذي الهَواملُ استَوقفي السيـ	ـر أوِ استنشدي عن الأعطانِ[2]
واستقيمي قد ضمّك اللقم النهـ	ـج وغنىٰ وراءك الحاديانِ[3]
قد مررنا علىٰ الديارِ خُشوعاً	ونظرنا البِنا فأينَ الباني
وعرفنا الرُّبوعَ حين مَررنا	فذكرنا الأوطارَ بالأوطانِ[4]

يُذكر أن قائد العبّاسيين لاحق مروان بن محمد إلىٰ بوصيرىٰ في مصر فقتله وقعد علىٰ فراشه، وطلب أن يؤتىٰ بابنته الكبرىٰ، فجاءت مختنقة بعبرتها، ثم قالت

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٠.
(٢) الهوامل: جمع هامل، وهو الهاطل، أو العين التي تسكب ماءها. الصحاح ٥: ١٨٥٤ ـ همل.
(٣) اللقم: وسط الطريق. الصحاح ٥: ٢٠٣١ ـ لقم.
(٤) الأبيات للرضي رحمه الله. شرح نهج البلاغة ١١: ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

له: إن دهراً أنزل مروان عن عرشه وأجلسك عليه لدهر سوء[1].

إن الدور الوحيدة التي لا تُسكن بعدنا هي تلك القلوب التي يملؤها الإنسان حبّاً وعطاء، وتلك الأيدي التي يحسن إليها، ودونك أهل البيت﵈ الذين عمروا البيوت في قلوب الناس، فليست عظمتهم في هذا الذهب الذي نراه علىٰ قببهم، وإنما فيما عمروه في الدنيا، وهو أن يكونوا فكرة في رؤوس الأحرار، فقد كان الذي يريده الإمام الحسين﵇ هو أن يحل قلوب الناس، يقول أحد الأدباء:

أيا كربلا يا هديرَ الجِراح	وزهوَ الدَّمِ العَلويِّ الأبي
ويا ألَقاً في ثنايا الخُلُود	يمرُّ الخُلودُ مدىٰ الأرحبِ
ويا صرحَ مجدٍ بناهُ الحُسين	وأبدعَ في رصفِهِ المُعجِبِ
يُشَيَّدُ من جبهةٍ أُدمِيَت	وخَدٍّ بِعَفرِ الثَّرىٰ مُتربِ

هذا هو العرش الذي بناه الإمام الحسين﵇ من دماء الأحرار وفي قلوب الأحرار. فليست قيمة الإمام الحسين أو علي﵉ في القبة، ولو كانت القيمة في القبة لكان الإمام الصادق﵇ وغيره من أيمّة البقيع﵈ لا قيمة لهم؛ لأنهم ليس علىٰ قبورهم سوىٰ التراب، لكن الواقع خلاف هذا.

المبحث الخامس: أنه يحاسب غيره ولا يحاسب نفسه

ثم قال﵇: «ينهىٰ ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي»، فهو مثلاً يقيم الحدّ علىٰ الناس ولا يقيمه علىٰ نفسه، فكان الحكام يقيمون الحد علىٰ شارب الخمرة، ولكن إذا جنّهم الليل ثملوا منها حتىٰ الصباح. جيء للرشيد يوماً بكتاب وشاية، قيل له فيه: إن الفضل بن يحيىٰ يجمع الندمان في الليل ويشرب الخمرة. فاستدعىٰ الرشيد

---

(١) شرح نهج البلاغة ٧: ١٣٠، ١٨: ٣٦٥.

أباه يحيىٰ البرمكي وحذره وأطلعه علىٰ الكتاب، فقال يحيىٰ: أصلح الله الخليفة، أنا سوف أُصلحه. فكتب لابنه:

انصب نهاراً في طلابِ العلا	واصبر علىٰ فقدِ لقاءِ الحبيبْ
حتىٰ إذا الليلُ بدا مقبلاً	واكتحلت بالغمض عين الرقيبْ
فبادرِ الليلَ بما تشتهي	فإنما الليل نهارُ الأريبْ

ولم يقم الحد علىٰ هذا؛ لأنه من أعوان الخليفة، ولو كان غيره لعوقب أشد العقوبة.

المبحث السادس: أنه يحب الخير ولا يفعله ويكره الشرّ وهو يقربه

ثم قال عليه السلام: **«يحب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويكره المذنبين وهو أحدهم»**، فهو يحب الصالحين، ويتبرّك بقبورهم، ويزور قبر عليّ عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله، ويعرف أن النبي صلى الله عليه وآله كان مثال الرحمة لكنه لا يتأسّىٰ بأخلاقه، فلا يفهم من الزيارة إلّا النفع المادّي وهو الخلاص من النار ودخول الجنة. وهذا هو المعنىٰ الذي أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: **«إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكنني وجدت أهلاً للعبادة فعبدتك»**[1].

وقد وجدت من ينتقد كلمة علي عليه السلام هذه وهو لا يعرف معناها؛ لأنه لا يعرف علياً عليه السلام، فليس معنىٰ ذلك أن علياً عليه السلام لم يكن يخاف من النار، فقد كان إذا جنّ عليه الليل يرفع يديه حتىٰ الصباح حيال رأسه وهو يقول: **«آهٍ آهٍ من نار نزاعة للشوىٰ، آهٍ آهٍ من نار تنضج الأكباد والكلىٰ، آهٍ آهٍ من غمرة من غمرات لظىٰ»**[2]. لكنه يريد أن يقول: إن الله أكبر من أن يُعبد للخوف والرجاء، وإنما يجب أن يعبد؛ لأنه

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٢٠، ٢: ١١ / ١٨. (٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨٩.

يستحقّ العبادة، وهذه عبادة الأحرار[1]. فأنت عندما تقف في الصلاة وتقول في النية: أُصلي ليعطيني الله الجنة أو يمنعني من النار، فصلاتك باطلة، بل يشترط أن تقول: قربة إلىٰ الله، فهل معنىٰ ذلك أنك لا تخشىٰ من النار أو لا ترجو الجنة؟

فالعبادة هي ما كانت بدافع القربة إلىٰ الله، وابتغاء وجهه الكريم، وهذا هو الذي يريده أمير المؤمنين من حديثه الآنف، وهو عينه ما صنعه الإمام الحسين يوم العاشر من المحرم عندما وقف يقدّم القرابين واحداً تلو الآخر، بعد أن قال لأصحابه: «هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً... الطريق غير خطير، والليل ستير، والوقت غير هجير، وأنتم في حلّ من بيعتي. إن القوم يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي»[2]. حتىٰ إذا ما أبوا ذلك راح يقدّم الأضاحي، وكان يمرّ علىٰ تلك الأضاحي فيقول: «اللهم إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ، لك العتبىٰ يا رب، حسبي رضاك».

وبما شئت من هواك اختبرني ... فاختياري ما كان فيه رضاكا

يحشر العاشقون تحت لوائي ... وجميع الملاح تحت لواكا[3]

وجعل آخر الضحايا نفسه الكريمة، فسقط إلىٰ الأرض، يقول فيه السيد حيدر الحلي:

ولما قضىٰ للعُلا حقَّها ... وبالسيف شيَّد بُنيانَها

تَرَجَّلَ للموتِ عن سابِقٍ ... لهُ أخلَتِ الخيلُ مَيدانَها

---

(١) قال أمير المؤمنين: إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجّار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار. نهج البلاغة / الحكمة: ٢٣٧.

(٢) انظر: الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

(٣) البيتان لابن الفارض. قصص الأنبياء (الجزائري): ٣٩٦، ونقل البيت الأول فقط.

تريبَ المُحَيَّا تظنُّ السَّمَا بأنَّ علىٰ الأرضِ كَيوَانَها
غريباً أرىٰ يا غريبَ الدِّيار تُوسد خديه كثبانَها[1]

نزلت أُخته إليه يوم العاشر، فرأت ذلك الخدّ التريب علىٰ الرمضاء، فصاحت: «يا رسول الله، هذا حسينك بالعراء محزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة والردا! بأبي من هو لا جريح فيداوىٰ، ولا غائب فيرتجىٰ، بأبي من شيبته مخضوبة بالدما».

أتراني أعير وجهيَ صوناً وعلىٰ وجهِهِ تجولُ الخيولُ

(١) ديوان السيد حيدر الحلي: ١٠٨.



﴿٥٢﴾

نظرية الدولة في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في معنى آيات الله

الآيات المقصودة في هذه الآية هي كلّ ما في الوجود عدا الله تعالى، فكل ما في الوجود هو آية من آيات الله، إما من الآيات الدالة علىٰ وجوده، أو من الآيات الدالة علىٰ كماله، أو من الآيات المنزهة له عن النقص. فليس من شيء في الوجود إلّا وهو آية من آيات الله؛ لأن كلّ شيء هو أثر، وكل أثر لابد له من مؤثر. وهذا الأثر عندما تتفحّصه وتحلّله تجده غاية في الكمال والتنظيم، والشيء المنظَّم يدل علىٰ منظِّم.

ويقسم الفلاسفة الموجودات إلىٰ قسمين: واجب الوجود وممكن الوجود، والممكن الوجود هو الذي يتساوىٰ فيه طرفا العدم والوجود، فالثوب الذي تلبسه هو ممكن الوجود؛ لأنه ممكن أن يكون وممكن ألّا يكون؛ فيتساوىٰ فيه طرفا

---

(١) الأنعام: ٥٤.

العدم والوجود. أما الوجود الواجب فهو ما لا يمكن أن يكون في أية لحظة من اللحظات غير موجود، وليس هناك شيء واجب الوجود إلّا الله عز وجل، وكل ما عداه فهو ممكن.

فكل ما في الكون هو آية من آيات الله، وهي إما أن تدلّ علىٰ وجوده دلالة الأثر علىٰ المؤثر، أو أن تكون غاية في الدقّة والتنظيم فتدلّ علىٰ كماله. وإليك هذا المثل البسيط: إن الحرارة القادمة من الشمس تصل إلىٰ الأرض بنسبة واحد إلىٰ بليونين، وهذه قائمة علىٰ معادلات دقيقة جداً، فإن زادت علىٰ هذه النسبة أو نقصت تعذّرت الحياة علىٰ الكرة الأرضية. وهذا يدل علىٰ كمال الله؛ لأنه غاية في الدقّة والاتقان.

وهناك من آيات الله ما يدلّ علىٰ تنزيهه عن النقص، فليس في خلقه من تفاوت، وليس هناك من شيء خالٍ من الحكمة أبداً. فإن كانت أفهامنا لا تصل إلىٰ الحكمة أحياناً فهذا لنقص في عقولنا، لا لأن هناك شيئاً غير قائم علىٰ حكمة. يروىٰ أن الحجاج كان يصلي يوماً، فأقبلت خنفساء تدنو إلىٰ محرابه، فأزاحها بإصبعه فرجعت، فأبعدها مرة أُخرىٰ فعادت، وهكذا. فلما فرغ من الصلاة سأل: لم خلق الله هذه الخنافس؟ فلم يجبه أحد. وبعد أيام ابتلي بخرّاج فقال له الأطباء: دواء ذلك أن تأخذ الحشو من جوف الخنفساء فتطليه بها. فطلاه بذلك فبرأ، فقال: الآن أدركت لم خلق الله الخنافس[1].

وقد شن الإنسان حملة شعواء في الكرة الأرضية علىٰ بعض الحيوانات التي اعتبرها ضارّة، ولكن لما قلّ عددها ظهرت حيوانات مضرّة أكثر، وحدث اختلال في البيئة. وقد كانت وظيفة تلك الحيوانات هي القضاء علىٰ الحيوانات التي

---

(١) قريب منها ما في شرح مئة كلمة (ابن ميثم): ٢٤١ ـ ٢٤٢، شرح نهج البلاغة ٧: ٢٧٩.

ظُهرت فيما بعد. فالذباب مثلاً إذا قُضي عليه نهائياً فإنه يؤدي إلىٰ انتشار نوع من الجراثيم كان يأكلها الذباب.

المبحث الثاني: الآيات الواجب معرفتها

تقول الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـآيَاتِنَا﴾، وهنا يسأل سائل: وهل يستطيع الإنسان المحدود أن يعرف كلّ آيات الله كي يؤمن بها؟ فيقال عن الدماغ مثلاً: إنه يستطيع أن يستوعب أربعين مليون معلومة في الحدّ الأقصىٰ، وليس هذا قانوناً، إنما هو شيء دلّ عليه الاستقراء، فكيف يتمكن من استيعاب آيات الله التي لا حدود لها؟ الجواب: هو أن ذلك بحسب استطاعة الإنسان وقابليته، فالله لا يكلّف نفساً إلّا وسعها[1].

والمعنيون بهذه الآية هم أهل الصُّفَّة الذين نزلت فيهم، وهم مجموعة من الصحابة الذين قدموا مع النبي ﷺ في بدء الدعوة إلىٰ المدينة، فكان منهم المَوالي والفقراء والغرباء الذين ليس لهم بيوت، فكان أحدهم إذا رجع من الحرب وبه جرح يعيقه عن العمل، تفرغ إلىٰ العبادة وطلب العلم في جانب من المسجد يدعىٰ الصُّفَّة. وكانوا طبقة فقيرة مسحوقة لا تجد طعامها.

أما الإيمان بالآيات فليس فيه فرق بين العالم الكبير والإنسان العادي، غاية ما في الأمر أن كلّاً منهما يعبر عنه بلغته الخاصة؛ فمثلاً سئل «كيلر» الأُستاذ في جامعة سان فرانسيسكو والاختصاصي بقوانين الديناميكا الحرارية: كيف اعترفت بوجود إله؟ وما هو دليلك؟ قال: دليلي هو أنني رأيت أن هذا الكون الذي نعيش فيه تنتقل فيه الحرارة من الأجسام الحارّة إلىٰ الباردة، وبهذا الانتقال

(١) قال تعالى: ﴿لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٣٣.
وقال: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٨٦.
وقال: ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ الأنعام: ١٥٢، الأعراف: ٤٢، المؤمنون: ٦٢.

تشتغل الخلايا الحية، وتحصل الزراعة، وتستمر الحياة علىٰ سطح الأرض. وسوف يأتي يوم تنفد فيه هذه الطاقة المنتقلة من الجسم الحار إلىٰ الجسم البارد، وذلك أشبه بالشمس التي سيخبو نورها وتنتهي، فهي ذات عمر معين، فإذا نفدت الطاقة المنتقلة من الجسم الحار إلىٰ البارد فليست هناك أجسام تعكس هذا الانتقال لتستمر الحياة في النبات والحيوان. ولذلك سوف تتوقّف الحياة في الكون وتنتهي؛ والانتهاء دليل علىٰ الابتداء؛ لأن الأزلي لا ينتهي، ولو كانت الدنيا أزلية لنفدت حرارتها من زمن بعيد؛ لأن قوانين الديناميكا الحرارية تقول: إن كلّ جسم بارد يأخذ الحرارة من الجسم الحارّ، فلابدّ من خالق ابتدأ هذا الكون الذي سيصل إلىٰ النهاية.

ويأتي أستاذ آخر من جامعة نورث ويستورن وهو «إيفين» الاختصاصي بوظائف الأعضاء، فيقول في استدلاله علىٰ الخالق: إني رأيت خياشيم السمك وقد ركبت بشكل تأخذ الأوكسجين من الماء؛ فعرفت أن الماء خُلق قبل السمك، ورأيت أن وجود الجناح عند الطير والرئة عند الإنسان دليل علىٰ أسبقية الهواء. فوجود الإنسان في هذه الحياة مدين لشروط سابقة ملائمة لو لم تخلق لما كان له أن يوجد.

ويمضي في استدلالاته فيقول: إن وجود حب الاستطلاع عند الإنسان دليل علىٰ أسبقية الوقائع، فلا يمكن أن يوجد حب الاستطلاع إلّا بعد وجود الوقائع، ووجود الإيمان في داخل الإنسان بأن قوة ما عظيمة كونت هذا الكون دليل علىٰ وجود الله.

هذان نموذجان من العلماء الذينَ يستدلون علىٰ الله كلّ واحد منهم حسب اختصاصه، لكننا لو رجعنا إلىٰ البدائيين وسألنا أحدهم: كيف تستدل علىٰ وجود الله؟ لأجاب في حدود مدركاته. مرّ النبي ﷺ يوماً ومعه الصحابة علىٰ عجوز

بيدها مغزل، فسألها النبي ﷺ: «بم عرفت ربك؟». قالت: والله عرفت ربي بهذا الدولاب. قال ﷺ: «كيف؟». قالت: رأيته إن وضعت يدي عليه راح يدور، وإن رفعتها وقف عن الدوران، وإني أرىٰ أن هذا الكون كلّه يدور في نظام، ففيه الشمس تطلع وتغرب في مواعيد محددة، وفيه مواسم الزرع في مواعيدها، والمدّ والجزر في مواعيده، فكيف تكون هذه دائرة لوحدها؟ فلابد من مكون ومحرك لها.

ودليل هذه المرأة لا يختلف عن أدلة أُولئك العلماء، سوىٰ أن أولئك لديهم إحاطة علمية واسعة، أما المرأة فقدمت لنا صورة ساذجة. والدليلان نابعان من إحساس واحد، هو وجود المؤثر من وراء الأثر، وهذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا...﴾ التي نزلت في أهل الصفّة.

وقد كانت قريش تقول عن هؤلاء: إنهم أراذل ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[١]، وإنهم اتبعوا النبي ﷺ لملء بطونهم، لا عن إيمان وتفكير. فأراد القرآن أن يهدم هذا الحاجز الموضوع أمام الإنسان الفقير، فقد كان الفقير قبل أن يبعث النبي ﷺ ليس له طمع حتىٰ في الحياة، فلا يكرم، ولا يحترم، بل كانوا يرونه من سقط المتاع[٢]. ودرجة اعتبار الإنسان كانت بقدر ما يملك من الأموال، فلا يطمع الفقير أن يجلس في مكان محترم، أو أن يتزوّج من بيت محترم.

وقد تستغرب أن بعض فقهاء المذاهب الإسلامية يقول: إن شهادة أهل الحرف لا تقبل[٣]. فهل تستطيع أن تسمي هذا فقهاً وحكماً نازلاً من السماء.. من الله الذي كرم الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[٤]؟ فما ذنب الفقير الذي يمارس عملاً شريفاً

---

(١) هود: ٢٧.

(٢) سقط المتاع: رديئه وحقيره. النهاية في غريب الحديث والأثر ٢: ٣٧٩ ـ سقط.

(٣) انظر حاشية ردّ المحتار ٦: ١٨ ـ ١٩. (٤) الإسراء: ٧٠.

أو صنعة ألّا تقبل له شهادة؟ وكيف، وهو تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]؟ من المؤكد أن ذلك هو مزاج الفقيه وقد انعكس علىٰ الحكم الشرعي، وليس هو وحي السماء الذي لا يفرق بين الناس علىٰ أساس المهن أو الفقر والغنىٰ.

دخل أعرابي يوماً علىٰ المأمون وكان في مجلس حاشد، فرأىٰ المأمون أن في المجلس جماعة كثيرة من أهل البادية، فصعد المنبر وأراد أن يتبجّح بفصاحته وبلاغته، وراح يتكلّم بعربية دقيقة ـ وكان منطيقاً فصيحاً، لكنه كان متكلفاً لذلك ـ فلما نزل رأىٰ هذا الأعرابي أمامه بملابسه الرثة البالية فازدراه، ورأىٰ أنه في مكان اعتبره ليس له، فأحدَّ النظر إليه، فقال له: أصلح الله الخليفة، أراك تحد النظر إليّ، أنا الذي أُكلّمك لا عباءتي. فخجل المأمون، ثم قال له: ما تعدون الفصاحة والبلاغة عندكم؟ قال: الاختصار مع الإفادة. قال المأمون: ما تعدّون الفهاهة والعي؟ قال: ما كنتَ فيه منذ اليوم يرحمك الله. فأطرق المأمون[2] وعرف أن هذا الأعرابي علىٰ شيء من الأدب والفكر.

والشاهد هنا أن هذا الأعرابي يقول للمأمون: أنا الذي أُكلّمك لا ملابسي، فقد تجد من هو مكلّل بالذهب لكنه حيوان، وقد تجد من يلبس الأطمار البالية لكنّ تحتها كنزاً مفعماً بالعلوم والخلُق[3].

يقول أحد الأُدباء: جاء النبي محمد ﷺ إلىٰ الوجود فرفع الإنسانية من

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) البيان والتبيين ١: ٦٩، وهو في مجمع الأمثال ٢: ٢٥ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن.

(٣) قال الشاعر:

ترىٰ الرجل الفقير فتزدريه ... وفي أثوابه الأسد الهصورُ

ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطريرُ

ورويت بغير ذلك، انظر شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٢.

الحضيض إلىٰ الأعلىٰ، ثم جاءت المذاهب الاجتماعية فعادت بالإنسانية من الأعلىٰ إلىٰ الأسفل بدافع العِرق والغنىٰ والفقر، وبدافع المنزلة الاجتماعية. وهذا الرأي صحيح تماماً، فقد تحكّمت المذاهب بالإنسان علىٰ أساس اللون والمنزلة الاجتماعية، والغنىٰ والفقر إلىٰ آخره. فهذا ملوّن فهو متخلّف، وهذاأبيض، فهو تقدّمي، في حين أن الأبيض يعيش اليوم حياة أشبه بحياة الحيوان، فكيف يكون تقدّمياً من يعتبر اللواط قانوناً شرعياً[1]؟ ولكن كما يقال: أُست في الماء وأنف في السماء[2]. ولا تستطيع أن تتكلّم؛ لأنهم يمتلكون التقدم المادي، والتقنية الحديثة. ولا زالت إلى الآن نظريات تربط التطور الحضاري بالجنس والدم، فالأبيض عندها هو المقدّم في الحضارة والتطوّر. فانظر كيف لعبت المذاهب الاجتماعية بالإنسان، وانظر الىٰ رأس المال كيف يبني الصروح من جماجمهم. وهذه المذاهب التي تدّعي أنها جاءت لسعادة الإنسان، أنزلت الإنسان إلىٰ الحضيض.

إن اليد التي أسعدت الإنسان هي تلك اليد التي يقبّلها محمدﷺ عندما دخل عليه أحدهم ويده قد شقّقتها المسحاة، فأخذها النبيﷺ وقبلها وقال: **«إنها يد يحبها الله ورسوله، إنها يد يحبها الله ورسوله، إنها يد يحبها الله ورسوله»**. فهذا هو الذي رفع شعار تكريم الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[3].

المبحث الثالث: حجابة الخلفاء

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي ارفع الحواجز بينك وبينهم،

---

(١) فالدانمارك تعد أول بلد في العالم يعترف بزواج المثليين، وذلك عام (١٩٨٩)م، كما أن البرلمان الأوروبي دعا في (٨ / ٢ / ١٩٩٥م) إلى منحهم الحقوق والواجبات التي يتمتّع بها الأزواج العاديّون. الإسلام والغرب: ٥٨.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ١٧١ / ٢٩٢٨.

(٣) الإسراء: ٧٠.

ومن جاءك فليدخل بلا حاجز. والإسلام علّمنا هكذا، فإن أراد المسلم ملاقاة ربّه فليقف في المحراب وليقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١]، فيواجه الله تعالى مباشرة. فالله تعالى أراد من الأنبياء أن يتخلّقوا بأخلاق السماء، فكانت أبواب الأنبياء بلا حاجب ولا بوّاب. وما نقرؤه من أن أنس بن مالك كان يقف علىٰ باب النبي ﷺ فإنما هو من باب التشرّف، وإلّا فإن الناس يدخلون علىٰ النبي ﷺ كما يدخلون إلىٰ بيوتهم، بل إنهم أحياناً يطيلون الجلوس عند النبي ﷺ بحيث يصل إلىٰ حدّ الإزعاج، ولم يكن النبي ﷺ يكلّمهم، حتىٰ نزلت الآية تنهاهم عن إزعاجه[٢].

وكان النبي ﷺ يُجلس أصحابه إلىٰ جانبه ويقبل عليهم بوجهه الكريم، وقد كان أغلبهم من الطبقة المسحوقة الضعيفة، فقد كان عمار مولىً، وكان أبو ذر غريباً، وكان سلمان مولىً، وكان بلال من هذا النوع أيضاً. فكانوا يدخلون عليه بلا حاجب ولا بواب، ومن هنا تدرك ما يلاقي الناس من الحجّاب، يقول أحدهم:

وما كنتُ أدري كيفَ آتي إليكُمُ ونصفُك محجوبٌ ونصفُك نائمُ[٣]

ولم يكن في عهد الخلفاء حاجب ولا بوّاب حتىٰ نهاية عهد أمير المؤمنين ؑ، فكان الناس يدخلون علىٰ الخليفة ويكلّمونه كما يكلّمون أي شخص آخر. وجاء بعد هذا العهد عهد الحجاب والبوابين. في حين أن الأمر كان حتىٰ عند الملوك من أهل العدل من غير المسلمين أن أحدهم يدخل عليه الداخل بلا تكلّف. يروىٰ عن

---

(١) الفاتحة: ٥.

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ﴾ الأحزاب: ٥٣.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٧: ٩٤، وصدر البيت فيه: متى يفلح الغادي إليك لحاجة.

أحد الملوك المعاصرين للإسلام أنه كان أُطروشاً، فأمر أن يَرفع كلّ مظلوم أو من كانت له حاجة خرقة حمراء، كي يراه ويعرف أنه ذا حاجة، وكل ذلك كي لا تفوته مظلومية أحد.

أما أمير المؤمنين عليه السلام فقد وضع صناديق في أنحاء الكوفة، فمن كانت له مظلمة ولا يستطيع أن يصل إلىٰ أمير المؤمنين عليه السلام لشغل أو حياء فإنه يضع ظلامته مكتوبة في الصندوق، فيبعث أمير المؤمنين عليه السلام كلّ يوم شرطة الخميس ليأتوه بما في الصناديق. فكان ينظر في هذه الظلامات فلا تذهب مظلومية إنسان.

وهذا العالم خيالي بالنسبة إلىٰ عالمنا، ومن هنا يصف بعض الكتاب من يحمل فكراً دينياً بأنه طوبائي يحمل أفكاراً خيالية لا تنسجم مع الواقع، وليس من الممكن أن تتحقّق. وفات هؤلاء أنها حدثت وعاشت زمناً طويلاً.

وكان ولاة المسلمين يستقبلون الناس علىٰ هذه الهيئة والطريقة، بل أكثر من هذا، فقد كانت هناك قضايا تلفت النظر، مات أحد الأشخاص أيام معاوية وكان معاوية يطلبه، فبعث إلىٰ الوالي أن استوفِ لي حقّي من هذا الميت ثم قسّم باقي التركة بين الغرماء الآخرين. وهذا الدين نسميه اليوم بالدين الممتاز، وهو ما كان للدولة. فلما وصل الكتاب إلىٰ الوالي رماه تحت الفراش، فطلب منه الرسول الجواب فقال: اذهب إلىٰ معاوية فقل له: لقد جاءني كتاب قبل كتابك وهو كتاب الله الذي أمرني أن أساوي بين الغرماء. وهذا موقف إسلامي جليل.

وهكذا كان أيّمة أهل البيت عليهم السلام في دخول الناس عليهم بلا حاجب ولا بوّاب، يقول أحدهم: كانت لي حاجة عند الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام، وكنت أتصوّر أنني عندما أذهب إلىٰ الإمام عليه السلام فسوف أجد الحجّاب والبوّابين والخدم، فسألت عن داره فقيل لي: إنها في الكرخ. فجئت الكرخ فوجدت خربة فيها بيت من البواري والحصر، ورأيت رجلاً واقفاً في تلك الخربة، فسلمت عليه، فقال: أحسبك غريباً.

قلت: بلىٰ. قال: ما وراءك؟ قلت: أُريد الإمام موسىٰ بن جعفر. قال: لِج لا حاجب ولا بوّاب.

فلما دخلت وجدت رجلاً كأنه حِلس، تُميله الريح إذا مرّت به لضعفه، وقد وقف للصلاة، والىٰ جانبه جَلَم (مقص)[1] يأخذ به اللحم الميت من مواضع سجوده، ووجدته يقرأ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾[2] ودموعه جارية، فانتظرته حتىٰ فرغ، ثم طرحت عليه مسألتي فأجابني، ثم ودّعني ببشاشة واحترام، ثم خرجت.

ولكن ارجع إلىٰ تلك الخربة التي كانت لا حاجب ولا بواب، وقارنها بقصر من القصور التي بناها خلفاء الجور، كدار الرقيق أو قصر الخلد الذي كان فيه اثنا عشر ألف غلام للبريد فقط، فهل تجد له أو لغيره أثراً في بغداد؟ انظر إلىٰ تلك الخربة تجدها قبة تناطح السماء علوّاً:

لتُهنِكَ عُقبَىٰ الصَّابرين أبا الرِّضا ... وإن طال حبس واستطال عقابُ
وَعربَدَ سَوطٌ في أكُفِّ لئيمةٍ ... وجُنَّ به للظَّالمين عذابُ
فكوخٌ به عشتَ استطالَ إلىٰ السَّما ... وقصرٌ به عاشَ الرشيدُ خرابُ
ومُظلِمُ سِجنٍ عشتَ في جَنَبَاتِه ... ضَجيعاكَ مِحرابٌ به وكتابُ
تَحَوَّلَ صَرحاً قد تَكَامَلَ عِنده ... لأرفع آياتِ الفُنون نِصابُ

وهذه هي عاقبة الصالحين التي طالما ردّدها القرآن بقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، ورحم الله أبا فراس حيث يقول:

للمتقين من الدنيا عواقبها ... وإن تعجل منها الظالم الأثِمُ[4]

فالآية تقول للنبي: إذا جاءك هؤلاء فاستقبلهم، وارفع قدر الإنسانية في

---

(١) المعجم الوسيط ١: ١٣ ـ جلم.
(٢) الحاقة: ١٨.
(٣) الأعراف: ١٢٨.
(٤) ديوان أبي فراس: ٢٥٥.

أشخاص حامليها بغضّ النظر عن مظاهرهم، فليس من اختيار الإنسان أن يكون ابن بيت معروف وعائلة مرموقة أو ابن بيت غير معروف، فهو لا يستطيع أن يتحكّم بذلك، فالإنسان مكرم بغضّ النظر عن كونه ابن فلان أو ابن فلان، يقول تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾[١].

وقد أمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يدعو لهم بالسلام بقوله: ﴿فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا الشعار كلّه رقّة وتكريم للإنسان؛ لأنه دعاء له بالسلامة والأمن من المكاره والآفات، وهذه هي آداب الطريق التي رسمها الله تعالى للإنسان، فمن حيّاك بتحيّة فحيِّه بأحسنَ منها[٢].

المبحث الرابع: في إيجاب الله تعالى بعض الأمور على نفسه

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ و﴿كَتَبَ﴾ بمعنىٰ أوجب، فكيف يوجب الله تعالىٰ علىٰ نفسه الرحمة؟ يستدلّ علماء الكلام من هذا المقطع علىٰ أن الله لا يفعل القبيح؛ لأن القبيح ظلم، والظلم خلاف الرحمة. فهل من الممكن أن يكلّف الله العبد بتكليف شاقّ يصعب عليه؟ كلا، فليس من التكاليف شيء إلّا وهو ضمن حدود قدرة الإنسان ووسعه وطاقته، فإن صار التكليف خارج الطاقة والوسع نزل إلىٰ البديل. فمن شقّت عليه الصلاة وهو واقف فله أن يستبدل الوقوف بالجلوس، وهكذا فيمن شقّ عليه الجلوس فله أن يصلي وهو مضطجع.

وفي الصدقة كذلك، فمن لم يستطع التصدق بالكثير يلجأ إلىٰ البديل، ولو كان رغيف خبز، قال ﷺ: «اتقوا النار ولو بشقّ تمرة»[٣]. فهذا القليل إذا كان بدافع رضا

---

(١) المرسلات: ٢٠.

(٢) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ النساء: ٨٦.

(٣) الفقيه ٤: ٣٨ / ٥٨١٧، مسند أحمد ٤: ٢٥٦.

الله فهو كثير عند الله. وكم ممن تجده يتصدّق بالكثير، لكنه يفعل ذلك بدافع التفاخر أو الدعاية أو العلو، أو أن يشعر الناس أنه محسن، أما الدافع الحقيقي والواقعي وهو البِرّ فقليل ما هو. كتب أحد الصحابة في وصيته أن عنده حظيرة فيها الكثير من التمر، وطلب أن يوزعها النبي ﷺ بعد موته، فلما جاء النبي ﷺ إلىٰ حظيرة التمر وزعها حتىٰ بقيت حشفة في زاوية من الزوايا، فأخذها النبي ﷺ بين أنملتين من أنامله الشريفة وقال: **«والله لو تصدق بهذه في حياته لكانت أفضل له من جميع ما تصدّقنا به عنه بعد مماته»**.

فالله أوجب علىٰ نفسه الرحمة بألّا يكلّف العباد ما يشقّ عليهم؛ لأن هذا ظلم، وذاك مظهر من مظاهر كتابة الله علىٰ نفسه الرحمة.

ومن مظاهر ذلك أنه لا يعاجلنا بالعقوبة، فهناك من يبارز الله صباح مساء بالمعصية ولكن الله يمهله ويعطيه الفرصة للتوبة، أما نحن في الدنيا فإننا نلاحظ أن هناك من يخالف غيره في الرأي فيحرمه من الحياة. جاء إلىٰ أحد المسؤولين في إحدىٰ الدول الإسلامية مسلم، وطلب منه أموالاً ممّا خصّصته الدولة للمساجد، فسأله بصراحة: ما مذهبك؟ فأجابه عن مذهبه، فقال: اخرج ليس عندي لك شيء.

فهل تسمي هذا إسلاماً؟ متىٰ كان الاختلاف في الفروع الفقهية يؤدّي إلىٰ هذا الحد؟ الله تعالىٰ والرسول ﷺ والإسلام بريئون من هؤلاء، يقول النبي ﷺ: **«أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله»**[1]. فكيف يأتي المسلم إلىٰ المسلم الذي يختلف معه في الرأي فيسعىٰ إلىٰ أن يحرمه من الحياة، أو يقطع عنه طعامه؟

فالآية تقول: إن الله أوجب علىٰ نفسه الرحمة فسبقت رحمته غضبه، فهو معدن الرحمة، وإنما يراقب العباد ويعاملهم انطلاقاً من أنهم جهلة. وتلك سمات الأنبياء

---

(١) مسند أحمد ٢: ٣٣، المعجم الأوسط ٨: ٢١٠.

في التجاوز عن أممهم، فلا يدعون عليهم، فكان النبي ﷺ يقابل كلّ جرح بدعوة لهم بالرفق والرحمة[١]، وقد صافح ﷺ من كان يرميه بالسهام، بل وقف ﷺ وعيناه الشريفتان تدمعان لمصرع رجل رثته أُخته، وقال ﷺ: «لو بلغني شعرها قبل أن أقتله، ما قتلته»[٢].

ووقف الإمام الحسين عليه السلام وهو امتداد للنبي ﷺ يضرب مثلاً سامياً للرحمة، يقول له أحد الشعراء:

يمّمتُ يومَك كالظُّماء بهذه الـ	ـصّحراء تلتمِسُ الغدِيرَ وُرودا
فرأيتُك العِملاقَ جِيداً مُتلَعاً	ينعَىٰ علىٰ الأقزامِ تُهطِع جِيدا
ورأيتُك الفِكرَ الحَصيفَ يشقُّ أسـ	ـتارَ الغُيوبِ ويستَشِفُّ بَعيدا
فإذا أراق اليومَ زاكيةَ الدِّما	فغداً سترفَعُها الشُّعوبُ بُنُودا
ورأيتُك النَّفسَ الكَبيرةَ لم تَكُنْ	حتَّىٰ علىٰ من قاتلوك حَقودا

وقف ينظر إلىٰ الجيش وعيناه تدمعان.. أمطرهم بالرحمة وأمطروه بالحجارة والنبال والسهام.. قابلوه طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف حتىٰ تقطّعت تلك الأوصال، وتشظّىٰ ذلك الفم الذي طالما اتّكأ عليه رسول الله ﷺ يشبعه لثماً وتقبيلاً. ولذلك لما أُدخل الرأس إلىٰ مجلس يزيد وأخذ عوداً من الخيزران وأشبع بها ثنايا الإمام الحسين عليه السلام ضرباً قام إليه زيد بن أرقم فقال: يزيد، ارفع يدك عن هاتين الشفتين، والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقبلهما[٣].

---

(١) كان ﷺ يقول في كل ذلك: «اللهم اهدِ قومي، فإنهم لا يعلمون». الخرائج والجرائح ١: ١٦٤ / ٢٥٢، تفسير القرآن العظيم ٣: ٥٧٥.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٤: ٦٣، والمقتول هو النضر بن الحارث قتله أمير المؤمنين عليه السلام صبراً، واسم التي رثته قتيلة بنت الحارث أو النضر على اختلاف في كونها ابنته أو أُخته.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ٣٤٩، أسد الغابة ٢: ٢١.

ذلك الخد الذي يقول فيه الشاعر:

مســـحَ النـبيُّ جـبـينَهُ　　فـلـهُ بَـريقٌ فـي الخـدودِ
أبـــواه مـــن عــليا قــريـ　　ـش وجدُّه خيرُ الجدودِ[1]

ذلك الخد الشريف تركوه في الصحراء، وذلك الجبين رموه بسهم أبي الحتوف الجعفي حتىٰ سالت عليه الدماء، وذلك الثغر أشبعه يزيد ضرباً بعوده. ويــبدو أن هذه الحادثة تركت هياجاً في المجلس لذا أمر يزيد بإخراج الرأس ووضعه في خربة. وفي رواية أنهم نصبوه بباب الفراديس، ومرّ رجل من أهل الشــام فـقال: ويحكم، لمن هذا الرأس؟ قالوا: هـذا رأس الإمـام الحسـين ﷺ. فـصاح يـا لله وللحمية، أسبط رسول الله ينصب رأسه؟ فامتشق الحسام وضاربهم ثم أخذ الرأس وهرب به فواراه[2].

ثم نقله بعد ذلك طلائع بن رزيك إلىٰ القاهرة[3] علىٰ روايات مختلفة.

فهذا الرأس الشريف أشبعه يزيد ضرباً ثم نصبه أمام أُخته فراحت تطيل النظر إليه وتذرف دموعها:

ما توهّمت يا شقيق فؤادي　　كـان هـذا مـقدّراً مكـتوبا[4]

* * *

يشــايل راس اخيي لا تـلَوحه　　وهبّط عن بكايه الروس رمحه
أخاف يفوت ريح الهوه بجرحه

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٠، المعجم الكبير ٣: ١٢١ ـ ١٢٢ / ٢٨٦٥ ـ ٢٨٦٦.
(٢) قريب منه في مثير الأحزان: ٨٥.
(٣) لواعج الأشجان: ٢٤٩، ونسب نقله للفاطميين.
(٤) بحار الأنوار ٤٥: ١١٥.

﴿٥٣﴾

بشارة الله للمؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ البُشرَىٰ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبدِيلَ لكَلِمَاتِ اللهِ ذَلكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيم﴾[1].

مباحث النصّ الشريف

المبحث الأوّل: صفات أولياء الله

جمهور المفسرين متّفقون علىٰ أن الموصوفين بهذه الآية الكريمة هم أولياء الله. ولعل من الأوصاف الوجيزة المعبّرة عن الأولياء ما وصفهم به أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: **«نظروا الىٰ باطن الدنيا إذ نظر الناس إلىٰ ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذ اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم»**[2].

وعندما تقرأ كلمات من (نهج البلاغة) فإنها تدلّ علىٰ صاحبها؛ لأن فيها روح

(١) يونس: ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) نهج البلاغة /الحكمة: ٤٣٢، ونسبه في تاريخ مدينة دمشق ٤٧: ٤٦٦، الدر المنثور ٣: ٣٠٩، إلى النبي عيسى عليه السلام باختلاف.

صاحبها، وتحسّ كأن أمير المؤمنين ﷺ يشافهك. وهذا مقياس استخدمه البلغاء والعلماء والأُدباء للتعرّف علىٰ الآثار، فالأديب المتمرّس في الأدب يستطيع أن يميز الآثار الأدبية، وينسبها لأصحابها، فأنت مثلاً عندما تجد آية من القرآن بين مجموعة من النصوص الأدبية فبإمكانك أن تميزها؛ لأن كلام الله تعالى له سماته. وهذا المقطع الذي يصف فيه أمير المؤمنين ﷺ الأولياء يدلّ تمام الدلالة علىٰ أنه له؛ لأن فيه نَفَس علي ﷺ وأخلاقه.

المبحث الثاني: المراد من ﴿الْبُشْرَىٰ﴾ في الآية

قالت الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فما هي البشرىٰ؟ يتوزّع المفسرون في معنىٰ البشرىٰ بين ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أنها الرؤيا الصالحة

ذلك لأن الحديث الشريف يقول: «لا يبقى بعد النبوة إلّا المبشرات»[١]، ويقول أيضاً: «الرؤيا الصالحة جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة»[٢].

ولدينا روايات كثيرة تنصّ علىٰ أن البشرىٰ هي الرؤيا الصالحة[٣]، يقول النبي ﷺ عن الرؤيا الصالحة: «يراها المسلم أو تُرىٰ له»[٤]؛ فإما أن يراها هو أو أن يراها غيره فيه. فهل للرؤيا ضوابط علمية؟ وهل إن كلّ ما يراه الإنسان في منامه صحيح يعتمد عليه؟

معالجة الرؤيا الصحيحة

هناك طريقان لمعالجة مثل هذه المسألة: الطريق الديني، والطريق العلمي.

---

(١) مسند أحمد ٦: ١٢٩، وقريب منه في ج ٥: ٤٥٤.
(٢) بحار الأنوار ٥٦: ٢١٥، مسند أحمد ٢: ٣٦٩.
(٣) التبيان ٥: ٤٠٢، مسند أحمد ٢: ٢١٩، وغيرهما.
(٤) بحار الأنوار ٥٨: ١٧٨، مسند أحمد ١: ٢١٩.

وهناك رواية يرويها عبد الله بن مسعود عن النبيﷺ يقول فيها: «الرؤيا ثلاثة: بشرى من الله، وتحزين من الشيطان، ورؤيا يحدّث بها الإنسان نفسه فيراها في النوم»[1].

العلم الحديث يؤيد نظرة الدين إلى الرؤيا

والنظريات الحديثة تلتقي مع هذه النظرية. وقد تعجب أن نظرية في القرن العشرين تلتقي مع هذه التي مر عليها أربعة عشر قرناً! يقول فرويد: قسم من أقسام الرؤيا هو عملية تعويض، فالإنسان أحياناً يريد أن يعمل شيئاً في اليقظة لكنه يعجز عنه، كأن يكون له عدو يريد الانتقام منه في اليقظة فلا يستطيع ذلك لأن عدوه قوي. أو تكون عنده أُمنية في الحياة لا يستطيع تحقيقها، فيكبت هذه الرغبة، وهذا الكبت يدمر النفس إذا بقي متراكماً في داخلها. فالله تعالىٰ رحمةً بعباده لم يترك هذا الكبت داخل الإنسان، فعندما يأتي الليل يحقق الإنسان في المنام ما لا يستطيع تحقيقه في اليقظة. وهذه النظرية ـ كما قلنا ـ تلتقي مع رواية عبد الله بن مسعود قبل ألف وأربعمئة سنة.

وأمّا الجزء الثاني الذي تسميه الرواية «تحزين من الشيطان»، فالنظريات الحديثة تسميه «الأحلام غير المتناسقة»، أو ما يسميه القرآن: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾[2].

وأما الجزء الأول، فهو الرؤيا الصالحة، وهذه فيها مشاهدة، فالإنسان بالمشاهدة رأىٰ الكثير من الأشياء في المنام قد تحقّقت في اليقظة، وهي إما بصورة مباشرة أو علىٰ شكل رمز. فقد يرىٰ رؤيا تتحقّق ذاتها في اليوم التالي، أو أنه يرىٰ رمزاً فيتحقّق.

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٧٩ / ١٦٦، مسند أحمد ٢: ٣٩٥.
(٢) يوسف: ٤٤.

جانبان هامّان في موضوع الرؤيا

والذي يعنينا من موضوع الرؤيا شيئان:

الأوّل: تشخيص الرؤيا الصادقة

فالرؤيا التي يراها الإنسان هل يستطيع أن يتّخذ منها رمزاً معبّراً عن واقع سيتحقّق أو لا؟ فالنبي ﷺ كان يرىٰ الرؤيا لكن رؤياه وحي، والصحابة كانوا يرون رؤيا تحقّق الكثير منها. فهل يستطيع الإنسان أن يعوّل علىٰ هذا المقدار بحيث إنه إذا رأىٰ رؤيا يجزم بتحقّقها أو عدم تحققها؟

الجواب: أن العلم إلىٰ الآن لم يبتَّ بهذا. فهو وإن سلَّم بتحقّق قسم من أقسام الرؤيا لكنه لم يستطع أن يشخص ذلك القسم الذي يمكن أن يتحقق.

الثاني: ترتب الأثر الشرعي على الرؤيا

هل يترتّب علىٰ الرؤيا حكم شرعي أو لا؟ فلو أن أحداً رأىٰ في المنام أباه يخبره أن عليه عشر سنوات من الصلاة، وأمره بقضائها، أو أمره بالحجّ الواجب الذي فاته، فهل يفعل ما أمره؟

الجواب: كلّا، فالأحكام التكليفيّة لا تتعلّق بالأحلام؛ لأن الدين مبني علىٰ نصوص، فعندما نقول: إن الصلاة واجبة فإننا إنما استفدنا ذلك من القواعد اللفظية، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[1]. فالقاعدة اللفظية تقول: إنَّ ﴿أَقِيمُوا﴾ أمر، والأمر حقيقة في الوجوب، إلّا إذا جاء دليل أو قرينة على الاستحباب. وكذلك عندما أقرأ: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، فإنني أرجع إلىٰ الروايات الواردة عن النبي ﷺ باعتباره الوسيط بيننا وبين السماء، فآخذ أحكامي منها.

---

(١) البقرة: ٤٣.

غريب قصص الرؤيا

ومن الغريب أن فقهاء المسلمين من غير الإمامية يقولون: إن النبي ﷺ لما أراد أن يجمع الناس إلىٰ الصلاة جمع أصحابه واستشارهم، فقال بعضهم: نضع ناقوساً كما يفعل النصارىٰ، نضربه وقت الصلاة فيجتمع الناس. وقال البعض الآخر: نصنع كما يصنع العرب، بأن نشعل ناراً علىٰ رأس الجبل فيراها الناس فيجتمعون. وقال بعض: نبعث وقت الصلاة من ينبه الناس في بيوتهم بأن حان وقت الصلاة. وبقي النبي غير موافق لرأي من هذه الآراء، وتفرق الصحابة. حتىٰ إذا باتوا ليلتهم وأصبح الصباح جاءه أحد الصحابة[١] فقال: رأيت في الرؤيا من يقول لي: أذّنوا للصلاة بأن تأمروا أحدكم بالصعود علىٰ مرتفع، ويقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد ألّا إله إلّا الله، أشهد ألّا إله إلّا الله... إلىٰ آخره. فاستحسن النبي ﷺ ذلك، وأمر بلالاً أن يصعد فيؤذن[٢].

وهذا القول من المهازل، فصاحبه يدّعي أن المسلمين أخذوا الأذان من الحلم، وعلىٰ ذلك سوف يُفتح الباب أمام ما لا تحمد عقباه، وقد يأتي من يقول لنا: إن دينكم هذا مبني علىٰ الأحلام. فالأذان مستحب، والاستحباب حكم من الأحكام الشرعية التكليفية[٣].

والزيادة والنقيصة في الأذان لا تفسدان الصلاة، فقد مرّ الخليفة الثاني فسمع من يوقظ النائمين للصلاة فيقول: الصلاة خير من النوم. فقال: ضعوا هذه في الأذان. فقالوا له: هذه بدعة. قال: نعمت البدعة[٤]. ولذا فإن وجود «أشهد أن علياً

---

(١) هو عبد الله بن زيد بن عبد ربّه. (٢) مسند أحمد ٤: ٤٣.

(٣) الخمسة وهي: الوجوب والحرمة والاستحباب والكراهة والإباحة.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٦: ٢٢٨، وقوله: نعمت البدعة، روي في مورد آخر، انظر: الموطّأ ١: ١١٤، صحيح البخاري ٣: ٢٥٢، وغيرهما.

ولي الله» في الأذان ليست واجبة، وإنما هي مستحبّة بمعنىٰ أنها شهادة لولي بالولاية أوجبتها ظروف معينة.

فالأذان وإن كان مستحباً لكنه حكم شرعي والحكم الشرعي لا يؤخذ من طيف أو رؤيا. فهذا الكلام غير علمي وغير مبرَّر. ولو رجعنا إلىٰ فقهاء المسلمين لوجدناهم يبذلون الجهود المضنية في تحصيل الحكم الشرعي، فهم يمحّصون الروايات سنداً ومتناً، ويجمعون بينها، ويتّبعون القواعد الخاصة بهذا العلم في عملية معقّدة لا يعرفها غيرهم. فالحكم الشرعي حكم الله، وهذا لا يؤخذ من الأحلام.

نموذج من الرؤيا الصالحة

فالرؤيا الصالحة هي التي تتحقّق بالصورة المباشرة أو بالرمز، فمن أمثلة الرمز ما حدث قبيل واقعة بدر بأيام، حيث كانت قريش مجتمعة حول الكعبة حلقات حلقات، فجاء العباس بن عبد المطلب فقال للوليد بن عتبة: أخبرتني أُختي عاتكة أنها رأت كأن رجلاً صعد علىٰ جبل أبي قبيس وأمسك حجراً فقذف به في قلب الوادي، فلم يبقَ بيت من قريش إلّا ودخله جزء من ذلك الحجر. فوصل الخبر إلىٰ أبي جهل فقال: ما رضيتم يا بني هاشم أن تتنبأ علينا رجالكم حتىٰ تنبأت علينا نساؤكم؟ فحمي العباس وقال: يا مصفر استه، ألمثلي يقال هذا؟ ولم تمرّ أيام حتىٰ سمعوا صوتاً علىٰ جبل أبي قبيس، فقد جاء ضمضم بن عمرو مبعوثاً من أبي سفيان بأن محمداًوأصحابه اعترضوا قافلة قريش القادمة نحو مكّة، وقد فرَّ أبو سفيان ومن معه فنجوا بأنفسهم. عند ذاك أشفق القرشيون، وقالوا: إن رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أخذ باليد. وفعلاً خرجوا إلىٰ واقعة بدر فلم يسلم بيت من بيوت قريش، فليس من بيت إلّا وكان فيه فقيد، وصدقت رؤيا عاتكة[1].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٦٢، المعجم الكبير ٢٤: ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

الرأي الثاني: أنها المحبّة في قلوب الناس

وهو المروي عن أبي ذرﷺ، فالمؤمنون المتّقون يمنحهم الله المحبة في قلوب الناس، فأنت لو بحثت حتىٰ في قلب المجرم وسألته: ما هو الأفضل في رأيك: المنهج الذي تسير أنت عليه أو منهج الاستقامة؟ فسيقول: إن الأفضل منهج الاستقامة. فالمؤمن محبوب، والعلماء والصلحاء هم الملوك الحقيقيون الذين يحكمون القلوب، فلم يستطع هشام بن عبد الملك علىٰ الرغم ممّا لديه من أتباع ومريدين وما له من سلطان وسطوة أن يصل الحجر الأسود، لكن الإمام زين العابدينﷺ دخل وليس معه سوىٰ درّاعةٍ يلبسها، ولايصحبه سوىٰ تقوىٰ اللّه والإيمان فانفرج له الناس سماطين، وشقّ طريقه إلىٰ الحجر الأسود فالتمسه، فسأل أحدُ الشاميين هشاماً: من هذا؟ فقال: لا أعرفه.

وكان هشام يعرفه، لكنه خشي إن عرّف به الفتنة وانقلاب الناس، فانبرىٰ له الفرزدق قائلاً:

هـذا الذي تـعرفُ البـطحاءُ وطأتَـه	والبـيتُ يـعرِفُهُ والحِـلُّ والحَـرَمُ
هـذا ابـنُ فـاطمةٍ إن كـنتَ جـاهلَهُ	بـجدِّهِ أنـبياءُ اللهِ قـد خُـتِموا
وليس قـولُك مـن هـذا بـضائِرِهِ	العُربُ تـعرِفُ مـن أنكرتَ والعَـجَمُ[1]

ودخل الإمام موسىٰ بن جعفرﷺ علىٰ الرشيد في موسم الحجّ وإلىٰ جانبه ابنه المأمون، فهب الرشيد واقفاً، والتفت إلىٰ غلمانه قائلاً: سووا علىٰ الرجل ثيابه، وأمسكوا ركابه، وارفعوا له الستور. ثم استقبله أحسن استقبال، وأجلسه إلىٰ جانبه، وأقبل عليه يحادثه إلىٰ أن خرج، فسأل المأمون أباه: أولست أنت أمير

---

(١) ديوان الفرزدق: ١٧٨، وانظر الواقعة في تهذيب الكمال ٢٠: ٤٠٠ ـ ٤٠١، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٨.

المؤمنين؟ قال: بلىٰ. قال: فما فعلك هذا مع هذا الرجل؟ قال: ويحك، أنا أمير الظاهر، وهذا هو الخليفة الحقّ. فقال: لم لا تتنازل وتعطيه حقّه؟ قال: إنه المُلك، ولو نازعنا عليه صاحب هذا القبر فليس له عندنا إلّا السيف.

فالمحبة للمؤمنين في النفوس هي أعظم بشرىٰ لهم في الحياة الدنيا.

الرأي الثالث: أنها معرفة الإنسان عاقبته قبل خروجه من الدنيا

فهناك روايات كثيرة في أن المؤمن قبل أن يخرج من الدنيا يُعرّف موقعَه في دار الخلود؛ أفي الجنة أم في النار. وهذا ليس من الألغاز أو الأسرار، فالإنسان يعرف نفسه كما يعرف أطراف المعادلة الرياضية، فهو يعرف ماذا عمل في الدنيا، ويعرف مقدار رحمة الله له، فإذا عرف المقدمات عرف النتيجة. لكن الإنسان من شدّة حبه لنفسه يتصوّر أنه دائماً علىٰ حقّ وصلاح.

أما البشرىٰ في الآخرة فهي إما أن الملائكة يستقبلونهم في الآخرة فيبشرونهم بما يؤول إليه أمرهم هناك وهو الجنة، أو أنهم يبشّرونهم برضوان الله. فالبعض قد يجد قسماً من الناس في الدنيا لا همّ لهم سوىٰ الأكل والشرب واللذائذ والمادّيات الأُخرىٰ، وقد يجد من يرىٰ أن ذلك كلّه لا قيمة له إذا لم يحرز معه رضوان الله، يقول الشبلي البغدادي:

إنَّ بيتاً أنت ساكنُه ... غيرُ محتاجٍ إلىٰ السُّرُجِ

وجهُك المأمولُ حُجَّتُنا ... يومَ يأتي الناسُ بالحُجَجِ[1]

ويقول الحديث القدسي: «لن تسعني أرضي ولا سماواتي، ولكن يسعني قلب

---

(١) تاريخ بغداد ١٤: ٣٩٧، تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٧٧، وهي آخر أبيات قالها، وقد أنشدها في الليلة التي توفي فيها.

عبدي المؤمن»[١]. فالقلب الذي يشعر أن الله يعمره يعيش نعيماً لا حدود له، والنفس الخالية من النعيم لا تشعر بالنعيم ولو وضعتها في الجنة، يقول الأديب:

والذي نفسُه بغيرِ جمالٍ لا يَعُدُّ الوجودَ شيئاً جميلا[٢]

فمع الرغيف البسيط قد يشعر الإنسان بنعيم لا حدود له. والمعروف عن بعض العلماء أنه كان يتناول كسرة خبز، ويشرب الماء عليها، ثم ينحني علىٰ كتابه، حتىٰ إذا توصل إلىٰ معرفة شيء أو نظرية ما غمره الفرح وراح يقول: أين أبناء الملوك عن هذه اللذّات؟

فكلّ ما يسبّب لذة جسدية فهو فانٍ، فالقصر إلىٰ تراب، والجسم إلىٰ تراب، والثوب إلىٰ خرقة بالية لا قيمة لها وهكذا كلّ لذة. أما اللذة الروحية فهي التي لا تبلىٰ ولا تفنىٰ.

ولقد كان المتّقون يتمكّنون من التمتّع بلذائذ الحياة المادّية، لكنهم في شغل عن ذلك بما هم فيه من لذة أكبر، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«والله لو شئت لاهتديت الطريق إلىٰ مصفىٰ هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعي إلى تخير الأطعمة»**[٣].

---

(١) عوالي اللآلي ٤: ٦ / ٧، بحار الأنوار ٩٢: ٤٦٥.

(٢) ففاقد الشيء لا يعطيه، وقد قال الشاعر:

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا

الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ٢٢، بحار الأنوار ١٠٦: ١٥٤.

(٣) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥، وهو عليه السلام الذي يقول عندما يأكل كسرة خبز: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله». الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

وكان عليه السلام يجلب إلى البيت قوصرّة تمر ويرتجز:

«أفلح من كانت له قوصرّه يأكل منها كلّ يوم مرّه»

مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٧، الفائق في غريب الحديث ٣: ٨٦ ـ قرر، البداية والنهاية ٨: ٣،

فهو ﷺ يعرف ما هذه اللذائذ لكنه يأبىٰ أن يقوده هواه إلىٰ هذه الأُمور، بل يريد أن يقوده عقله وفكره إلى ما هو أهمّ، وهو ساعة من الساعات التي إذا جن فيها عليه الليل تسمَّر طرفه في الكواكب ورفع بصره إلىٰ السماء فيقول: «يامن قصده الضالون فأصابوه مرشداً، وأمَّ إليه الخائفون فرأوه موئلاً، ولجأ إليه العائذون فرأوه معقلاً»[1]:

أخو الذِّكرِ والمحرابِ إن جَنَّ ليلُه ... وصِنوُ القَنا والسيف إن طلعَ الفجرُ

وفارسُ مضمارِ البَيانِ بنَهجِهِ ... تَلاقَىٰ البَيانُ الجَزْلُ والفِكَرُ الغُرُّ

فالنعيم الذي لا حدود له هو الشعور برضا الله في القلب.

المبحث الثالث: أن الله لا يخلف وعده

ثم قالت الآية: ﴿لا تَبدِيْلَ لكَلِمَاتِ﴾، ومعنىٰ ذلك أن الله وعد بذلك ولا يمكن أن يتبدّل وعده. فإذا كان من شيمة الإنسان أن يخلف وعده فالله لا يخلف وعده، دخل أحد الأعراب علىٰ النبي ﷺ فقال له: لي إليك حاجة. قال ﷺ: «قل». قال: من يحاسبنا غداً؟ قال: «الله». قال: فُزنا إذن وربِّ الكعبة. قال: «كيف؟». قال: إنه وعدنا الرحمة، وهو كريم، والكريم إذا قدر عفا[2].

فالله هكذا، والنبي ﷺ هكذا، والأئمة ﷺ هكذا إذا قدروا عفوا، فالنبي ﷺ قدر علىٰ قاتل حمزة فعفا عنه، مع أن الأمر قد جاوز بحمزة حدّ القتل إلىٰ المُثلة اللئيمة. فقد أخرجت هند كبده فلاكتها[3]، يقول أحد الأُدباء:

أعملت ذِئبةُ النساءِ بكبدِ الـ ... ـليثِ ناباً لعلَّ تَشفي الغليلا

فذَريها للذُّود أطهرُ نفساً ... منكِ يا هندُ واتركي المَأكولا

☚ تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٠. والقوصرّة: الوعاء الذي يكنز فيه التمر من البواري. الصحاح ٢: ٧٩٣ ـ قصر.

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٤.

(٢) كنز العمّال ١٤: ٦٢٨ / ٣٩٧٤٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٧.

زوجُك الذئبُ كـان أتـعسَ نـفساً | والخسيسُ الفرذولُ يَهوىٰ الرَّذيلا
مُـطرباً مـرَّ بـالقتيلِ زهـيَّاً | كـالعَريس السكّير عبَّ الشَّمولا
يـرهبُ الهـرُّ زَبـدَةِ اللـيثِ حيَّاً | ويُـباهي بـنَهشِه مَـقتولا
أوَليسَ السـرحـانُ جـد يـزيدٍ | أورثَ الولدَ طـبعَهُ والهَـيُولىٰ

ومع كلِّ ذلك جاء وحشي قاتل حمزة إلىٰ النبي ﷺ فأسلم، فقبل النبي ﷺ إسلامه وعفا عنه، ولكنه قال له: «لا تساكنِّي في بلد أنا فيه»[١].

كان الإمام علي عليه السلام علىٰ المنبر يخطب فدخل رجل، فلما رآه عليه السلام قال: «والله ليبعثن الله أُناساً يوم القيامة وإمامهم الضبّ». وكان هذا الرجل قد خرج يوماً فوجد ضبّاً، فأمسكه وقال له: إني أُبايعك، أما والله إن بيعتك خير لنا من بيعة علي بن أبي طالب[٢].

وهذا صحيح طبعاً، فإن أمير المؤمنين علياً عليه السلام لا يصلح لأمثال هؤلاء، فهو لا يسرق ليعطيهم، ولا يمكّنهم من رقاب الناس.

وقد كان علي عليه السلام يصعد المنبر فيقول: «أما إني أعلم الذي تريدون ويقيم إودكم، ولكن لا أشتري صلاحكم بفساد نفسي»[٣].

وكان عليه السلام أكبر من حجم زمانه، فلم يهضمه ذلك الزمان، يقول أحد الشعراء:

لا ألوم الزمـانَ إن ضـاق عـمَّا | بـمعانيك مـن حـجومٍ فِسـاحِ
فمُحالٌ أن تُـلبِسَ الشمسَ ثـوباً | أو تَـصُبَّ البـحارَ فـي أقـداحِ

وقد استقبل علي عليه السلام في صفين عمرو بن العاص، ذلك الرجل الذي كاد للإسلام

---

(١) قريب منه ما في شرح الأخبار ١: ٢٦٩ / ٢٧٨، ٣: ٢٣١، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٨٣.
(٢) قريب منه ما في الخرائج والجرائح ١: ٢٢٦ / ٧٠، بحار الأنوار ٣٣: ٣٨٤ / ٦١٣.
(٣) الكافي ٨: ٣٦١ / ٥٥١.

منذ ظهوره، فقد هاجر المسلمون إلىٰ الحبشة وتبعهم ليحرك النجاشي ضدّهم[1]. وما ترك يوماً راية ضلال يمكن أن ترفع في وجه الإسلام إلّا ورفعها، فلما أيقن في صفين أن الموت قريب منه بسيف علي اتّقىٰ الموت بعورته، ورحم الله أبا فراس حيث يقول:

ولا خير في دفع الردىٰ بمذلّة ... كما رده يوماً بسوءته عمرو[2]

وفعلها بسر بن أرطاة لما خالطه السيف فهرب من علي واستقبل الموت بعورته، فقام النجاشي الشاعر ـ وكان مع العراقيّين في جيش علي ـ فقال:

أفي كلِّ يومٍ فارسٌ تندبونَه ... له عورة وسطَ العجاجةِ بادية

يكفُّ بها عنه علي سلاحَهُ ... ويضحكُ منها بالخَلاء مُعاويةُ[3]

وتلك هي شيم الكريم إذا قدر عفا، والله تعالىٰ كريم يعفو ويصفح، إلّا في حقوق العباد بعضهم مع البعض، فهذا هو الذنب الذي لا يغفره الله.

المبحث الرابع: حول مسألة البداء

وقد يسأل سائل: إذا كان الله يقول: ﴿لا تَبدِيْلَ لكَلِمَاتِ اللهِ﴾ فكيف يقول الشيعة بالبداء؟ والبداء هو أن نقول مثلاً: إن الله قدَّر أن يكون عمر فلان عشرين سنة، فيبدو له أن يجعل عمره أربعين إذا وصل رحمه، أو إذا فعل الخير. وهذا الرأي

---

(١) المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٤٦٥، البداية والنهاية ٢: ١١.

(٢) ديوان أبي فراس: ١٥٧.

(٣) وتمامها:

بدت أمسِ من عمرٍو فقنّع رأسه ... وعورة بسر مثلها حذو حاذية

فقولا لعمرٍو وابن أرطاة أبصرا ... سبيليكما لا تلقيا الليث ثانية

انظر: الفصول المهمّة (ابن الصبّاغ المالكي): ٩٠، النصائح الكافية: ٩٣، وقد مرّ في ج١ ص٣٨٨ من كتابنا هذا.

تعيبنا به بعض الفرق[١]؛ فهماً منهم أننا نقول: إن الله كان جاهلاً ثم علم. وهذا كفر صريح.

والجواب: أن هذا ليس معنىٰ البداء عندنا، بل إن معناه أن الله يُظهِر ما أخفاه، لا أن يغير وعده. فالله تعالىٰ منذ البداية كان قد قدّر عمراً معيّناً لكن هذا العمر المقدّر بهذا القدر مشروط بعمل ما كصلة الرحم؛ ولذا ورد في الحديث: «**صلة الرحم تعمِّر الديار وتزيد في الأعمار ولو كان أهلها غير أخيار**»[٢]. فكيف تطيل صلة الرحم الأعمار إذا كان الله تعالىٰ قدر لي ولك عمراً معيناً لا يتجاوز حده؟ فإذا لم يكن البداء موجوداً فلمَ يتصدّق الإنسان؟ أليس المتصدّق يطلب من الله أن يزيد في عمره ورزقه؟ فإن كان الرزق والعمر محدّدين فلمَ الصدقة؟ ولذلك يقول الإمام عليه السلام: «**ما عُبد الله بشيء مثل البداء**»[٣].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «**من قال: إن الله علم بعد جهل فقد كفر**».

ثم قالت الآية: ﴿**ذَلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيم**﴾ فرضوان الله تعالىٰ هو الفوز العظيم، وأي فوز أعظم من هذا الفوز؟ كانت امرأة[٤] من الصحابة تحمل علىٰ جمل أخاها[٥] وزوجها[٦] وابنها لتدفنهم، وقد قتلوا في واقعة أحد، فلما رأت النبي صلى الله عليه وآله تركت خطام ناقتها وجاءت مهرولة نحوه، وقالت: وإنك لحيٌّ يا رسول الله؟ كلّ

---

(١) نقل الرازي والشهرستاني عن سليمان بن جرير أنه قال: إن أئمة الرافضة وضعوا مقالتين لشيعتهم لا يظفر معهما أحد عليهم: البداء والتقية. المحصل ٢ ١٨٢، الملل والنحل ١: ١٦٠، وقد مرّ في ج٢ ص٢٢٢ من كتابنا هذا.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٤٨١ / ١٠٤٩، نزهة الخاطر (الحلواني): ١٥ / ٢٧.

(٣) الكافي ١: ١٤٦ / ١، التوحيد: ٣٣٢ / ١.

(٤) هي هند بنت عمرو بن حزام.

(٥) عبد الله.

(٦) عمرو بن الجموح.

مصيبة بعدك جَلَل[1].

لقد استولىٰ حبّ النبيّ ﷺ علىٰ قلب هذه المرأة، فما رأيك بحب الله لو استولىٰ علىٰ القلب؟ ولهذا تستطيع أن تفسّر اللحظات الأخيرة التي مرّ بها الإمام الحسين عليه السلام، والتي يحدّثنا عنها نافع بن هلال حيث يقول: مررت عليه فرأيت جبينه مشرقاً، وشفتيه تتحركان، فأصغيت إليه فإذا هو يقول: **«صبراً علىٰ قضائك يارب، ياغياث المستغيثين، لا معبود سواك، لك العتبىٰ يارب»**[2].

فهو عليه السلام يرمق السماء بطرفه ويطبق شفتيه علىٰ ذكر الله، لكنه يطبق عينيه علىٰ منظر من أشد المناظر إيلاماً ألا وهي نار تلتهب في المخيم. ففرّت بنات الزهراء عليها السلام يتراكضن من خباء إلىٰ خباء ومن خيمة إلىٰ خيمة:

كـلٌّ تـلوذُ بأخـرىٰ خـوفَ آسِـرِها … لَوذَ القَطا خوفَ بأسِ الباشِقِ الضَّخِمِ

والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين. يقول حميد بن مسلم: نظرت إلىٰ امرأة علىٰ باب خباء أوشكت النار أن تأخذها فدنوت منها، وقلت: أمة الله، النار قاربتك. فلم تجبني، قلت: أمة الله، النار علقت بأطراف ثيابك. فلم تجبني، فقلت في الثالثة بأعلىٰ صوتي: النار أوشكت أن تلتهمك! فأدارت وجهها إليّ قائلة: يا ظالم، أنا أرىٰ النار، ولكن لنا عليل في هذه الخيمة، ثمّ دخلت عليه فقالت: عمة ماذا نصنع؟ قال: «فروا علىٰ وجوهكم في البيداء». يقول السيد الحلي:

مشىٰ الدهرُ يومَ الطَّفِّ أعمىٰ فلم يَدعْ … عِـماداً لهـا إلا وفـيه تَـعَثَّرا

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٢١٠، شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٦٢، مواهب الجليل ٥: ٢٩٢.
وفي رواية المعتزلي أنها تلت بعد ذلك: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ الأحزاب: ٢٥. ثم قال: «قلت : هكذا وردت الرواية، وعندي أنها لم تقل كل ذلك، ولعلها قالت: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾ لا غير، وإلّا فكيف يواطئ كلامها آية من كلام الله تعالى أُنزلت بعد الخندق، والخندق بعد أُحد؟ هذا من البعيد جداً».

(٢) ينابيع المودّة ٣: ٨٢.

وجَشّمَها المَسرىٰ ببيداءَ قفرةٍ ... وَلم تدرِ قبلَ الطَّفِّ ما البِيدُ والسُّرىٰ
ولمْ ترَ حتىٰ عينُها ظِلَّ شخصِها ... إلىٰ أن بَدَت في الغاضريَّةِ حُسَّرا[1]

* * *

يا رسولُ البدارَ إن أنت سارٍ ... عُج إلىٰ طَيبةٍ بغيرِ اعتذارِ
قِف ونادِ برنَّةٍ وانكسارِ ... (قَوِّضي يا خيامَ عَليا نِزارِ

فَلَقَد قَوَّضَ العِمَادُ الرَّفِيعُ)

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلي: ٧٨.



﴿ ٥٤ ﴾

موقف الإسلام من الجور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: سبب نزول الآية الكريمة

إن معظم المفسرين يذكرون أن الآية الكريمة نزلت في أصحاب بدر؛ فهي تعلن أنهم سيتقاتلون يوم الجمل، فقد كان في معسكر البصرة جملة من الصحابة، وفي معسكر الإمام عليه السلام كذلك. فالآية نزلت في زمن النبي صلى الله عليه وآله مشيرة إلى هذا المعنى. وهي من الآيات التي أشار فيها القرآن الكريم إلى ما سيكون. وإلى هذا يذهب الفخر الرازي[2]، والطبرسي صاحب (مجمع البيان)[3] وغيرهم[4]. والآية بهذا ترتبط بموضوعنا الذي سأبيّنه إن شاء الله.

---

(١) الأنفال: ٢٥.
(٢) التفسير الكبير ١١٥: ١٢٠.
(٣) مجمع البيان ٤: ٤٥٢.
(٤) انظر جامع البيان، المجلد ٦، ج٩: ٢٨٨ / ١٢٣٤٤، شواهد التنزيل ١: ٢٧٣ / ٢٧٣، تفسير القرآن العظيم ٢: ٣١١.

ولم يكن الإخبار مقتصراً علىٰ الآية الكريمة فقط، وإنما أخبرهم النبي ﷺ بذلك أيضاً ووضع هذه الصورة أمامهم، يقول الرازي: كان النبي ﷺ يوماً يمشي ومعه الزبير يسايره، وجاء علي بن أبي طالب، فتبسّم له الزبير ورحّب به، فقال له النبي ﷺ: «يا زبير، أتحبّه؟». قال: نعم يا رسول الله، أُحبّه كحبّ ولدي أو أشدّ. قال ﷺ: «كيف بك إذا خرجت إليه تقاتله؟».

وبقيت الكلمة في وعي الزبير، فكان يقول: كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم أننا المعنيون بها[1].

وهذا أحد مضامين الآية، وفيها مضامين أُخرىٰ سنتناولها تباعاً إن شاء الله.

المبحث الثاني: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾

الفتنة: هي الواقعة التي يفتتن بها الناس؛ سواء كانت في المجال السلمي أو الحربي. فكل واقعة ينقسم حولها الناس ويفتتنون بها، ويتقاتلون من أجلها هي فتنة. ففي الأحوال السلمية مثلاً يُعَدُّ انتشار بعض المنكرات فتنة؛ لأن الناس ينقسمون حولها، فبعضهم يقول: إنها ظاهرة سليمة تخدم المجتمع، والآخر يراها ظاهرة سلبية تفسد المجتمع، فيحدث الصراع فيما بينهم حولها.

وفي مجتمعنا المعاصر مثلاً ينادي الكثير من الناس بضرورة اندماج المرأة في كلّ فعاليات الحياة وأنشطتها على اعتبار أنها تشكّل نصف المجتمع، وإذا كانت كذلك فلا يجوز الحجر عليها، بل لا بد من انطلاقها ودخولها المعمل والحقل والمجالات الحيوية العامة. ولو كان ذلك على حساب بيتها وأولادها. مع أن هناك أعمالاً لا تناسب المرأة، فلا يناسبها مثلاً أن تكون تحت آلة ثقيلة وهي في فترة الحمل؛ لأن ذلك ينعكس على صحّتها وصحّة جنينها، ويعرّضها إلى آلام كبيرة.

---

(١) التفسير الكبير ١٥: ١٢٠، وانظر شواهد التنزيل ١: ٢٧٣ / ٢٧٤.

والحمل بحدّ ذاته عمل مرهق، فهي مجاهدة في المجتمع لكونها تحمل له امتداده وهو الطفل، ولولا الحمل والولادة لانقرض المجتمع. فهي في ساحة جهاد وعمل فعلي، ولا داعي لتكليفها بعمل شاقّ إضافي.

فنلاحظ إذن أن الناس انقسموا حول هذه النقطة، فمنهم من يقول بضرورة انطلاقها؛ لأنها نصف المجتمع، وقسم يقول: إن ذلك سيكون على حساب الأخلاق والأطفال والأُسرة والمجتمع، حيث سيحرم الأطفال من العطف والرحمة والرعاية، فينتج من ذلك مشاكل اجتماعية وأخلاقية. فيجب ألّا تخرج المرأة للعمل.

فهذا اللون من الصراع فتنة، ولا بد أن نحتكم فيه إلى الضوابط التي وضعها الشارع حول مدى حق المرأة في العمل، وما الذي يضرها، وما الذي ينفعها. وليس من المعقول أن يأتي بعد (١٤) قرناً من الزمان مَن يعلّم الإسلام موقفه من المرأة؛ لأن الإسلام هو الوصفة الإلهية السماوية للإنسان، والله أرحم بعباده من الناس، وعندما خطّط للمجتمع جعل المرأة في مكانها، وأعطاها الحقّ في العمل في حالات معيّنة، ومنعها في حالات أُخرىٰ. والله تعالىٰ لم يرد للمرأة أن يظلمها؛ إذ ليس له جلّ وعلا مصلحة في أن يظلمها بأن يعطي رفاهية للذكر على حسابها، فهم كلّهم عباده، وهو ربهم. ومن غير الممكن أن تكون لدينا تعاليم من السماء تظلم نصف المجتمع لحساب النصف الآخر.

فالفتنة التي تكون في المجال السلمي يأمرنا الله بالابتعاد عنها، وأن ننظر جهة الحقّ فنميل إليها، وذلك بالرجوع إلى الطبيب الاجتماعي وهو الفقيه، فكما أن الطبيب البدني يتخرّج من كلّية الطب، فإن الطبيب الاجتماعي يتخرّج من الأكاديمية العلمية الإسلامية. وإذا كان عنده قابلية ولياقة فعلينا أن نسأله عندما

تطرأ مثل تلك الأُمور.

ومن الأمثلة على الفتنة في المجال السلمي ما يرويه القرطبي حيث يقول: كان ابن وهب يقول: يجب الخروج من المجتمع الذي يصنع فيه المنكر علانية، اقتداء بفعل أبي الدرداء[1]. فلو صار المنكر في بلاد ما معروفاً، وليس هناك من يستنكر فعلى المسلم أن يخرج منه إلى بلد يحافظ فيه على أهله وأُسرته ونفسه؛ لأن المنكر إذا تفشّى في المجتمع فالإنسان أحياناً لا يستطيع أن يخرج من نطاق المجتمع، فيجرفه الإطار الاجتماعي.

فمثلاً على صعيد التلفزيون هناك بعض القنوات المفيدة التي تعلّم النظريات، أو التي تكون ذات فوائد عقلائية، أو حتى بعض التسلية البريئة، ولكن فيه قنوات تنتهي إلى المنكر، وتفسد الشخص وعائلته. فإن قلنا للبعض: حاول أن تمنع عائلتك عن المنكر، قال: لا أستطيع؛ ذلك أن التيار أصبح عند الناس هكذا. في حين أن هذا التيار نحن الذين نصنعه، ومن يرد أن يصلح فعليه أن يعاكس التيار، فإن لم يعاكسه أخذه السيل وأصبح مثل الآخرين.

فالقرآن يقول: اتقوا هذه الفتن؛ لأنك عندما تصاب بمرض في الجسم تذهب إلى الطبيب، لكن إن أصابك الوباء الأخلاقي والاجتماعي فعليك ألّا تبقى متفرجاً، والمسؤولية هنا قد تكون أكبر. فعلينا أن نحمي أنفسنا من الأمراض الاجتماعية التي يفتتن بها الناس.

أما فعل أبي الدرداء المذكور في كلام القرطبي فهو أنه اختلف مع معاوية، والاثنان من الصحابة، والسبب أن معاوية كان يبيع الذهب المصنّع كالأواني الذهبية بثمن أكثر منه في الموزون، وهذا ربا بإجماع المسلمين؛ لأنه زيادة

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣٩٢.

علىٰ أحد المتساويين جنساً مما يكال أو يوزن، فلما قيل لمعاوية في ذلك قال: لا أرى بذلك بأساً[١].

والناس عندما يرون الخليفة كذلك يكونون مثله؛ إذ هم على دين ملوكهم، كما نرى نحن الآن أن البنوك تتعامل بشكل علني بالربا، مع العلم أن للربا آثاراً ماحقة، ومن آثاره النقيصة من حيث تُطلب الزيادة؛ فيكون الأمر عكس ما أُريد له، ومن يعمل بالربا فإنما يريد الزيادة. والواقع أن الحال يصبح عكس ذلك، فليس هناك من يعمل بالربا وتكون عنده زيادة أبداً: ﴿**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**﴾[٢]. وهذا معلوم بالتجربة، وحتى في البلدان المتقدّمة لم تستطع الأموال الربوية أن تحقّق الرفاه الاجتماعيّ أبداً؛ لأن الله وعد بمحق الربا.

فكان معاوية يقول: لا أرى بذلك بأساً. فقال أبو الدرداء: لا أُساكنك ببلد أنت فيه؛ لأن الله أمرني أن أتّقي ما يفتتن به الناس، حيث قال: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾. ثم خرج من الشام. فكان أبو وهب يقول: أقتدي بفعل أبي الدرداء. باعتبار أنه صحابي، وفعل الصحابي حجّة عند مذاهب المسلمين.

وهنا مفارقة أُلفت إليها النظر، وهي أن السنة ما هي إلّا فعل النبي ﷺ أو قوله أو تقريره؛ فالفعل والقول من النبي ﷺ واضحان، أما التقرير فهو أن أحداً يفعل شيئاً أمام عين النبي ﷺ فيقرّه عليه، ولا يعترض على فعله. أما مذاهب المسلمين فيتوسّعون في ذلك، ويعتبرون فعل الصحابي سنة أيضاً؛ مدّعين أن الصحابي إذا فعل شيئاً فلا بد أن يكون قد رأى النبي ﷺ فعله، أو أمره به، أو أقرّه عليه. فإن كان رأي الصحابي سنة فالإمام الحسن والحسين عليهما السلام صحابيان، فلِم لا نعتبر

---

(١) المصدر نفسه، الموطأ ٢: ٦٣٤، المستصفىٰ: ١١٩.

(٢) البقرة: ٢٧٦.

فعلهما سنة؟

المبحث الثالث: إشكالية شمولية الفتنة

ثم انتقلت الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، وهنا يرد السؤال التالي: ما ذنب هؤلاء غير الظالمين الذين لم يشتركوا في الفتنة، حتى تصيبهم؟ إننا نقرأ في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1] ونقرأ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[2]؛ فإن كان الإنسان يؤاخذ بعمله، فما ذنب هذا الذي تصيبه الفتنة وهو لم يصنع شيئاً؟ فالآية تقول: إن الفتنة لا تصيب الظالمين فقط، وإنما تتعدّى لكلّ المجتمع.

جواب الفخر الرازي حول ذلك

يجيب الفخر الرازي على ذلك بجوابين، ولا يمكن أن نعتبرهما رأيين ناهضين كما سترى[3]:

الرأي الأوّل: أن لله حق التصرّف في ملكه

فالله خالق الإنسان ومالكه، وهو يتصرّف فيه كيف يشاء، وليس لأحد أن يعترض عليه في التصرف في ملكه.

وهذا ليس جواباً؛ لأن الله وإن كان يتصرّف بعباده ولا يُسأل عن ذلك، لكنه لا يتصرف بما هو خلاف العقل؛ لأنه تعبدّنا بالعقل وأمرنا أوامر لا تصطدم مع العقل العام، فليس من الممكن أن يظلم الناس؛ لأن الظلم خلاف العدل. فالله تعالى أمر بالعدل وعمل به، وأقام السماوات والأرض على أساسه، فلا نستطيع القول: إنه يتصرّف بملكه كيف يشاء، فحاشا لله أن يعمل القبيح. إذن إصابة البريء بالفتنة

---

(١) الأنعام: ١٦٤، الاسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧.

(٢) المدثّر: ٣٨.

(٣) التفسير الكبير ١٥: ١٢٠ـ ١٢١.

ظلم قبيح، ولو أنك الآن رأيت من يعتدي على بريء ولو كان ملكاً له فإنك تستنكر ذلك في نفسك.

الثاني: إثابة من أصابته الفتنة

فإن في هذا لطفاً وثواباً لمن أصابتهم أضرار الفتنة وهم لم يشتركوا فيها. فالله بلطفه سيعطيهم العوض عن هذا الظلم الذي أصابهم.

وهذا عبث كما ترى؛ إذ يمكن من البداية ألّا يعرضه للعقاب، ولا يعطيه الثواب، والله منزّه تعالىٰ عن العبث.

فالرأي الصحيح أن المجتمع إزاء الفتنة ينقسم قسمين: قسم يدخل في صلب الفتنة ويأتي المنكر الذي يضرّ المجتمع، والقسم الآخر يتوجّب عليه أن ينكر المنكر، ويأخذ على يد أهله، ويأمر بالمعروف. فترك الإنكار من هؤلاء ظلم، والظلم يعاقَب عليه الإنسان. تقول الرواية عن النبيﷺ في حديث حسن[1]: **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم اللّه بعقابه»**[2].

المبحث الرابع: الآراء في السلطان الجائر

ولو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا أن عقائد المسلمين حول هذه النقطة شطران: القسم الأول الشيعة والمعتزلة، والقسم الآخر المذاهب الإسلامية الأُخرى.

رأي الأشاعرة في المسألة

فرأي المذاهب الإسلامية الأُخرى أن من يحكم المسلمين حتى لو كان

---

(١) نقل القرطبي عن أبي عيسىٰ أنه قال: هذا حديث حسن. الجامع لأحكام القرآن ٦: ٢٤٢.

(٢) المصدر نفسه، مسند أحمد ١: ٧، الجامع الصحيح ٣: ٣١٦ / ٢٢٥٧، كنز العمال ٣: ٧٧ / ٥٥٧٥.

فاسقاً ظالماً جاهلاً، فليس من حقّ أحد أن ينكر عليه أو يخرج؛ لأن الإنكار يؤدّي إلى سفك الدم، والصراع والمشاكل. وهذه النظرية تجدها في كتاب (المواقف)[1] مثلاً، و(الأحكام السلطانية) للماوردي، و (مآثر الإنافة) للقلقشندي، و(المذاهب الإسلامية) لأبي زهرة، وغير هؤلاء[2]. بل إنهم يقولون:

---

(١) المواقف في علم الكلام ٨: ٣٥١ ـ ٣٥٣ (ط مصر ١٣٢٥ هـ).

(٢) روى مسلم في صحيحه عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون بعدي أيمّة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس». قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطِع».

وروى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من رآى من إمامه شيئاً يكرهه فليصبر؛ فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، مات ميتة جاهلية».

وروى: «ليس أحد خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلّا مات ميتة جاهلية».

وروي عن ابن عمر أنه حين كان من أمر الحرة ما كان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجّة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية». صحيح مسلم ٦: ٢٠ – ٢٢.

وقال النووي: «وأما الخروج عليهم ـ أي سلاطين الجور ـ وقتالهم، فحرام؛ بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق».

ثم قال: «وقال جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: لا ينعزل ـ أي السلطان الجائر ـ بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق، ولا يُخلع، ولا يجوز الخروج عليه بذلك، بل يجب وعظه وتخويفه؛ للأحاديث الواردة في ذلك». صحيح مسلم بشرح النووي ١٢: ٢٢٩، وانظر سنن البيهقي ٢: ١٥٨ – ١٥٩ / ٨.

وقال القاضي الباقلاني ما ملخصه: قال الجمهور من أهل الإثبات وأصحاب الحديث: لا ينخلع الامام بفسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب الأبشار وتناول النفوس المحرمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود، ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في كل شيء مما يدعو إليه من معاصي الله. واحتجّوا في ذلك بأخبار كثيرة متضافرة عن النبي ﷺ وعن الصحابة في وجوب طاعة الأيمة وإن جاروا واستأثروا بالأموال، وأنه قال ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع، ولو لعبد حبشي، وصلّوا وراء كلّ برّ وفاجر».

حتى لو وصل إلى الحكم جاهل أو ظالم، فيجب ألّا تنام ليلة واحدة وليس في عنقك بيعة له[1].

رأي الإمامية والمعتزلة

ويقابل هذا الفكر فكر أهل البيت عليهم السلام. قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[2]، وقال النبي صلى الله عليه وآله على ما يرويه الإمام الحسين عليه السلام: **«من رأى منكم سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرمات الله، ناكثاً لعهد الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بقول ولا فعل كان حقاً على الله أن يدخله مدخله»**[3].

وإنما حورب مذهب أهل البيت من قبل عبد الملك بن مروان ومن سبقه أو لحقه؛ لأنه يمثل فكراً خطراً عليهم، فحاربوه مثلاً بالروايات التي تنسب إليهم الكذب، وتفتري عليهم.

من مفتريات الشاطبي على الشيعة

وعندما ترجع إلى المصادر تجد أن هناك قضايا تنسب لهذا المذهب لا علاقة له بها لا من قريب ولا من بعيد. يقول الشاطبي صاحب كتاب (الاعتصام): إن الشيعة يجوّزون أن يتزوج الإنسان (١٨) امرأة في وقت واحد. ففي أي مكان وجد الشاطبي هذا الافتراء؟ في حين أن الإمام الصادق عليه السلام يقول: **«لا يحلّ لماء رجل أن يجري في أكثر من أربعة أرحام من الحرائر»**[4].

☚ وروي أنه قال: «أطعهم وإن أكلوا مالك وضربوا ظهرك». التمهيد: ١٥٢ (ط القاهرة ١٣٦٦ هـ).

(١) انظر الهامش السابق.

(٢) هود: ١١٣.

(٣) انظر: بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٠٤.

(٤) فقه القرآن ٢: ٩٩.

ويقول: إن الشيعة يفسّرون قوله تعالى: ﴿مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾[١]، بأن المثنى اثنين مع اثنين، فيكون الناتج أربعة، ثم ثلاث مع ثلاث فيكون الناتج ستة، ورباع أي أربعة مع أربعة، فيكون الناتج ثمانية، ثم يكون المجموع (١٨) امرأة![٢] ومن يمرّ بهذه النظرية يقف موقفاً سلبياً من الشيعة بلا شك، لكنها افتراء لا واقع له. ومن المخجل أن نرى في تاريخ المسلمين مثل هذا التهافت؛ لأن المسلمين اليوم بأمسّ الحاجة إلى التماسك والتعاون، والدين اليوم يتعرض إلى إبادة، والمجتمع إلى تفكّك وانحلال، ونحن بأمسّ الحاجة إلى الاتّحاد والتلاحم والتراحم، ونحن نقف موقف المتفرّج من اليهودية وهي تفتك بنا، وتعبث بمقدساتنا. يقول الإمام الصادق ﷺ لأحد أتباعه: «ابتلينا بثلاث: من نقلوا عنا ما لم نقل، ومن قالوا فينا ما لا نستحقّ، ومن نسبوا إلى أعدائنا ما ليس فيهم، وشتموهم حتّىٰ شتمونا»[٣].

فلا بد أن نكون حذرين؛ لأن في التاريخ دسّاً وحسداً ومطامع وأهواء، والإمام كما ترى يحذّر من هذه الأصناف الثلاثة: فالصنف الأوّل ينقل عن الأيمّة ما لم يقولوه، والأيمّة يقولون: «ما أتاكم عنا فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوا به، وما خالفه فاضربوا به عرض الجدار»[٤]. والصنف الثاني المغالون، والثالث من راحوا ينسبون إلى أعداء أهل البيت ما ليس فيهم، ثم سبوهم، فكانت

---

(١) النساء: ٣.

(٢) مرّ مثل هذا الاتّهام الباطل الشنيع وردّه في ج ٢ ص ٣١٩ من موسوعتنا هذه.

(٣) في الإرشاد ١: ٢٨٢، وفي شرح نهج البلاغة ٧: ٧١ عن أمير المؤمنين ﷺ مانصّه: «يا أهل الكوفة، منيت منكم بثلاث واثنتين: صم ذوو أسماع، وبكم ذوو كلام، وعمي ذوو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء».

(٤) الاستبصار ٣: ١٥٨ / ٥٧٣، وفيه: فاطرحوه بدل: فاضربوا به عرض الحائط. مجمع البيان ١: ٣٩.

النتيجة أن أعادوا السب عليهم‌عليهم السلام.

فالآية تريد أن تقول: لا بد أن تنكروا المنكر، ولا يقولن أحد: لا شأن لي بذلك، فإن الفتنة ستصيبه أيضاً. يقول الحديث: **«ثلاثة من الذنوب تُعجّل عقوبتها ولا تؤخر إلىٰ الآخرة: عقوق الوالدين، والبغي على الناس، وكفر الإحسان»**[1]. لأن عقوق الوالدين تخريب للمجتمع، فلا يمكن أن يكون في المجتمع انسجام أو تماسك إذا لم يكن الابن منسجماً مع الوالدين. فالمجتمع نسيج، فإذا بقيت فيه ثغرة غير متلائمة صار ذلك عيباً فيه. والبغي على الناس أن يعتدي أحد على الناس، والباقون ينظرون إليه، فهم بهذا اشتركوا معه في الجريمة بسكوتهم عن الظلم، والسكوت عن الظلم ظلم. وغريزة عدم السكوت عن الظلم أُودعت حتى في الحيوانات.

وبالعكس، هناك روايات تقول إن التظالم إذا ارتفع من الناس عمّهم الخير والرخاء، وهذا ما نلاحظه الآن في البلدان الكافرة، فهم وإن كانوا يمارسون المنكر علناً، لكن الله لا يعجّل لهم العقوبة في الدنيا، إنما يغدق عليهم بالخير، وذلك أنهم لم يتظالموا، فرحمهم الله. وبالعكس **﴿إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾**[2].

وأما كفر الإحسان فإنك عندما تحسن لإنسان لا تتوقع منه أن يتحوّل إلى عدوّ لك على الأقلّ، فهناك نفوس مريضة لئيمة، تحسن إليها العمر كله، لكنها تُعاقبك في النهاية أشدّ المعاقبة.

---

(١) الأمالي (المفيد): ٢٣٧ / ١، الأمالي (الطوسي): ١٤ / ١٧.

(٢) الرعد: ١١.

ومن هنا تدرك معنى الكلمة المشهورة: «اتّقِ شرّ من أحسنت إليه»[1]. فمن الناس من يولّد عنده الإحسان شعوراً بالنقص، ويجعله ينتقم. يقول الطبرسي في (مجمع البيان) نقلاً عن الثعلبي: قال النبي ﷺ لعمار بن ياسر: «يا عمار ستكون من بعدي هنات، حتى يختلف السيف فيما بينهم، فإذا رأيت ذلك فالزم هذا الأصلع الجالس على يميني فإنه لا يدعوك إلى ردى ولا يصدك عن هدىً. يا عمار، إذا سلك الناس وادياً، وسلك علي وادياً، فاسلك وادي علي. يا عمار، طاعة علي طاعتي، وطاعتي طاعة الله»[2].

وكان ﷺ وعد عماراً أن يكون آخر شرابه من الدنيا ضياحاً من لبن، وتقتله الفئة الباغية[3].

والغريب أنني رأيت أحد الحفّاظ عندما يستعرض واقعة صفين يقول: وعندما قتل عمار مع علي اتّضح أن الحقّ مع علي[4]. أي أن الحقّ لم يتّضح إلّا عندما قتل

---

(١) قال الفتني: «في المقاصد: اتق شرّ من أحسنت إليه، ولا أعرفه، ويشبه أن يكون كلام بعض السلف، وهو محمول على اللئام». تذكرة الموضوعات: ٦٨ ـ ٦٩.
وقال العجلوني: «اتق شرّ من أحسنت إليه، وفي لفظ: من تحسن إليه. قال في (الأصل): لا أعرفه، ويشبه أن يكون من كلام بعض السلف، قال: وليس على إطلاقه بل هو محمول على اللئام دون الكرام؛ ويشهد له ما في (المجالسة) للدينوري عن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه): الكريم يلين إذا استعطف، واللئيم يقسو إذا لطف». كشف الخفاء ١: ٤٣ ـ ٤٤ / ٨٦.

(٢) مجمع البيان ٤: ٤٥٣.

(٣) انظر: دعائم الإسلام ١: ٣٩٢، الاختصاص: ١٤، مسند أحمد ٢: ١٦١، ١٦٤، ٢٠٦، ٣: ٥، ٢٢، ٢٨، ٩١، ٤: ١٩٧، ١٩٩، ٥: ٢١٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٦: ٢٨٩، ٣٠٠، ٣١١، ٣١٥، صحيح البخاري ٣: ٢٠٧، صحيح مسلم ٨: ١٨٦، البداية والنهاية ٣: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، وغيرها كثير.

(٤) قريب منه مقولة الشهاب الخفاجي: «وفي الحديث عنه ﷺ: «إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق». وابن سمية هو عمار، كان مع علي (كرّم الله وجهه)، وهذا هو الذي ندين الله به، وهو أن عليا (كرّم الله وجهه) على الحقّ، ومجتهد مصيب في عدم تسليم قتلة عثمان»، وإن كان ـ حسب الظاهر ـ في دلالة الحديث أمر آخر.

عمار، ولولا ذلك لما عرفنا أن علياًّ﵇ على الحقّ. وهذا من الإجحاف بعلي﵇، ونهجه القويم، فعلي﵇ لا يحتاج إلى مثل هذه التزكية.

المبحث الخامس: العقاب في الدنيا والآخرة

ثم قالت الآية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾، والعقاب يكون في الدنيا وفي الآخرة، أما في الدنيا فكما ذكرنا؛ لأن الإنسان إذا ساهم في الباطل فإنه يساهم في بناء إطار اجتماعي يؤدّي إلى الظلم وإلحاق الأذى بعباد الله. فالجريمة فيها إيحائية، وتشجيع على الجريمة، قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾[1]؛ لأن المعتدي يسهّل الاعتداء على الدماء، وتصبح الدماء شيئاً فشيئاً لا حرمة لها، ويصبح المجتمع غابة يأكل فيها القوي الضعيف. ومن يأكل الحرام يشجّع على أكله، وذلك أشبه بمن أُصيب بوباء جسدي معدٍ، فإذا نشرتَ الوباء الخلقي خلقت إطاراً اجتماعياً لذلك، والفرد بعد ذلك لا يستطيع التمرّد على هذا الإطار.

ومن ينشأ في مجتمع ملوث فإنه يتعلّم التلوث، وبالعكس؛ لذا أمرنا الله ألّا نصاحب إلّا من نثق به؛ لأن الصحبة تُعدي. فلا بد إذن من إنكار الظلم والمنكر.

تقول الرواية: «لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهَنّ عن المنكر أو ليسلطن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»[2].

إننا نصنع الكثير من المجرمين الظالمين، ثم ندعو الله أن يخلّصنا منهم، فهذه

(١) المائدة: ٣٢.

(٢) الكافي ٥: ٥٦ / ٣، تهذيب الأحكام ٦: ١٧٦ / ٣٥٢، وقد روياه عن أبي الحسن﵇، ورواه عن رسول الله ﷺ في مجمع الزوائد ٧: ٢٦٦.

الآفة نحن ربيناها في المجتمع، ولا بدّ أن تأكلنا في النهاية؛ وذلك بتركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أمّا عقاب الآخرة فالنار، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[1].

ومن هنا يثير البعض هذا التساؤل: هل كان تحرّك الإمام الحسين﵇ ضد هؤلاء صحيحاً؟ ألم يكن بوسعه أن يبقى في مكانه ولا يعرض نفسه للذين غدروا به أو الذين قتلوه؟ وهذا السؤال لا بد أن يطرح على الأنبياء أيضاً، فنقول لهم: لمَ خرجتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر؟ ولم جئتم بشرائع تغاير النظام الاجتماعي الذي كان سائداً في زمانكم؟

إن الأنبياء جاؤوا لإصلاح المجتمع، وهو يصلح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذان إن أمكن أن نفعلهما بالقلب كفى، وإلا فباللسان، فإن لم ينفع فباليد والسيف. وهذا هو نظام الحياة، وكلّ الأنبياء تعرضوا للأذى، وضحّوا من أجل رسالاتهم، وأي نبي لم يتعرّض للأذى أو الرمي بالحجارة أوالقتل؟ فهل ننكر عليهم كما يُنكَر ذلك على الإمام الحسين﵇؟

ثم إن الإمام الحسين﵇ أحد سيدي شباب أهل الجنة[2]، وهو إمام إن قام وإن

---

(١) الكهف: ٢٩.

(٢) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة عند إخواننا أهل السنة، انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، شرح النووي على صحيح مسلم ١٦ : ٤١، وغيرها كثير.

قعد[١]، ومن البلاهة أن نعلّمه تكليفه الشرعي، إنه وليد منبع الرسالة، وربي في حضن رسول الله ﷺ، يتلقى القرآن وفعلَ النبي ﷺ صباح مساء.

فنهوضه عليه السلام إذن ضمن القرآن والسنة؛ لأنه رأى فتنة ستعمّ المجتمع، ولا بدّ من إنكار المنكر. وللمجتمع مقدسات هي الأعراض ثم الأموال ثم الدماء ثم الكرامة، وكلّها عرّضها الأمويّون للهدر، وقد خرج الإمام الحسين عليه السلام؛ لأن الناس خرجوا عن المعروف، ونظروا إلى المنكر فأقّروه؛ وأقروا من تربّىٰ على الفهود والقرود، وراح يجلس على كرسي الخلافة ويقول:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنّمُ

خذوا بنصيب من نعيم ولّذة ... فكلّ وإن طال المدى يتصرّمُ[٢]

فلما وصل الأمر إلى هذا الحد تهيأ الإمام الحسين عليه السلام للعلاج، وكان العلاج يتطلب التضحية:

وما رأى السبط للدين الحنيف شفاً ... إلا إذا دمه في كربلا سُفكا

وما سمعنا عليلاً لا علاج له ... إلا بنفس مداويه إذا هلكا

واستعد الإمام الحسين عليه السلام للتضحية، وخرج من مسجد النبي ﷺ في المدينة يرفع شعار:

لا ذعرت السوام في فلق الصبـ ... ـح مغيراً ولا دُعيت يزيدا

يوم أُعطي من المهانة ضيماً ... والمنايا يرصدنني أن أحيدا[٣]

---

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٧، كفاية الأثر: ٣٨.

(٢) جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١.

(٣) البيتان لابن مفرّغ الحميري، وقد تمثل بهما عليه السلام. شرح الأخبار ١٤٤: ١٤٤، مثير الأحزان:

وأعدّ للأمر عدّته، وكان تخطيطه من المدينة، وكان يعرف أن المعركة تريد وقوداً، وناهيك به من وقود، أفلاذ كبد رسول الله ﷺ. وأبناء أمير المؤمنين وفاطمة ﷺ. وخيرة أبناء الأمصار من أصحابه المتهجّدين بالأسحار، العباد الأتقياء، بل كان الوقود يحتاج إلى التضحية حتى بالعيال، فهيأ عياله ونفسه لمقارعة الباطل.

نعم، وضع خدّه الشريف على قبر النبي ﷺ مودعاً ولسان حاله يقول: «**يا رسول الله، أنا فرخك وابن فرختك**»[1].

فكأن لسان حاله: إني خارج لآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر تجسيداً لأوامرك. وشكا إليه من أُمّته ثم ودّعه وخرج فمرّ على بعض بيوت الهاشميّين يودّعهم، وأخرج عياله بذلك الشكل الشجي، وقابلته إحدى بناته وهي فاطمة التي أراد أن يبقيها لأنها كانت مريضة لا قابلية لها على الحركة، فأتى بها إلى بيت أُم سلمة (رض)، فألحّت عليه فاطمة، ثم راحت تطوف على المحامل واحداً بعد واحد، تودّع أهلها، ثم جاءت إلى الإمام الحسين ﷺ فتعلّقت بركابه، وقالت: أبه خذني معكم، والله لا طاقة لي على فراقكم. قال: بنية، إنك مريضة لا طاقة لك على الحركة، ومن الممكن أن أرسل إليك فيما بعد من يصحبك إلينا إذا تغيرت الظروف.

ثم تركها في بيت أُمّ سلمة (رض)، وبقيت تنتظر الأخبار حتى رجع الناعي ينعى الإمام الحسين ﷺ، يقول المؤرّخون: خرجت تقوم ويقعدها الألم، وهي تقول: أيهذا الناعي، قف لي قليلاً حتى أسألك. فوقف بشر، فقالت: ما وراءك؟

☚ ٢٧، تاريخ الطبري ٤: ٢٥٣، شرح نهج البلاغة ٣: ٣٤٨، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٠٤.

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٧، الفتوح ٥: ١٩، مقتل الحسين ﷺ (الخوارزمي) ١: ١٨٦.

أخبرني عن الإمام الحسينعليه السلام. فقال لها: الخبر هناك عند قبر رسول اللهصلى الله عليه وآله، وسوف أُخبر الناس بذلك. فقالت له: أنا عليلة لا طاقة لي على الانتظار. فقال لها: بنية، عظّم الله لك الأجر بأبي عبد الله:

يناعي ريض بهونك　　　أنشدنك وجاوبني

* * *

ما بيه ألحگ بممشاك　　　عليلة والمرض ذبني

عندك علم باخباري　　　يو ماعندك انته اخبار

* * *

بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا



﴿٥٥﴾

مشروعية الجوار في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[1].

مباحث النص الشريف

المبحث الأوّل: معنى الملكوت

يذكر بعض المفسّرين رأيين في معنى الملكوت الوارد في الآية الكريمة:

الأوّل: أنه تمكّن المالك ممّا يملك

فالآية الكريمة في معرض التقرير، ومعنى التقرير هنا أنها تريد أن تلفت نظر الناس إلى أن هذا الكون بيد قوّة مدبّرة متمكّنة من أُصول الأشياء؛ لأن الملكوت صيغة مبالغة في المُلك، أي أنه أكثر المالكين تمكُّناً ممّا يملك. وللتوضيح أكثر نقول: إن الملكية هي إضافة اعتبارية، ونعبر عنها بأنها تمكين من الانتفاع، فعندما أقول: إن هذا البيت ملكي، فمعنى هذا أنني أتمكن من الانتفاع به، وإلّا فإن الملكية الحقيقية ليست موجودة عندنا؛ لأننا في الدنيا لا نملك الأشياء إلى الأبد، وإنما

---

(١) المؤمنون: ٨٨ ـ ٨٩.

تزول عنا بمجرد الموت. فملكيتنا للأشياء هي إضافة اعتبارية.

التمكين خارجي وذاتي

وإذا لم يُمكنّا الله تعالى من الانتفاع بها فلن ننتفع بها أبداً. فهناك تمكين خارجي، وتمكين ذاتي. فالتمكين الخارجي أن تكون عندي مثلاً حديقة جميلة مثمرة، ولكن فائدة هذه الحديقة لا تظهر لي إذا كنت أعمى لا أرى ما فيها، أو لا تتحقق لي إذا كنت مريضاً لا أستطيع أن آكل منها[1]؟ فهذا هو التمكين الخارجي. أما التمكين الذاتي فهو أن يكون الإنسان متمكّناً من شيء لكنه بخيل مثلاً. فليس لديه الاستعداد الذاتي للانتفاع بما يملك. فيبقى كالحمّال الذي يحمل لغيره ولا يستفيد هو ممّا يحمل[2]. فإذا لم يُمكنّا الله تعالى من الانتفاع بالأشياء فلن ننتفع بها أبداً.

فالملكية الواقعية هي لله عز وجل، فهو تعالى في غنىً عمّا يملك، أما نحن فنحتاج لما في أيدينا. ثم إن ملكية الله لا تزول في حال من الأحوال، فالمُلك لله الواحد القهار.

فعندما يعبر عن الملك بـ (ملكوت) فإنه إنما يشير إلى أرقى أنواع الملكية، وهي الملكية الحقيقية، فالله بيده ملكوت كلّ شيء.

الثاني: أنه خزائن كلّ شيء

فهو تعالى يعطي كلّ الأشياء المَدد؛ فلو ألقينا نظرة على نسبة الأوكسجين البالغة ٢١ ٪ من نسبة الهواء، وعرفنا أن سكان الكرة الأرضية يبلغون حوالي

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كم من أكلة منعت أكلات» نهج البلاغة / الحكمة : ١٧١.

(٢) وكذلك هم اليهود، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾. الجمعة: ٥.

خَمسة مليارات، وهم يستهلكون الأوكسجين باستمرار دون أن تنقص نسبته في الهواء، لعرفنا أنه تعالى بيده ملكوت كلّ شيء، وهكذا قل في الشمس التي يعطيها القدرة على أن تمدّنا بالشعاع، والكواكب التي يعطيها القدرة على التأثير في المجموعة التي تنتمي إليها، والبحار التي يعطيها القابلية على التبخير وتصعيد كمية من الماء وإرجاع الباقي ضمن دورة منتظمة للماء، وهكذا. فأُصول الأشياء بيد الله تعالى.

فالباري تعالى يريد أن يقرّرنا بنعمته، فيقول: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي مَن يستطيع أن يدّعي أن بيده ملكوت كلّ شيء غير الله تعالى؟ هل يستطيع الإنسان أن يدعي ذلك؟ انظر إلىٰ الإنسان كيف يعرف حجمه حين يأتيه الأجل، وكيف تتسلسل أمامه الخواطر من أنه سيترك بيوته وأمواله وأولاده وكلّ شيء، ثم يخرج والحسرة تملأ قلبه، يقول أمير المؤمنين ﷺ: «اجتمعت عليه سكرة الموت وحسرة الفوت»[١].

فالقرآن الكريم يريد أن يلفت أنظارنا إلىٰ أن كلّ ما في أيدينا سوف يؤخذ منا، ويُنتزع من أيدينا شئنا أم أبينا، ويبقى الملك الحقيقي بيد الله تعالى.

المبحث الثاني: العقود المعاطاتية

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فما معنى ذلك؟ نحن نفهم من الإجارة العقد الاجتماعي العملي، فهناك نوع من العقود نسميها «المعاطاتية»، وهي العقود الدارجة في المجتمع، كمن يركب في سيارة وهو يعرف أن أجرتها من هذا المكان إلى ذاك المكان دينار واحد، فهذا لا يحتاج إلىٰ عقد شرعي بأن يقول له: استأجرتك من هذا المكان إلى ذاك بمبلغ كذا.

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٠٩.

وكذا من يشتري من صاحب الدكان شيئاً يعرف قيمته، فهذا وأمثاله من العقود المعاطاتية لا تحتاج إلى عقد شرعي لفظي. وهذه العقود نسميها أيضاً العقود الاجتماعية.

وهناك نوع من العقود المعاطاتية الاجتماعية وهي أن يأتي شخص فيشتري بيتاً مجاوراً لبيت شخص آخر، فتترتّب حقوق الجوار تلقائيّاً دون أن يقول له: صرتُ جارَك، ولي الحقّ الفلاني والفلاني. أما حقوق الجوار، وحدودها وأحكامها، فهي ممّا نصّت عليه كتب الفقه[1]، وليست هي موضوع الحديث بشكل مفصّل هنا.

المبحث الثالث: معنى الإجارة عند المفسرين

إن موضوع حديثنا هو الاستجارة، أي طلب الإجارة، بأن يطلب أحد ما حماية الآخر ويستجير به. وللمفسرين في الإجارة الواردة في الآية الكريمة آراء:

الأوّل: أنها تكون يوم القيامة

فالله تعالى يُمكن أن يجير من يشاء يوم القيامة بأن يخلّصه من العذاب والملاحقة في الحقوق الخاصّة به تعالى، أما الحقوق التي تخصّ العباد فالله تعالى يحقّق العدل من خلال أخذ الحقوق لأصحابها. وليس لأحدٍ أن يطلب من الله أن يعفو عن أحد إلّا مَن أذن لهم ونصبهم لذلك: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ﴾[2]. وهؤلاء هم الأنبياء أو الأولياء، أما أن يُملي أحد على الله فيقول مثلاً: «حقّ على الله أن يعفو عن فلان»، فهذا غير ممكن أبداً في حقّه تعالى.

---

(١) انظر: تذكرة الفقهاء ٩: ٣٤٤، مسالك الأفهام ٣: ٩٩، وانظر محاضرة (الجوار في الإسلام) في ج١ ص٢٤١ ـ ص ٢٥٩ من كتابنا هذا، والمبحث الخامس من محاضرة (المنافقون) في ج١ ص٣٢٣ ـ ٣٢٦.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

ونحن في كثير من الأحيان نتجرأ على الله تعالى فنقول: لماذا لا يرفع الله تعالى هذا الظلم الذي يتعرّض له الشعب الفلاني أو الشخص الفلاني؟ ونحن لا ندري ما هي المصلحة، والله تعالى أرحم بعباده، ولا يمكن أن أكون أرحم منه، وهو أعلم بدقائق الأمور. وليس من الصحيح أن أقترح أنا على الله تعالى؛ ولذلك كان يقال لأبي ذر: ما تشتهي؟ فيقول: رحمة ربي[1].

الثاني: أنه تعالىٰ يجير ولا يمكن لأحد أن يجير عليه

فمعنى ﴿يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أنه يجير ولا يستطيع أحد أن يجير عليه تعالىٰ، على العكس من الإنسان، فالإنسان قد يجير إنساناً، ولكن يأتي مَن ينتزع منه المستجير انتزاعاً، وقد حدث ذلك في تأريخنا كثيراً، ولكن مَن يستطيع أن ينازع الله فينتزع المستجير منه؟ نعم، لا يقوى أحد على أن يجير عليه ليتخلى عن إجارته، فالأمور بيده، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[2].

الثالث: الإجارة التشريعيّة

أي الإجارة لمن حكم الله بإجارته، فهناك من يُجار شرعاً، وهناك من لا يجار شرعاً. فلو أن أحداً سفك دماً، ثم لجأ إلىٰ بيت الله مستجيراً به، فهل يجوز للحاكم الشرعي المستكمل للشرائط الشرعية أن يأخذ هذا القاتل من البيت قسراً ليقيم عليه الحدّ؟ الجواب: كلّا، لا يجوز أخذه ما دام في الكعبة؛ لأنه مستجير بالله. وعند العقلاء أن من يستجير بأحد فيحميه، فذلك من الأفعال المحمودة. وليس معنى ذلك أننا نغفل أخذ الحق، فالحكم الشرعي أنّ هذا القاتل لا يؤخذ قسراً من بيت الله تعالى، وإنما يُترك فيُحبس عنه الطعام والشراب حتى يضطر إلىٰ الخروج، ثم

---

(١) تفسير القمي ١: ٢٩٥، بحار الأنوار ٢٢: ٤٣٠.

(٢) الأنعام: ١٨.

يؤخذ فيقام عليه الحد. وهذا المعنى من المعاني الحضارية قبل أن يكون من المعاني الشرعية.

أحمىٰ من مجير الجراد

كان مُدلج بن سويد الطائي من رؤساء العرب، وكان يلقب بـ«مجير الجراد»، والسبب في ذلك أن هذا الرجل كان أيام الربيع يخرج إلىٰ الصحراء، فيضرب له خباء، فجاء الجراد يوماً فتجمع حول خيمته، فرفع طرف خبائه فرأى نفراً من طيّئ يحملون أوانيهم ليأخذوا الجراد من حول الخباء، فسألهم: ما الخبر؟ قالوا: هذا رِجل من الجراد هبط إلىٰ جانبك، ونريد أخذه ـ وكان العرب يسمون مجموعة الجراد رِجلاً[1] ـ فقال: إن هذا الجراد استجار بي، وليس لكم أن تأخذوه وهو حول الخباء، ثم نثر كنانته وهدد من يأخذ شيئاً من الجراد بالقتل، فحماه إلىٰ أن اشتدّت الشمس، فطار الجراد، فسُمّي «مجير الجراد»، وقيل: أحمىٰ من مجير الجراد[2].

وهذه المسألة من المسائل الحضارية التي قد نستغربها نحن اليوم، مع أنها ذات علاقة بمبدأ. ومن ذلك كانت العرب تستجير لا بالحي فقط، إنما تستجير حتى بالميت، فكانوا يستجيرون بقبر الكريم فيجارون. فكانت العرب تستجير بقبر حاتم بن عبد الله الطائي، فيأتي القاتل مثلاً إلى قبر حاتم فيربط ناقته إلىٰ جنب القبر، فيأتي ابن حاتم فيجيره، ويقوم بحُمالته[3]. وكان هذا المعنى متركزاً في

(١) ترتيب إصلاح المنطق: ١٧٢ ـ الرجل، الصحاح ٤: ١٧٠٤ ـ رجل.

(٢) الكنى والألقاب ٣: ١٥٢.

(٣) انظر الإصابة ٧: ٩٥ ـ ٩٦ / ٩٨٥٩، ومن ذلك ما روى ابن خلّكان أن الفرزدق كان كثير التعظيم لقبر أبيه، فلم يستجر به أحد إلّا أجاره، فمن ذلك أن الحجّاج بن يوسف الثقفيّ لمّا ولّىٰ تميماً القينيّ حرب بلاد السند، دخل البصرة فجعل يُخرج من أهلها من شاء، فجاءت

حضارتهم، وكانوا يعتزون به.

فهذا الرأي يعني أن الله في حالات معيّنة يحكم بأن البعض يجار، وليس من حقّ أحد أن يُشرّع فيقول: هذا يجار وهذا لا يجار. فالله تعالى يقول: إن هذا التشريع ليس من حق أحد سوى الله.

نعم لقد كان معنى الإجارة متأصّلاً في نفوس العرب إلى حدّ الإفراط، وكان الرئيس أو البيت الذي لا يُجير أحداً يُعَيّر بذلك. تقول العرب في أمثالها: «جارٌ كجار أبي دؤاد»، فقد كان أبو دؤاد إذا مات جاره أعطى الدية لأهله[1]، وقد كان للعرب نوع من الإيجابيات ومكارم الأخلاق في حضارتهم لا تجدها في حضارات أخرى.

نرجع الآن إلى تأريخنا، فالحضارة الإسلامية لم تنسخ كلّ ما كان في الجاهلية،

☚ عجوز إلى الفرزدق فقالت له: إني استجرت بقبر أبيك. وأنت منه بحُصَيات، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: إن تميم بن زيد القينيّ خرج بابن لي معه، ولا قرّة لعيني ولا كاسب لي غيره.

فقال لها: وما اسم ابنك؟ قالت: خنيس.

فكتب إلىٰ تميم مع بعض من شخص إليه:

تميمَ بن زيد لاتكونَنّ حاجتي ... بظهرٍ فلا يعيا عليّ جوابُها
وهب لي خنيساً واحتسب فيه منّة ... لعَبرَةِ أُمٍّ لايسوغُ شرابُها
أتتني فعاذَت يا تميمُ بغالبٍ ... وبالحفرَةِ السافي عليه تُرابُها
وقَد عَلِم الأقوامُ أنكَ ماجدٌ ... وليثٌ إذا ما الحربُ شبَّ شهابُها

فلمّا ورد الكتاب علىٰ تميم تشكّك في الاسم فلم يعرف أخنيس هو، أم حبيش: وذلك أن الحروف آنذاك غير منقوطة، فقال: انظروا من له مثل هذا الاسم في عسكرنا. فأصابوا ستّة مابين خنيس وحبيش، فوجّه بهم إليه. وفيات الأعيان ٦: ٨٨.

(١) تصحيفات المحدّثين (العسكري): ٨٣٩.

وفيه قال قيس بن زهير:

أحاول ما أحاول ثمّ آوي ... إلىٰ جار كجار أبي دؤادِ

المصدر نفسه، وانظر مجمع الأمثال ١: ١٠٩، ١٢٣.

وإنما أقرت الكثير من الأشياء، كقطع يد السارق، والدية وهما أمران كانا موجودين قبل الإسلام؛ لأن الإسلام أقرّ القضايا التي تتماشى مع العقل الإنساني. ومن جملة هذه القضايا قضية الجوار التي لعبت دوراً كبيراً في تأريخ الجاهلية وتأريخ الإسلام على حدّ سواء.

الرشيد يأمر بتشييد قبر أمير المؤمنين﵇

كان هرون الرشيد يقصد البقعة الواقعة بين النجف والكوفة ليصطاد فيها، وقد كان البحر إلىٰ جانب النجف، فالخليج يمتد إلىٰ النجف، وكانت السفن تأتي من الصين لترسو إلىٰ جانبها، وكانت النجف تسمى «ميناء الشرق إلىٰ الغرب»، وكانت العرب تسمي هذه المنطقة «خَدّ العذراء»[1]. فكان الرشيد يضرب أخبيته هناك، جالباً معه الخيول وأدوات الصيد وغير ذلك، ولم يكن قبر أمير المؤمنين﵇ في ذلك الزمان معروفاً، فكان يُخاف على قبره من الأمويين أن ينبشوه، وهذه من أبسط الأمور عند الأمويين، فقد نبشوا قبر زيد بن علي بن الحسين﵇ فأخرجوه،ثم صلبوه أربع سنين منكوساً على رأسه، حتى عششت الفاختة في جوفه[2]، ولذلك قابلهم العباسيون بالمثل، فنبشوا قبورهم وأحرقوهم. وكِلا العملين غير صحيح؛ لأنه مُثلة، والمُثلة حرام، وبعيدة عن روح الإسلام[3].

نعم، كان قبر أمير المؤمنين﵇ غير معروف لهذا السبب، فلو عثر عليه الأُمويون لنثروا عظامه نثراً، وليس ذلك بغريب، فنحن في هذا العصر أيضاً نشاهد أقلاماً وكتّاباً إذا مرّوا بعلي﵇ تحولوا إلىٰ نار تريد أن تُحرق هذا الرجل الذي كانت

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ٨٩، معجم البلدان ٢: ٣٤٨ ـ خدد، ٤: ٤٩ ـ الكوفة، فتوح البلدان ٢: ٣٤١ / ٧٠٢.

(٢) قريب منه ما في البداية والنهاية ٩: ٣٦٢.

(٣) قال الرسولﷺ: «إيّاكم والمثلة ولو في الكلب العقور». انظر نهج البلاغة / الوصيّة: ٤٧.

حياته للإسلام.

أما العباسيّون فكانوا أشدّ وطأة وقسوة مع علي ﷺ، حتى بلغ من شدّتهم أن أحد الفقهاء كان قد عرضت عليه مسألة فأفتى بها برأي علي ﷺ، فبعث وراءه الرشيد وقال له: نحن نهينا أن يُفتى برأي علي بن أبي طالب، فإما أن تنتهي، وإلّا قُطع رأسُك. يقول أحد الشعراء:

تالله إن كانت أميّةُ قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبرُه مهدوما

أسفوا على ألّا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبعوه رميما[1]

وإلى يومك هذا يبقى قبر علي ﷺ هدفاً لحقدهم، وإلّا فما ذنب القبر حتى تسلّط عليه المدافع؟ هل هذه رجولة وبطولة؟ إن هؤلاء يتصوّرون أن القبر إذا انهدم، فسوف ينهدم الكيان، وهذا من سخافاتهم، فإن تهاوت الأحجار فإن صرح المجد لا يتهاوىٰ أبداً.

على أية حال، خرج الرشيد فرأى لُمّة من الظباء، فأرسل عليها الكلاب والصقور، فكانت هذه الظباء تهرب فتصل إلىٰ أكمة مرتفعة قليلاً، فتلوذ بها، فترجع عنها الصقور والكلاب. وتكرر ذلك ثلاث مرّات. فاستغرب الرشيد وطلب مَن يسأله عن هذه الحال، فأتوه بأعرابي كان في ذلك المكان، فسأله عن هذه الأكمة، فسكت، فقال الرشيد: أراك سكتّ؟ فقال: أتكلم ولي الأمان؟ قال: نعم، فقال الأعرابي: هذا قبر علي بن أبي طالب ﷺ، وإن أولاده يأتون في كلّ سنة لزيارته، وهذه صخراتٌ موضوعة هنا، وقد أخفوه عن الأعين لئلاً يتعرّض للنبش. فقام

---

(١) الأبيات للبسّامي أبي الحسين علي بن محمد بن نصر. سير أعلام النبلاء ١٢: ٣٥، وقد نقل البيت الثالث فقط. البداية والنهاية ١١: ١٤٣.

الرشيد فتوضّأ وصلى ركعتين، ثم وضع رأسه على القبر وقال: يابن العم، أنا أعتذر إليك من موقفي مع ولدك، فهم يخرجون عليّ يقاتلونني، فأضطر أن أدفعهم عن نفسي. ثم أمر أن يُبنى على القبر بناية لها قُبّة، وأن يوضع عليها جَرّة خضراء على رأس القبة[1].

المبحث الرابع: موارد عدم إجارة المشرك

إذن يتلخّص عندنا أن الإجارة يقرّها الإسلام للجميع، بل وحتى للمشركين: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[2]. ولهذا يقول الفقهاء: لو أن أحداً من المشركين استجار بأحد من المسلمين في دار الحرب، فمن حقّه أن يجيره ويدخله مأمّنه، إلّا في حالتين: أن يكون جاسوساً، وأن يعرقل الجهاد.

ولهذا لما فتح النبي ﷺ مكة وهرب المشركون، كان لفاختة أُخت أمير المؤمنين ﷺ والمعروفة بأمّ هاني حموان، هما أخوا زوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وكانا ضمن من هرب عند الفتح، فدخلا بيت أُمّ هاني واستجارا بها، فأجارتهما.

تقول فاختة: بينا أنا كذلك إذ دخل عليّ رجل مدجج بالسلاح، ملثّم لا يُرى منه إلّا حدقتا عينيه، فرفع لثامه فإذا هو أخي علي ﷺ، فاعتنقته وقبّلته، فقال: «إني أسمع صوتاً في بيتك». فقلت: إنهما حمواي استجارا بي. فقال: «وتجيرين على رسول الله ﷺ؟». ثم وضع يده على قائم سيفه، ودنا منهما، فجعلا يذرقان منه كما تذرق الحبارى ـ كما يقول السيد ابن طاوس ـ تقول أم هاني: فوضعت عليهما

---

(١) الغارات ٢: ٨٦٢ ـ ٨٦٣، ٨٨٤، جواهر المطالب ٢: ١١٤.

(٢) التوبة: ٦، وقد مرّت مفارقة الخوارج في تصرفاتهم تجاه هذه الآية في ج١ ص٢٥٣ من كتابنا هذا.

ثوباً، وقلت له: والله لا تصل إليهما.

فخرج ولم يكَد، فقلت: لأشكونه إلىٰ رسول الله ﷺ. فجئت خباء النبي ﷺ بالبطحاء فوجدته خالياً إلّا من فاطمة ؑ، فقلت: أين أبوك؟ قالت: «خرج». قلت: هل رأيت ما صنع بي أخي؟ قالت: «وماذا صنع؟». قلت: تفلّت على جواري وأراد قتلهما.

تقول أُمّ هاني: فكانت فاطمة ؑ أشد عليّ من زوجها، وبينا نحن كذلك إذ دخل النبي ﷺ وعلى وجهه الغبار، فألقى ما عليه من الثياب وقال: «كيف حالك يا فاختة؟». قلت: بخير يا رسول الله، هل رأيت ما صنع بي أخي؟ قال: «وماذا صنع؟». قلت: تفلّت على جواري. قال: «ما كان له ذلك، قد أجرنا من أجرت يا أمّ هاني».

فخرجت وأنا فرحة، فدخلت عليهما وأخبرتهما، وخيّرتهما بين الذهاب أو البقاء عندي، فبقيا عندي مدة يومين ثم ذهبا[1].

فهذا المعنى من الإجارة متأصّل أولاً في تراثنا كجزء من الحضارة، ثم جاء الإسلام فأقرّه، وفيه أحكام إسلامية مفصّلة. فالله تعالى يجير ولا يجار عليه.

ومن هذا المنطلق انتقل مسلم بن عقيل من دار المختار إلىٰ دار هاني بن عروة؛ لأن مسلماً لما دخل الكوفة نزل دار المختار بن أبي عبيدة ؓ، وكان هناك لون من التنسيق بين مسلم والمختار بأنْ يخرج المختار ليكون بعيداً عن العيون، فيجمع السلاح والأنصار، وتواعدا على الخروج والنهضة في يوم معيّن، فخرج المختار إلىٰ الحطوانية، وهي قرية في بابل. فلما دخل عبيد الله بن زياد الكوفة بعد قدومه

---

(١) لم تتوفر لدينا كتب السيد. انظر: الموطأ ١: ١٥٢، مسند أحمد ٦: ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٤٢٣، ٤٢٤، ٥٢٥.

من البصرة ونزل قصر الإمارة، أحسّ مسلم أن البقاء في هذه الدار ذو خطورة شديدة، ولا بد من الانتقال إلىٰ مكان أكثر أمناً، فاستجار بهاني بن عروة فأجاره.

كان هاني شيخ مراد، ويصفه المؤرّخون بأنه كان يركب في أربعة آلاف دارع، وثمانية آلاف راجل، فيكون بين يديه عند خروجه اثنا عشر ألف مقاتل، فكان غاية في العزّة والمنعة، وكان فشل النهضة أنهم فوجئوا بأخذ هاني، ولم تكن مسألة خذلان أبداً، إنما كان خروج مسلم قبل الموعد المحدّد للخروج؛ لأن الظروف اضطرته لذلك.

عبيد الله يزور شريكاً في دار هانئ

ومما يذكر أن عبيد الله بن زياد لما دخل الكوفة لم يكن يسعه أن يتأخر عن زيارة هاني لأنه شيخ المصر، والوجه البارز في الكوفة، فقيل له: إن شريك بن الحارث مريض، وقد نزل في دار هاني. فعزم على عيادة شريك لأنه كان أثيراً عندهم، وفي الوقت ذاته أراد أن يجدّد العهد مع هاني، وكان مسلم حينئذٍ في دار هاني.

وهنا يتساءل بعض الكتاب: لماذا لم يستغل مسلم الفرصة فيقتل عبيد الله وينهي الأمر، وهو لا زال في مهده؟

إن أمثال هؤلاء الكتاب ينطلق في كتابته من منطلقه الخاصّ، فكأنه يكتب بلسان القرن العشرين، والحال أن هناك أسباباً حالت دون ذلك، وإلّا فإن يد مسلم كانت على قائم سيفه، وهاني يقرأ هذه الأبيات:

ما الانتظار بسلمى أن تحييها ... كأس المنية بالتعجيل تسقيها

هل شربة عذبة أسقى على ظمأٍ ... وإن تلفتُ وكانت ميتتي فيها

فإن أحسنت سُليمى منك داهيةً فلست تأمن يوماً من دواهيها[١]

المبحث الخامس: أسباب عدم قتل مسلم عبيد الله في دار هانئ

فما هي الأسباب التي حالت دون خروج مسلم في تلك اللحظات يا ترى؟

السبب الأوّل: أن مسلماً كان يرى أن الخروج والفتك بعبيد الله في تلك اللحظة عارٌ، وأن ذلك ليس من شيم أهل البيت ﷺ. وهناك الأمثلة الكثيرة في تأريخهم، ففي واقعة الجمل التي ذهب فيها عشرات الآلاف من القتلى، كان المتسبب بها بضعة أشخاص لعبوا دوراً غير مشرّف، وهم مروان وأتباعه. فلما انتهت المعركة، جاء الإمام ﷺ يزور عائشة ويتفقّد الدار التي نزلت فيها، وهل هي دار ملائمة أو لا. وهذا هو شأن علي ﷺ الذي يملك غضبه في هذه اللحظات المليئة بالتوتر، يقول أحد شعراء تلك الواقعة:

حتى إذا دارت رَحى بغيهم عليهمُ وسبق السيف العذَلْ

عاذوا بمجد ماجد معوّد للصفح حمالٍ لهم على العللْ

أطّت بهم أرحامُهم فلم يُطع ثائرةَ الغيظ ولم يشفِ الغللْ[٢]

نعم، دخل علي ﷺ الدار لعيادة عائشة، وكانت في مدخل الدار حجرة فيها عبد الله بن الزبير، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، ومروان بن الحكم، وأمثالهم من هذه النماذج، فتلقته واحدة من النساء وهي تقول: يا قاتل الأحبّة، أيتمت ولدنا، أيتم الله ولدك. فقال: «لو كنت قاتل الأحبّة لقتلت من في هذه الحجرة»[٣].

---

(١) نور العين (الاسفراييني): ٢٤، باختلاف في البيت الثاني.

(٢) الأبيات لمهيار. شرح نهج البلاغة ١: ٥٢، وأطت: من (الأطيط)، وهو صوت الإبل. الصحاح ٣: ١١١٥ ـ أطط.

(٣) هي صفيّة بنت الحرث الثقفيّة امرأة عبد الله بن خلف الخزاعي. دعائم الإسلام ١: ٣٩٤، مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٨، الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٧، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، شرح

أمّا كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلم بما سوف يكون من ابن الزبير الذي جمع ولد علي عليه السلام في شِعب، ووضع الحطب حولهم وهمّ بحرقهم لولا أن يتداركهم المختار[1]؟ أما يدري بما سوف يكون من مروان الذي كان يضرب ثنايا الإمام الحسين عليه السلام بالعود ويقول: لقد كنت حسن الثغر يا حسين[2]؟ كلّ ذلك كان يدري به، ولكنه كان يرى من الجبن أن يقتل أحداً هرب من القتل، والتجأ إلىٰ حجرةٍ يرتجف فيها.

وهناك مثل آخر على ترفُّع أهل البيت عن الفتك خصوصاً بمن جبن أو هرب، فقد خرج إبراهيم «أحمر العينين» بن عبد الله بن الحسن المثنى أيام المنصور، وهجم بجيشه قاصداً الكوفة حتى وصل قريباً منها، فأحاط بها، وكان فيها جيش المنصور بأجمعه، فجاء قواد جيش إبراهيم وقالوا له: إن الكوفة بين أيدينا، وما هي إلّا هجمة سريعة حتى نتمكّن منها ونستولي على كلّ ما للعباسيين فيها. فرفض إبراهيم ذلك وقال لهم: لا آذن لكم بالهجمة على الكوفة؛ لأن فيها الطفل والمرأة والأعزل والعاجز، وليس من النُبل أن يتضرّر هؤلاء ويداسوا بحوافر خيولكم. قالوا له: إذن نخسر المعركة. قال: وإنْ. أي أنه يقول: لكننا سنربح المبدأ والموقف. فهذه هي أخلاق أهل البيت عليهم السلام، وقد أعترف أن هذا الخُلق قد لا ينفع مع بعض المستنقعات والنماذج القذرة من الناس، ولكن هذا هو خلقهم عليهم السلام.

وكان مسلم كذلك، بوسعه أن يمتشق حسامه ويضرب عنق عبيد الله، فلم يكن خائفاً خوّاراً، ففي معركة الكوفة كان يأخذ الرجل فيقذف به إلىٰ السطح ثم يستقبله بالسيف.

☚ نهج البلاغة ١٥: ١٠٥. وقد مر في ج ٢ ص ٣٠ من كتابنا هذا.

(١) سر السلسلة العلوية (أبو نصر البخاري): ٨٢، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٣.

(٢) مثير الأحزان: ٧٢، سبل الهدىٰ والرشاد ٢: ٣٠.

السبب الثـانـي: هو أن امرأة هاني وقفت لمسلم وقالت له: أنشدك الله أن تقتل ابن زياد في بيتنا.

السبب الثالث: أن مسلماً كان يرى أن المعركة قريبة، وأن عبيد الله لن يفلت من يد الثوار حتماً.

وعلى كلّ حال فقد شاء الله غير هذا.

ثم إن هناك شيئاً مهماً غيّر المعادلة، وهو تنبُّه مهران، هذا الشخص الذي كان مع عبيد الله بن زياد حين عيادته لشريك في بيت هاني، فقد أحسّ مهران عند سماعه أبيات هاني بأن القوم يأتمرون بعبيد الله ويريدون قتله، فحذّر عبيد الله، ثم حثّه على الخروج من البيت.

فلما وصل عبيد الله إلىٰ القصر بعث خلف هاني، وأحضره إلىٰ القصر، ودارت بينهما مناقشة طويلة قال فيها عبيد الله لهاني: والله لن تبرح حتى تأتيني بمسلم. قال هاني: آتيك بجاري، ورسول ابن رسول الله؟ إن في ذلك الخزي والعار عليّ وعلى أهلي، والله لو كانت رجلي على طفل من أطفال آل محمد ﷺ ما رفعتها ولو قطعت. قال عبيد الله: إذن تُقتل. قال هاني: والله إذن تكثر البارقة حول دارك. قال عبيد الله: وا لهفاه عليك، أبالبارقة تخوّفني؟ ثم أخذ سوطاً وأخذ يضرب وجه هاني حتى تناثر لحم خديه، وانكسر أنفه، فمدّ يده إلىٰ شرطي كان واقفاً فنازعه السيف، فلم يستطع، ثم تكاثر عليه الحرس فأخذوه إلىٰ الحبس، فوصل الخبر إلىٰ مسلم، فتعجّل الخروج. ولهذا لم يتمكّن مَن جاء في الوقت المحدد من إدراك التحرك، فقد جاء المختار، وعبد الله بن الحارث، وغيرهما، وكان بعضهم يحمل الألوية الخضراء أو الحمراء، ولكن الثورة سبقت وقتها.

يقول المؤرخون: خرج مسلم من المسجد وكان وراءه ثلاثون، فلما بلغ أحد الأزقّة لم يبق معه من يدلّه على الطريق، فرأى امرأة واقفة في باب دارها فقال لها:

أمة الله، اسقيني ماء. فدخلت الدار وأتته بالماء، فشرب منه ورجعت هي إلىٰ الدار، ثم خرجت فرأته جالساً، فقالت: ألم تشرب الماء؟ قال: بلى. قالت: فما وقوفك على باب داري؟ إني لا أُحلّ لك ذلك. فكررت ذلك عليه وهو ساكت، ثم قال لها: هل لك في معروف تصنعينه معي ولعلّي مكافئك بعد هذا اليوم؟ قالت: وما ذاك؟ قال: أنا مسلم بن عقيل. قالت: أنت مسلم؟ قال: نعم. قالت: على الرحب والسعة.

ثم أدخلته الدار، وعرضت عليه الطعام والشراب فأبى، ثم توضّأ ولم يزل قائماً وقاعداً، وراكعاً وساجداً، حتى انبلج عمود الفجر، فأقبلت إليه وقالت: سيدي، ما رأيتك رقدت منذ البارحة، قال: بل رقدت فرأيت عمّي أمير المؤمنين ﷺ وهو يقول لي: إنك صائر إلينا عن قريب، وأظن أن هذا آخر أيامي من الدنيا. وبينا هي كذلك إذ دخل ابنها فرآها تكثر الدخول والخروج إلىٰ تلك الدار، فألحّ عليها فأخبرته بأمرها بعد أن أخذت عليه المواثيق، فذهب إلىٰ ابن زياد فأخبره، ولم يلبث أن جاء ومعه ثلاثمئة فارس، فاقتحموا عليه الدار، فأخذ مسلم سيفه وذادهم عن الدار وهو يرتجز:

أقسمت لا أُقتل إلّا حرّا ... وإن رأيتُ الموتَ شيئاً نُكرا

رُدّ شعاع النفس فاستقرّا ... أخاف أن أُخدع أو أُغرّا

وكانت طوعة واقفة إلىٰ جنب الدار وهو يقاتل قتال االأبطال، حتى أرسل محمد بن الأشعث إلىٰ عبيد الله أن مُدّني بالخيل والرجال. فقال: ويحك أرسلتك إلىٰ واحد فقتل منكم هذه المقتلة؟ فكيف لو أرسلتك إلىٰ من هو أشد منه بأساً؟ قال ابن الأشعث: لعلك أرسلتني إلىٰ جرمقان من جرامقة الكوفة، إن هذا سيف من سيوف بني هاشم. فتكاثر عليه القوم، ورموه بأطنان القصب يشعلون به النار، ورموه بالحجارة، ورشقوه بالسهام، وطعنوه بالرماح حتى ضعف عن القتال،

فاستند إلى الحائط ودمعت عيناه، فدنا منه محمد بن الأشعث وقال له: إن الذي يطلب ما تطلب لا يبكي إذا نزل به مثل ما نزل بك. قال مسلم: أوتظنّ أني لنفسي بكيت؟ لا والله وإن كنت لا أحبّ لها تلفاً طرفة عين أبداً، ولكن أبكي لأهلي المقبلين، أبكي لحسين وآل حسين.

ثم أُدخل على عبيد الله ودار بينهما ذلك الحوار، ثم صاح عبيد الله: أين الذي ضرب مسلم رأسه بالسيف؟ فجيء إليه ببكر بن حمران، فقال له: خذه وتولّ قتله بيدك. فصعد به إلى أعلى القصر وهو يسبّح الله ويقدّسه، ثم صلى ركعتين، وأدار وجهه إلى جهة الإمام الحسين عليه السلام وصاح: السلام عليك أبا عبد الله، إن ابن عمك أسير بين أيدي القوم، ولا يدري أيبيت أم لا. فضربه بكر فقطع رأسه، ورمى بجسده من أعلى القصر إلى الأرض:

المگدر گضه وشاعت اخباره   رموه الگوم من گصر الإماره

كان الإمام الحسين عليه السلام في زرود، فقام من مكانه وهو يقول: «**وعليك السلام يا غريب كوفان**». ثم قام من فوره إلى خيمة النساء، وأحضر حميدة ابنة مسلم، وأجلسها في حجره، وجعل يمسح على رأسها، فقالت: يا عمّ، أراك تصنع بي ما يُصنع باليتامى؟ قال: «**بنيّة عظم الله لك الأجر بأبيك**»[1].

تگله يعمي ابوي وينه



(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٤.



﴿٥٦﴾

مواقف مشرّفة في حياة العباس عليه السلام

بطلٌ تورّث من أبيه شجاعةً فيها أنوفُ بني الضلالةِ تُرغَمُ
عبست وجوه القوم خوف الموت والـ ـعباس فيهم ضاحك متبسّمُ

ورد عن الإمام السجاد في عمه العباس عليه السلام قوله: «رحم الله العباس، لقد آثر وفدى وواسى أخاه بنفسه، فأعطاه الله جناحين عوض يديه، كما صنع لجعفر بن أبي طالب»[1].

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: بعض الجوانب البطولية عند العباس عليه السلام

قبل الدخول في صلب الموضوع لا بد من مقدمة وجيزة، فمؤرّخو الطف يؤكدون في تواريخهم على بعض الجوانب البطولية في ترجمة العباس أو في ترجمة الإمام الحسين عليه السلام . وبعض الناس قد يتصوّر أن هذا نوع من الفكر الأُسطوري، وهذا تصور خاطئ؛ لأن عند الأُمم كافّة غراماً بالبطولة، فأنت مثلاً تجد الملاحم البطولية في تأريخ اليونان[2]، والرومان[3]، والفرس[4]، والعرب[5]،

(١) الخصال: ٦٨ / ١٠١، بحار الأنوار ٢٢: ٢٧٤ / ٢١.
(٢) كملحمتي الإلياذة والاوديسة وملحمة طروادة وملحمة الانيادة.
(٣) كملحمة جلاديتيور. (٤) كملحمة آناتفرافيا.
(٥) كسيرة عنترة والزير سالم وأبي زيد الهلالي وغيرهم.

وغيرهم[١] من الأمم.

فما هو الهدف من الثناء على بطل من الأبطال كعنترة مثلاً عاش يوماً من الأيام ثم مات؟ إن المقصود ليس الثناء على البطل الذي عاش ومات، بل المقصود من ذلك هو خلق المثل الأعلى للأمّة، وإيجاد الأُنموذج البطولي الذي تقتدي به. وهذا عامل تربوي هام يُستهدف منه حمل النفوس على سلوك طريق الأبطال لتكون كبيرة.

فليس المقصود من ذكر شجاعة أهل البيت عليهم السلام أننا نُرضي نـزعة ديـنية فـي نفوسنا، أو نستعمل لوناً من الفكر الأُسطوري، بل المقصود من ذلك هو أن يُخلق المثل والنموذج الصالح ليكون قدوة.

نعود الآن إلى مضامين حديث الإمام السجاد في عمه العباس عليهما السلام العالية والتي تشكل جزءاً من مباحث موضوعنا، فلو دقّقنا النظر في هذا الحديث لوجدنا أنه يشتمل على مجموعة من المعاني السامية:

المبحث الثاني: قوله عليه السلام: «رحم الله»

فما معنى «رحم» هنا؟ وهل إن المقصود بها الدعاء، أو الإخبار؟ فإذا قلنا: إنها للدعاء، فإنه يرد هذا السؤال: هل هي لطلب المزيد من الرحمة، أو لتحقيق أصل الرحمة؟

نحن مثلاً نقول كل يوم: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد»، والصلاة هنا هي الدعاء برفع المنزلة، وإلّا فلا يمكن أن يقال: إن الصلاة هنا هي الدعـاء بـإعطاء المنزلة للنبي صلى الله عليه وآله؛ لأنها موجودة أصلاً.

---

(١) كملاحم الهند مثل المهابهاراتا وكاماسوترا ورامايانا، وملحمة جلجامش البابلية، وملحمة حياة الملك جيسار المعروفة بـ(الإلياذة الشرقية).

إذن معنى الدعاء بالرحمة للشهداء هو أن يزيد الله في عطائهم، وإلّا فإن أصل الرحمة موجود. يقول الحديث النبوي الشريف: «فوق كلّ برٍّ برٌّ حتىٰ يقتل الرجل في سبيل الله»[1].

فالمجاهد لا نطلب له الرحمة؛ لأنها موجودة؛ فتكون الصيغة في كلام الإمام السجاد عليه السلام صيغة إخبار لا صيغة دعاء، فما هي الرحمة التي رحم الله بها العباس عليه السلام؟

أقسام الرحمة

لدينا أنواع من الرحمة، منها:

١ ـ **فالرحمة الابتدائية**، وهي أننا قبل أن نُخلق كنّا في عالم التراب، فأفاض الله تعالى علينا رحمته وأخرجنا إلى عالم الوجود. فهذه الرحمة ابتدائية، فليس لنا عمل سابق نستحقّها به.

٢ ـ **الرحمة بعِوَض**، وهي أن يعمل أحدٌ عملاً فيستحقّ عليه الرحمة، يقول الحديث القدسي: «إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي»[2]. فمثل هذه الرحمة تكون معاوضة في مقابل عمل.

٣ ـ **الرحمة التي تدرك بعطف**، وهذه الرحمة هي التي تكون في مثل ما لو وقع أحدٌ في محنة، فإن الله تعالى يفيض عليه رحمته وإن أساء إلىٰ الله، وكلّ منّا يسيء إلىٰ الله تعالى، إما بعدم شكر النعمة، أو بالاعتراض على أحكامه تعالىٰ، أو أن نسيء أحياناً إساءة بالغة فنقول: إن هذه الرسالة السماوية أصبحت غير صالحة للمجتمع، ولا بد أن نستبدل بها قانوناً أحدث. ومع كلّ ذلك فإن الله تعالى لا يقطع

---

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٤٣، وقريب منه في الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٦٧.

(٢) عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٨، كنز العمال ٣: ١٦٧ / ٥٩٩١.

عنا رحمته. يقول علماء الكلام: إن الله تعالى وعد العباد بالخير، وتوعّدهم بالشرّ، فهل أوجب علىٰ نفسه الوفاء بهما؟ وهنا يجيبون بأنه تعالى أوجب علىٰ نفسه الوفاء بالوعد دون الوعيد؛ لأن رحمته تسبق غضبه، وما أوسع رحمة الله[1]!

جاء أحد الصحابة يوماً إلىٰ النبي ﷺ فوجد في الطريق يمامة عندها فرخان، فمدّ يده إلىٰ فرخيها فأخذهما ـ وكان ينوي جلبهما للحسن والحسين عليهما السلام ـ فأخذت اليمامة تحوم حوله وتتبع فراخها، فلما وصل إلىٰ النبي ﷺ أخبره أنه جلب للحسن والحسين عليهما السلام طيرين يلعبان بهما، فقال النبي ﷺ: «ما أحسنت صنعاً؛ لأنك آلمت هذه الأم». ثم التفت إلىٰ أصحابه وقال لهم: «هل رأيتم هذه اليمامة؟». قالوا نعم. قال ﷺ: «هل رأيتم حدبها وشفقتها؟». قالوا: نعم. قال ﷺ: «إن الله أرحم بكم من هذه اليمامة بفرخيها»[2].

إن الوجود بأسره وثبة من وثبات الرحمة، ولهذا اعتقد البعض أن العذاب مُستبعَد؛ لأنه يرى أن كلّ شيء خلقه الله خِلقة رحمة[3]. ولكن هذه مغالطة أيضاً؛

---

(١) انظر الميزان في تفسير القرآن ٦: ٣٦١، ١١: ٣٥، وعبّر عن ذلك في الثاني بأنها قاعدة عقلية مسلمة، ثمّ قال: لأن الذي تعلّق به الوعد حق للموعود له وعدم الوفاء به إضاعة لحق الغير، وهو من الظلم. وأمّا الوعيد فهو جعل حق للموعِد علىٰ التخلف الذي يوعد به له، وليس من الواجب لصاحب الحق أن يستوفي حقه، بل له أن يستوفي وله أن يترك.

(٢) هناك قصة شبيهة لهذه رواها القرطبي في تفسيره قال: قال ابن عباس: رأى رسول الله ﷺ يوم أوطاس امرأة تعدو وتصيح ولا تستقر، فسأل عنها فقيل: فقدت بنيّاً لها. ثم رآها وقد وجدت ابنها وهي تقبّله وتدنيه، فدعاها وقال لأصحابه: «أطارحة هذه ولدها في النار؟». قالوا: لا. قال ﷺ: «لم؟». قالوا: لشفقتها. قال: «الله أرحم بكم منها». الجامع لأحكام القرآن ٨: ١٠٣.

(٣) كما مرّ من شعر الخيّام، حيث يقول:

قيل أن قد وعدت بالنار يوماً	فتعجّبتُ أين هذا يقالُ
بمكان ما أنت فيه ولا يو	جد أم حيثُ أنت وهو محالُ

انظر ج١ ص١٠٦ من كتابنا هذا.

لأن من الرحمة أحياناً أن يؤدِّب الإنسان.

فالعبارة التي يذكرها الإمام السجاد عليه السلام في حق العباس عليه السلام هي إخبار كما قلنا، فما هي رحمة الله للعباس عليه السلام؟ لقد رحمه في الدنيا بالثناء الجميل، فقد أولاه أهل البيت عناية كبيرة، وهو الآن في عداد الأبطال، أما الرحمة عند الله فهي ما أعد للشهداء من الرحمة والعطاء، وهذه الرحمة من النوع المقابل للعطاء؛ لأن العباس عليه السلام صنع ما يستحق به ذلك.

المبحث الثالث: قوله عليه السلام: «عمي العباس»

ثم يقول الإمام عليه السلام: «عمي العباس»، فهذا الاسم (علم) هل هو من الأسماء الجامدة أو المشتقة؟ فالأسماء كما نعرف منها جامد ومنها مشتق، والعباس من الأسماء المشتقّة. وبما أننا مررنا بهذا الجانب فيحسن أن نذكّرها بأننا يجب أن نُحسن أسماء أبنائنا؛ لأن من الأساليب التربوية التي وضعها الإسلام أن نحسن تسمية الولد وأن نحسن تربيته، قال صلى الله عليه وآله: **«من حق الولد على الوالد أن يحسن تربيته، وأن يحسن تسميته»**[1].

ثم إن الاسم يجب أن يأخذ خواصّ البيئة، فالأسماء التي فيها الطابع الديني كأسماء الأنبياء والأيمّة مندوب إليها، يقول صلى الله عليه وآله: **«أحب الأسماء إلى الله ما حُمِّد**

☚ والقائل:

ربـي أوعـدتني بأن جـزائي	لذنـوبي العـقابُ والنـيرانُ
فـتعجّبت مـن وعـيدك هـذا	وأنـا بـاكـتناهه حـيرانُ
أعذابـي بـموطن مـنك يـخلو	دلّـني أيـن أيـن هـذا المكـانُ
أم مكـان تـحلّه ومـحال	حـيثما أنـت رحـمة وحـنانُ

انظر الجزء ١: ٣٠٦.

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٦٥ / الأصل: ٤٠٧.

أو عُبَيْد»[1]. والبيوت التي فيها هذه الأسماء تكون من مظانّ الرحمة الإلهية.

هذه ناحية، ومن ناحية أُخرى فإننا عندما نسمي أبناءنا بهذه الأسماء فإن ذلك ينمّ عن اعتزازنا بالذي لأجله أسمينا بهذا الاسم، فلو أسمينا محمداً فهذا يدل على اعتزازنا بشخص الرسول ﷺ وتمسّكنا به، كما ينمّ عن أصالتنا نحن. وليس معنى ذلك أن الأسماء الأُخرى محرمة، ولكن الذي أُريد قوله: إن هناك أسماء تدل على الانتماء والأصالة، فالاسم يدل على هويّة معيّنة، فهناك أسماء تدلّ على بطولة، أو على دين، أو هوية أُخرى.

وقد يسمي البعض أسماء ليقال عنه: إنه ممن يواكب العصر والزمان (مودرن). خصوصاً أن المودرن هذه لا تكلّف الشخص عندنا سوى ربطة عنق معيّنة، أو لباس معيّن، أو اسم معيّن، وإلّا لو رجعنا إلىٰ تفكيره لوجدنا أنه رجعي لمئة ألف سنة. وهذا هو المسمى عند علماء الاجتماع بنظرية التخلّف الاجتماعي، وهي أن المجتمع يعيش التطوّر في الجانب المادي، فترى الفرد يملك أحدث الأجهزة، ويستخدم أحدث الوسائل، ولكنه في الجانب الفكري يعيش أفكاراً بالية. وهكذا فقد تجد الآن في بلداننا من يقتني السيارة الفاخرة، ويستخدم الوسائل المتطورة، ولكنه إذا قلع سنّه رماه إلىٰ الشمس لتأخذه.

فالمسألة مسألة مسميات لا مسألة أسماء. فمن الأُمور التربوية الإسلامية إذن أن نحسن الأسماء.

نعم، لقد سمّى أمير المؤمنين ﷺ ولده العباس ﷺ بهذا الاسم تفوّلاً به؛ لأن من سير البطولة وتقاليدها أن البطل إذا نزل إلىٰ ساحة القتال يعبس، ولذلك لمّا أراد الإمام أن يتزوّج فاطمة بنت حزام استعان بأخيه عقيل. وكان عقيل من أصحاب

---

(١) العهود المحمدية: ٣٤٢، ورواه مرفوعاً عن أحمد وأبي داود والترمذي وابن ماجة.

الطنافس الأربعة، وهم متخصّصون في معرفة الأنساب وخواصّ القبائل،فكان عقيل يجلس في مسجد النبي ﷺ للاستشارة في الأنساب، فكان مَن يريد الزواج يأتي إلىٰ هؤلاء ليُعينوه على معرفة نسب القبيلة التي يريد أن يتزوّج منها، والخواصّ المميّزة لها من شجاعة أو جبن أو كرم أو بخل إلىٰ غير ذلك. وهذا المعنى يوجد الآن في أوروبا، فهناك مكاتب مختصّة يأتي إليها الشاب فيعطي معلومات مفصّلة عن عمره وثقافته وشؤونه الأُخرى، وكذلك تفعل الفتاة، ثم تُدرّس حالات هؤلاء من قبل المختصّين للمساعدة على الزواج بأفضل السبل.

نعم، قال الامام ﷺ لعقيل: «انظر لي امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب لأتزوّجها فتلد لي غلاماً فارساً، يكون ناصراً وعضداً لولدي الحسين بطف كربلاء»[1].

إذن كان هناك قصد مسبق لأمير المؤمنين ﷺ في أن يُعدّ هؤلاء الأولاد ليوم منتظر، وهذا المعنى ليس غريباً عن حضارتنا، فالأمّ التي تطلب الثأر تُعد ابنها لأخذ الثأر، فتتغلغل عنده نزعة الأخذ بالثأر منذ الطفولة.

وقد يرد إشكال أن الإمام لماذا يسأل عقيلاً ويستعين به في حين أنه إمام، وإذا أراد أن يعلم فإنه يعلم؟ وبالمناسبة فإن بعض الشباب قد يستغرب من مسألة أن الإمام يعلم، والحال أن منجزات العلم الحديث تثبت أن بعض الناس عنده ما يسمى بالحاسّة السادسة، وهذه الحاسّة تتعدّى زمنها وإطارها أحياناً، وتتنبّأ بحوادث تقع في المستقبل.

أما على النطاق الديني فهذا الأمر مفروغ منه، وإن بعض الناس يُعتبرون من

---

(١) عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧.

المحدَّثين. يروي أبو داود أن عمران بن حصين كانت تحدثه الملائكة[1]، ويروي ابن حجر في (تهذيب التهذيب) أن عمر بن عبد العزيز كان يحدّثه الخضر، وكان يراه ولا يراه الناس[2]. ومع ذلك فإننا لم نسمع من يقول لهؤلاء: إنكم مغالون، أما إذا ذُكر شيء من ذلك لأهل البيت فيأتي من يقول: إن هذا غلو. وهذا من الكلام الفارغ ؛لأن حكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد، فإما أن يكون العلم ببعض الغيبيّات خرافة فهو في الحالين كذلك، وإما أن يكون حقيقة فهو في الحالين كذلك أيضاً.

إذن العلم بالغيب موجود على المستوى الديني، وفي آراء المسلمين موجود، وفي القرآن على قراءة ابن عباس موجود. وفي البخاري[3] وغيره[4] من الكتب التي تروي أن النبي قال: «قد كان في الأمم السابقة قبلكم محدّثون، فإن يكن في أمتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب». فإن كان عمر محدَّثاً فنحن لا نعطي الإمام المعصوم أكثر من هذا.

إذن لماذا يستعين الإمام، وهو المحدَّث بأخيه عقيل في خطبة امرأة؟ وما مقدار علم عقيل إزاء علم علي؟ الجواب: هو أن الإمام لم يرد الاستفادة من علم أخيه عقيل، وإنما أراد أن يجري الأُمور على قواعدها من حسن الاستشارة، وأن يعطينا درساً في الاستعانة بأهل الخبرة. وهذا من الدروس المهمّة لنا، فنحن ملزمون باللجوء لذوي الخبرة والاختصاص في كلّ مجالات الحياة، وألّا نكون متخبّطين ندخل فيما ليس من شأننا واختصاصنا.

---

(١) سنن أبي داود ٢: ٢٢١ / ٣٨٦٥. (٢) تهذيب التهذيب ٧: ٤١٩ / ٧٩١.

(٣) صحيح البخاري ٤: ١٤٩.

(٤) صحيح مسلم ٧: ١١٥، مسند الحميدي ١: ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٣١٧.

لقد تأمل عقيل طويلاً ثم قال: عليك بفاطمة بنت حزام، فليس في العرب أشجع من قومها. ثم أخذ يبين مواطن الشجاعة في قومها، فقال: إن من قومها مُلاعب الأسنّة، ومهلهلاً، وعامراً الذي يقال عنه: لو سقط نجم من السماء لالتقطه برمحه. ثم ذكر له جمعاً من فرسانهم، ثم قال: وفي قومها افتخر لبيد الشاعر في مجلس النعمان بن المنذر عندما قال:

نحن بنو أم البنين الأربعة ... ونحن خير عامر بن صعصعة

الضاربون الهام وسط الخيضعة ... والمطعمون الجفنة المدعدعة[1]

فلم يرد عليه أحد إذعاناً بصحّة ما يقول، فهؤلاء يتوارثون الشجاعة والبطولة جيلاً بعد جيل، وكانت هذه المرأة حقاً مثالاً للخلق الطيب.

المبحث الرابع: إيثار العباس عليه السلام

ثم يقول الإمام السجاد عليه السلام «لقد آثر»، فما هو نوع الايثار؟ ينبغي علينا أن نلتفت إلىٰ تعبيرات الأئمة عليهم السلام؛ فهي دقيقة جدّاً. القرآن الكريم يقول: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2]، فالامام لم يذكر نوع الإيثار هنا، وهل هو بالنفس أو على النفس؛ لأن الإيثار قد يكون على النفس بأن يقدم أحدنا غيره على نفسه بالطعام أو الشراب أو المال أو المنزل أو غير ذلك. ونحن نقرأ في تأريخنا أن أبا جهم بن حذيفة قال: سقط ابن عمّي في واقعة اليرموك، فأدركته عند النزع، وأردت أن أسقيه ماء، فلمّا دنوت منه، أشار إلى جريح آخر كان إلى جنبه وقال لي: هذا أحوج مني. فذهبت إلىٰ هذا فقال لي: إن هذا الجريح الثالث أحوج

---

(١) مرّ تخريج القصة قبل قليل عن: عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧، غير أنهما لم يذكرا كلام عقيل هذا ولم يذكرا شعر لبيد، وهو مذكور في ديوانه المطبوع ضمن ديوان الفروسيّة: ١٦٨.

(٢) الحشر: ٩.

مني. فذهبت إلىٰ الثالث فوجدته قد مات، فرجعت إلىٰ الذي قبله فوجدته قد مات أيضاً، فرجعت إلىٰ ابن عمي فوجدته مات أيضاً[1]. فهؤلاء آثروا على أنفسهم في آخر لحظة من حياتهم. فهذا نوع من الإيثار وهو الإيثار على النفس، وقد يموت هذا المؤثِر أو يبقىٰ.

وهناك نوع من الإيثار هو الإيثار بالنفس وليس على النفس، بمعنى أن يعطي المؤثِر نفسه فداء لغيره، وهذا المعنى لم يأخذه العباس ﷺ عن كلالة، فأبوه أمير المؤمنين ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾[2] وأمره الله تعالى بالهجرة من مكّة إلىٰ المدينة أراد النبي ﷺ أن يهاجر ويوهم قريشاً أنه لم يهاجر، فطلبَ من الإمام علي ﷺ أن ينام في فراشه، فقال علي ﷺ: «أو تسلم إذا نمت في فراشك يا رسول الله؟». قال ﷺ: «نعم». قال ﷺ: «روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا يا رسول الله». ثم أخذ بُرد النبي ﷺ وتلفّع به، واضطجع في مكان النبي، يقول الكعبي:

ومواقفٌ لك دون أحمد جاوزت	بمقامك التعديد والتحديدا
فعلى الفراش مبيتُ ليلك والعدا	تُهدي إليك بوارقاً ورعودا
فرقدت مثلوجَ الفؤاد كأنما	يهدي القراعُ لسمعك التغريدا
ووقيت ليلته وبتّ معارضاً	بالنفس لا فشِلاً ولا رعديدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى	أوما دروا كنز الهدى مرصودا

بات علي ﷺ في فراش النبي ﷺ حتى الصباح، وقريش محيطة بالبيت، فأقبلوا نحو البيت وإذا علي ﷺ ينهض في وجوههم، فقالوا: أنت علي؟! أين محمد؟ قال:

---

(١) نصب الراية ٢: ٣٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٣٨: ١٨٠.
(٢) الأنفال: ٣٠.

«أو تركتموني حارساً عليه». فتقدم إليه عبد لعكرمة بن أبي جهل، فضربه علي عليه السلام بسيفه فقتله[١].

فهذا الموقف الذي وقفه علي عليه السلام بالإيثار دون النبي صلى الله عليه وآله هو عين الموقف الذي وقفه العباس عليه السلام دون الإمام الحسين عليه السلام يوم كربلاء.

المبحث الخامس: العباس يُعوَّض بجناحين في الجنة

ثم قال الإمام السجاد عليه السلام «فأبدله الله بجناحين»، وهذه النقطة تستحقّ التوقّف قليلاً؛ إذ ما معنى أن يعطي الله تعالى العبد جناحين في الجنة؟ ألا يمكنه أن يتمشّى في الجنة؟ أم أن هذا الخبر من الأساطير التي نضع أمامها علامةاستفهام، أم أن هناك هدفاً آخر؟ في الواقع إن في هذا الأمر هدفاً سوف أبـينه، فـالإنسان فـيه القابلية علىٰ أن يصل بمستواه إلىٰ مستوى حشرة، أو أن يكون بمستوى الملَك، والملائكة هم حملة الأجنحة، قال تعالى: ﴿**جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾[٢] فالجناح هنا يعني السمّو، يقول الشاعر:

أخـاك أخـاك إن مـن لا أخـا له	**كساعٍ إلى الهيجا بـغير سلاحِ**
وإن ابن عمّ المرء فـاعلم جـناحه	**وهل ينهض البازي بغير جناحِ**[٣]

فالجناح في هذا البيت يعني المناصِر، وكذلك في هذه الآية عبر عن الطيران والسمو بلازمه وهو الجناح[٤]. وكذلك أعطى الله جعفراً الذي ذهبت يداه يوم مؤتة[٥] جناحين ليجعله في مصافّ الملائكة في هذا اللون من السموّ، وكـذلك أعـطى

(١) مسند أحمد ١: ٣٤٨، فتح الباري ٧: ١٨٤، ولم يذكر عكرمة، والأبيات للكعبي وقد مرّت في ج ١ ص ٧٨، ج ٢ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ من كتابنا هذا.

(٢) فاطر: ١.

(٣) البيتان لمسكين الدارمي. شرح نهج البلاغة ١٨: ١١٣.

(٤) وهو ما يسمىٰ بالاستعارة المكنية.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ٤٠.

العباس درجة من السمو كما أعطى جعفراً؛ فألحقه بالملائكة في هذه الدرجة. وإلّا فإن فكرة الجناحين إذا لم تُحمل على هذا المعنى فهي فكرة بلهاء.

دعونا الآن ننظر إلى ما قدّم هذا الرجل الذي لم يكن قتاله يوم الطف عن عصبية، ومن الأدلّة على أن قتاله لم يكن عن عصبية أنه جاء بأُخوته الثلاثة يوم الطف ـ وكان أكبرَهم بل أكبرَ الهاشميين يوم الطف، وعمره ثلاثون عاماً، وكان متزوّجاً بأم الفضل بنت علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، وله منها ولدان: عبيد الله والفضل، وكانت ذريته فيما بعد من عبيد الله ـ وقال لهم: تقدّموا حتى أُرزأ بكم، أي أُريد أن أحتسبكم عند الله فأموت وأنا مطمئنّ أنكم وقفتم كموقفي. ولكن الخسّة وصلت بأحد المؤرخين أن يقول: قال العباس ﷺ لأخوته: تقدموا حتى أرثكم[1]! فهل يبقى العباس ﷺ بعدهم حتى يرثهم؟

نعم، قدم أخوته الثلاثة، ثم جاءت ساعته فنزل إلى المعركة، يقول الشيخ المفيد: «أقبل العباس ﷺ إلى أخيه الإمام الحسين ﷺ وقال له: أبا عبد الله، هل سمعت أصوات النساء والأطفال؟ اسمح لي أن أجلب لهم قليلاً من الماء»[2]. يقول السيد جعفر الحلي:

أوتشتكي العطشَ الفواطمُ عنده	وبصدر صعدته الفراتُ المفعمُ[3]
فلو استقى نهر المجرّة لارتقى	وطويل ذابله إليها سلّمُ
بطلٌ تورّث من أبيه شجاعة	فيها أنوف بني الضلالة تُرغمُ

(١) انظر تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، الكامل في التاريخ ٤: ٧٦، والحقيقة أنه قال لهم: تقدموا حتى أراكم قتلى فأحتسبكم. مقاتل الطالبين: ٨٢، مقتل الحسين ﷺ (أبو مخنف): ١٨٤.

(٢) لم نعثر عليه، وقريب منه ما في بحار الأنوار ٤٥: ٤١.

(٣) الصعدة: الرمح أو القناة تنبت مستوية فلا تحتاج إلى تثقيف. المعجم الوجيز: ٥١٤ ـ صعد.

فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «يا أخي أنت صاحب لوائي، فإذا ذهبت تفرّق عسكري». «فقال له: لا طاقة لي أن أسمع هؤلاء الأطفال ينادون: العطش العطش. فقال الإمام الحسين عليه السلام: «إذن أطلب لهم قليلاً من الماء». فأخذ حسامه ونزل إلىٰ المعركة، فذاد الخيل يميناً وشمالاً وهو يرتجز:

لا أرهب الموت إذا الموت رقىٰ حتىٰ أوارىٰ بالمصاليت لقا

نفسي لنفس الطاهر الطهر وقا إني أنا العباس أغدو بالسقا

ولا أهاب الشرّ عند الملتقىٰ»

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كان قلب عمّي العباس عليه السلام كصالية الجمر من الظمأ»[1].

فلما وصل إلىٰ الماء وملأ قربته، أخذ شيئاً من الماء وأدناه إلىٰ فمه، ثم قال: لا والله، لا شربت بارد الماء وأبو عبد الله عطشان. حمل الماء، وكان جلّ همّه أن يوصله إلىٰ الخيمة. فصاح ابن سعد: اعصوصبوا عليه. فاشتبكت عليه الرماح، وكمن له رجل من وراء نخلة، فضربه على يمناه فبراها، فقال:

والله إن قطعتمُ يميني إنّي أحامي أبداً عن ديني

وعن إمامٍ صادق اليقين

ثم اعصوصبوا عليه فقطعوا شماله فقال:

يا نفس لا تخشَي من الكفّارِ وأبشـري برحمة الجبّارِ

مع النبي المصطفىٰ المختارِ قد قطعوا ببغيهم يساري

فأصلِهم يا ربُّ حرّ النارِ

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠.

ثمّ انحنى على السقاء، وكان كلّ همّه أن يوصله إلىٰ القلوب العطشى، ولكن ضُرب بعمود من حديد على رأسه، فسقط إلىٰ الأرض منادياً: أدركني أبا عبد الله، فأقبل له الإمام الحسين عليه السلام فأخذ رأسه ووضعه في حجره»[1]:

خويه العلم كلي وين اوديه   ينور العين دربي بيش أجد بيه

أراد الإمام الحسين عليه السلام حمله إلىٰ الخيمة، فقال له العباس عليه السلام: أخي ماذا تريد أن تصنع؟ فقال: «أحملك إلىٰ الخيمة». فقال: يا أخي لا تحملني. قال: «لماذا؟». فأجابه بأن الموت نزل به فلن يصل معه إلىٰ الخيمة، كما أنه قد وعد سكينة بالماء وهو مستحٍ منها:

يگله أيست سكنه من الماي   تجي يقي ذليله وتوجب احذاي

(١) المصدر نفسه، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

﴿٥٧﴾

دور الأدب في كشف أسرار النهضة الحسينية

إن تُــمسِ مــنكسر اللــوا مُــلقىً عــلى وجــه الرُمـولِ
فــلقد قُــتلتَ مُــبرَّأً عــن كــلّ عــيبٍ بــالقتيلِ
يُــهدى لك الذِكــرُ الجـميـ ـلُ عــلى الزّمــان بـمستطيلِ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: الأدب العربي يعمّق مفاهيم واقعة الطف

من أبرز الظواهر في واقعة الطف أن الأدب العربي لعب فيها دوراً كـبيراً فـي تعميق المفاهيم التي كانت هدفاً من أهداف هذه الواقعة. ولتوضيح الفكرة نقول: لا شك أن الأحداث التي وقعت في الطف فيها مادعا الأيمّة عليهم السلام إلى تسجيلها بالشعر، والشعر تأريخ ثانٍ، وهو ديوان العرب كما يقال. وهذا المنهج في التعبير لعب دوراً كبيراً في واقعة الطف على مختلف الأبعاد، وقد حاول الأيمّة؛ بكل صورة تغذية هذا الجانب ـ أي استخدام الشعر كوسيلة للتعبير عن أحداث الطفّ ـ فلماذا كان هذا المنهج؟

نحن نعرف أن الشعر طاقة، وهذه الطاقة كانت وما تزال فـعّالة. فأنت عـندما تأتي إلىٰ تأريخ العرب تجد أن الشعر لعب دوراً كبيراً في حضارتهم. وقد تقول: إن الشعر عندهم منتزع من بيئتهم التي تقوم على القتل والقتال والتفاخر، وهـذه البيئة تحتاج إلىٰ ألسنة مـعبّرة، والشـعر والأدب وسـيلةُ تـعبير سـريعة تـتلقّفها

الجماهير. ولكن الشعر لم يلعب هذا الدور عند العرب فقط، إنما لعبه عند الأُمم الأُخرى، فهو يلعب دوره في الحضارة الأوربية حتى الآن.

لقد استطاع الكثير من الشعراء في أوروبا بقسميها الشرقي والغربي تخليد ثورات بكاملها، والشاعر يعتبر مؤشراً من مؤشرات الثقافة العالية، وللشعر دوره ودويّه وآثاره على الجماهير في مختلف الأبعاد، وعلى امتداد التأريخ. فليست المسألة إذن أن البيئة العربية أفرزت هذه الظاهرة كما يقول البعض.

ويبدو أن الشعر سِجلٌّ يضغط الفكرة ضغطاً كافياً، ويقدمها نموذجاً مصغّراً فيسهل على الذهن التهامها والاحتفاظ بها، ويلعب دوراً بارزاً في الدعاية لترسيخ المفاهيم والعقائد؛ لذلك وجدنا أهل البيت ﷺ يستهدفون شعراء الشيعة، ويجتمعون بهم، ويُوعزون لهم بتسجيل واقعة الطفّ، وباستعراض ما جرى لأهل البيت ﷺ؛ لأن الشعر وسيلة من الوسائل الفعالة. ولذلك وقف الإسلام من الشعراء الذين استخدموا هذه الطاقة الكبيرة ضد الإسلام موقفاً سلبياً، وبالعكس وقف موقفاً إيجابياً من الشعراء الذين سخّروا فكرهم لخدمة أهدافه.

المبحث الثاني: أبعاد الشعر

لقد استُخدم الشعر بادئ الأمر كوسيلة من وسائل الترفيه عن النفس، وهو أشبه بالترانيم التي يعبّر بها الإنسان أحياناً عن أحاسيسه عندما يكون مرتاح البال، ثم تطور ليأخذ أبعاداً مختلفة:

الأوّل: أنه وسيلة للارتزاق

ومن هذه الأبعاد أنه أصبح وسيلة للارتزاق، فنحن نعرف أن عدداً من الشعراء على امتداد التأريخ اتخذوا الشعر وسيلة للارتزاق، وأخذوا في سبيل ذلك يقلبون الحقّ باطلاً، والباطل حقاً، ويعتدون على الكرامات والأعراض. يقف أحد هؤلاء

لسيف الدولة فيقول:

لو كان علمُك بالإله مقسَّماً ... بالخلق ما بَعث الالهُ رسولا
أو كان لفظُك فيهمُ ما أنزل الـ ... ـتوراةَ والفرقانَ والإنجيلا

هذا الشاعر لا نستطيع أن نقيسه بابن هاني الأندلسي الذي مدح الخليفة الفاطمي بقوله:

وعلى أمير المؤمنين غَمامةٌ ... رُفعت تُظلِّلُ تاجه تظليلا
نهضت بثقل الدر ضوعف نَسجهُ ... وجرت عليه عَسجداً مطلولا
أمُديزها من حيثُ دار لَشدُّما ... زاحمتْ عند ركابه جبريلا
زحمتْ مناكبُه الجبالَ فأعلنت ... شُرُفاتُها التكبيرَ والتهليلا[1]

فهذا اللون من الحرارة والأداء العاطفي المتقن لا أستطيع أن أتّهمه بالارتزاق؛ لأنه كان يعتقد أن هؤلاء أيمّة، فهذا الرجل يقول الصدق من منطلق مفاهيمه وعقيدته هو حتى لو بالغ، لكنه صادق في قوله وفق ما يعتقد. وبمعنى آخر أن الباعث لهذا القول هو المبدأ وليس الارتزاق، ولكن عندما أسمع أحدهم يقف للرشيد فيقول:

خليفة الله إنَّ الجودَ أوديةً ... أحلَّك اللهُ منها حيث تجتمعُ
إن أخلفَ الغيثُ لم تخلف مخائلُه ... أو ضاق شيءٌ ذكرناه فيتسعُ
من لم يكن ببني العباس مُعتصماً ... فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ[2]

هذا النمط تبدو عليه نبرة الارتزاق واضحة، ويبدو عليه الفناء في الحطام

---

(١) أو هو ابن هاني المغربي، مناقب آل أبي طالب ٢: ١٥٠.
(٢) الأبيات لمنصور النمري. تاريخ بغداد ٤: ٢٧٢، ١٣: ٦٩، باختلاف في ترتيبها.

الزائل المؤقت، فهذا لون من الفكر المرتزق الرخيص الذي يمشي في ركاب الجبابرة.

وإلى هذا يشير السيد الحميري من شعراء الشيعة، حيث رأى من يمدح طلباً للحطام بقوله:

أيها المادحُ العباد ليُعطى ... إن للهِ ما بأيدي العبادِ

اسألِ اللهَ ماطلبت إليهم ... وارجُ نفعَ المُنزِّل العَوَّادِ

لا تقل في الجوادِ ما ليس فيه ... وتُسمِّي البخيلَ باسم الجوادِ[1]

فهذا النمط من الشعر مال إلى الارتزاق، وهو نمط من الفكر نزل بالشعر إلى حضيض الاستجداء.

الثاني: أنه وسيلة للانتقام

وهناك لون من الفكر تُحرِّكه غريزة الانتقام، فبعض الشعراء لديه شعر تكمن وراءه دوافع الانتقام والحقد، فهو يريد أن يشتم، بغضّ النظر عن كون هذا الذي يريد أن يشتمه يستحق الشتم أو لا، وإلّا فماذا يرجو مروان بن أبي حفصة في شعره عندما يشتم الزهراء ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ؟ وهل دفعه إلّا الحقد والحسد؟ يقول مروان في شعره: إن أمير المؤمنين ﷺ خطب بنت أبي جهل، فلما بلغ الخبر النبي ﷺ صعد المنبر وقال: إذا كان علي بن أبي طالب يريد الزواج من بنت أبي جهل فليطلّق ابنتي فإنه لا تجتمع ابنة نبي الله وابنة عدو الله. وكانت الزهراء ﷺ خرجت وبيدها الحسن والحسين وهي غضبى[2]. كلّ هذا المعنى يصوره مروان

(١) الغدير ٢: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، ونسبه في تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٤٩٣، وابن حجر في الإصابة ٥: ٢٣٢ لعمران بن حطان.

(٢) السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٤٧ / ٨٥١٨، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٢، الجامع

ابن أبي حفصة بقوله:

عــــلـيٌّ أبــوكم كــان أفـضلَ مـنكمُ ... أباهُ[1] ذوو الشورى وكانوا ذوي فضلِ

وســاءَ رسـولَ اللـهِ إذ سـاء بـنتَهُ ... بـخطبته بـنت اللـعين أبـي جـهلِ[2]

فتصدّى له شعراء الشيعة، فقال أحدهم:

عـليٌّ أبـونا كـان كـالطُّهر جدّنا ... له مـا له إلّا الـنبوّة مـن فـضلِ

لئـن كـانت الشـورى أبَـته وقبلها ... صـحيفتُهم ذاتُ المـفاسد والجـهلِ

فـقد كـان أهـلُ الرحـلتين ونـدوةٍ ... أبَوا قبلها من جهلهم سيّد الرسلِ[3]

فهذا النمط حاول أن ينزل برسالة الشعر من جوّها النظيف إلىٰ جوّ الحقد.

الثالث: أنه وسيلة لقلب الحقائق

وهناك نمط ثالث من الشعر يريد أن يقلب الحقّ باطلاً والباطل حـقّاً، فـمثلاً يقول أحدهم:

أنّى يكـون وليس ذاك بكـائنٍ ... لبني البنات وراثة الأعمامِ[4]

ومن أمثال هؤلاء عبد الله بن المعتز العباسي الذي يريد أن يقلب الحقّ باطلاً والباطل حقّاً، فيقول: إن علي بن أبي طالب عليه السلام ابن عم، وهو لا يرث مع وجـود العم؛ لأن العم يَحجب بناءً على نظرية التعصيب، يقول ابن المعتز:

☚ لأحكام القرآن ٢: ٢٢٧.

(١) أي رفضوه.

(٢) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٥، الفوائد الرجالية ١: ٨٩.

(٣) والمتصدّي هو السيد الحميري رحمه الله. الفوائد الرجالية ١: ٨٩.

(٤) البيت لمران بن حفصة. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١٨٩، تاريخ بغداد ١٣: ١٤٥، تاريخ مدينة دمشق ٥٧: ٢٩٢.

لكم رحمٌ يا بني بنته ... ولكن بنو العم أولى بها
قتلنا أميةَ في غابها ... فنحن أحقُّ بأسلابها
ونحن ورثنا ثياب النبي ... فكم تجذبون بأهدابها[1]

المبحث الثالث: معنى التعصيب

وهذه النظرية في التعصيب ليست صحيحة؛ لأنها تقوم على أساس حرمان البنت من نصيبها، وهذا خلاف رأي الإمامية. فإذا مات الميت، وخلّف ولداً، ذكراً كان أو أُنثى، فهو الذي يأخذ الميراث ولو وُجد العم.

وقد تصدّى شعراء الشيعة لهذا المعنى، وممن تصدّى له الصفي الحلي حيث قال:

ألا قل لشرّ عبيد الإله ... وطاغي قريش وكذّابها
وباغي العباد وباغي العناد ... وهاجي الكرام ومغتابها
أأنت تفاخر آلَ النبي ... وتجحدها فضل أحسابها
بكم باهلَ المصطفى أم بهم ... فردّ العُداة بأوصابها
أعنكم نُفي الرجسُ أم عنهمُ ... لطهر النفوس وألبابها
أما اللهو والشرب من دأبكم ... وفرطُ العبادة من دابها
وقلت ورثنا ثياب النبي ... فكم تجذبون بأهدابها
وعندك لا تورث الأنبياء ... فكيف حظيتم بأثوابها
فناقضت نفسك بالحالتين ... ولم تعرف الشهد من صابها[2]

---

(١) ديوان ابن المعتزّ: ٢٩، الغدير ٦: ٥٢.

(٢) الصاب: شجر مرّ له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة، إذا أصابت العين أتلفها. المعجم الوجيز: ٥٢٧ ـ صاب.

أجــدُّك يــرضى بـما قـلتَهُ — ومـــا كــان يــوماً بـمرتابِها

وكــان بــصفّين مــن حــزبهم — لحــرب الطــغاة وأحــزابِـها

وأقــبل يــدعو إلى حــيدرٍ — بـــإرهابها وبــــإرغابِها

وقـد شمّر الموت عن ساقه — وكشّـرت الحـرب عـن نـابِها

فـــهلاّ تـــقمّصها جـدّكـم — إذا كــــان إذّاك أولى بِـــها

وإذ جُـعل الأمـر شورى لهم — فـهل كـان من بـعض أربـابِها

أخـــامسهم كــان أم سـادساً — وقـــد جُـلّيت بـين خـطّابِها

وقــلت بأنّكــم القــاتلون — أســود أمـــيّة فـي غـابِها

كذبت وأسرفت في ما ادّعيت — ولم تـنهَ نـفسك عـن عـابِها

فكـــم حـــاولتها سُــراةٌ لكـم — فـرُدّت عـلى نكـص أعـقابِها

ولولا ســـيوف أبـي مسلمٍ — لعـــزّت عـلى جـهد طـلّابِها

وذلك عـــبدٌ لهـم لا لكـم — رأى فـــيكمُ قـــرب أحســابِها

وكنتم أسارى بـبطن الحُـبوس — وقـــد شـــفّكم لثـم أعـتابِها

فأخــرجكم وحـباكـم بـها — وقـــمّصكم فـضل جـلبابِها

فـــجازيتموه بشـــرّ الجـزاء — لطـغوى النـفوس وإعـجابِها

فدع ذكر قـوم رضـوا بـالكفاف — وجـاؤوا الخـلافة مـن بـابِها

هُــمُ العـابدون هُـمُ الحـامدون — هُــمُ السـاجدون بـمحرابِـها

عــليك بـــلهوك بـالغانيات — وخـــلّ المـــعالي لأربـــابِها

ووصف العـذار ونـعت العقار — وذات الخـــمار بألقـــابِها

فـــذلك دأبك لا دأبـــهم — وجـرْيُ الجـياد بأحسابِها[1]

---

(١) ديوان صفي الدين الحلي: ٩٢.

هذا نوع من الشعر الذي يتصدّى لمن يقلب الحق باطلاً والباطل حقّاً. ومن أمثلته أيضاً ما حدث مع الإمام السجاد؟ وهشام الذي تجاهله، فتصدى له الفرزدق بقوله:

هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأتَه والبيتُ يعرفه والحِلُّ والحَرمُ
هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهلَه بجدّه أنبياءُ اللهِ قد خُتموا[1]

ولقد لعبت قصيدة واحدة في أوروبا دوراً كبيراً في تحرير العبيد، وهي من شاعر وقف في وجه الرقّ.

فالشعر إذن يلعب دوراً مهماً جدّاً في الميادين الإيجابية.

فالأئمّة؟ يريدون من الشعر أن يُعرّف بأهل البيت، فأنت تجد في شعر الكميت ودعبل بن علي الخزاعي ومَن سبقهما من أمثال الوليد بن ظالم الطائي وعدي بن حاتم الطائي تعريفاً بأهل البيت؟ أنفسهم. وقد تستغرب من أن المسلمين يجهلون أهل البيت؟، وهذا ليس غريباً، فنحن في هذا العصر نرى المسلمين يجهلون أهل البيت؟. وقد قرأت كتاباً صدر العام الماضي للدكتور أحمد عطية الله اسمه «القاموس الإسلامي»، فرأيت أنه كتب (٤٢٦) سطراً في الإمام الشافعي، ولكنه عندما يمرّ بالإمام جعفر الصادق؟ يقول عنه: «هو جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، السادس من أيمّة الشيعة، ويقال إنه سمّي الصادق لصدقه».

ويمرّ الدكتور أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام» بربيعة الرأي الذي لا يمكن أن نعتبره من الفقهاء، غاية ما في الأمر أنه من أساتذة الإمام مالك، وهو من الموالي طبعاً، فيكتب فيه صفحات كثيرة، ولكنه عندما يمرّ بالإمام الصادق؟

(١) ديوان الفرزدق: ١٧٨.

يقول: «يقال إنه كان يجلس بالمسجد في المدينة ويتدارس العلم». فكيف يمكن لأبنائنا أن يعرفوا أهل البيت، وهم وسط هذا اللون من التعمية؟

إذن من الأولى للشعر أن يُندب لهذه المهمّة، وهو الأداة الفعالة في هذا الميدان. وليس المقصود من الشعر أنه يرفع من قدر أهل البيت، وإنما يجلو الضباب لتتّضح الحقيقة، يقول أحد الشعراء في أمير المؤمنين:

وما مدحتي تُوليك فخراً وإنما | أرد بإطرائي عليك الطّواريا
إذا الملأ الأعلى تحدّرَ بالثّنا | عليك فما شاني وشأن ثنائيا[1]

يقول عصام بن المصطلق: دخلت إلى المدينة، فمرّ بي الحسن فأعجبني رواؤه وسَمتُه وهديه وما عليه من الوقار، وأثار في نفسي وصدري حسداً كان كامناً لأبيه، فدنوت منه وقلت: أنت ابن أبي تراب؟ قال: نعم، فأبلغت في شتم علي بن أبي طالب، فنظر إليّ نظرة عاطف، ثم قال: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأمُرْ بِالعُرْفِ وَأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ * وَإمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا... ﴾[2] ثم قال لي: «يا هذا، استغفر الله مما أنت فيه؛ فلو استعطفتنا لعطفنا عليك، ولو استرشدتنا لأرشدناك، ولو طلبت منا لأعطيناك، فانبسط إلينا بحوائجك، فسوف تجدنا على أفضل ما تروم إنشاء الله».

ثم قال هذا الراوي: فلمح فيّ الندم على ما بدر منّي فقرأ: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ

---

(١) وقد عوتب المتنبي في ترك ذكر المناقب فقال:

وتركت مدحي للوصي تعمداً | إذ كان نوراً مستطيلاً شاملا
وإذا استطال الشيء قام بذاته | وكذا صفات الشمس تذهب باطلا

نهج الإيمان: ٦٦٩.

(٢) الأعراف: ١٩٩ ـ ٢٠١.

﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾[1] ثم أخذ بيدي ومال بي إلىٰ الدار، ثم سألني: أنت من أهل الشام؟ قلت: نعم، قال: «شِنْشِنَة أعرِفُها من أخزم». وواللهِ لقد خرجت من المدينة وليس على وجه الأرض أحد أحبّ إليّ منه ومن أبيه[2].

انظر إلىٰ هذا النموذج من التجهيل والتضليل الذي مارسه الأُمويّون بحق أهل البيت ﷺ، يقول أحدهم: مررت بمسجد حمص، فسمعت أحداً يسأل رفيقه: من هو علي بن أبي طالب؟ قال: لا أعرفه، ولكن يبدو أنه لصّ من لصوص الفتن[3].

المبحث الرابع: أهداف زجّ الأئمة ﷺ الشعراءَ في ميدان الشعر

لقد كانت هناك تربية ملتزمة في الشام لطمس حقوق أهل البيت ﷺ وتشويه صورتهم، فكانت لدى الأيمّة ﷺ أهداف سعَوا إلىٰ تحقيقها من خلال حثّ الشعراء وندبهم إلىٰ ولوج هذا الميدان، ومن هذه الأهداف:

الهدف الأوّل: التعريف بأهل البيت ﷺ

فعلىٰ الشعراء أن يعرّفوا الناس أن نهضة أهل البيت ﷺ إنما كانت دفعاً للباطل، ووقوفاً بوجهه، ودعماً للحق.

الهدف الثاني: رفع المثل الأعلى

فإذا نشر الشاعر الفكرة الخيّرة ركز لواءً يخفق، فالفكرة الخيّرة لواء على طريق النهضات. فأهل البيت ﷺ يطلبون من الشعراء أن يرفعوا أهداف الإمام الحسين ﷺ ليتّخذوا منها لواءً؛ لكي ينظر إليه الناس ويسيروا على هديه، يقول أحمد شوقي:

---

(١) يوسف: ٩٢.
(٢) الأنساب ٣: ٤٧، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٧٨.
(٣) مروج الذهب ٣: ٤٢.

نشروا دماءك في الصعيد لواءا | يستنهضُ الوادي صباح مساءا
جرحٌ يضجّ على المدى وضحيّةٌ | تستنهض الحريّة الحمراءا

فإذا أخذ الشاعر أسرار النهضة، ورفعها لواءً، فإنّ الأحرار سوف يهتدون به.

وكان لشعراء الطفّ موقف مشرّف في هذا الميدان، فقد جلّوا الواقعة تجلية تتناسب مع أهمّيّتها، يقول أحد المعاصرين:

يمّمتُ يومك أستجلي روائعهُ | فأشبعتْ ناظري مُؤارةً صورُ
ما رُمتُ رائعةً إلاّ وجدتُ به | كأنّ كلّ سموٍّ فيه منحصرُ
هو المدى ميّز الشوط البعيد به | أعنّة الرّكب مَن جدُّوا ومن قصروا

فهذ الشاعر ينشر موقفاً من مواقف الإمام الحسين عليه السلام يتخذ منه لواءً تتملاّه الجماهير، وتهتزّ لعظمته. ولم يكن شعراء أهل البيت عليهم السلام يمدحونهم لأجل الأموال أو الجاه، وإلاّ فكان لهم أن يمدحوا الأحياء، وأهل الحُكم والسلطان، لا أن يمدحوا المقتولين، ومَن وقفت الدنيا ضدّهم، فهم ينشرون الحق لواءً، ولا ينشدون سوى الحق[1].

الهدف الثالث: عرض جانب الظلامة وأسرار النهضة

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى ما يكتبه بعض الكتّاب في الماضي والحاضر من أن الإمام الحسين عليه السلام هل كان عنده تخطيط في نهضته أم لا؟ وهو ألم يكن يدري أن يزيد يمتلك الدنيا، فالجيوش تحت إمرته، والطاقات من الأموال والجاه والقوة

---

(١) بل إنهم كانوا يرجعون الأموال التي يعطيها إيّاهم الأئمة عليهم السلام جرّاء مدحهم لهم كما فعل الفرزدق وغيره مع الإمام السجاد عليه السلام، انظر شرح الأخبار ٣: ٢٦٤ ـ ٢٦٥، وكما فعل دعبل مع الإمام الرضا عليه السلام، انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ـ ٣٣، وكما فعل الكميت مع الباقر عليه السلام، انظر دلائل الإمامة: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

كلّها بيده؟ ألم يكن الإمام الحسين ﷺ يعرف أنّ سبعين مقاتلاً لا يستطيعون مواجهة هذه القوة؟ ولماذا لم يُصالح ويستسلم ويُقرّ كما فعل غيره؟

وهؤلاء لا يفهمون أسرار نهضة الإمام الحسين ﷺ، فهو لم يكن يخرج ليفتح بلداً. ففي رسالته ﷺ لبني هاشم بُعيد نزوله في كربلاء يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فمن لحق بنا منكم استشهد، ومن تخلّف لم يبلغ الفتح»[1]. فما هو الفتح الذي يعنيه هنا؟ الفتح هو ما نراه اليوم من آثار لهذه الثورة. فالإمام الحسين ﷺ حوّل الموت إلىٰ فتوح:

وتسامت بالموت حتى أحالتـ	ـه فتوحاً سخيّة الأرداحِ
لم تفجّر لظاك يهدر بالحـ	ـقّ لتروي قرائح الفدّاحِ
بل لتحيا سعيرةً مارداً يبـ	ـعث للموت سلّماً من أضاحِ

فهو ﷺ لم يستهدف أن تُستدرّ عبرة، فهو جذوة، ولم يكن يريد أن يحتلّ بلداً فيفتحه، وإنما أراد أن يريق الدم الطاهر لينتصر على المدى البعيد، ويأخذ طريقه في الدنيا. وهو ﷺ امتداد للنبوّة، والنبوّة جذوة في وجه الظالمين، ولكن هذه الجذوة تعتّم عليها وسائل الإعلام فتنسخ أهدافها ودوافعها، وتصوّرها بصور أُخرىٰ. والشعر له القابلية على أن ينهض بمهمّة كبرى في هذا المجال، وأن يلعب دوراً كبيراً:

الشعرُ أجّجَ ألف نارٍ وانبرى	يلوي أنوف الظالمين ويجدعُ
لو شاء ردّ الليل في أسمارهِ	واحات نورٍ تستشفّ فتلمعُ
أو شاء قاد من الشعوب كتائباً	يعنو لها من كلّ أفقٍ مطلعُ

---

(١) بصائر الدرجات: ٥٠٢، مثير الأحزان: ٢٧.

فالشعرُ إذن يكشف أسرار النهضة، ويدافع عنها في وجه من يقول: إن الإمام الحسين عليه السلام «قتل بسيف جدّه»[1]، أو لم يكن عنده تخطيط، أو ما استطاع أن يصل إلىٰ النصر.

إن الحياة بمعناها الكريم وسموّها أكبر من أن تلج أمثال هذه الأدمغة المُنحطّة التي تتصوّر أن النصر هو أن يعيش يزيد بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام بضعة أيّام، وتحت يديه جارية تسقيه الخمرة، أو إلىٰ جانبه مخنث يُحيل ليله إلىٰ غناء[2].

ولكن، قد يسأل سائل فيقول: هل للعاطفة دور في هذا المكان أو لا؟ وهل أراد الأيمّة عليهم السلام من الشعراء أن يُحرّكوا العواطف ويُذكّروا بالفاجعة؟ لا شك أن واقعة الطف أحدثت تأزُّماً كبيراً في تأريخ الشيعة منذ وقوعها وحتّى الآن، فإذا مرّت هذه الأيّام العشرة أحدثت تأزّماً في كيان الفرد الذي ينتمي إلىٰ هذه الطائفة، وهذا يسمّى «الميراث التاريخي» أو «التأريخ الاجتماعي». وقد اهتمّت الدراسات الحديثة بهذا الجانب أيّما اهتمام، وحسبت له ألف حساب. ولذلك تجد الأدب الشيعي حارّاً؛ لأنّه تربّى على النكبات والجمر:

والدهر لا يُنشي الرجال صوارماً ⁂ إلاّ إذا احترقوا على جمراته

يقول أحد الشعراء:

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣.

(٢) حيث يروىٰ أن معاوية سمع شخصاً يغنّي عند ابنه يزيد، فقال: من هذا؟ فقال: هذا سائب خاثر ـ أحد المغنين، وسمي كذلك لأنه غنىٰ صوتاً ثقيلاً، فقال من سمعه هذا غناء خاثر، انظر: تاريخ مدينة دمشق ٢٠: ١٢٢، الأعلام ٣: ٦٨ ـ فقال له: فاختر له بنيّ من برّك وصلتك، فما رأيت في مجالسته بأساً. انظر في هذا وغيره: تاريخ الطبري ٤: ٢٤٩، الأغاني ٨: ٣٢٤، تاريخ مدينة دمشق ٢٠: ١٢٢، ٦٩: ٢٩٣.

أرقُّ مـن دمـعةِ شـيعيّةٍ   تبكي عليَّ بن أبي طـالبِ

ذلك لأنّ دمعتها رقيقة صادقة حارّة؛ لأنّها تستشعر بحراةِ الألم الذي وقع على أهل البيت‌ؑ. وعلى مرّ السنين والأيّام يتحوّل إلىٰ خزين متراكم لا بُدّ له من لون من ألوان التفريغ عن النفس.

كما أن الكثير من الناس يقولون: إن الإمام الحسين‌ؑ عملاق مصنوع من طاقة هائلة، مبنيّ من الدم، فلماذا تصنعونه من دموع؟ كلا إنه يبقى مصنوعاً من دم، ويبقى عملاقاً، ولكن الدموع شيء قسري لا طاقة لنا على ردّه، ولذلك يقول جعفر بن عفّان: دخلت على الإمام الصادق‌ؑ أول المحرّم، فرفع رأسه إليّ وقال: «بلغني أنك تقول الشعر وتجيده». قلت: نعم، قال: «أنشدني في جدّي الحسين‌ؑ». فقلت: سيّدي إنّي أهابك. قال: «لا، أنشدني». فقلت:

امْرُر على جدث الحسيـ   ـن وقل لأعظمه الزكيّة

يا أعظماً رضّتك قو   م بالجياد الأصبحيّة

وإذا مررت بقبره   فأطل به وقف المطيّة

وابكِ المطهر للمطهـ   ـر والمطهّرة النقيّة

فرأيت الإمام أخذ ينشج ويهتزّ، ثم قال لي: «أنشدني»، فقلت:

يا مريمُ قومي اندُبي مولاكِ   وعلى الحسين فأسعدي ببكاكِ

يقول: فقال الإمام‌ؑ: «هكذا أنشدني كما تنشدون بالرِّقّة». وتعالى النحيب من وراء الستار[1].

---

(١) انظر كامل الزيارات: ٢١١ / ٣٠١، مثير الأحزان: ٦٤، الغدير ٢: ٢٣٦، والأبيات الأُول للسيد الحميري.

ودخل الكميت على الإمام الصادقعليه السلام في مكة المكرّمة أيّام التشريق فقال: سيّدي، أُريد أن أُنشدك. قال الامامعليه السلام: «إنها ليالٍ عظيمة». فقال: إنّها فيكم أهل البيت. قال: «هات». فوقف الكميت ينشد ميميّته العصماء:

مَـن لقـلبٍ مُـتيّمٍ مسـتهامٍ ... غـير مـا صَبوةٍ ولا أحلامِ

أخلص الله لي هـواي فما أغـ ... ـرقُ نزعاً ولا تطيش سهامي

يقول الكميت: فأنشدت إلىٰ أن وصلت إلىٰ قولي:

وقـتيلٍ بـالطفّ غـودر مـنهم ... بـين غـوغاء أمّـةٍ وطـغامِ

يقول الكميت: فسمعت النشيج من وراء الستر، وخرجت من وراء الستار جارية تحمل على يديها طفلاً رضيعاً وضعته بين يدي الإمامعليه السلام، ويبدو أنها أرادت أن تُذكّر بمشهد من مشاهد الطف المتحرّكة فأخرجت هذا الرضيع، وما كاد الإمام يقع بصره عليه حتى انفجر بالبكاء، وأخذت دموعه تَكِفُ على كريمته[1].

أقول: سيدي كيف بك لو رأيت جدّك يوم رجع يحمل رضيعه وهو مذبوح من الوريد إلىٰ الوريد:

ولو تـــراه حـــاملاً طـفله ... رأيت بـدراً يـحمل الفـرقدا

مُـخضّباً مـن فيض أوداجه ... ألبسه سهم الردى مجسدا[2]

ويقول دعبل بن علي الخزاعي: كنت أنشد عند الإمام الرضاعليه السلام:

تـجاوبنَ بـالإرنانِ والزفـرات ... نوائحُ أُجمُ اللـفظِ والنطقاتِ

---

(١) الغدير ٢: ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) المجسد: الثوب الملاصق للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم الوسيط: ١٢٢ ـ جسد.

حتى وصلت إلىٰ قولي:

أفاطم لو خلت الحسين مجدّلاً ... وقد مات ظمآناً بشطّ فراتِ

إذن للطمت الخدّ فاطم عنده ... وأجريت دمع العين بالوجناتِ

* * *

يابه ما بعيني دمع واسجيك ... بنفسي يبو السجّاد اداويك

﴿٥٨﴾

كتب التفسير والأساطير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

مباحث النصّ الشريف

المبحث الأوّل: رأي المفسرين والإساءة إلى آدم عليه السلام

للمفسرين في هاتين الآيتين رأيان:

الأوّل أنها عامة نزلت في الناس كافّة.

والرأي الثاني أنها نزلت في آدم عليه السلام، وأن القصة تتلخّص كما يرويها بعض المفسرين[2] بأن آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض، وحملت حواء، مرّ به إبليس فقال

---

(١) الأعراف: ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢) التفسير الكبير ١٥: ٧٠.

له: ماذا تظن في بطن حواء؟ قال: «الله أعلم». قال: ما يدريك أن يكون في بطنها حيوان؟ فانذر إن ولد لها ولد أن تسميه عبد الحارث، وهو اسم إبليس. فنذر آدم ذلك، ولما ولدت ولداً سماه عبد الحارث. والآية تشير إلى أن هذا اللون من التسمية لا يصحّ؛ لأن فيه عبودية، وهي لا تصح إلّا لله تعالى.

هذا هو التفسير الآيديولوجي كما يمكن أن نسميه، والقصة كلّها محبوكة ومرتّبة لهدف واحد كما سيمر بنا.

والغريب أنك تجد هذا اللون من الإسرائيليات عند كبار المفسرين، كالفخر الرازي وغيره الذين يروون هذه الرواية. فكيف يمكن أن نتصور آدم ﷺ ـ وهو نبي ـ ينخدع بإبليس الذي أخرجه من الجنة، ثم يأتيه مرة أُخرى فيخدعه؟ وكيف يمكن لنبي الله آدم أن يسمي تسمية فيها شرك؟ وكيف أنه يحتمل من زوجته أن تحمل حيواناً؟ وهل يمكن لنبي أن يتصور أن امرأة تحمل حيواناً خارجاً عن جنس البشر؟ ولمَ لا تنظف كتب التفسير من هذه الخزعبلات؟ إن الطابع اليهودي واضح على مثل هذه الأمور، وقد لعبت الإسرائيليات وغيرها لعباً مروعاً في التفسير.

المبحث الثاني: معنى ﴿نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾

هذا هو التفسير الخاصّ بآدم ﷺ، أما التفسير العام للآيتين، والذي يبيّن المضامين العامّة للنصّ الشريف فهو أنهما نزلتا في كلّ أم وأب، وإليك مضامينهما:

تقول الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ والنفس الواحدة التي نرجع إليها جميعاً باعتبارها المصدر الأول لنا هي آدم ﷺ أبو البشر جميعاً، فهو الأساس الذي تحدّر منه الناس. ولكن أي آدم هو؟ لو رجعنا إلى النظرية الكلاسيّة في كتب التفسير لوجدناها لا تلتئم أو تتّفق مع النظرية العلمية؛ لأن النظرية

الكلاسيّة تقول: إن بيننا وبين آدم فترة قصيرة (حوالي أربعة عشر ألف سنة)، فإذا اعتبرنا آدم أصل النوع فإن هذه المدة قصيرة جداً، وقد دلّت الاكتشافات على وجود أجساد مطمورة تحت الأرض، باقية بفعل عوامل جيولوجية، ولما درس العلماء هيكلها العظمي وخواصّها وجدوا أنها لا تختلف عن خواصّ الإنسان المعاصر، علماً أن تاريخها يرجع إلى مئات الآلاف من السنين (نصف مليون سنة مثلاً، وهو الرأي الذي يسمى رأياً علمياً إلى حد ما)، وهناك نظريات تقول: إن هذه الأجسام ترجع إلى مليوني سنة، أو ثلاثة ملايين، أو أكثر. ولذلك ضربت هذه الاكتشافات نظرية دارون ضربة قوية، وأخرجتها عن الحقل العلمي.

فنظرية أن بيننا وبين آدمعليه السلام عشرة آلاف سنة لا تسمح لنا أن نعتبره الإنسان الأوّل؛ لأن هناك إنساناً قبل هذا التاريخ. فآدمعليه السلام هذا ليس هو الإنسان الأوّل، فمن الذي تريده الآية يا ترى؟

إن الآية تريد آدم الأوّل وهو الأساس، لا هذا الذي تحدد لنا كتب التوراة أو الإنجيل أو التاريخ المدة التي بيننا وبينه بأربعة عشر ألف سنة. فهذا لا يتفق مع النظرية العلمية إطلاقاً، ولا يمكن أن يحمل القرآن نظرية فيها مخالَفة للحقائق أبداً. فلا بد أن يكون آدم المعنيّ غير آدم الذي بيننا وبينه هذه المدّة المذكورة.

لماذا يركّز القرآن الكريم على ظاهرة النفس الواحدة؟

ثم نسأل هذا السؤال: لمَ يركز القرآن الكريم في هذه الآية على ظاهرة النفس الواحدة؟ الجواب: أنه يريد أن يطرد نظرية التمايز في أصل المنشأ والخلقة. فهناك إحدى النظريات مثلاً تعلل الحضارة بتفاوت الجنس، فيقسمون الناس إلى الجنس الأسود والأشقر والأصفر والأسمر وغيرها، ويقولون: إن الحضارة مدينة للجنس الأشقر. وهكذا يعللون الحضارات كلّها بنظريات الجنس، وأن بعض الأجناس

متميزة عن غيرها، وأن الحضارة مدينة للجنس المعروف عندهم بـ«السوبرمان»، وهو الرجل الأشقر. فهذا الجنس وحده الذي يمكن في نظرهم أن يسمى آدمياً، أما الآخرون فيطلق عليهم هذا الاسم من باب التجوّز، وإلّا فإنهم ليسوا كذلك.

فالقرآن يريد أن يطرد هذا اللون من التفكير غير العلمي وغير الواقعي عن أذهان البشر، ويبين لهم أن الناس في أصل المنشأ والخلقة سواء، وليس هناك إنسان مميز.

وإذا رجعنا إلى المخ، وافترضنا أنه هو منبع الفكر والعقل، فاننا نجد أن خلاياه عند كلّ انسان (١٤٠٠) مليون خلية، ولا يوجد تفاوت بين البشر من هذه الناحية، والمخ هو المخ عند الجميع. فمن أين جاء هذا التفاوت؟ إنه آتٍ من التربية والمحيط والرعاية والمواريث الاجتماعية. فلم يخلق الله تعالى بشراً ناقصاً وآخر كاملاً، إنما خلقهم جميعاً كاملين، ولكن القَدَر ألقى بصنف في أفريقيا فصار لونهم أسود، وألقى بصنف آخر في أوروبا فصار لونه أشقر، وسط بيئة العلم والمعرفة. فلا هذا له فضل، ولا ذاك له ذنب. فكلّ منهما ربي في محيط، ونحن لا دخل لنا في الاختيار. فالإنسان يولد في مكان لا اختيار له فيه، والقدر هو الذي رسم له مصيره في الأب والأُم والمكان. والناس في أصل المنشأ والخلقة سواء، وهذا المعنى يسجله أمير المؤمنين بقوله:

الناس من جهة التمثيل أكفاءُ ... أبوهمُ آدم والأمّ حــواءُ
فإن يكن لهمُ في أصلهم شرفٌ ... يفاخرون به فالطين والماءُ[1]

فـ«كلّكم لآدم وآدم من تراب»[2] حسب التعبير النبوي في الحديث الشريف.

---

(١) ديوان الإمام علي ﵇ : ١٥.
(٢) تحف العقول: ٣٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨.

وهذه النظريات التي تقوم على أساس الأجناس المميزة إنما هي نظريات فيها أهداف آيديولوجية معينة. وقد استغلت في هذا الباب، فاستغلّتها إيطاليا أو ألمانيا يوماً من الأيام، كما استغلها الإنكليز وغيرهم ممّن يرى أن جنسه هو الأفضل، والأجناس الأُخرىٰ خاملة ليس فيها الخواص المميزة نفسها. والإسلام يرى أن هذه النظرية كافرة خطرة، ترفع الناس بعضهم على بعض دون سبب، فإن وُجد هناك تفاوت ففي الكَسبيات، كأن يُقدم العالم على غير العالم، أما في أصل المنشأ والخلقة فالناس متساوون.

وهذا الموضوع طويل ودقيق، وفيه تساؤلات كثيرة، فمثلاً: هل إن الذكاء من الله أو من طبيعة المحل؟ دعنا نأخذ هذا التوضيح: لو كان لدينا كوز للماء وقدح، فبطبيعة الحال إن الكوز يأخذ كمية من الماء أكثر من القدح. فلا يمكن أن يقال: إن الله ظلم القدح ووسع على الكوز بهذا اللحاظ. فهذا ليس من الله إنما هو من قابلية المحل، والله خلق الناس من مادة لها قابلية، وهو الفاعل، والمادة قابلة منفعلة تأخذ بقدر استعدادها، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[1].

وخذ هذا التوضيح الآخر: قد يقول قائل: لمَ خلق الله الخنفساء هكذا ولم يخلقها إنساناً، وهما من الخلية نفسها؟ فهل هذا ظلم أو لا؟ كلا، إن الله لم يظلم، إنما المادة نفسها فيها قابلية محل، وعلّة غائية من وراء قابلية المحل. والعلّة الغائية أن الدنيا تحتاج خنفساء وضفدعاً وإنساناً وبقرة وحماراً ونعجة، وهكذا، وذلك لإدارة شؤون الوجود. فهذا ليس ظلماً إنما هو تنويع وتصنيف، مع استعداد للمحل.

فالقرآن يريد في هذه الآية أن يطرد احتمال التمايز والتفاوت، فلا يشعر أحد أنه مخلوق من ذهب، والآخر من تراب، إنما الناس لآدم وآدم من تراب. كلّ هذا

---

(١) الرعد: ١٧.

كيلا يأتي من يتكبّر ويتجبّر ويصعّر خدّه على أنه من جنس أفضل، أو أنه يمتلك مميزات أكثر من غيره.

المبحث الثالث: الجعل بسيط ومركّب

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ ويقسم الفلاسفة الجعل قسمين: بسيط ومركب. فالجعل البسيط هو التكوين، كجعل الارض. أما الجعل المركب المزدوج فهو كجعل الطين إبريقاً؛ لأننا أولاً صنعنا الطين، ثم صيرناه إبريقاً، فهو تحويل المادة إلى شكل معين. وفي الآية الكريمة يقول: ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ أي خلقه، وهذا جعلٌ بسيط.

وكلمة ﴿**من**﴾ هنا هل هي لبيان الجنس أو للتبعيض؟ لأنها تأتي في اللغة لمعانٍ مختلفة، فهل هي هنا للتبعيض؟ وذلك بناء على النظرية التي تقول: إن الله عز وجل لما أراد خلق حواء، ترك آدم حتى نام، فاستلب أحد أضلاعه ـ وهو أعوج ـ فخلق منه حواء. لذا فإن المرأة دائماً غير مستقيمة.

وهذا طبعاً من الإسرائيليات المعروفة في كتب التفسير[1] والحديث[2]، وإلّا فما الداعي لهذه العملية الجراحية المعقدة في أخذ الضلع، وخلق حواء منه؟ وهل إن الله عاجز عن خلق حواء من تراب؟ إن الذي خلق آدمﷺ من تراب يستطيع أن يخلق حواء من ذلك التراب، والتراب كثير. فلا يمكن أن نطمئن لهذا اللون من الكلام الفاسد، ولا يمكن إذن أن نحمل ﴿**من**﴾ على معنى التبعيض؛ لأن هناك

---

(١) مجمع البيان ٨: ٣٨٦، ونسبه إلى التضعيف بقوله: «وقيل». جامع البيان، المجلد ٣، ج ٤: ٢٩٧، المجلد ٦، ج ٩: ١٩١، المجلد ١٢، ج ٢٣: ٢٣١، ولم يرد أنه أعوج. الجامع لأحكام القرآن ١: ٣٠١، وفيه أنها عوجاء؛ لأنها خلقت من ضلع أعوج. تفسير الثعالبي ٢: ١٥٩ مثله.

(٢) المعجم الأوسط ١: ٩٣، بغية الباحث: ١٦٠، فتح الباري ٢: ٢٦٢.
وانظر أيضاً سبل السلام ٢: ١٣٩، المغني ٨: ١٢٦.

لوازم فاسدة تترتب على ذلك، ويتدخّل الفكر اليهودي في رواية قضايا لا مجال للاعتراف بها أبداً. فالله خلق حواء من تراب كما خلق آدم من ذلك. أما أنها خلقت من ضلع حي فسميت حواء فهذا هراء؛ لأن اسم حواء يمكن أن يكون مشتقاً من حياة أو حيّ أو غير ذلك.

فهذه الكلمة ﴿من﴾ لبيان الجنس، أي أن الله خلق له زوجَةً من جنسه؛ لأن آدم هو الجنس الوحيد الأوّل، فخلق الله له زوجاً من جنسه؛ ليستأنس به؛ فالإنسان لا يستأنس إلّا بجنسه. لاحظ مثلاً أُولئك الذين يعيشون في محيط من لغة واحدة، هذا المجتمع لو لاحظته لرأيت أن له خواصَّ وتماسكاً، ويأنس بعضهم ببعض؛ فالعربي يأنس للعربي، فإن ذهب إلى أوروبا راح يبحث عن العربي مثله يتحادث معه؛ لأن الإشباع النفسي لا يحصل له ما لم يجد من يتكلّم معه بلغته ليتفاعل معه، فاللغة تنقل المشاعر والأفكار. والله خلق لآدم زوجاً من جنسه ليأنس به. فـ﴿من﴾ هذه للجنس لا للتبعيض.

المبحث الرابع: الغاية الحقيقية من الزواج

ثم بين بعد ذلك العلة الغائية من وراء ذلك فقال: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فأراد أن يشعرنا أن الغاية من الزواج ليس الإشباع الجنسي فقط كما يفهم البعض، بل الغريزة ما هي إلّا وسيلة لتحقيق غاية أفضل. فلم يخلق الله هذا الإنسان العبقري الذي سخر عقلُه السماوات والأرض، ليضع عنده غريزة حيوانية يشترك معه فيها أبسط الحيوانات، فيشبعها فقط ـ فهذا هدف حقير جداً، وهناك هدف سامٍ، وأثر كبير هو السكن، فالمرأة سكن للرجل، وهو سكن لها؛ لأن مهمة كلٍّ منهما بناء العش الذي تدور فيه وحوله مجموعة القيم والاخلاق في الدنيا. وهذا العش هو الأُسرة التي تتكوّن من أم وأب.

فالإنسان يتزوّج بدافع السكن والاطمئنان، فيتبادل مع زوجه الرأي، ويستعين بها وتستعين به على حلّ مشاكل الحياة، وتربية الولد. فالمرأة كيان يسهم في بناء الأُسرة؛ لذا لا بدّ من أن يتوفر فيها الاستعداد لانّ تتفجّر عطاء، بأن تسهم في بناء المجتمع. وإذا فقدت المرأة بعض الشروط التي يجب أن تتوفّر في الزواج، فلا يمكن أن تسهم إسهاماً سليماً في بناء الأُسرة. ومن هذه الشروط ألّا تجبر على الزواج، ولا يجبر الزوج على ذلك، كما يحدث عند بعض الأُسر، كأن يُجبر الطرفان أو أحدهما على الزواج بدافع ألّا يذهب ثراء الأُسرة مثلاً للأجنبي.

إن مشاعر المرأة والرجل أكبر من أن تكون عرضة لدافع حفظ الثروة، والإجبار يشلّ عند الإنسان الابداع، ولا يجعله ينطلق. والزواج وراءه آفاق نفسية، وهذه الآفاق سوف تُشلّ ولا تنطلق إذا كان الزواج بالجبر. إننا ننتظر من هذا الزواج أن يبني إنساناً، والغلطة في بناء الإنسان لا يمكن إصلاحها، كتلك التي تكون في بناء شيء آخر، فمن يصنع جهازاً ويخطئ فيه يمكن أن يصلحه أو يعوّضه، أما إذا بُني الإنسان بناء فاسداً فلا يمكن إصلاحه أبداً.

والأُسرة هي التي تبني الإنسان، فإن بَنَته كذاباً أو فاسداً فسيكون خطراً في المجتمع، لا يعدل شيئاً، والمفروض أن الإنسان يعدل عند الله السماوات والأرض. ولذا يجب أن تتوفّر الشروط الموضوعية من الزواج؛ كي يترك بصماته فيما بعد على الأُسرة.

فالمرأة إذن سكن، وهي تساهم في بناء المجتمع. والتاريخ يذكر الكثير من النماذج والشواهد على ذلك، منها أن الحرث بن عوف قال لخارجة بن سنان: أريد أن أخطب، فهل تعتقد أن أحداً من العرب لا يزوّجني؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: أوس بن حارثة بن لأم الطائي. فقال: لنطرقه ونرَ. فذهبوا إلى الحارث

ليخطبوا إليه، فلما دخلوا عليه رحّب بهم، ثم قال: ما وراءكم؟ قالوا: جئنا خاطبين. قال: لمن؟ قال الحرث: لي. قال: لستَ هناك.

فقام غاضباً. فلما خرج، دخل أُوس على زوجته متأثراً، فسألته، فقال لها: إن هذا الرجل استهجنني، وخطب إليّ إحدى بناتي. فقالت: إذا لم تزوّج سيد العرب، فمن تزوّج؟ قال: فما أصنع؟ قالت: اتبعه. قال: لا، أسأل بناتي أولاً، وأعرف وجهة نظرهن.

فأقبل إلى الكبرى وقال: بنية، هذا سيّد العرب جاء يخطبك مني فماذا تقولين؟ (لاحظ هذه الروح الطيّبة عند هذا الرجل)، فقالت: أبه، إن في طبعي حدة، وفي خلقي رداءة، ولست بابنة عم له فيراعيني، ولا أنت جارٌ له في البلد فيستحي منك، وأخشى أن يطلقني فأكون سبّة عليك. فسأل الثانية، فأجابته مثلها، وأشعرته أنها لا تصلح. فجاء إلى الصغرى وكان اسمها «هنية» فقال: ما رأيك؟ قالت: إني لجميلة وجهاً، حسنة خلقاً، صائبة رأياً، فإن طلقني فلا أنعم الله عليه. فخرج منها، وزوّجه، فأفرد خباء له ودخل عليها.

يقول نديمه: فلما أصبح عليه الصباح سألته: هل فرغت من حاجتك؟ قال: لا. قلت: لمَ؟ قال: لما دنوت إليها قالت: مه، أتصنع بي كما يصنع بالسبية؟ لا بد أن تجد فرصة ملائمة أُخرى غير هذه.

يقول: فقطعنا الطريق عائدين، وبتنا ليلة في منتصف الطريق، وقد أفرد خباء له بعيداً عن خبائي، فلما أصبح الصباح سألته: هل فرغت من حاجتك؟ قال: لا، إني لما دنوت منها قالت: مه، فلستُ عابرة سبيل، انتظر حتى تصل إلى أهلك فتنحر الجزر، وتوسع على الفقراء، وتطعم الضعفاء. فقلت: إني لأرى عقلاً، وسأرى خيراً.

فلما وصل إلى أهله نحر الجزر وأطعم الطعام، فلما أصبح الصباح سألته، فقال:

لما دنوت منها قالت: أنت تعرس بأهلك. والعرب تتقاتل فيما بينها؟ وكانت هناك حرب بين عبس وذبيان، ثم قالت له: اذهب وأصلح بين القبائل، وتحمّل حمالات الدم، وارجع إلى أهلك.

يقول: فخرجنا صباحاً، وأخذنا ثلاثة آلاف من الإبل وأطفأنا الثائرة، وأصلحنا بين القبيلتين، وأوقفنا إراقة الدماء. فلما عدنا، ودخل عليها سألته، فقال: نعم، قضيت حاجتي[1]. وقد سعدت معه هذه المرأة، وولدت له أولاداً.

فالمرأة سكن، تشعر الرجل بالغبطة، وتشاركه في بناء الإنسان، وكم هو جميل لو أن عندنا امرأة مثلها اليوم.

المبحث الخامس: من أدب القرآن

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ لاحظ هذا التعبير اللطيف للقرآن، فهو عندما يمر بالقضية الجنسية، فإنه من باب التهذيب يكني عن اللفظة الصريحة؛ لأنه يريد منا ألّا نتعود على اللفظة النابية المكشوفة. أما في باب التشريع فيستخدم اللفظة نفسها؛ فهو يقول مثلاً من باب التهذيب ﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾[2] والمقصود به الزنا؛ لأن الرجل عادة يكون بين يديها ورجليها ساعة اللقاء.

وفي هذه الآية يعبر عن العملية الجنسية بقوله: ﴿تَغَشَّاهَا﴾ ليعوّد ألسنتنا على التعبير الهادف النظيف، ويجنبها الكلمة الداعرة؛ لأن مثل هذه الكلمة ينعكس أثرها على النفس. ولا تمكن أن يُحكم على تربية أمّة وأخلاقها إلّا من تعابيرها.

---

(١) المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

(٢) الممتحنة: ١٢.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «المرء مخبوء تحت طي لسانه»[1]، لا تحت طيلسانه. فالكلمة هي التي تحدد أخلاق الإنسان وقيمته وعلمه.

ثم قالت: ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً﴾ والحَمل ـ بالفتح ـ ما كان في البطن، أما الحِمل ـ بالكسر ـ فما كان على الظهر. والحَمل هو الجنين، وذلك في بدء الحمل. أما بعد ذلك فلا يكون خفيفاً، فلذا قال تعالى بعدُ: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾، وذلك إذا كبر الحمل. والقرآن يريد أن يشعرنا بقيمة الأمّ التي تتحمّل آلام الحمل والولادة. وينبغي للإنسان أن يعطيها حقّها إذا كبر وترعرع، فقد قاست ما قاست في أدوار الحمل والولادة والحضانة، وهذا هو السبب الذي جعل الجنة تحت أقدام الأمهات[2]. وقد دعا الباري إلى برّ الأمّ[3]؛ كي يحافظ على ترابط الأسرة، وعلى القيم الخلقية، فمن يعش بخلق عالٍ وتربية طيبة وبرّ لأبويه، فإن ذلك سوف يتناسل معه، فمن يكن باراً أمكن أن يُهيّئ الله له أولاداً بارين، وبالعكس. ولا أُريد أن أقول: إن هذه قاعدة لا تنخرم، لكن العادة أن البار بأبويه يُهيئ له الله الأولاد البارين، وبالعكس.

ثم قالت الآية: ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ﴾، والقضية هي أن الإنسان عندما يرزقه الله يتصور أن السبب الطبيعي هو العلّة في الخلق، ووجه الشركة مع الله هنا أن الأمّ والأب يتصوّران أن تعبهما هو العلّة التامة في الإيجاد والخلق، فلقاؤهما واجتماعهما هو الموجِد للولد؛ وبهذا يتّخذ الأب من نفسه شريكاً لله. لكن الإنسان الواعي يعرف

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة ١٤٨، ٤٩٢، عيون الحكم والمواعظ: ١٨، ٢٠١.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، مسند الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، كنز العمّال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩.

(٣) كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾ الأحقاف: ١٥.

أن اللقاء ليس هو العلة التامة، فقد يجتمع الأب والأمّ، وليس عندهما مانع، ولكن لا يتكوّن الولد، فالله تعالى هو الخالق: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً﴾[1].

أما من يروي أن هذه الآية نزلت في آدم عندما حملت حواء وجاءه إبليس وقال له: عِدني أنها إن ولدت ولداً أن تسميه عبد الحارث، فسماه عبد الحارث، فهذا شرك؛ لأنه سماه بهذا الاسم[2]، فهذه القصة لها هدف وأساس سوف تعرفه. وأنا أستغرب من ابن قيم الجوزية ـ وهو عملاق من عمالقة الفكر والفقه عند المسلمين، وهو تلميذ ابن تيمية، وكتبه جيدة ومفيدة ـ أن يميل إلى ذلك[3]، مع أنه في كتابه (تُحفة المودود في أحكام المولود) يذهب إلى أن مثل هذه الأسماء شرك، وهي محرمة، وذلك مثل عبد الحسين أو عبد النبي أو عبد علي وما شابه، بل الأكثر من ذلك أنه يحرم الاسم إذا كان فيه صفة من صفات الله، مثل رزاق ورؤوف وغيرهما[4].

الرد على تهمة الشرك في بعض الأسماء

لكن هل إن هذه الأسماء كذلك؟ أو أن الأعمال بالنيات؟ فإن سميت باسم عبد علي، فهل إنني حقاً أعتقد العبودية لعلي، وأن علياً شارك في خلقه؟ إن علياً والحسين والنبي ﷺ ما هم إلّا عبيد من عبيد الله، والله وحده الذي يُعبد.

ثم إننا نعيش في بيئة عربية، والشاعر العربي يقول:

وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً   وما شيمةٌ لي بعدها تشبه العبدا[5]

---

(١) الشورى: ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) تاريخ الطبري ١: ١٠١، تفسير القرآن العظيم ٢: ٢٨٦، تفسير الجلالين: ٢٢٣.

(٣) روضة المحبين ١: ٢٨٩. (٤) تحفة المودود ١: ١١٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣٣٩.

فنحن نقول للضيف: أنا خادمك، أنا عبدك، فهل صحيح أنني كذلك؟ أم أن هذا من الاحترام والتقدير والتأدّب؟ وكذا إذا قلت: عبد الحسين، فهو من باب الاحترام والتأدّب، وإلّا فإن الحسين ليس إلّا عبداً من عبيد الله. ومن اعتقد أن الحسين عليه السلام يشترك في الخلق مع الله فهو مشرك. أما أن يوزَّع الشرك على الناس اعتباطاً، فهذا ما لا يقرّه عقل ولا منطق ولا أدب إسلامي، ولا يمكن أن أحكم على أحد بما في نفسي أنا، بل بما في نفسه هو.

وجد المسلمون يوماً ـ وهم في سرية ومعهم أسامة بن زيد ـ رجلاً على رأس جبل ومعه أغنام، فلما رآهم نزل وقال: «أشهد ألّا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله». وفرح بالمسلمين، فقالوا له: إنك لم تسلم، إنما رأيتنا فخفت منا، واستعذت بهذه الكلمة. ثم جرد أُسامة سيفه وقتله، فلما رجعوا وأخبروا النبي ﷺ حزن حزناً شديداً، فقال أُسامة: إنه استعاذ، وأراد أن يتستّر بالإسلام، ولم يسلم صادقاً. فقال النبي ﷺ: «هل شققت عن قلبه؟»[1].

ولدينا الآن أناس مثل هذا، يوزعون الإيمان والشرك كما شاؤوا على من شاؤوا. في حين أن «الأعمال بالنيات»[2]. والأدلّة التي يتعرضون لها في هذا المجال أدلة غير ناهضة.

المبحث السادس: دليل كون الآية عامّة

والدليل على أن الآية نزلت في العموم لا في آدم عليه السلام أن الله تعالى ختمها بقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهو تعبير بصيغة الجمع، ولو كانت في آدم وحواء

---

(١) مسند أحمد ٥: ٢٠٧، صحيح مسلم ١: ٦٧، ومثله في مسند أحمد ٤: ١٣٩، غير أنه لم يسمّ أُسامة.

(٢) فتح الباري / المقدّمة: ٤٧٤، ١: ٨، ٩، ١٠، ٤١، ١٩٧.

لكان التعبير بالمثنى (يشركان)[1].

وقد ولد لآدم أولاد، وحدثت في زمانه الجريمة الأُولى التي حدثت على الأرض، يقول المفسّرون في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾[2]: إن من الجن إبليس، ومن الإنس ابن آدم الذي قتل أخاه. وهو أول دم أريق على الأرض[3]. وهناك أساطير تقول: إن آدم وقف ونظم شعراً على أوزان الخليل بن أحمد[4]. وكل ذلك أساطير وأشياء وضعت في وقت متأخر.

لكن آدم حزن على هذه المأساة، واسودّت الدنيا في عينيه. والواقع أن فقد الولد مصيبة على الوالدين لا يمكن أن يتصوّرها إنسان. والإنسان يحب ولده أكثر من نفسه، ويتمنّى أن يكون درعاً لولده، والولد ريحانة والديه، تقول أعرابية:

يا حبذا ريحُ الولدْ	ريح الخُزامى في البلدْ
أهكذا كلّ ولدْ	أم لم يلد قبلي أحدْ[5]

والولد أشدّ على الوالدة منه على الوالد؛ لأن المرأة أغزر عاطفة، خصوصاً إذا كان الولد الوحيد. لذا يقول أحد الأعراب: مررت على أحياء بني هاشم بعد واقعة الطف وقد تحولت إلى مضارب للمأساة، خصوصاً بيوت آل عقيل الذين ذهب منهم (١٤) قتيلاً في الواقعة، ومن هنا يقول الإمام السجاد: «والله ما مررت على دور آل عقيل إلّا وخنقتني العبرة»[6].

---

(١) وكذا بعد التسليم بما قالوا، يعقل أن يشرك آدم فيصفه القرآن بذلك؟

(٢) فصلت: ٢٩.

(٣) مجمع البيان ٩: ٢٠، الجامع لأحكام القرآن ٦: ١٤٢.

(٤) مجمع البيان ٣: ٣٢٠، الجامع لأحكام القرآن ٦: ١٤٠.

(٥) شرح نهج البلاغة ١٦: ٦٢.

(٦) قريب منه في كامل الزيارات: ٢١٣ / ٣٠٦، وقد مرّ في ج١ ص١٨٣ من كتابنا هذا.

يقول الأعرابي: فسمعت أنيناً سمّر قدمي إلى الارض، فسألت عن هذا البيت فقيل: للحسين، قلت: لمن من أهله؟ قيل: إنه بيت ليلى أُم علي الأكبر. فكانت لا تهدأ الليل ولا النهار:

أحبتنا من للظعائن بعدكم　　　فليت فداكم يا كرام الضعائنُ

* * *

تـــظن اتـــرد ليـــاليه　　　يـبني يـا عـلي الاكبر

ويــرد ريـحان الـبـخدك　　　من ماي الشباب اخـضر

يـــرد الـنـور لعـيوني　　　يــــو لا مـاي واتـطشر

وما ظنك بزينب التي يسبب لها كلّ بيت من هذه البيوت ألماً ولوعة، فتجول على بيوت إخوتها وأبنائها وأولاد عمّها فتراها خالية، ليس فيها إلّا الأنين، فلا تكاد تهدأ الليل ولا النهار:

منازل كانت نيراتٍ بأهلها　　　تولّى عليها غبرةٌ وقَتامُ

* * *

يــا دار نــاغيني وناغيج　　　چانت بدور وتـزهر عـليج

والـسا غراب البين ناعيج

* * *

بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا[1]

---

(١) شجرة طوبى ١: ٩١.



﴿ ٥٩ ﴾

منطق العبرة ومنطق التاريخ

ومُذ أخذتْ في نِينوى منهمُ الثّوى ولاحَ بـها للـغدرِ بـعضُ العـلائمِ
غـدا ضـاحكاً هـذا وذا مُـتَبَسِّماً سُـروراً ومـا ثـغرُ الفـنونِ بـباسمِ

المباحث العامة للموضوع

تساؤلات وإجابات

يوضع الحسين عليه السلام في بحثنا هذا بين منطق العِبرة وبين منطق التاريخ، أما منطق التاريخ فيقول: إن الحسين عليه السلام قتل في مثل هذه الليلة، في عـام (٦٠)هـ، ولكـن منطق العِبرة يقول: إن الحسين عليه السلام وُلد في هذا التاريخ، فدعُونا نرَ كـيف يكـون الحسين عليه السلام بين هذا المنطق وهذا المنطق؟

المبحث الأوّل: عمر العطاء

إن أول ما نتساءل عنه هو أن الحسين عليه السلام لو لم يقتل، كم كان سيعيش بعد تلك الفترة؟ لقد قتل الحسين عليه السلام وعمره (٥٧) عـاماً، فـقد ولد عليه السلام فـي السـنة الثـالثة للهجرة، وقتل في سنة (٦٠) للهجرة، فيكون مجموع عمره الشريف (٥٧) سنة، فلو قُدّر له عليه السلام أن يعيش بعد هذه الفترة، فكم كان من الممكن له أن يعيش؟

دعونا نُلقِ نظرة على أعمار أُسرته الشريفة. لقد توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعـمره (٦٣) عاماً، واستشهد أمير المؤمنين عليه السلام وعمره (٦٣) عاماً، فكان من الممكن أن يعيش الحسين عليه السلام كما عاش أفراد أسرته، ومعنى ذلك أنّه سيعيش ستّ سنوات

مثلاً. وهذا العمر لا يقاس بعمر الحسين الآن، فهو لا زال حيّاً منذ أن قُتل وإلى هذا الزمان، وهو لم يخرج من الحياة، فلا زال يعيش فكـراً فـي الضـمائر، وكـياناً شـاخصاً، وأثـراً بـارزاً، ويـعيش ألقاً بـين سـطور الكـتب والبـحوث؛ فالحسين إذن دخل الحياة ولم يخرج منها أبداً. فالعمر ليس في الأكل والشرب والتحرّك، إنما العمر في العطاء، وأن يكون الإنسان ألقاً وقدوة، ويـتفجّر بـطولة، وكرامة، وعطاءً، أما عمر الأكل والشرب فهو عمرٌ تشاركنا فيه الحيوانـات، ولا يمكن أن نعتبره عمراً.

فالحسين يعيش عمر العطاء، فلا يمر عام من الأعوام إلّا وهو فيه العـطاء الذي لا يقف عند حدّ، يستمد منه المنبر والأدب وروح الأحرار[1]، ويـبقى ألقاً وفكرة تعيش في الدنيا، فتنتزع منها الدنيا عناوين العظمة، وهذا هو العمر الواقعي:

قد تعيشُ الأعمارُ لا خيرَ فيها ... ويضمُّ الأمجادَ يومٌ قصيرُ

وسيبقى ذكر الحسين عمراً يتّسع ويطول كلّما مرّ الزمان، وها هـو ذكـره يتسع كما تتسع الدائرة في الماء. وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّه قطعة انفصلت من فلك النبوّة، وظلت تعيش على هذه الأرض وبقيت تمدّها بـالعطاء والنور، فنحن عندما نمرّ بذكرى الحسين لا نحوّله إلىٰ دمعة، وإنّما نأخذ مـنه الموقف والفكرة والمُثُل التي جسّدها على صعيد الطفّ.

وهذه المثل التي جسّدها الحسين ستبقى حيّة لا تموت، علىٰ الرغم من أن الظالمين رُعبوا منها. لقد رُعب الظالمون كـثيراً مـن ذكـر الحسـين، وكـانوا يتصورون أن ذكره موقوف على هذه الآثار المادّيّة، فإذا قضوا عليها قضوا على الحسين. فقد أزال المتوكّل قبر الحسين، ولكن ذلك لم يحلّ المشكلة، ولم

---

(١) ينقل عن غاندي أنه قال: علمني الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر.

يندثر ذكره، ثمّ تصوّر أن التربة لها أثر، فقطع شجرة كانت على قبره لئلاّ يهتدي إليه الزائرون، فجاء أحد الأعراب فأخذ يتناول قبضة من التراب ويشمّها ويُلقيها إلىٰ أن اهتدى إلىٰ القبر فقال:

أرادوا ليُخفوا قبرَه عن مُحبّه ... فطيبُ تُرابِ القبر دَلَّ على القَبرِ[1]

فرأى المتوكل أن هذه المسألة لا تنتهي، فحرث القبر الشريف وما حوله من الأراضي، ثم سلّط عليه ماء الفرات[2].

ولكن هذه العوامل كلّها لم تستطع أن تنتزع ذكر الحسين عليه السلام من الأذهان، وقد جرّب أسلافُ المتوكّل فوجدوا أن الأثر المادّي لا علاقة له بالفكرة، فلم تمت الكعبة عندما ضربوها[3]، ولم يذهب أثرها من النفوس، فالفكرة لا علاقة لها بالآثار المادّيّة.

فالحسين عليه السلام عندما أعطى هذه السنين القلائل أخذ بدلها عمراً ممتداً إلىٰ آلاف السنين، وهذا هو الخلود، وهذا هو الذي ذكره الحسين عليه السلام في كتابه إلىٰ أهل بيته عندما نزل في كربلاء حيث خاطبهم قائلاً: «أما بعد، فمن لحق بنا منكم استشهد، ومن تخلّف لم يبلغ الفتح»[4]. فهل كان الفتح أن الحسين عليه السلام أراد أن يستولي على أرض؟ أو يحتلّ بلداً؟ أو يغنم أموالاً؟ كلا، إن الفتح هو الخلود في المشاعر، وهذا هو الخلود الذي استهدفه الحسين عليه السلام في ثورته، وسيبقى هذا الألق خالداً ما بقيت الدنيا.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٤٥، تهذيب الكمال ٦: ٤٤٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٧.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبيّين: ٣٩٥.

(٣) انظر: الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، وقد مرّ ذلك مفصّلاً في ج ٢ ص ٧١ من كتابنا هذا.

(٤) بصائر الدرجات: ٥٠٢، مثير الأحزان: ٢٧.

إذن، يقول منطق التاريخ: إن الحسين ﷺ قتل في مثل هذه الليلة، أمّا منطق العبرة فيقول إن الحسين ﷺ ولد في مثل هذه الليلة.

المبحث الثاني: خلود صوت الحسين

فإن منطق التاريخ يقول: إن أوداج الحسين ﷺ قُطّعت في مثل هذه الليلة، ولكن منطق العِبرة يقول: إن هذا الصوت لم يبقَ تحت التراب، وإنّما تمرّد على التراب واندفع، وأوّل ما ظهر هذا الصوت في بيت يزيد نفسه، وفي عقر دار الأمويّين الذين تصوروا أنّهم سيدفنون هذا الصوت تحت التراب. فقد عُقد أوّل المآتم في بيت يزيد، وعند زوجته هند بنت عبد الله بن عامر، وبقي العزاء في بيت يزيد سبعة أيّام[1]، وانطلق هذا الصوت يندد بعمل يزيد وما ارتكبه في فاجعة قتل الحسين ﷺ.

ثم انبعثت الأصوات المتتالية، من الشام إلى المدينة في بيوت كانت تقودها زينب ﷺ في تأبين الحسين ﷺ، فكانت ﷺ تؤبّن الحسين ﷺ وتذكر مثالب الأمويين. وهذا الأمر هو الذي جعل الأمويين يُخرجونها من المدينة إلى الشام.

وانطلق صوت الحسين ﷺ في أُمّهات العواصم الإسلاميّة، فكانت القاهرة أيّام الفاطميين تتوشّح بالسواد، وتعجّ بالمآتم في شهر المحرّم الحرام. وانطلق صوت الحسين ﷺ في بغداد أيّام الصفويين، وفي شمال العراق وديار بكر أيّام الحمدانيّين. ولا زال صوت الحسين ﷺ إلى يومنا هذا ينطلق في بقاع الدنيا كافّة، وليس من بلد من بلدان العالم فيه جالية إسلامية لا تسمع فيه صوت الحسين ﷺ.

والسرّ في المسألة أنّ الحسين ﷺ ليس لفئة من المسلمين، فهو ابن رسول

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٩٦.

الله ﷺ، وهو الصوت الحرّ الذي انطلق من آلام المسلمين وطموحاتهم، فلم يخرج ليمثّل فئة معيّنة، وإنما خرج ليمثّل العالم الإسلامي، فهو لكلّ مسلم في الشرق أو في الغرب. وقد أراد أن يجسّد المُثُل الإسلاميّة، وأن يقيم العدل، وأن يقف بوجه الظلم، وأراد أن يعيد التيّار الإسلامي بعد أن حاول التيّار الجاهلي طرده، وأراد أن ينعش الإنسانيّة ويوقظها من غفوتها وكبوتها، وأن يعيد إليها شعورها برجولتها. وهذه المثل إسلاميّة بل إنسانيّة عامّة، يقول أحد الشعراء:

دأبتُ أزورُك في كلّ عام ... وألثم تُربَك يابنَ النبي

ويابنَ عليّ ويابنَ البتول ... ويابنَ ذُرا المجدِ في يثربِ

أعفّر خدّي بعفرِ ثراك ... بحيثُ دماؤك لم تنضُبِ

بحيث يُلعلِعُ ثغرٌ أبي ... بأن يحتسي الذُلّ في مشربِ

وهامٌ أبى للطغاة الرُكوع ... وإن فلقوا منه بالمضربِ

فالعالم الإسلامي إذن يستمع هذه الليلة إلى ذلك الصوت الهادر الذي يمرّ عبر التاريخ، ويحمل شعار الرجولة الإسلامية: «والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرُّ فرار العبيد»[1]. لقد بدأ الحسين ﷺ منذ ليلة العاشر من المحرّم يمتدُّ امتداد المُثل التي تغطّي الحياة وتستوعبها، ولا تنحصر على فئة من الناس.

المبحث الثالث: إنجازات النهضة الحسينية

فما هي الانجازات التي حققها الحسين ﷺ في منطق التاريخ وفي منطق العِبرة؟

يقول عنه التاريخ: إن الحسين ﷺ وأصحابه قتلوا في مثل هذه الليلة من

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤، وفيها أقرّ إقرار.

المحرم، وانتهىٰ كل شيء.

أما منطق العِبرة فيقول: ترتَّبت على دم الحسين‌ؑ آثار لا حدود لها، فمن هذه الآثار: أنّه استطاع أن يُوقف الرِّدَّة التي حدثت بعد النبي‌ﷺ. فقد حصل الارتداد بعد وفاة النبي‌ﷺ وكان له وجهان: وجه ظاهر ووجه باطن، فالارتداد الظاهر حاربه الصحابة، كالرِّدة التي حدثت أيام الخلفاء، والبغي الذي حصل أيَّام أمير المؤمنين‌ؑ، أمّا الرِّدَّة الباطنيّة فقد حدثت تحت الستار، وذلك بأنْ أُريد للعالم الإسلامي أن يُفرَّغ من محتواه، فيُصبح المسلم يصلّي ويصوم ويقوم ببعض الشعائر، ولكنّه فارغ من المحتوى الحقيقي للإسلام. فالأُمويّون أرادوا تفريغ الإسلام من الجذوة الملتهبة التي تعيش في كيانه، وأن يُعيدوا التيّار الجاهلي إلىٰ الحياة[1].

وهناك أمثلة وشواهد لا تُحصى في هذا المجال، وقف أحد الأُمويين على قبر حمزة‌ؑ، فوضع رجله على القبر، ثم قال: اجلس أبا عمارة، إنّ الذي كنّا نتقاتل عليه بالأمس أصبح اليوم بيد غلماننا يلعبون به كما تلعب الغلمان بالأُكر[2].

هذا هو منطق الجاهلية، فهذا الأُمويّ الواقف على قبر حمزة يتصوَّر أن الأمر هو أمر خلافة ومُلك، وكأن هذا الواقف لم يكتفِ بما فعلته زوجته هند بجسد حمزة لمّا بقرت بطنه واستخرجت كبده ولاكته، وقطعت أصابعه وأعضاءه فصنعتها قلادة، ثم نزلت إلىٰ مكة تعيد شعار الجاهليّة:

(١) انظر تاريخ الطبري ٨: ١٨٥، وفيه قول أبي سفيان: يا بني عبد مناف تلقفوها تلقف الكرة، فما هناك جنة ولا نار.

(٢) هو أبو سفيان، ورد ذلك في الكتاب الذي كتبه المعتضد بالله في لعن معاوية بن أبي سفيان، وقد رواه الطبري كاملاً، علماً أنه لم ينفِ صحّة ما جاء فيه. تاريخ الطبري ٨: ١٨٢ ـ ١٩٣.

نحن جزيناكم بيوم بدرٍ ... والحرب بعد الحرب ذات سُعرِ

يقول أحد الشعراء:

أعملتْ ذِنبةُ النساء بكبد الـ ... ـليث نابأ لعلَّ تشفي الغليلا
فدعيها للدود أطهر نفساً ... منك يا هند واتركي المأكولا
زوجُك الذئب كان أتعس نفساً ... والخسيسُ المرذول يهوى الرذيلا
شامتاً مرَّ بالقتيل زهيّاً ... كالعريس السكّير عبَّ الشمولا
يرهب الهرَّ زَبدَةَ الليث حيّاً ... ويباهي بنفسه مقتولا
أوَليس السرحان جدُّ يزيد ... أورث الولد طبعه والهيولىٰ

وكان الحجاج والي الأُمويين على الكوفة يدخل إلىٰ الكوفة فيقول: إن المسلمين مخدوعون حين يطوفون بقبر محمدﷺ، وقد تحوّل صاحب القبر عظام بالية، ألا يطوفون بقصر عبد الملك[1]؟!

ويقتل سمرة بن جندب أحد ولاة الأُمويّين في ليلة واحدة سبعة وأربعين ممن جمع القرآن، وقد ولّاه زياد على البصرة شهراً واحداً فقتل ثمانية آلاف[2].

هذه الشواهد، وغيرها الكثير في التاريخ تُبين لنا كيف أن الأُمويّين أعادوا التيار الجاهلي الخبيث إلىٰ جسد الأُمة الإسلامية، فوقف لهم الإمام الحسينؑ، ونصب نفسه مدافعاً عن الإسلام بوجه هذا التيار، وردَّه على عقبيه، فقد أعقبته الثورات المتلاحقة، فخرج التوّابون في الكوفة، وكذلك خرج مصعب بن الزبير الذي كان يرتجز ويقول:

---

(١) الكامل في الأدب ١: ٢٢٢، وقال المبرد فيه: إن ذلك ممّا كفّرت به الفقهاء الحجّاج، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ١٧٦، تاريخ ابن خلدون ٣: ١٠، النصائح الكافية: ٧٦.

وإن الأُلى بالطف من آل هاشمٍ   تأسّوا فسنّوا للكرام التأسّيا[1]

وخرج زيد بن علي بن الحسين، ويحيى بن زيد، والحسين بن علي قتيل فخّ، وتلاحقت هذه الثورات على الأُمويين، وكل هذا كان من تلك الجذوة التي أذكاها الحسين في النفوس؛ حتى لا تموت الأُمّة الإسلامية. وليس غريباً ذلك عليه، فهو ابن من وقف يقول: **«والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر لما فعلت»**[2]. وهو ابن من يقول: **«لا يزيدني كثرة الناس حولي عزّة ولا تفرُّقهم عنّي وحشة»**[3].

نعم لقد تحطّمت دولة الأُمويّين بسبب هذه الثورة العارمة، فقد عاشت ثمانين عاماً، كانت حصّة معاوية منها أربعين، وما تبقّى منها كان حصّة آل مروان. وكلّ ما ناله آل أبي سفيان بعد واقعة الطف كان ثلاث سنين فقط، ثم أخذها آل مروان.

المبحث الرابع: متى بدأ التشيّع

فإن الكثير من المؤرّخين والكتّاب يتصوّرون أن التشيّع بدأ من واقعة الطف، وفي هذه النظرية طبعاً شيء من الخطأ، فالصحيح أن مقتل الحسين عمّق تيار أهل البيت لا أن التشيع بدأ بمقتله فالتشيّع بمعنى الالتفاف حول أهل البيت وتقديمهم وُلد في زمن الرسول، وهذا التشيّع تبلور منذ أن قال النبي لعلي: **«أنت مني بمنزلة هارون من موسى»**[4]، ومنذ أن قال **«من كنت**

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ٦، شرح نهج البلاغة ٣: ٢٤٩، ٢٩٨.

(٢) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

(٣) نهج البلاغة / الكتاب: ٣٦.

(٤) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٣، ١٤، صحيح مسلم ٧: ١٢٠، ١٢١، الجامع الصحيح ٥: ٣٠٢ / ٢٨٠٨، ٣٠٤ / ٢٨١٣ ـ ٢٨١٤.

مولاه فهذا علي مولاه»[١]. ولذا يعتبر مذهب أهل البيت أبا المذاهب الإسلامية جميعاً. يقول الشيخ أبو زهرة في كتابه (زيد بن علي): «إن الخليفة الثالث أرسل إلى الولاة من يستطلع أحوالهم، ومن جملة من أرسله عمار بن ياسر الذي أرسله إلى مصر، فتأخَّر عمّار حتى ظنّوا أنّه قد قُتل، وبعد أيّام فاجأهم كتاب من عبد الله ابن أبي سرح للخليفة الثالث: «إن عمّاراً قد استمال الناس إلىٰ علي وولده»...»[٢].

فالتشيّع لم يولد في واقعة الطف، إنّما عمّدته تلك الدماء التي أُريقت في هذه الواقعة، وركّزته في النفوس أكثر وأكثر.

لقد كان الناس مخدوعين، ويتصوّرون أن هؤلاء الأُمويّين على حقّ، ولكن ثورة الحسين عليه السلام دعتهم إلىٰ إعادة التفكير، وجعلتهم يكتشفون أن هؤلاء يحملون الحقد على النبوّة وعلى رسالة السماء. فالحسين عليه السلام إذن ولد في مثل هذه الليلة وسيبقى، وهذا هو منطق العِبرة، وهو الذي كان ينظر إليه الإمام الحسين عليه السلام من وراء الحجب، فقد دخل عليه من نهاه عن الخروج قبل خروجه، وحذّره من هؤلاء الأُناس الذين ينوي الذهاب إليهم، فهم الذين قتلوا أباه في محرابه، وخانوا أخاه وتخلّوا عنه، فقال لهم الحسين عليه السلام: «**شاء الله لي ولعائلتي أن أسلك هذا الطريق**».

وهذا الجواب إجمالي، وإلّا فإن الحسين عليه السلام كان ينظر من وراء الحجب، فالأُمّة لا معنى لها إذا تجرّدت من عظمائها، ولو وقفت الأُمم تفاخر بعظمائها فمن من عظمائنا نستطيع أن نفاخر به ونحن أُمّة الإسلام؟ هل نفاخر بالوليد وأمثال الوليد

(١) مسند أحمد ١: ٨٤ وغيرها، ٥: ٣٤٧ وغيرها، الجامع الصحيح ٥: ٢٩٧ / ٣٧٩٧، سنن ابن ماجة ١: ٤٥ / ١٢١.

(٢) لم يتوفر لدينا كتابه، انظر تاريخ المدينة ٣: ١١٢٢.

الذي يخرج من حوض الخمر سكران ويريد أن يصلّي بالناس[1]؟ أو نفاخر بالمتوكّل الذي يقول فيه أحد الشعراء:

هكذا فلتكن منايا الكرام ... بين ناي ومزمرٍ ومُدامِ

بين كأسين أردياه جميعاً ... كأس لذّاته وكأس الحمامِ[2]

أي نموذج أرفعه بين يدي الله والشعوب يمثل الطهر والعطاء والرجولة والكرامة والعزّة والتضحية في سبيل الله تعالى لأُفاخر به؟ نعم، إن في تأريخنا لوامع ضحّوا، لكن تضحيتهم لا تعدل شيئاً إذا ما قيست بتضحية الحسين‌ﷺ.

تنقل كتب التاريخ أن حنظلة الأسدي جيء به هو وابنه أسيرين إلى قائد الفرس في معركة القادسيّة، وقد حاول هذا القائد إغراء حنظلة بالمال والمنصب له ولابنه إن هو دلّهم على عورات المسلمين، فقال له: إني إن دللتك قتلني ولدي، فاقتله أوّلاً ثمّ أُعطيك ما تريد. فأمر القائد بقتله ثمّ التفت إليه وهو يرجو أن يفوز منه بما طلب، فضحك حنظلة وقال: هل تظن أنني أدلّك على ذلك؟ إني إنما طلبت قتل ولدي لأني خشيت أن يضعف بعد قتلي أمام إغرائكم وتهديدكم فيدلّكم على ما تريدون منه. فأمر به فقتل. وهو موقف يستحقّ الإعجاب والتقدير، فنجد فيه تضحية بالمال والولد من أجل حفظ بيضة الإسلام.

وهذا المجاهد موضع فخر ولا شكّ، ولكن التضحية كلّفته ولداً واحداً، أمّا الحسين‌ﷺ فقد كلّفته التضحية أُسرة بكاملها. ونحن نتألّم ونبكي لما جرى للحسين‌ﷺ ولكنه أكبر من الدمع:

أبا الثورة الكبرى صليلُ سيوفها ... نشيدٌ بأبعاد الخلود مُرجَّعُ

---

(١) مسند أحمد ١: ١٤٤، المصنف (الصنعاني) ٢: ١٩ / ٢٢٠.

(٢) ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ١٩١ ـ ١٩٠.

تُشير وإيماضُ القواضب مشعلٌ وتحدو بركب الثائرين فيتبعُ
أبا الطف ما جئنا لنبني بلفظنا لمعناك صَرحاً إن معناك أرفعُ
متى بنت الألفاظُ صرحاً وإنما الصروح بمقدود الجماجم تُرفعُ
ألا إن بُرداً من جراحٍ لبسته بنى لك مجداً من جراحك يُصنعُ
وضعناك في الأعناق حِرزاً وإنما خُلقت لكي تُنضى حساماً فتُشرعُ
وضُغناك من دمعٍ وتلك نفوسنا نصوِّرها لا أنت إنك أرفعُ

نعم لقد حقّق الحسين عليه السلام في مثل هذه الليلة إنجازات عظيمة، ولكن كان في هذه الليلة أيضاً مآسٍ وأحزان، لقد خرج ليلة العاشر من المحرم مع ولده علي الأكبر وجمع من الأنصار لإلقاء الحجة على القلوب القاصرة والأذهان الضئيلة، وخرج عمر بن سعد مع ابنه، ودريد مولاه، وعشرين من أصحابه، والتقوا بين المعسكرين.

وهنا قال الإمام الحسين عليه السلام لعمر بن سعد: «اجلس». فجلس، ثم قال له: «ولماذا تخرج لقتالي؟ أنت ابن سعد بن أبي وقاص الذي تربطنا معه قرابة، وهو سادس الإسلام، وأنت تعرف مكاني، وأكره أن تدخل النار بسببي. أتزعم أنك تقتلني ويُولّيك الدعيّ ابن الدعي بلاد الرّي وجرجان؟». فقال ابن سعد: نعم. فقال له الحسين عليه السلام: «والله لا تتهنّأ بعدي ببُرّ العراق إلّا قليلاً». فأجاب ابن سعد مستهزئاً: في الشعير كفاية.

ثم قال ابن سعد: أخشى أن يهدم ابن زياد داري. فقال الحسين عليه السلام: «أنا أبني لك خيراً منها». قال: أخشى أن يأخذ ضياعي. فقال الحسين عليه السلام: «أنا أعطيك

خيراً منها من أبي نيزر[1] والبغيبغة[2] ما تحبُّ». قال: أخشى أن تُهتك نسائي. فقال الحسين عليه السلام: «تخشى على نسائك ولا تخشى على نساء رسول الله ﷺ؟».

ثم حوَّل وجهه عنه، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً﴾[3]، ثمّ انصرف عنه[4].

انظر إلى بلاد الري وجرجان التي طمع فيها ابن سعد، لمن أصبحت الآن؟ وهل فيها لابن سعد أو ابن زياد شيء؟ وانظر إلى الحسين عليه السلام الذي سكن قلب كلّ مسلم. يقول أحد الشعراء:

لا تطلبوا قبر الحسيـ ... ـن بشرق أرض أو بغربِ
ودعوا الجميع وعرّجوا ... نحوي فمشهده بقلبي

وهذا المعنى نلمحه أيضاً في الحديث القدسي: «لن تسعني أرضي ولا سماواتي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»[5].

ويقول الإمام علي عليه السلام في دعائه: «أتعذبني بنارك بعد ما انطوى عليه قلبي من حبك»[6]. فالحسين عليه السلام هكذا.

---

(١) عين أبي نيزر: ضيعة في المدينة، وأبو نيزر: كنية رجل، وهو من النزارة أي القلّة، يقال: إن هذا الرجل هو مولى أمير المؤمنين عليه السلام، كان ابناً للنجاشي ملك الحبشة ووجده أمير المؤمنين عليه السلام عند تاجر بمكّة فاشتراه واعتقه مكافأة لما صنع أبوه مع المسلمين. معجم البلدان ٤: ١٧٥ ـ ١٧٦ ـ عين أبي نيزر.

(٢) البغيبغة: ماء لأمير المؤمنين عليه السلام بينبع. معجم ما استعجم ١: ٢٦٢ ـ البغيبغة.

(٣) الكهف: ٥١.

(٤) انظر بحار الأنوار ٤٥: ١٠، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام الحسين عليه السلام): ٢٤٥، مقتل الحسين (الخوارزمي): ٢٠٢.

(٥) عوالي اللآلي ٤: ٦ / ٧، بحار الأنوار ٩٢: ٤٦٥.

(٦) فقرة من دعاء كميل رضي الله عنه. مصباح المتهجّد: ٤٨٦، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٢٢٤.

نعم رجع من لقائه مع ابن سعد إلىٰ الخيمة يقرأ القرآن، يقول زهير بن القين: كنت واقفاً أحرس الخيمة، فسمعت محاورة بين الحسين وأُخته زينب عليها السلام في مدخل الخباء، قالت له زينب عليها السلام: أخي هل استعلمت من أصحابك نيّاتهم؟ إنّي أخاف أن يُسلموك عند الوثبة، واصطكاك الأسنّة. فقال الحسين عليه السلام: «لا يا أُخيّة، لقد بلوتهم ولهجتهم، فما وجدت فيهم إلّا الأقعس الأشوس، يستأنسون بالمنية دوني استئناس الطفل إلى محالب أمّه». ثم خرج الحسين عليه السلام يمشي وأنا أمشي وراءه دون أن يشعر بي إلىٰ أن ابتعد قليلاً عن المخيم، فأحسَّ بحركتي، فالتفت لي، وقال: «من؟». قلت: سيدي أنا، قال: «ما الذي جاء بك؟». قلت: أزعجني خروجك ليلاً إلىٰ معسكر الطاغية، وخفت أن يغتالك أحد، فجئت من ورائك. فجزاني خيراً، ثم قال: «إني خرجت أتفقد هذه التلال والتلاع مخافة أن تكون مكنّاً لهجوم الخيل يوم تحملون ويحملون». ثم رجع، فوضع يده بيدي، وقال: «هذا الليل قد غشيك، وأنت في حلٍّ من بيعتي؛ لأن القوم يطلبونني، وإذا ظفروا بي ذهلوا عن طلب غيري». فقلت: إن فرسي بألف، وسيفي بألف، والذي من عليٍّ بهذا الموقف لن أتركك حتى يكلّا من جري وفري[1].

ثم رجع إلىٰ الخيمة، فلما دخلها سمعت نشيجاً داخل الخيمة، وكان هذا النشيج صوت زينب عليها السلام؛ لأن الحسين عليه السلام أخبرها أن الصباح إذا أصبح فلن يبقى من هذه العائلة أحد، فقال لها: «تعزّي بعزاء الله، لا يذهبنّ بحلمك الشيطان». فصاحت: وا لوعتاه ياأخي، أراك تغتصب نفسك اغتصاباً، إن ذلك أجرى لدمعتي وآلم لقلبي[2].

---

(١) الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

(٢) الإرشاد ٢: ٩١ ـ ٩٢، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، وقد مرّ مفصّلاً في ج ٢ ص ٩١ من كتابنا هذا.

يقول الإمام السجاد﵇: «ولما سمعت أبي يقول وهو يُصلح سيفه:

يـادهر أفٍّ لك مـن خـليلِ   كم لك بـالإشراق والأصـيلِ

مـن طـالبٍ بـحقّه قـتيلِ   والدهـر لا يـقنع بـالبديلِ

وإنـما الأمـر إلى الجـليلِ   وكـلُّ حـيٍّ سـالك سـبيلي

عرفت أن البلاء قد حمّ، وأن القضاء قد نزل، أما عمتي زينب﵍، فقد اختنقت بعبرتها، فأخذ أبي الحسين﵇ منديله وكفكف دموعها»[1]:

إن چـان تـريدني أنسـه   أبـطل النـوح واونـيني

اخـذ ذكـراك مـن گـلبي   واخذ صورتك من عـيني

تقول السيدة زينب﵍: خرجت حتى مررت على خيمة أخي أبي الفضل﵇، فسمعته يقول لأهل بيته: ما بيننا وبين ملاقاة هؤلاء القوم إلّا سواد هذه الليلة، فإن أصبح الصباح فهل تبدؤون بالقتال أو تدعون أنصاركم يبدؤون؟ فلما سمعوا ذلك جرّدوا سيوفهم، ورموا عمائمهم، وقالوا: بل نحن. فطابت نفسي، ثم مررت على خيمة الأنصار فسمعت حبيب بن مظاهر يقول لأصحابه: يا أنصار أهل بيت رسول الله، ليس بينكم وبين هؤلاء القوم إلّا سواد هذه الليلة، فإن أصبح الصباح هل تتقدَّمون أو تدعون أسيادكم يتقدمون؟ قالوا: نحن طلقنا حلائلنا وأعرضنا عن زهرة دنيانا، فلا والله لا نرى هاشمياً يُضرَّج بدمه أمامنا.

ثم التفت حبيب بن مظاهر إلى أصحابه، وقال لهم: هلمُّوا معي إلى خباء آل النبي ﷺ، فأمر الحسين﵇ النساء بالخروج إليهم، فخرجت إليهم العائلة ولسان حالها:

---

(١) المصدر نفسه.

وضوا بنا گبل تـرحـلـون　　گبل على الـغبرة تـنـامون

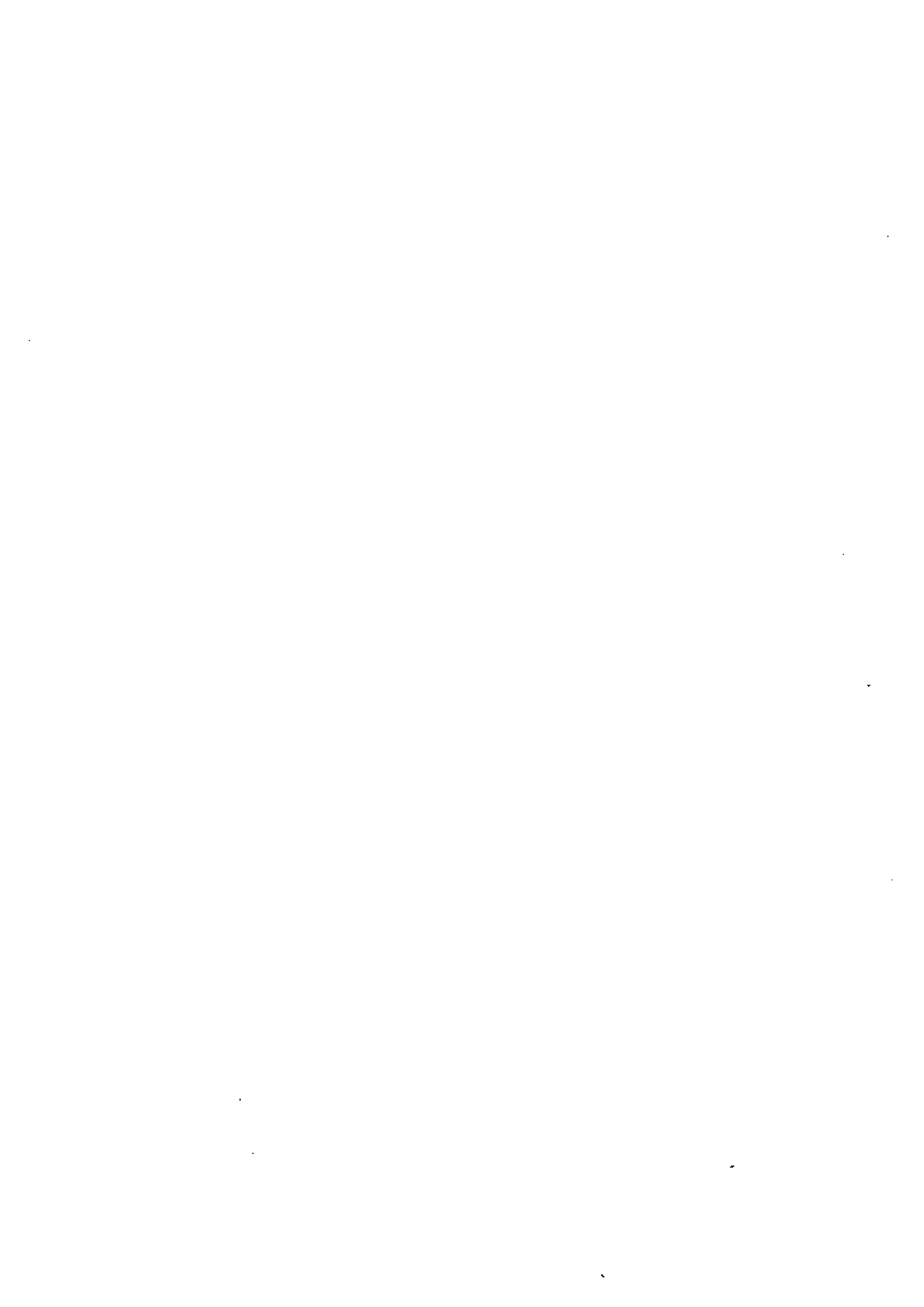
حرمة وغريبة لا تگـطـعون

ومر الحسين عليه السلام على ابنته سكينة، فوجدها واضعة رأسها بين ركبتيها، وهي تنشج نشيجاً خفياً، فقال لها: «ما هذا البكاء؟». قالت: ولم لا أبكي وليس بيننا إلّا هذه الليلة؟

يــاليل كــلك ولم وانــياح　　عسن لا يمر عليك مـصباح

شعدنا بدال حسين لو راح





﴿٦٠﴾

حقيقة الموت في المنظور القرآني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الأهداف التي وظفتها الآية

يريد القرآن الكريم للناس أن يتعاملوا مع الواقع، فكثير من الناس يعيش في الخيال، فهو يرى مسيرة الحياة أمام عينيه تنتهي إلىٰ هذه النتيجة وهي الخروج من الدنيا، لكنه لا يسمح لنفسه أن تفكِّر مثل هذا التفكير، فيحاول نفسيّاً أن يتهرَّب من هذا الواقع، في حين أن القرآن الكريم يريد أن يوظِّف هذا الواقع لأغراض أخلاقيَّة واجتماعيَّة.

وأول ما نلحظه في الآية الكريمة أن لفظة ﴿كُلُّ﴾ هذه يسميها علماء المنطق «سور الموجبة الكُلِّيَّة»، بمعنى أنها تستوعب كلّ ذي حياة. فما هي يا ترى تلك

(١) آل عمران: ١٨٥.

الأغراض والأهداف التي حاولت الآية توظيف هذا المعنى لها؟

الأوّل: المحافظة على طرفي معادلة الحياة

فإن التكالب الذي نراه في الدنيا هو تكالب عارم، فهذا يحاول أن يأخذ الرَّغيف من فم ذاك، وهذا يتصوَّر أن الآخرين يزاحمونه على محلِّه، وهكذا. فالقرآن الكريم يقول: اجعلوا هذا التكالب طرفاً في المعادلة، وتأمّلوا هل إن الدنيا تستحق أن يسحق الفرد أخلاقه من أجل هذه الأيام القلائل التي يعيشها ثم يموت؟ وهل الدنيا إلّا ثوب يلبسه الإنسان، أو لقمة يأكلها، أو بيت يواريه من العراء وكل ما عداه زيادة؟ فلماذا هذا التكالب؟

فالقرآن يريد من الإنسان أن يخفف من هذه الغلواء التي عنده، وهذا التكالب الذي يملأ حياته، وأن يطغى العامل الأخلاقي على سلوكه؛ لأن الدنيا إذا تجرَّدت من الأخلاق أصبحت غابة، وليس بيننا وبين حيوانات الغابة من فرق غير الأخلاق والقيم. وهذا هو الهدف من حرص الإسلام على أن تكون رسالته عالمية، فهو يريد للكرة الأرضيَّة أن تعمر بالأخلاق، ويتوفر فيها العنصر الإنساني، لأن الإنسان بلا أخلاق سوف يحوِّل الدنيا إلى وحش كاسر تتعامل بالظفر والناب، بل إن الإنسان أخطر من الوحش. فالأسد مثلاً عنده مخلب، أما الإنسان فعنده مخلب هيدروجيني أو ذرِّي، وبإمكانه أن يحرق الكرة الأرضية بأجمعها بواسطة قنبلة واحدة.

الثاني: الموت

فالقرآن الكريم يعرف أن أكبر عامل يُخيف الإنسان ويؤثِّر فيه هو الموت، وكل وسائل الضغط التي في الدنيا إذا أدمن عليها الإنسان فمن الممكن أن تكون هيِّنة عنده، ويسهل عليه تحملها، فلو أن أحداً هُدد بالسجن لأول مرَّة فإنه يخاف، أما

إذا ارتاد السجن مرّات ومرّات فإن السجن يصبح عنده من الأمور المعتادة.

ولذلك نرى في المحاكم الجنائية أن هناك ما يُسمّى بجرائم العودة، بمعنى أن الكثير من المسجونين هم من أصحاب السوابق الذين لم تردعهم العقوبات السابقة. فالقرآن يريد أن يردع الإنسان عن طريق تذكيره بالموت، ولذلك يقول الرسول الأكرمﷺ «كفى بالموت واعظاً»[١]. ومن هنا شُرّعت زيارة القبور في الإسلام. يقولﷺ **«إني قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها ترقّق القلب وتذكّر الآخرة»**[٢]. ويقول بعض فقهاء المسلمين: إن الزيارة مشروعة حتى لقبر الكافر، لأن التعليل هو أنها ترقّق القلب وتذكر الآخرة، وكل قبر هو كذلك، بغض النظر عن كونه مسلماً أو غير مسلم[٣]. يقول الشريف الرضي:

ولقد مررت ببرزخٍ فسألته ... أين الألى ضمتهُمْ أرجاؤه[٤]

ويقول أحد الأدباء:

مررتُ على الوادي فسفْت عَجاجةً ... وكم من بلادٍ بالعجاج ومن نادِ

فأبسطأتُ لمْ أنفض عن الرأسِ تُربَها ... لأرفعَ تكريماً على الرأس أجدادي

ثلاثون جيلاً قد ثوتْ في قراره ... تَزاحَمُ في عُربٍ وفُرسٍ وأكرادِ

ففي الخمسةِ الأشبارِ دُكّتْ مدائنٌ ... وقد طُويت في حفرةٍ ألفُ بغدادِ

طلبتُ ابنَ عبّادٍ فألفيتُ صخرةً ... وقد رُقشت: هذا ضريحُ ابنِ عبادِ

فالنتيجة إذن أن هذه الوجوه المنعمة انتهت إلىٰ هذا الواقع، وهذه من أبلغ العبر.

---

(١) الكافي ٢: ٨٥ / ١.

(٢) الموطأ ٢: ٤٨٥، تلخيص الجيد ٥: ٢٤٧، وقد مرّ مفصلاً في ج ٢ ص ٢٥٩ من كتابنا هذا.

(٣) انظر فتح الباري ٣: ١٢٠، حيث قال: سواء كان المزور مسلماً أو كافراً، ثمّ نقل قول النووي بذلك، فيض الغدير ٥: ٧٢.

(٤) ديوان الشريف الرضي ١: ٣٠.

ونحن عندما نقف على القبر لا يعني أننا عُبّاد قبور، فنحن أهل «لا إله إلّا الله»، فلماذا لا تنتهي هذه المعزوفة التي تتكرر كلّ يوم؟ ألا يُدرك هؤلاء أن هذا الذي يزور القبر يعرف أن مَن في القبر عبدٌ من عبيد الله تعالى؟ إن هذا الزائر يخاطب أمير المؤمنين بقوله: **«أشهد أنك قد أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر»**[1]. فهذا الذي نمدحه بإقامة الصلاة لمن كان يقيم الصلاة إذا قلنا إنه إله؟ وهذه من الأُمور الجلية التي لا تحتاج إلىٰ تفصيل، وكلّ ما في المسألة أن هذا الذي نزوره هو ممّن نعتزّ بهم، ونُكَرِّمُهم، وهذه هي سيرة المسلمين.

الثالث: حقيقة الموت وبيان متىٰ تذوقه النفس

أما الغرض الثالث فنحتاج فيه أولاً أن نسأل: متى تذوق النفس الموت؟ فإن قلنا: إنها تذوقه في وقت الموت، فهذا غير ممكن؛ فكيف يصحّ أن تذوقه وهي ميتة؟ وإن قلنا: إنها تذوقه قبل الموت، فهذا غير ممكن أيضاً؛ فهي لا زالت حيّة.

وهذا الإشكال لا يمكن معرفته إلّا إذا عرفنا حقيقة الموت، فالموت ليس كيفيّة مضادّة للحياة، كما في الظلمة والنور، أو الحر والبرد، وإنما الموت هو فراق الروح للجسد. فالجسد يرجع إلىٰ مصدره الأساس وهو التراب، أما الروح فليست من جنس التراب، فهي تبقى خالدة مرفرفة، فالموت هو الذي يفرّق بين الجسد والروح، فالنفس تذوق الموت بمعنى أنها تذوق الفراق، وتشعر بفراق الجسد لها، ولذلك تبقى محوّمة على القبر.

يقول حبّة العرني: كان أمير المؤمنين عليه السلام يخرج إلىٰ الجَبّانة في الكوفة، فيجلس على الأرض مرّةً ويفحص الأرض بإصبعه. وهذا الفعل غريب من أمير

---

(١) مصباح المتهجّد: ٧٢٠ ـ ٧٢١.

المؤمنين، ولكن فيه أسراراً ودلالات كبيرة، منها أن من فارقه أحبّته وأعزاؤه إلى القبور فإن روحه تكون معهم في قبورهم، خصوصاً إذا عاش مع من لا يحب، ومن يجلبون له الهمّ والألم، يقول الإمام:

ألا أيُّها الموتُ الذي ليس تاركي ... أرحني فقد أفنيت كُلَّ خليلِ

أراك بصيراً بالذين أحبُّهم ... كأنك تنحو نحوهم بدليل[1]

فكانت نفس الإمام تضيق فيذهب إلى المقبرة، فيخاطبهم «يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق. أمّا الدور فقد سكنت، وأمّا الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قسمت. هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟»[2].

يقول حبة: سألته مرّة: مع من تتكلّم يا أمير المؤمنين؟ فقال لي: «لو كشف لك عن بصرك لرأيتهم حلقاً حلقاً يتحدثون حول القبور». فقلت: أرواح أم أجساد؟ قال: «بل أرواح»[3].

فالروح إذن باقية، وهي تشعر بما يجري علينا، حتى إن القرآن يصف لنا حال بعض من يرحلون، فيقول: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[4]. فالروح أشبه شيء بالمعنى، فاللفظ شيءٌ، والمعنى شيء آخر، وهي من المجردات التي لا يعتريها الموت. فالآية الكريمة تريد أن تشعرنا أن الروح لا يعتريها الموت، إنما الموت يعتري هذا الجسد الأنيق ... هذا الجسد الذي ينتقي له الإنسان كلّ ما هو مريح في الدنيا؛ من طعام لذيذ، ولباس أنيق، ومأوى مريح،

---

(١) ديوان الإمام علي: ١٠٠. (٢) نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٠.

(٣) قريب منه في الكافي ٣: ٢٤٣ / ١، بحار الأنوار ٦: ٢٦٨.

(٤) يس: ٢٦ ـ ٢٧.

وغير ذلك، ثم يعطيه للتراب، فتعبث به الديدان كيف تشاء. فالقرآن يريد هذه العظة والعبرة وأن يبين أن هذه النفس حيّة لا يعتريها الفناء.

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، التوفية هي أن تأخذ الحق كاملاً. والآية فيها إشعار بأن الإنسان يمكن أن يأخذ بعض حقّه قبل يوم القيامة، وهذا البعض يأخذه في عالم البرزخ والقبر، تقول الرواية: «القبر إما روضة من رياض الجنان، أو حفرة من حفر النيران»[1].

ففي عالم البرزخ يُهيَّأ للروح وسائل السرور والسعادة التي هي من جنسها. فكما أن سرور المعدة بالأكل، وسرور العقل بالعلم والتجربة، كذلك تُنَعَّم الروح أو تعذّب في عالم البرزخ بشيء من جنسها عينه، أما الجسد فقد انتهى أمره وتحلّل إلى عناصره الأوّلية، من الحديد والمغنسيوم والعناصر الأُخرى التي هي من التربة، ثم يأكل من هذه العناصر النبات والحيوان والإنسان. فنحن نأكل أجساد الآخرين ولا نشعر بذلك؛ لأننا نأكل الثمرة وقد تغذّت من التراب، فنحن نأكل بشراً مثلنا تحول إلى ثمرة[2].

ففي البرزخ إذن يُخلق للإنسان ما هو من جنس عمله، فإما أن يخلق له ما يؤنسه أو ما يوحشه؛ فما كان من الأعمال قبيحاً سبَّبَ لصاحبه العَناء، وما كان حسناً سبب له الراحة والسعادة.

وأشير هنا إلى أن ما كان من الذنب بين العبد وربّه فعلى الإنسان ألّا يرتعد ويخاف منه كثيراً؛ لأننا نتعامل مع رب الرحمة والكرم، ولا نتعامل مع محدود أو

---

(١) ورد بهذا المعنى أحاديث كثيرة بألفاظ مثلها. انظر الكافي ٣: ٢٤٢ / ٢، الفقيه ١: ١٧١ / ٤٩٨، الجامع الصحيح ٤: ٥٥ / ٢٥٧٨.

(٢) وهو ما يُسمى بشهية الآكل والمأكول. انظر: بحار الأنوار ٧: ٣٧، الميزان في تفسير القرآن ٢: ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

ضيق الخلق والأُفق فنخاف، إن رحمته تسبق غضبه، وما فرضه علينا من الفرائض هو لنظامنا وسعادتنا. ولكن الذي يبعث على الرعب هو أكل حقوق الناس، ومداينات العباد، والتعدّي عليهم، فهذه من الذنوب التي لا يتركها الله؛ لأنه عادل، ولا بد أن يأخذ الحق من الظالم إلىٰ المظلوم. دخلتْ عَبَّادة أم جعفر بن يحيى البرمكي على الرشيد بحالة مُزرية، فقالت له: فرَّحك الله بما آتاك، وأعلى كعبك، فلقد حكمت فقسطت.

فتغير وجه الرشيد، فسأله أحد غلمانه عن ذلك فقال الرشيد: إن هذه قالت: فرحك الله بما آتاك وهي تشير إلىٰ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾[1]، فهي تدعو أن يأخذني الله. وقالت: وأعلى كعبك، والمشنوق يعلو كعبه عن الأرض، فهي تدعو عليَّ بالشنق. وقالت في الثالثة: وحكمت فقسطت، تشير إلىٰ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[2]، فهي تعني أنني حكمت في هؤلاء البرامكة فظلمت في حكمي بأن قتلتُ المسيء والبريء وعلّقتهم على أطراف الجسر بسبب ذنب اقترفه جعفر بن يحيى.

المبحث الثاني: حكمة الزحزحة عن النار ومدلولها

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، فما معنى الزحزحة عن النار؟ الزحزحة: هي الجَذب المتتالي بقوّة. والآية الكريمة تريد أن تشعرنا أن الإنسان لا يعرف قيمة النعمة إلّا إذا عرف ضدّها، فمن لا يعرف الجوع لا يعرف قيمة الشبع، ومن هنا فرض الله تعالى الصيام؛ لأن هناك من يعيش حياته منذ الولادة على سرير من ذهب، فلا يعرف للجوع معنى، فهذا لا يقدّر حالة الجائع، ولكنه إذا ذاق الجوع وعرف أن له تأثيراً شديداً فسوف يعطف على

(١) الأنعام: ٤٤. (٢) الجن: ١٥.

الجائع، ويعرف لماذا فرض الله حقّاً للفقراء في مال الأغنياء. وهناك الكثير من الناس من يقول: ما ذنبي أنا؟ وهل أكدّ وأشقى لأعطي الفقراء؟ ولماذا لا يعمل هؤلاء الفقراء مثلي؟ وهل أنا الذي خلقتهم فقراء؟ يقول تعالى حكاية عن هؤلاء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾[1].

فالقرآن يقول: إن الله خلق الأرض للتعاون، ولا يستطيع أحد أن يستفيد من نعمة دون أن يشترك العباد معه في تهيئتها، فالسلعة التي يبيعها التاجر ويربح بها اشترك فيها المجتمع كلّه، فإن كانت السلعة من المزروعات فقد اشتغل فيها الفلاح، والسائق، والصانع وغيرهم، وهكذا في كلّ سلعة. فكما أن المجتمع أعطى الإنسان هذه الخدمات فعليه أن يعطي هو للمجتمع الحقّ الذي فرضه الله تعالى عليه.

فالزحزحة عن النار تشعرنا أن الإنسان لا بد أن يردها وذلك ليشعر بالنعمة والنقمة؛ ليعرف قيمة النعمة، فإن رأى النار عرف قيمة الجنة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾[2]. فكل منا يرى النار، ولكن هناك من يخلد فيها وتكون مصيره، وهناك من يراها ليعرف قيمة الجنة، ثم يذهب إلى الجنة لتكون مأواه.

معنى الجنة وصفتها

وهناك تفسير للجنة عند بعض المفسّرين في غاية البرودة، فيقول هذا البعض: إن الجنة سميت بهذا الاسم لأنها مكوّنة من أشجار، والإنسان يستجن بأشجارها فيستريح في ظلالها. فهل هذا كلّ ما وعد الله به المتقين؟

الصحيح أن الجنة مأخوذة من الجُنّة، وهي الحماية والوقاية، فنحن في الدنيا

---

(١) يس: ٤٧.　(٢) مريم: ٧١.

ليس عندنا جُنة، فبينما الإنسان يأكل ويشرب وإذا به يمرض أو يموت، وبينا هو مستأنس بعزيز، وإذا به يفارقه، وهكذا. فلسنا في حماية من شيء، فالحياة الدنيا دار آفات ونوائب، وتعتريها الآفات من كلّ جانب ومكان، والإنسان فيها معرّض للرعب من النظام الفاسد، أو من الأسرة المُنحلّة، أو من الإنسان الظالم، أو من المرض، أو الحوادث، إلىٰ غير ذلك من أنواع الرعب. أما في الجنة فليس هناك من ذلك شيء، فالإنسان فيها أولاً في ظل العدل، وثانياً أنها خالية من الآفات: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[1]، فلا ألم ولا مرض ولا حرمان ولا فقد. أما في الدنيا فكل شيء معرَّض للانتقال والزوال. وثالثاً ينازعك اللئام هنا في الدنيا على لقمة العيش، أما في الجنة فلا لئيم ولا نزاع: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾[2].

مرَّ الإمام الصادقﷺ برجل يقول: اللهم اغنني عن خلقك فقالﷺ: «لا تقل هكذا بل قل: اللهم اغنني عن لئام خلقك»[3].

فالإنسان يحتاج الناس شاء أم أبى، واللئيم يحوّل الحياة إلىٰ كدر ومشقّة وألم، علىٰ العكس من النبيل صاحب الكرامة الذي ينسى حتى نفسه في سبيل إسعاد الآخرين. يروى أن أحد جيران الإمام الصادقﷺ عرض داره للبيع بعد أن مسَّته الحاجة، فجاءه من يشتريها، فطلب منه مئة وخمسين ألفاً، فاستغرب المشتري؛ لأن قيمتها لا تتجاوز الخمسين، وسأله: لماذا؟ قال: الخمسين ثمن الدار، والمئة ثمن جوار الإمام الصادقﷺ[4].

---

(١) الصافات: ٤٧. (٢) الأعراف: ٤٣.

(٣) قريب منه في وسائل الشيعة ٧: ١٣٩ ـ ١٤٠ / ٨٩٤٣.

(٤) لم نعثر عليها عن الصادقﷺ، وفي شرح نهج البلاغة ١٧: ١٩ عن سعيد بن العاص، وفي الكنى والألقاب ٢: ٣١٦، تاريخ بغداد ٤: ٢٣، تهذيب الكمال ٢٦: ٥٤٨، سير أعلام النبلاء ٧: ٣٨٧ / ١٤١ عن أبي حمزة السكري.

وهذا هو الجار النبيل، أما اللئيم فيزاحمك على أُمور خسيسة، ويتتبع خطواتك، ويحول معيشتك إلىٰ جحيم[1]، يقول الشافعي:

ومَن جَهِلَ الدُّنيا فإنّي عرفْتُها	وسيقَ إليـنا عَذْبُها وعذابُها
فما هي إلاّ جِيفَةٌ مُستحيلةٌ	عليها كلابٌ همُّهنّ اجتذابُها
فإنْ تجتنبْها كنتَ سِلْماً لأهلِها	وإنْ تجتذبْها نازعتْكَ كلابُها[2]

فالجنة إذن ليس فيها شيء من المنغّصات التي نراها في الدنيا. وأكبر نعيم فيها هو رضوان الله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾[3]، وهذه اللذة لا يعرفها إلاّ من يلتذّ بالجوانب المعنوية. وقد ورد في الحديث القدسي أن الله تعالى قال لموسى ﷺ: «يابن عمران، هب لي من قلبك الخشوع، ومن عينك الدموع، ثم ادعني في ظلم الليالي تجدني قريباً أُجيب دعوة الداعي إذا دعاني. إن لي عباداً أُحبهم ويحبونني، وأُناجيهم ويناجونني، فإذا جن الليل افترشوا لي أكفهم وجباههم، وناجوني بكلامي بين متأوّهٍ وباكٍ ومتضرّعٍ وشاكٍ، أُولئك أقلّ ما أعطيهم ثلاثاً: أقبل عليهم بوجهي، أفترى من أقبلت عليه بوجهي يعلم أحد ما أُريد أن أُعطيه؟»[4]. هذا هو الفوز الذي ما بعده فوز.

ثم قالت الآية: ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الغُرُورِ﴾، وهذه من الأُمور التي لا تحتاج إلىٰ برهنة، فمن حصل فيها على شيء من المتاع الرخيص؛ من الأموال أو المنزلة فإنه يسقط في مستنقع الغرور. فالدنيا إذن كالخيال، وما دخل إلىٰ يديك في الصباح قد يخرج في المساء؛ فهي متاع كمتاع المسافر، ونحن فيها مسافرون.

---

(١) يقول السجاد ﷺ في دعاء له: «وأعوذ بك من جار سوء إن رأىٰ شراً طار به....».

(٢) ديوان الشافعي: ٧٧.

(٣) التوبة: ٧٢.

(٤) الأمالي (الصدوق): ٤٣٨ / ٥٧٨.

إن الدنيا في واقعها ليس فيها لذَّة، كلّ ما فيها هو دفع ألم، فإن أحس الإنسان بالجوع تألَّم، فيكون بحاجة إلىٰ دفع هذا الألم، فيلجأ إلىٰ الأكل، فإذا شبع فأية لذَّة للأكل بعد؟ فالدنيا إذن متاع الغرور.

وهذا المعنى هو الذي كتب به الإمام موسى بن جعفر عليه السلام رسالة إلىٰ الرشيد حيث قال: «إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلّا وينقضي عنك مثله من الرخاء، ثم نحتكم جميعاً إلىٰ حَكَمٍ عدل»[1]. وكان هكذا فعلاً، فقد انمحت واندثرت قصور ألف ليلة وليلة بما حفلت به من نعيم، وانمحى كلّ أثر للرشيد، فيما تحولت تلك الخربة التي كان يسكنها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلىٰ قصر سامق، تلك الخربة التي كان الإمام عليه السلام يردد فيها آناء الليل: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[2]. يقول أحد الأدباء:

فكوخٌ به عشتَ استطال إلىٰ السما	وقصرٌ به عاش الرشيد خرابُ
ومظلمُ سجنٍ عشت في ردهاته	أنبساكَ محراب به وكتابُ
تحوَّل صرحاً قد تكاملَ عنده	لأروعِ آيات الفنون نصابُ

نعم تحولت القصور إلىٰ خراب، وتحول ذلك السجن إلىٰ قصر، وما عند الله خير وأبقى، ولم يخلد ذلك الرداء المزركش الذي لبسه الرشيد، إنما تحول إلىٰ ذنب، أما العباءة التي لبسها الإمام عليه السلام، وأخرجوه بها من السجن، فستبقى رداء حمد وثناء؛ لأن الله تعالى ضمن العاقبة للمتقين[3]. وهذا هو الذي كان يريده الإمام عليه السلام، فكان يُسمَع وهو في السجن يقول: «إلهي كثيراً ما كنت أسألك أن تفرغ

---

(١) تاريخ بغداد ١٣: ٣٣، تهذيب الكمال ٢٩: ٥٠، سير أعلام النبلاء ٦: ٧٣ / ١٨١.

(٢) الحاقة: ١٨.

(٣) قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. الأعراف: ١٢٨، القصص: ٨٣.

لي موضعاً لعبادتك وقد فعلت، فلك اللهم الحمد على آلائك ونعمائك». وبقي يُنقل من سجن إلىٰ سجن (١٢) أو (١٨) عاماً على اختلاف الروايات.

يقول علي بن سويد: دخلت على الإمام ﷺ فبشرني أن الموعد قريب، قلت: متى؟ قال: «يوم الجمعة على الجسر». فظننت أنه سيخرج، فكنت يوم الجمعة على الجسر، وبينما أنا كذلك إذا بجنازة يحملها السجّانون، وأقبلوا بها حتى وضعوها على الجسر، ثم وقف المنادي ينادي: ألا من أراد أن ينظر إلىٰ إمام الرافضة فها هو قد مات. فتجمّع الناس على الجسر، فسمع سليمان الضجة على الجسر، فسأل غلامه: ما لي أرى الزوراء تضجّ بأهلها؟ قال: يقولون: إن سجيناً أُخرج من السجن ميتاً. فقال: ويحك، اذهب واسأل من هو؟ فذهب الغلام ثم رجع، فقال: سيدي، يقولون: على الجسر موسى بن جعفر ﷺ. فالتفت سليمان إلىٰ غلمانه وقال: ويحكم، بادروا إليهم، وخذوا الجنازة من أيديهم، فإن مانعوكم فاضربوهم. فأقبلوا وأخذوا الجنازة فطرحوها على مفرق أربعة طرق، ونادى المنادي: ألا من أراد أن يحضر جنازة الطيّب ابن الطيّب فليحضر. فهرول الناس وحملوا الجنازة وأخذوها إلىٰ مقرها الأخير[1].

هذا المشهد تكرّر مرة أُخرى في اليوم العاشر من المحرم، إذ وقفت زينب تنظر إلىٰ القتلى وقد جاءت إليهم عشائرهم فأخرجتهم من وسط أرض المعركة؛ فعشيرة الحرّ أخرجت الحر، وجاء أخوال الحسن المثنى وهو جريح فأخرجوه، وجاءت عشيرة سعد بن حنظلة فأخذوه، ووقفت زينب تقلّب طرفها وتقول: ويحكم، أما لهذا المسجّى من عشيرة؟ أما فيكم مسلم يواري هذا الغريب؟ ثم حولت وجهها لأهلها:

---

(١) انظر: الإتحاف بحبّ الأشراف: ٥٧، الأنوار البهيّة: ٩٩.

أفـاطم لو خـلت الحسين مـجدلا وقـد مـات عـطشاناً بشـطّ فـراتِ
إذن للـطمت الخـدّ فـاطمُ عـنده وأجـريت دمـع العـين بـالوجناتِ[1]

* * *

تـعالوا لبـنكم اوغسـلوه مهو اعزبزكم چا ليش عفتوه

---

(١) ديوان دعبل: ٣٨.



﴿٦١﴾

المرأة بين نظرة المجتمع وتكريم الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: بعض الجوانب الإيجابية حيال المرأة

هذه الآية الكريمة رسمت صورة من الصور الاجتماعية التي كانت سائدة في محيط الجزيرة العربية قبل الإسلام، واستمرت رواسبها إلىٰ ما بعد الإسلام. وهذه الآية نزلت بعد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[2]، فمن هنا نعرف أن الإسلام يبدأ مع المرأة منذ انفصالها عن رحم الأُم إلىٰ نهاية حياتها، ويعالج نظرة المجتمع لها.

ولدينا في هذا الموضوع جانبان:

الأوّل: الجانب الموضوعي

وهو أن النساء شقائق الرجال، ولا فرق بينهن وبين الرجال، غاية ما في الأمر أن المرأة لديها وظائف خاصة في الحياة، والله تعالى كيَّف أعضاءها وفقاً لتلك

---

(١) النحل: ٥٩. (٢) النحل: ٥٨.

الوظائف، والرجل له وظائف خاصّة في الحياة فكُيِّفت أعضاؤه وفقاً لتلك الوظائف أيضاً. وهنا لا بد من توضيح نقطة مهمة، هي أن المدرسة السلوكية التي يترأسها «فرويد» تقول: إن الوظيفة تخلق العضو، في حين أن المدرسة الإسلامية تقول: إن العضو يخلق الوظيفة. فوظيفة الطير مثلاً هي الطيران، وهذه الوظيفة عند المدرسة السلوكية هي التي خلقت له الجناحين. والمرأة كذلك فهي لمّا كانت مصدر النسل، وهي التي تحمل الطفل خلقت لها هذه الوظيفة الرحم، في حين أن المدرسة الإسلامية تقول: إن الله تعالى خلق الرحم ليحدّد وظيفة الحمل والولادة.

وقد يقول قائل: إن هذا النزاع لا يعنينا من الناحية العملية، ولا ثمرة له.

فنقول: لا، إنه يعنينا من ناحية مهمة هي أن الله تعالى وضع للكائن الإنساني تصميماً منذ البداية، وخصص له وظائفه في الحياة. فإن كان الأمر كذلك، فالمسألة ليس فيها تفضيل، إنما فيها تصنيف، فهذا الصنف لوظيفته وهذا لوظيفته. وبالنتيجة فإن الوظائف المتنوّعة تحتاج إلىٰ تخصّص، وكلّ صنف يختصّ بالعمل الذي يمارسه.

الثاني: الجانب الذاتي

وهو نظرة المجتمع للمرأة وتقييمه لها، فهل يقيّم المجتمع المرأة تقييماً موضوعياً أو ذاتياً؟ لا شكّ أن المجتمع يقيّمها تقييماً ذاتياً، بمعنى أنه يقيّمها وفق ميراثه من الجاهلية والعصور التي سبقت، فينظر لها من هذا المنظار، وذلك كمن يلبس نظارة زرقاء فيرى الأشياء من حوله زرقاء على غير حقيقتها. فنحن في جانب النظر إلىٰ المرأة نلبس نظّارة من الميراث الاجتماعي، أو التحليلات المخطوءة لنصوص الشريعة. وهذا ما جعلنا ننظر إليها نظرة مخطوءة وغير واقعية، وإلّا فالمرأة تمثل النصف الآخر من المجتمع، وكلّ ما في الأمر أن العمليّة هي عملية تصنيف لا تفضيل.

المبحث الثاني: دوافع التعامل السلبي للمجتمع مع المرأة

من بعد هذه المقدّمة نعود إلىٰ المجتمع الذي نزلت فيه هذه الآية وهو الجزيرة العربية، فهو مجتمع له نظرة خاصّة للمرأة تنقلها لنا هذه الآية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾. فما هي الدوافع التي جعلتهم ينظرون إليها هذه النظرة؟ هناك عدة دوافع، منها:

الأوّل: دافع الشرف والكرامة

فإن جريمة الزنا مثلاً يمارسها الرجل ويخرج منها دون أية تبعة اجتماعية ظاهرة، أما إذا مارستها المرأة فتخرج بتبعة الحمل والفضيحة الناتجة عن علاقة غير شريفة. وهذا يتصادم مع أوضاع اجتماعية قائمة مثل الشرف والكرامة، فيؤدي ذلك حتماً إلىٰ نتائج مرعبة. ومن ذلك أيضاً أنه حدث مرة أن أغارت قبيلة علىٰ أُخرى وسبت بعضاً من نسائها، ثم أعادتهن إليها، فكان أن تمسكت بعض المسبيات بمن سباهن وبقين معه، فتحول ذلك من وجهة نظر أهلهن إلىٰ فضيحة وعار علىٰ قبيلتهن.

الثاني: دافع الفقر والجوع

فالجزيرة العربية كانت تعيش الفقر المدقع، وقد وصفت الزهراء عليها السلام تلك الحالة بقولها: «وكنتم على شفا حفرة من النار أذلّة خاسئين تقتاتون القد[1] وتشربون الطَرَق[2]»[3]، فكان فقرهم يبلغ بهم حداً يأكلون معه حتى جلد الشاة، أو يحشون

(١) القدّ: جلد الخروف بعد أن يؤخذ لحمه. لسان العرب ٣: ٣٤٥ ـ قد.

(٢) الطرَق: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل وتبعر. لسان العرب ٨: ١٥١ ـ طرق.

(٣) من خطبتها عليها السلام في الاحتجاج علىٰ الخليفة الأوّل لمنعها فدك. انظر شرح الأخبار ٣: ٣٤ـ ٤٠، بحار الأنوار ٩٢: ٢٢٠ ـ ٢٣٥.

المصارين بالدم فيأكلونها، كما أنهم أيضاً كانوا يقتتلون على ماء الآبار لقلّة المياه عندهم.

وقد روَّض المجتمع الجاهلي المرأة على أن تكون جليسة البيت، أما الرجل فقد روَّضه على الغزو والقتل والفتك، فكانت المرأة عرضة لخطر الجوع وطلب الحاجة، وقد تتعرّض للامتهان وسلب الكرامة والعرض. وهنا لا ينظر المجتمع إلىٰ الظروف الموضوعية التي أدت بها إلىٰ ذلك، بل يعتبرها خاطئة، وينظر إليها على أنها قد انحرفت.

وهذا أشبه شيء ببعض النُظُم التي تعتبر نفسها إسلامية، فتقطع يد السارق لمجرد معرفتها أنه سرق، دون أن تنظر إلىٰ الظروف الموضوعية التي دعته للسرقة، فربما يكون قد سرق بسبب التربية الفاسدة، أو الجوع، أو عدم تلبية المطالب الأساسية، أو بسبب القدوة السيئة، أو غير ذلك من الظروف التي سببت عنده التوجه نحو السرقة. كلّ ذلك وغيره لا بد أن يُدرس، ثم يُقرَّر ما إذا كان يستحقّ القطع أو لا. ولذا يمنع فقهاء المسلمين مثلاً قطع اليد في عام المجاعة؛ لأن الجوع عامل مساعد على ارتكاب الجريمة.

فأهل الجاهلية لم يكونوا ينظرون إلىٰ الظروف الموضوعية التي سببت للمرأة ارتكاب الجريمة. وفي عصرنا هذا أيضاً يوجد من يهيِّئ أسباب الانحراف للمرأة، فيجعلها تخرج بزينتها، وتخالط الرجال، وتراقصهم أحياناً، وقد تشرب معهم، فيضعها في النار ثم يعاقبها إذا احترقت. وهناك من يكون مع المرأة على العكس من ذلك، فيجعلها لا ترى الشمس. فيكون الأمر إما إفراطاً أو تفريطاً.

إذن، كان بعض الآباء يتصور أن ابنته سوف تجوع بعده، وإذا جاعت ذلّت، يقول أحد الشعراء في هذا المعنى:

لولا أُميمةُ لم أجزعْ من العَدَمِ ... ولم أجُبْ في الليالي حِندسَ الظُلَمِ

إذا تـذكّرتُ بـنتي وهـي تندُبُني   جـرتْ بـعينيَّ منّي دمعةُ بـدمِ[١]

فهذا الشاعر يقول: إن كلّ همّي أن تكون ابنتي أُميمة تعيش بعيداً عن الجوع والفقر، ولولاها لما جزعت من الفقر، ولا ذهبت في الليالي الظلماء أبحث عن القوت. ويقول آخر:

أحبُّ بـنيتي وودت أنـي   دفـنتُ بُـنيتي فـي قـاع لحـدِ

ومـا بـي أن تـهونَ عـليَّ لكن   أخاف بأن تلاقي الذلّ بـعدي[٢]

إذن، هذا واحد من الدوافع التي كانت تدفعهم لحمل هذه النظرة غير الموضوعية للمرأة.

الثالث: دافع الغلظة والقسوة

فهناك صنف من الناس قد ربي على القساوة والغلظة، فتجد قلبه أشد قساوة من الحجارة. وقد قاسى النبيﷺ من هؤلاء ما قاسى، دخل أحدهم يوماً على النبيﷺ فقبل يده، ثم قال: يا رسول الله، ليس للإسلام في فمي طعم، ولم أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت. فقالﷺ: «لماذا؟». قال: كانت لي بنت في الجاهلية، فأمرتُ أُمّها يوماً فزينتها، ثم أخذتُها إلىٰ واد سحيق، فدفعتها فيه، فسمعتها تقول: أبي قتلتني. وهذه الكلمة لا زالت في قلبي إلىٰ الآن.

انظر كيف أن التربية الفاسدة تفسد فطرة الإنسان، وتأمل كيف تعب الإسلام ليطوّع هذه القلوب القاسية، وكم تحمل ليجعل من هذه القلوب الشبيهة بالصخور الصماء قلوباً تقطر بالرحمة؟ يقول أحد الشعراء:

طيبةٌ يا شذى البساتين طِيبا   يـا هـديلَ المُـرجِّعِ الأغـرودِ

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٣٨: ١٣٥، ولم ينقل البيت الثاني، بل نقل أبياتاً غيره.

(٢) البيتان لعبد العزيز الديريني. المستطرف من كلّ فن مستظرف ٢: ٢٣.

يا رُؤى جبرئيل والنـور والأنـ ـغام في نظرة الكتاب المجيد
يا عطاء القرآن يصنع دنيا الـ ـحبّ في أمّـة من الجلمود

هذه المجموعة من العوامل وغيرها جعلت قسماً من مجتمعهم يقف هذه الوقفة السلبية من المرأة، وإلّا فإن المجتمع الجاهلي لم يكن كلّه سلبياً تجاه النساء، فهناك من كان يعتبرهن شقائق الرجال. ولا ننسَ أن قسماً من ذلك المجتمع كان متأثراً برواسب من الحضارات السابقة التي كانت تنظر إلىٰ المرأة نظرة إجلال واحترام؛ باعتبارها تحمل السر المقدّس. ومن هؤلاء فلاسفة اليونان أيام سقراط وإفلاطون، الذين كانوا يخلعون قبعاتهم ويقفون خشوعاً واحتراماً عندما تمر بهم امرأة حامل، فهي عندهم تحمل السر المقدّس، فلولا الأُمومة التي تحملها الأُم لما كان للدنيا أن تقوم.

نعم، كان من العرب أيام الجاهلية مَن يستشير أهله ويسكن إليها، وهناك من قوادهم من كان يجلس إلىٰ زوجته ويطارحها الرأي، ثم جاء المشرع الإسلامي فدعّم هذا المعنى.

ويتضح موقف الإسلام هذا منذ بداية الدعوة، وذلك لما جاء النبي ﷺ خديجة مرتعداً عند نزول قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[1]، فجلس إلىٰ جانبها قائلاً: «دثروني». فقالت له ﷺ: إن الله لا يفعل بك إلّا خيراً؛ لأنك تُقري الضيف، وتصل الرحم، وتعطي الجائع. فدثرته إلىٰ أن سكن، فهبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل الآية الثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[2]. فالنبي ﷺ أتى أول أمره إلىٰ المرأة؛ لأن الله تعالى جعلها سكناً للرجل[3].

---

(١) العلق: ١. (٢) المدّثّر: ١ ـ ٢.
(٣) قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً

فأهل الجاهلية لم يكونوا جميعاً يقفون من المرأة موقفاً سلبياً، بل يعتبرها بعضهم الكائن الذي يمدّ المجتمع بالجيل. ولا أرى أن نابليون كان مخطئاً عندما قال: «إن المرأة التي تهزّ المهد بيمناها تهزّ العالم بيسراها». وهي كذلك طبعاً، فهي التي تربي الجيل وتُنشئُه، وهي التي تستطيع أن تبعث العزيمة في نفس الرجل أو تبعث الخور فيها. تقول إحداهن لابنها وقد فقد ملكه في الأندلس، وهو آخر الملوك فيها:

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً ... لم تدافع عنه دفاع الرجالِ

وهذا موقف من المواقف التي تبعث العزيمة في النفس، وهناك موقف معاكس يرسمه لنا حال عبد الملك بن مروان عندما عزم على قتال مصعب بن الزبير، فقد وقفت له زوجته أم البنين، وقد كانت على درجة من الجمال والتأثير عليه، فأمسكته وقالت له: مَتِّعنا بنفسك، ولا تُلقِ بها في لهوات الحرب. فقال: كلا، ثم أنشد:

إذا ما أراد الغزو لم تُثنِ عزمَه ... حصانٌ عليها نَظْمُ دُرٍّ يزينُها

نَهَتْهُ فلما لم ترَ النّهيَ عاقَهُ ... بكت فبكى مما شجاها قرينُها[1]

فالإسلام إذن بدأ يستلّ من قلوب هؤلاء تلك القساوة شيئاً فشيئاً، وجعلها قلوباً تنبض بالرحمة والعطاء والتعامل الإنساني. ثم ذهب النبيﷺ معهم شوطاً أبعد من هذا، فقال لهم: «من دخل السوق فاشترى تحفة إلى عياله، كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور»[2]. فأرادﷺ أن يُحدث

﴿ وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الروم: ٢١.

(١) البداية والنهاية ٩: ٢٧٩، تاريخ مدينة دمشق ٥٠: ٨٩، ٦٩: ٢٤٥ ـ ٢٤٦، والبيتان لكثيّر.

(٢) ثواب الأعمال: ٢٠١.

التوازن في ذلك المجتمع. ويقول ﷺ «من كفل ابنتين فعالهما حتى كبرتا وزوّجهما، دخل الجنة».

فالنبي ﷺ بدأ يُعَدِّل التوازن في تلك الأجواء التي كانت تعتبر المرأة عاراً، يقول شاعرهم:

إذا المرنيّ شبّ له بنات ... عصبن برأسه إبة وعارا[1]

وهكذا أخذ الإسلام يُعَزِّزُ هذا المعنى، فكان النبي ﷺ لا يذهب إلى الصلاة ما لم يطرق باب بيت فاطمة عليها السلام فيقول: «السلام عليكم يا أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة، أتأذنون لمحمد بالدخول؟». فتخرج الزهراء عليها السلام لتقول: «البيت بيتك والبنت ابنتك». فيأخذها النبي ﷺ فيقبّلها[2].

وكان ﷺ إذا رآها وقد أقبلت إلى المسجد وأحسّ أن عندها حاجة انتفض قائماً وأقبل إليها ليجلس معها وينظر في حاجتها. فكان في فعله هذا يوحي لهؤلاء بأن البنت يجب أن تُعامل كما يعامل الولد. هذا بالإضافة طبعاً إلى ما كان للزهراء عليها السلام من المنزلة الرفيعة والمقام السامي والخصائص الجليلة التي اختُصّت بها (سلام الله عليها).

بعد هذا وصل مع فاطمة عليها السلام إلى مرحلة الزواج، فأعطاها حقوقاً لا حدود لها،

---

(١) العين ٨: ٤٢٠ ـ أبو، الصحاح ١: ٢٣٠ ـ رأب، والمرني في الأصل: امرني، نسبة إلى امرئ القيس، ثمّ قالوا مرني، فكأنهم جعلوها منسوبة إلى (مرء) مطلقاً. والإبة: الخزي.

(٢) لم نعثر عليه بهذا النصّ، وقد ورد أن الزهراء عليها السلام لمّا مرضت أراد أبو بكر وعمر أن يزوراها، فاستأذن لهما الإمام علي عليه السلام منها فقالت له: «البيت بيتك والحرة زوجتك». كتاب سليم بن قيس: ٣٩١، بحار الأنوار ٢٨: ٣٠٣، ٤٣: ١٩٨. أمّا تقبيله ﷺ لها وقوله: «أشمّ منها رائحة الجنّة»، فقد ذكر في علل الشرائع ١: ١٨٣ / ١، بحار الأنوار ٤٣: ٥ /، وغيرهما. وقد مرّ في ج ٢ ص ٢٧٩ من كتابنا هذا.

وأهم هذه الحقوق اختيار الزوج، فالمرأة لا تجبر على من لا تريده. أما إذن الولي في زواج البكر، وهل هو من الأمور التي لا بد منها أو لا، فأغلب الفقهاء على أنها تستقل بإرادتها، إلّا في حالات معينة يعتبر فيها إذن الولي شرطاً، وهي الحالات التي يُخشى من ورائها وقوع الفساد أو ما شابه.

المبحث الثالث: مسألتان هامّتان حول الزواج

وأُحب أن أُشير هنا إلىٰ نقطتين مهمتين:

الأولى: دور الأب في زواج ابنته

فإنه لا يمكن أن نتصور أن أباً من الآباء لا يريد أن يختار البيت المناسب والزوج المناسب لابنته، فهو تدفعه الشفقة والرحمة والنظر للمستقبل أن يراعي بنته. وهذا من مقتضى الأبوة والفطرة، وقد يحصل شذوذ عن هذه القاعدة فنرى أن بعض الآباء يكون متعنّتاً، أو غير مقدّر للأُمور تقديراً سليماً، فيشترط على الزوج شروط هتلر للصلح. وهذا خارج عن منهج الإسلام الذي يقول: «من خطب إليكم فرضيتم دينه وأمانته فزوّجوه»[1]. وليس هناك من شرط في الكفاءة سوى الإسلام البعيد عن التهاون في العرض أو الدين.

فعلى الأب ألّا يعضل البنت، فيشترط شروطاً يتصور أنها من مصلحة البنت، وأن ينظر إلىٰ الواقع من الناحية المادية والعرفية والمعنوية، فقد ورد عن النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ أن المرأة كالثمرة الناضجة، لا بد من قطفها حين القطاف وإلّا فسدت. فليس هناك من داع للشروط التافهة التي توضع أمام الزوج؛ لأن هذا من الفتنة التي نهى عنها النبي ﷺ: «إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[2].

---

(١) الكافي ٥: ٢٤٧ / ١، الفقيه ٣: ٣٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

(٢) المصدر نفسه.

الثانية: النتائج السلبية للطلاق

وهي أن بداية الزواج لها شأن يؤكد عليه علماء النفس، فالزوجان من أُسرتين متباعدتين في الطباع والأخلاق والسلوك والتصرفات، وليس من الممكن أن نرى الانسجام منذ اليوم الأول، بل إن علماء النفس يعتبرون السنتين الأُولى والثانية بل وحتى الثالثة فرصاً مهيّأة للطلاق، فالأُم ترى ابنها قد انفصل فجأة من حضنها وأصبح في حضن امرأة، وأُم البنت ترى أن ابنتها أصبحت فراشاً لرجل أجنبي. فهذه تريد أن تستبدّ بابنها، وتلك بابنتها، وهذه العوامل تخلق لوناً من التوتر. وهنا على المجتمع أن يلتزم في هذه المسألة نظرية الإسلام: حكمٌ من أهله وحكم من أهلها[1].

فمن الواضح معظم حالات الطلاق التي تسمم المجتمع كان يمكن تلافيها من أقصر طريق عبر التزام أخلاقيات الإسلام، ولكنها لمّا أُهملت أدت إلىٰ نتائج مرعبة، ومن هذه النتائج:

النتيجة الأُولى: عدم توفّر فرصة للبنت في الزواج

فأوّل هذه النتائج المرعبة أن البنت قد لا تحصل لها فرصة أُخرى في الزواج، خصوصاً في مجتمعنا الذي أصبح مثل المجتمع المسيحي الذي يشدد على عدم الزواج بالمطلّقة في حين أن الإسلام يدعو إلىٰ سترها وجبران خسارتها في تجربتها السابقة. وليس من الدين أو العقل أن توضع علامات الاستفهام حول المطلّقة، فعدم توفّر الظروف الموضوعية في زواج المرأة الأول، وعدم انسجامها مع زوجها لا يعني القضاء عليها، ألم يتزوج النبي ﷺ المطلّقات؟ وهل كان زواجه

---

(١) قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ النساء: ٣٥.

بهن عفواً، أم أنه ﷺ أراد أن يضع الأسوة والقدوة لنا في الزواج؟

نعم، أراد النبي ﷺ أن يقول لنا: إن الزواج قد يكون تعويضاً للمرأة عمّا أصابها من ألم أو ستراً لها أو تكريماً، فأراد أن يقضي على تلك النعرة في النفوس، وإلّا فقد كان النبي ﷺ يستطيع الزواج من أي البيوت والقبائل التي كانت حوله.

وقد تزوج أمير المؤمنين ﵇ من نساء صالحات مطلّقات، كأسماء بنت عميس الخثعمية التي كانت متزوّجة باثنين قبله، فقد تزوّجت جعفراً الطيار، ثم أبا بكر، ثم تزوّجها أمير المؤمنين ﵇، فوُلد له منها يحيى وعون. وهكذا جملة من أزواجه ﵇. وكان هذا المعنى أيضاً في حياة الأيمّة ﵈، فلماذا يكون عندنا عيباً؟

نحن مع الأسف لا نملك التفكير الجماعي بمجتمعاتنا وبلداننا وأُسرنا، وإلّا فإن الزواج بالمطلّقة إنقاذ للمجتمع وحماية له، وفيه جوانب إنسانية كبيرة تتعلّق بحياة امرأة من نساء المسلمين.

النتيجة الثانية: ضياع الأطفال وتشرذمهم

فالتأثير السلبي الذي يؤدي إليه الطلاق فيما إذا كان عند المرأة طفل أن هذا الطفل قد تتزوّج أُمّه أو يتزوّج أبوه، ويبقى هو ينظر بعين لأُمّه المشغولة ببيت جديد وأطفال جدد، وبعين لأبيه المشغول هو كذلك بأسرة جديدة، فيتحول إلىٰ مأساة وكارثة. إلىٰ غير ذلك من المشاكل التي يؤدي إليها الطلاق الذي وصفه الإسلام بأنه أبغض الحلال إلىٰ الله[1]، وأن العرش يهتز منه[2].

وقد يلجأ البعض إلىٰ الطلاق لمجرد أنه اختلف مع زوجته اختلافاً بسيطاً، خصوصاً إذا كان من أهل الأموال، لكنه لا يلتفت إلىٰ أنه قد كسر قلبَ إنسان، والله

---

(١) سنن ابن ماجة ١: ٦٥٠ / ٢٠١٨، سنن أبي داود ١: ٤٨٤ / ٢١٧٨.

(٢) مكارم الأخلاق: ١٩٧، مجمع البيان ٥: ٣٠٤، وسائل الشيعة ٢٢: ٨ ـ ٩ / ٢٧٨٨٠.

تعالى لا يدع أصحاب القلوب الكسيرة. ومن هنا حدثت ردود الأفعال التي نشاهدها في مصر أو بعض البلدان العربية، وهي أن المرأة أخذت تشترط ضمن العقد ألّا يتزوّج عليها الرجل. وهذا شرط مخالف للعقد لا يأخذ به الفقهاء[1]، لكن الذي أُريد قوله هو أن هناك ردود أفعال وتشنجات أخذت تحدث بسبب الشطط عند الزوج.

ومن الغريب في هذه الأيام أن بعض الأزواج يقول: إن امرأتي قد أصابها الترهُّل والكبر بسبب الحمل وكثرة الإرضاع، وقد مللتها لكثرة المعاشرة. وهذا هو منتهى الأنانية، فالمرأة وضعت الأولاد للزوج، وخدمت في بيته، فهل هذا من الوفاء؟ وهل من ضروب الوفاء أن المرأة التي أفنت ذاتها من أجل ولد لك تربيه، أو بيت لك تصلحه، أو ثوب لك تَرفُوه، أو حاجة تقضيها تقابل بالعقوق؟

فالآية الكريمة موضع البحث تصف حال هؤلاء الذين إذا بشّر أحدهم بالأُنثى غيّب وجهه عن الناس حياء وهروباً من العار، في حين أن الذي يحدّد جنس المولود هو نطفة الرجل لا نطفة المرأة، فالرجل هو المسؤول عن كون الولد ذكراً أو أُنثى. تقول أعرابية وهي تُرَقّص ولدها:

ما لأبي حمزة لا يأتينا	يظل بالبيت الذي يلينا
غضبان ألّا نلدَ البنينا	وإنما نأخذ ما أُعطينا
ونحن كالأرض لزارعينا	نُعطيهُمْ ما بذروه فينا[2]

المبحث الرابع: قضية الوأد ومعالجة الإسلام لها

ثم قالت الآية: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ أي أنه بين أمرين: إما أن يتركها في البيت

---

(١) انظر المكاسب ٦: ٤٣.   (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٠.

وهو معيَّر، وهذا يسبب له الجفاء والاحتقار؛ فقد كانوا يحتقرون با البنات إلىٰ حد أنهم لا يأكلون في بيته. ويُلاحظ هنا أنه ورد في الروايات أن الأنبياء آباء بنات، أي أن الله تعالى أكرمهم بهذه المكرمة فجعل ذريتهم من البنات، أما هؤلاء فكانوا ينظرون لأبي البنات نظرة احتقار وازدراء، فيكون الأب متأرجحاً بين أن يتركها في البيت أو يدسّها في التراب.

وهذا هو الذي أشرنا إليه من أن قلوب بعضهم كانت أقسى من الصخر، فينتظرها حتى تكبر ثم يزيّنها ويدفنها في التراب، وكان قائلهم يقول: أكرم الأصهار القبر.

ولذا فإن الإسلام عاملها معاملة تتناسب معها، فوضع الخطط لتربية الأبناء؛ ذكوراً كانوا أو إناثاً. وقد وقف النبيﷺ يرسم ذلك مع ابنته، ومما قام بهﷺ أنه أراد أن يكسر واحداً من الحواجز النفسيّة التي كانت سائدة، وهو أن الرجل كان لا يطيق أن يرى ابنته تتزوّج في حي هو فيه، وإنما يطلب من زوجها في ليلة زفافها أن يأخذها إلىٰ مكان آخر. فما كان من النبيﷺ إلاّ أن جمع رؤساء الصحابة ليلة زفاف فاطمةﷺ لبعلها كما تقول أُم سلمة، ثم قالﷺ لها: «يا أُمّ سلمة، هيِّئي لابنتي حجرة». قلت: وأي حجرة تريد؟ قالﷺ: «حجرتك». فهيّأت الحجرة، ثم قال لي: «استدعي لي علياً». فدعوته له، فقال له: «اصنع لأهلك طعاماً، وادعُ من أحببت».

تقول أُمّ سلمة: فدعا عليﷺ الصحابة، فأكلوا وصدروا شباعاً، ثم دعاني رسول اللهﷺ لما غابت الشمس وقال: «هل أصلحت ابنتي؟». قلت: نعم، فصلّى النبيﷺ المغرب ثم استدعى سلمان وأبا ذر وعماراً والمقداد وجمعاً من الصحابة، فجعلهم أمام الناقة، وكان النبيﷺ وكبار الصحابة معهم في موكب

فاطمة ﷺ، ونساء النبي ﷺ والصحابيات معهم وهن ينشدن مستبشرات بهذه المناسبة:

سِرْنَ بعون الله جاراتي ... واذكرنه في كلّ حالاتِ

واشكرن ما أنعم ربّ الورى ... من دفع مكروه وآفاتِ

وطاف النبي ﷺ بابنته على المسجد، وزمام الناقة بيد سلمان وإلىٰ جانبه عمار والمقداد وباقي الصحابة، فلما وصل ﷺ إلىٰ الحجرة أخذ زمام الناقة بيده، وثنى ركبته، ونحّى الصحابة عنه، ثم أنزل فاطمة ﷺ بيده، ثم دخل إلىٰ الحجرة، فقال: «يا أم سلمة، هاتي لي ماء».

تقول: فأتيته بقدح فيه ماء، فشرب منه شيئاً وبض الباقي في القدح ثم قال: «استدعي لي علياً». فنضح بين صدره ﷺ ونحره، ونضح بين صدر فاطمة ﷺ ونحرها، ثم أمسك يد فاطمة ﷺ بيده وأمسك بيد علي ﷺ فقال: «يا علي هذه وديعتي عندك». ثم رفع شيبته إلىٰ السماء فقال: «اللهم إنك باركت على آل عمران فبارك على آل محمد، اللهم أخرج منهما النسل الطاهر، اللهم كن بهما حفيّاً ولهما وفيّاً».

ثم ودعها إلىٰ الحجرة وعيناه تلاحقانها، ثم أطبق باب الحجرة وخرج[1].

فليتك يا رسول الله (صلىٰ الله عليك وآلك) تقف على هذا الباب لترى ما جرى عنده:

يا بابَ فاطمَ لا طُرِقتَ بخِيفةٍ ... وبدُ الهُدى سَدَلتْ عليك حِجابا

نفسي فداك أما علمتَ بفاطمٍ ... وقفتْ وراك تُناشِدُ الأصحابا

(١) انظر أمر زواجهما ﷺ كاملاً في مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٣ ـ ٤٠٥. بحار الأنوار ٤٣: ١١١ ـ ١١٧، ١٢٥ ـ ١٢٧.

أوما رققتَ لضلعها لما انحنى ... كسراً وعنه تزجّر الخطّابا

أفهل دری المسمار يوم أصابها ... من قبلها قلب النبي أصابا

* * *

تلوج وتنده بفضة ... يبو الحسنين وتته تشوف

ما رديت لهسفتها ... ونته غوث كلّ ملهوف

أقبلت عليها السلام تقوم ويقعدها الألم، حتى وصلت إلى قبر الرسول صلى الله عليه وآله، فأدارت وجهها إليه:

لا خير بعدك في الحياة وإنما ... أبكي مخافة أن تطول حياتي

نفسي على حسراتها محبوسة ... يا ليتها خرجت مع الزفرات[1]

(١) تنبيه الغافلين: ٤١، مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٧، بحار الأنوار ٤٣: ٢١٣.



﴿٦٢﴾

التوكّل الواعي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في سبب نزول الآية

عالجت الآية الكريمة ظاهرة يمكن أن نسميها ظاهرة التوكل الواعي. ويروي المفسرون في هذه الآية سببين للنزول، وسبب النزول يلقي ضوءاً على موضوع الآية، ويوضح الجو الذي نزلت به. وهذان السببان المرويان هما:

الأوّل: ما يرويه القرطبي[2] ومجموعة من المفسرين[3] عن جماعة عن عبد الله ابن عمر أن النبي ﷺ خرج يوماً من الأيام ومعه مجموعة من الصحابة، فدخل إلى حائط من حيطان الأنصار ـ والحائط هو البستان ـ فأخذ يلتقط بعض التمر من الأرض ويأكل، ثم قال عبد الله بن عمر: فقال لي النبي ﷺ: «لمَ لا تأكل؟». فقلت: أنا لا أشتهيه. فقال النبي ﷺ: «أما أنا فأشتهيه».

ثم التفت إليّ فقال: «كيف بك لو علمت أني منذ أربعة أيام ما ذقت شيئاً من

---

(١) العنكبوت: ٦٠.

(٢) الجامع للأحكام القرآن ١٣: ٣٥٩.

(٣) مجمع البيان ٨: ٣٨.

الطعام؟ ولو شئت أن أسأل الله أن يرزقني مثل ملك كسرى وقيصر لفعلت، ولكني لا أفعل». ثم قال لي: «وكيف بك إذا صرت بين قوم يخبئون قوت سنتهم ويضعف عندهم اليقين؟».

هذا هو السبب الأول الذي يرويه المفسرون. وهذا السبب لا نطمئن له للأسباب التالية:

١ ـ وجود رجال في الرواية لا يُطمأن إليهم، فهم غير موثوقين، والسند يُشترط فيه أن يكون موثّقاً لكي تقبل الرواية. أما إذا كان الراوي صاحب مصلحة في روايتها، وهو غير موثوق فلا نطمئن لمثل هذه الرواية. فمثلاً جاء أحدهم يوماً إلى الحجاج وقال له: أنا تخلفت عن البيعة وأردت أن أبايع لأمير المؤمنين عبد الملك لأنني أعرف أن الذي يبيت ليلة من الليالي وليس في عنقه بيعة لأميره ثم مات فإنه يموت ميتة جاهلية، وأنا أخشى أن يدركني الموت في الليل وأنا لم أبايع بعد، فأموت ميتة جاهلية. فأخرجَ له الحجاج رجلَه وقال له: اضرب بيدك على رجلي وبايع[1].

وهذا استخفاف به طبعاً، وكان هذا الرجل ممّن امتنع عن بيعة علي، ولكنه الآن يخاف أن يبيت ليلة دون بيعة، ولهذا الرجل مواقف كثيرة لا نريد التطرّق إليها.

وأرجو ألّا يفهم البعض أننا أصحاب هوى أو حقد على أحد، بل الواقع أننا نقيّم الإنسان بمقدار تقييمه الواقعي، فمن يصعد على المنبر ويقل: تمسكوا ببيعة يزيد؛ لأن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة بالغدر، فلا يمكن لأحد أن يحبه؛ لأن مثل هذا لا يتمّ إلّا عن عدم ورع، وعدم الورع مدعاة لنا ألّا نأخذ أحكام ديننا من صاحبه

---

(١) الفصول المختارة: ٢٤٥، وقد قال له الحجاج مستهزئاً: بالأمس تركت بيعة علي واليوم تريدني أن أُبايعك لعبد الملك؟

أو ممّن هم على شاكلته.

٢ـ أن رسول الله ﷺ لا يمكن أن يأكل من بستان أحد دون إذنه حتى ولو كان ذلك مباحاً، فمن باب التنزّه لا يمكن أن يتناول طعاماً دون إذن صاحبه.

٣ـ أن نهي النبي ﷺ عن ادّخار قوت السنة أمر غير مستقيم، فمن قال: إن الذي يخبئ قوت سنته يضعف عنده اليقين؟ والحال بالعكس، فإن مسلماً[١] والبخاري[٢] رويا أن النبي كان يدّخر قوت سنته. ومن ناحية ثانية فإن مجموعة من الصحابة كانوا يعملون هذا، والإمام الصادق عليه السلام يقول: «النفس إذا أحرزت معيشتها اطمأنت»[٣]؛ لأن الإنسان الذي يدخل إلى بيته ولا يجد رغيف الخبز سيخرج إلى الدنيا ويكفر بها كلّها، وإذا ارتفع صوت المعدة طغى على كلّ الأصوات، ولا يمكن أن يُرد؛ ولذا لابد من ضمان القوت. ومن أوّليات الشريعة الإسلامية أنها تُعنى بالتكافل والضمان الاجتماعيين، فمن لا يملك الرغيف في بيته يفقد توازنه، يقول أحد الأدباء:

الشكر للخبز الذي لولاه ... ما كان يوماً يُعبَدُ الإلهْ

فإذا لم يتوفّر للإنسان ما يسدّ حاجاته فانتظر منه أن ينحرف.

تأتيني رسائل بشكل مستمرّ من الشباب ومن مختلف الأجناس يشرحون فيها بعض القضايا السائدة التي ترتبط مباشرة بعدم إشباع الحاجة. ومن المعروف أن الحاجات قسمان: فمنها ما يمكن إشباعه بسهولة كالجوع، فإنه يُسد بالطعام، وكذلك العطش والعري، ومنها ما لا يمكن إشباعه بهذه السهولة، فلو أن امرأة

---

(١) لم نعثر عليه في صحيحه، لكن رواه كثيرون غيره، انظر السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٤٦٨.

(٢) صحيح البخاري ٦: ١٩٠.

(٣) تحف العقول: ٣٥٢، ونسبه في الكافي ٥: ٨٩ / ٣، والعلل (ابن حنبل) ٣: ٤٠٢ / ٥٧٧٤، وغيرهما لسلمان عليه السلام.

طاهرة طيبة مقبولة الشكل لكن لا يأتيها نصيبها، وتبقى جليسة الدار، وعندها حاجة ملحّة وهي الغريزة، فكيف يمكن أن يكون الحل؟ هل ندفن رؤوسنا بالتراب؟ على الإنسان أن يواجه مشاكله وجهاً لوجه. إن هذه العقبات التي نضعها في طريق الزواج ينبغي أن نزيلها لإشباع هذه الحاجة، لئلّا يؤدي الأمر إلى الانحراف، ولئلّا يقعد المتصيّدون المرتزقة الذين لا همّ لهم سوى ترويج الدعارة بأوجه مختلفة.

فينبغي أن نهتمّ بتسهيل وتذليل كلّ عقبة في سبيل تأمين الحاجات. ولا بدّ أن يكون المجتمع مسلماً عنده تراحم وتكافل وتعاون وتضامن، وهذه مسؤولية كلّ فرد منا بإمكانه أن يساهم مادّياً ومعنوياً في تذليل تلك العقبات. فالمسلم أخو المسلم، وعلينا نحن ألّا نضخّم المشكلة، فالمرأة لا تحصل على السعادة عن طريق كثرة الأموال، والرجل لا يحصل على السعادة بكثرة الأموال أيضاً. كما أن هذه العقبات يجب أن نذلّلها، فلا داعي لأن نضيق المجال على المرأة ولا نفسحه لها بأن نحول دون زواجها حتى تحصل على أعلى شهادة؛ لأنها إن تُركت حتى تنال هذه الشهادة العالية فسيصبح عمرها خمسة وثلاثين أو أربعين سنة، فمن الذي تكون عنده رغبة بالزواج منها عندئذ؟

فعلينا أن نزيل العقبات المتعدّدة مثل غلاء المهور، والاختيار المفرط وغير ذلك من العقبات. وهذا الموضوع من باب الاستطراد، وسنمر به في مواضع أُخرى إن شاء الله.

فهذا الرأي في سبب النزول لا نطمئن له، فتأمين الحاجات ليس منافياً للشرع، وكان الرسول يدّخر طعاماً لأهله لمدّة من الزمن، وكان الأيمّة والصلحاء يقومون بهذا العمل، فهو لا ينافي الشرع حتى يقول الرسول ﷺ: إنه يضعف اليقين. ثم إن اليقين لا بد أن يكون واعياً، والله لا يريد منا أن نكون بلهاء، ومن طبيعة الإنسان

أنه حيوان مدّخر. والتوكّل لا ينافي السعي. ومن الممكن الجمع بين التوكّل والسعي، فأنت تسعى وتعمل وتدّخر من الحلال وتتوكّل على الله، ولا منافاة بين هذه الأمور.

وهذه الشريعة بين أيدينا ليس في أُصولها ولا في قواعدها ولا في الروايات ما ينافي أن الإنسان يأخذ القوت لأهله، ليجعلهم مطمئنّين أن عندهم رغيفاً. ولكن على ألّا يفْرِط في الأمر.

وليكن التوكّل واعياً، وهو أن يحرز المقدّمات أولاً ثم بعد ذلك يتوكل على الله. وهذا أشبه بقضية الأعرابي الذي دخل على النبيّ ﷺ في المسجد فقال له النبي ﷺ: «أين تركت راحلتك؟». قال: يا رسول الله، أرسلتها وتوكلت على الله. فقال له النبي ﷺ: «اعقل وتوكل»[1]. فالله علّمنا أن نربط الأسباب بمسبّباتها، وأن نتحرّك ضمن نظام، أما أن نُعطي الإهمال صفة التوكّل فلا. فلا تنسب إلى الشريعة ما ليس فيها؛ ولذا ضعّف القرطبي[2] نفسه هذه الرواية في سبب النزول، وهي كذلك كما رأيت.

الثاني: ـ وهو الصحيح في سبب نزولها ـ: أن ضغط قريش زاد على الروّاد الأوائل من المسلمين، ولم يكن عند هؤلاء الروّاد انتماءات ضخمة، فمنهم من هو من المَوالي، أو فقير لا عشيرة له، أو من عشيرة صغيرة ضعيفة. فأغلبهم كان ذا وضع اجتماعي عادي، فكانوا عرضة للتعدّي عليهم واضطهادهم من قبل قريش، فجاؤوا إلى النبي وقالوا: ما نصنع؟ فأمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة. فقالوا له: يا رسول الله، ليس عندنا ديار نسكن بها، ولا عندنا من يعرفنا أو ينفق علينا. فأطرق النبيّ ﷺ قليلاً ثم نزل جبرئيل يحمل هذه الآية.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ٢٠١.
(٢) الجامع للأحكام القرآن ١٣: ٣٦٠.

فالرسول يريد أن يقول لهم: لا تبقوا مع الظلمة؛ فتعرضوا أنفسكم للاضطهاد، والدار التي لا تضمن لك المأوى والأمان لا تبقَ بها.

فالآية منصبّة على عدم الإفراط في سوء الظن بالله، فبما أنك تملك سبباً تحت يديك فاستعمل هذا السبب ولا تكن سيّئ الظن بالله من أن الأبواب سوف تغلق في وجهك. فعليك أن تأخذ بالأسباب الطبيعية، والباقي على الله، وهو لا يهمل عباده: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1].

المبحث الثاني: في معنى الدابة وبعض خصائصها

تقول الآية: ﴿وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ والدابة كلّ ما يدب على الأرض إنساناً كان أو غيره، فالآية لاحظت المعنى اللغوي الذي يشمل الإنسان والحيوان. فالقرآن يقول لنا: قفوا ميدانياً على الدنيا، وانظروا إلى هذه الدوابّ التي أنتم قسم منها، هل تدّخر طعامها كلّها وتحمل رزقها أم لا؟ وليبعث هذا عندكم شيئاً من الطمأنينة إلى أن الله لا يترككم. فقسّم الدواب إلى قسمين: قسم يحمل رزقه، أي ما نعبر عنه بالحيوان المدّخر. وقسم لا يدّخر.

ولا يدّخر من الحيوانات إلّا ثلاثة: النمل والفأر والإنسان. وباقي الحيوانات لا تدّخر. فالنملة تحمل الحبّة إلى داخل جحرها، ولخوفها عليها من الرطوبة والنموّ؛ تعمد إليها فتأكلها من موضع إنباتها وهو القطمير (الجنين). وفي الليالي المقمرة تخرج طعامها إلى ضوء القمر وترجعه صباحاً إلى وكرها، وتبقى تأكل منه. وتقسم بعض الحبوب نصفين وتقسم بعضها أربعة؛ لأنها تعرف بالتجربة أن بعض الحبّات تنمو إذا قسمتها نصفين، فهي تستفيد نوعاً ما من التجربة.

ولذا عندما يمرّ بعض المفسّرين بموضوع النمل يذكر المحاورة التي ذكرها

---

(١) الحج: ٣٨.

القرآن بين النبي سليمان‌ﷺ والنملة، فعندما مرّ سليمان‌ﷺ على وادي النمل، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لايَشْعُرُونَ﴾[1]، فيقول المفسّرون في تفصيل الحوار: إن سليمان‌ﷺ سألها: «ما لي أرى لباسكم السواد؟». قالت: لأن الدنيا دار مصائب، والسواد لباس أهل المصائب. فقال: «ما لي أراكم عراة الأبدان؟». قالت: هكذا دخلنا إلى الدنيا وهكذا نخرج منها.

وهذا من باب الموعظة ليس إلّا، وإلّا فإن السواد في بعض المناطق يعتبر من لباس الأفراح. فالتقاليد تختلف من منطقة إلى أُخرى، وقد يكون ما هو مصيبة عند شعب فرَحاً عند شعب آخر. فقولها: هكذا دخلنا إلى الدنيا وهكذا نخرج منها هو للموعظة، فالإنسان يدخل إلى الدنيا عارياً ويخرج منها عارياً. فجميع ما يلبسه من لباس مزركش بالذهب أو ثوب جميل أو قميص عادي أو ثوب بالٍ يتركه وراءه، فما للدنيا يتركه للدنيا ويذهب إلى ربه عارياً: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[2].

فلا شيء يمكن أن يثنّيكم، بل حتى الأشياء التي تعطي الإنسان معنىً بالتثنية يخلعها، وذلك مثل علّامة أو بروفسور أو الألقاب الأُخرى، فإنه يترك كلّ هذه الألقاب وراءه. يقول أحد شعرائنا:

مررتُ على الوادي فسفْت عَجاجَةً ... وكم من بلادٍ بالعجاجِ ومن نادِ

فأبقيتُ لم أنفُض عن الرأس تُربَها ... لأرفعَ تكريماً على الرأسِ أجدادي

إلى أن يقول:

فذو الزُهوِ خلّى الزهوَ عنه وقد مضى ... وظلّت على الغبرا سِيادةُ أسيادِ

---

(١) النمل: ١٨.

(٢) الأنعام: ٩٤.

أغُقباكِ يا دُنيا قميصٌ وطِمرَةٌ	بحفرةِ أرضٍ من خَراباتِ زُهّادِ
فكم كومةٍ للتُّربِ من بعدِ كُومَةٍ	مُعلّقة هذا الزعيمُ وذا الهادي

فهؤلاء دخلوا إلى الدنيا عراة، وسيخرجون منها عراة. فكل ما على الإنسان هو عارية[1] مستردّة. فهذه النملة تريد أن تقول له: إن الدنيا هذا شأنها.

فقال سليمان ﷺ: «كم تأكل النملة منكن في اليوم؟». قالت: نصف حبة أو أقل. قال ﷺ: «لماذا؟». قالت: لأنا على جناح سفر، والمسافر كلّما خفّ حمله خف ظهره.

فمهما تصورت أن يكون عمرك، فأنت مسافر سترحل يوماً، والليالي والأيام تسير بك، يقول الشريف الرضي:

ما أقلَّ اعتبارَنا بالزمانِ	وأشدَّ اغترارَنا بالأماني
أيُّها ذي الهوامل استوسقي بالـ	ـسيرِ واستقربي من الأظعانِ
واستقيمي قد ضمك اللَّقَمُ النَّهـ	ـج وغنّى وراءَكِ الحاديانِ[2]

والحاديان هما الليل والنهار، فكلّما مر يوم أو ساعة أو دقيقة فهو نقص في عمرك. فالنملة تقول له ﷺ: نحن نكتفي من الدنيا بالقليل وبما خف من حمل؛ لأنّا على جناح سفر.

وهي محاورة طويلة لا أُريد الدخول فيها كلّها، ولكن يظهر من هذا أن النمل له لغة خاصة يتفاهم بها. وليس النمل فقط، إذ ليس من الممكن أن يوجد حيوان ليس عنده لغة للتفاهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[3]، والتسبيح لا بدّ له من لغة، فهو يسبّح بلغته الخاصّة. بل حتى النبات له لغة خاصّة لكنها لغة كيميائية،

---

(١) أي شيء مستعار.

(٢) شرح نهج البلاغة ١١: ٢٦٢.

(٣) الإسراء: ٤٤.

كما أثبت ذلك العلم الحديث، فقد جرّبوا أن وضعوا عنكبوتاً على ورقة من النبات فأفرزت مادة هرب منها العنكبوت، وأفرزت النبتةُ رائحةً إشعاراً لجاراتها بالخطر. والنحل كذلك له لغة حركية يتفاهم بها.

فلكلّ حيوان لون من ألوان اللغة، وبعض الحيوانات قد يرتقي فهمه لأكثر من هذا.

وهذا الموضوع يفتح علينا باباً آخر هو: هل إننا نحمّل الحيوان مسؤولية جنائية أم لا؟ فللقرد مثلاً مزايا قريبة من الإنسان، وهذا هو الذي أوحى إلى دارون أن يقول: إن القرد حلقة من الحلقات في طريق تطوّر الإنسان. ومن هذه المزايا أن له أصابع وأظافر ورموشاً وأهداباً، ويجلس كما يجلس الإنسان، ويضاجع كالإنسان، وهو الكائن الوحيد الذي يضحك من بين كلّ الحيوانات، وعنده لون من الذكاء وخفّة الحركة، بل إن المؤرّخين يروون أن ملك النوبة أهدى إلى المتوكل قرداً خياطاً وآخر صائغاً[1].

وهذه الناحية انعكست على الفقه الإسلامي، فالشيخان مسلم والبخاري يرويان عن القاضي حسين أنه يرى أن من علّم قرداً على السرقة فسرق فإن القرد هو الذي تقطع يده بلحاظ أن للقرد اختياراً، وعنده نسبة من الإدراك[2]. فإذا كان عنده اختيار صار هو السبب المباشر، وبذلك فإن القطع يتوجه إليه. وهذا يدلّ على أن هذا الحيوان يرتفع بإدراكه إلى حدّ تحمّل المسؤولية الجنائية. والغريب أن هذا القرد المسكين لم يسلم، فقد أفتى البعض بجواز ذبحه وأكل لحمه[3].

وكان الرومان يحمّلون الحيوان مسؤولية مدنية، ونحن الآن نحمل الحيوان

---

(١) بحار الأنوار ٦١: ٧٤.
(٢) عنهما في حياة الحيوان ٢: ١٧١ ـ ١٧٢.
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ٧: ١٢٢.

مسؤولية مدنية أيضاً ونلقيها على عاتق المالك.

إذن فالحيوانات المدّخرة هي هذه الثلاثة. والغريب أيضاً أن الحيوان المدّخر يشبع بطنه أولاً ثم يدّخر. وهناك حركات غريبة تقوم بها بعض هذه الحيوانات، فالفأرة مثلاً تأتي إلى إناء فيه دهن فتشرب منه، فإذا نقص فلا تستطيع أن تصل إليه وربما تتزحلق وتقع، فإنها تذهب إلى الماء وتجيء به في فمها فتلقيه في الإناء؛ كي يطفو الدهن فتمتصّه. وهذا النمط من السلوك أوجد نزاعاً بين علماء الحيوان حول أن هذا السلوك هل يرتبط بغريزة معينة ـ أي أنه مطبوع في خلايا المخ ـ أو أن فيه اختياراً؛ فيكون بالتالي عملية عقلية إلى حد ما؟

فالآية الكريمة تقول: إن الحيوانات لا تدّخر رزقها ـ باستثناء هذه الثلاثة ـ فهي تغدو منذ الصباح طالبة لرزقها؛ فالطير يخرج خميص البطن ويعود وقد أكل وشكر ربّه، وكذلك الحيوانات الأُخرى. فالقرآن يقول: أحسنوا التوكّل، لكن ليس التوكّل الأبله، وإنما التوكّل الواعي، ولا تسيئوا الظن بالله تعالى، فالله متكفّل بالرزق، ومن المستحيل أن يفتح فماً ولا يرزقه[1].

المبحث الثالث: في أنواع الرزق

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾، فالله يرزقها بنوعين من الرزق:

الأول: الرزق المباشر، بأن يخلق لها قوتها في الأرض أو في البحر؛ فتجد أقوات الأسماك بعضها على البعض الآخر في البحر ـ وببالغ الأسف حتى البشر يأكل بعضهم بعضاً، وهذا هو الواقع، فمعظم الناس يأكل بعضهم بعضاً ولكن بصبغة من الغلاف الحضاري ـ ورزق الديدان في الأرض. يقول أحدهم: كنت على ظهر سفينة فرأيت فأرة، فألقيت لها قطعة من الطعام، فأخذتها ورجعت خالية، وتكرر

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ الأنعام: ١٥١.

هذا الأمر، فتبعتها، فوجدتها تأتي بالطعام إلى فأرة عمياء.

فالله سخر الكائنات بعضها لبعض، ويتغذّى بعضها على البعض. والنبات هكذا، فقد يمدّ جذره ليتغذّىٰ على غذاء كائن آخر، فهذا الرزق المباشر.

الثاني: الرزق غير المباشرة، وذلك بأن يأمر مالكها بالإنفاق عليها، فمن كانت عنده أغنام، وأجدبت الأرض فلابدّ له من أن يهيّئ لها طعامها، فإن قال: ليس عندي القدرة علىٰ ذلك، فإن الحاكم يجبره على بيع بعضها وشراء الطعام للباقي كي لا يعرّض الحيوان للتلف والأذىٰ.

وقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام في مسيره إلى الحج يرفع السوط على الناقة عندما تتلكأ عليه ثم يقول: «أوه، لولا القصاص. أوه، لولا القصاص»[١].

ومعنى ذلك أن هناك مسؤولية عليه لو ضربها. وهذا المعنى تؤيّده الأحاديث النبوية الشريفة، يقول النبي صلى الله عليه وآله عن الحيوانات المركوبة: **«اركبوها سالمة وأرجعوها سالمة، ولا تجعلوها كراسي لحديثكم بالأسواق والطرقات؛ فربّ مركوب خير من راكبه، وأكثر منه ذكراً لله»**[٢].

ومعنى ذلك أنه لا يسوغ لكم أن تستعملوا ظهر الحيوان المريض وتتعبوه، أمّا الحيوان السالم فلا تتعبوه إلى الدرجة التي يمرض فيها، ولا تتعبوها بأن تتحادثوا بينكم وأنتم تمتطون ظهورها، وليكن في تعاملكم معها عنصر إنساني، فهذا لون من التعذيب المنهي عنه. والواقع المر الذي نعيشه اليوم أننا نركب على أكتاف الإنسان أكرم المخلوقات على الله[٣] في هذا الكون، فهذا الموجود الكريم تجد هناك من

---

(١) الإرشاد ٢: ١٤٤. (٢) المجازات النبوية: ٤٣٧.

(٣) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ الإسراء: ٧٠.

يصعد على عاتقه وعلى أكتافه بل وعلى قلبه.

فالنبي ﷺ يقول: «فربّ مركوب خير من راكبه، وأكثر منه ذكراً لله»، تأمل روعة هذه العبارة! ويشبهها قول الشاعر:

قال حمارُ الطبيبِ لوقا لو أنصفوني لكنتُ أركبْ
لأنني جاهلٌ بسيطٌ وراكبي جاهلٌ مُركّبْ

فأحياناً تجد من يركب على حيوان هو أفهم منه بكثير.

وهذه المشكلة ذهبت إلى حد ما في هذا الزمان، فالناس هذه الأيام عادة يركبون السيارات الفارهة، ولكن مع ذلك ما يزال هناك من يستعمل ظهور الحيوانات أو يتعامل معها. فمن يتعامل مع الحيوان ينبغِ عليه أن يتعامل معه برفق ولطف.

والغريب أن الحضارة اليونانية التي يعدّونها أعمق الحضارات تقول: إن الحيوان ليس عنده روح فهو مثل الجماد. وهذا رأي أفلاطون وأرسطو، في حين أن الشريعة الإسلامية ترىٰ أن له روحاً، وتعطيه درجة من الاعتبار، وتأمر بمعاملته وكفالته، وتجد في الأحاديث: «إن الله يرحم العبد برحمته للعصفور». فليست هناك حضارة من الحضارات وفرت للحيوان حقوقاً كما وفّرت الحضارة الإسلامية.

فكلّ عمل من الأعمال تجده يتنافى مع العنصر الإنساني فلا تعدّه من الإسلام في شيء، فليس من الممكن أن يشرّع الله ما فيه الأذى للإنسان أو الحيوان، بل إن هذا الأذى يأتي من أفكارنا نحن، فنحن الذين نفسر بأهوائنا، ونسكب على النص ما عندنا من مشاكل نفسية، فمثلاً يقول القرآن: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي

جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾[١]، والسفيه واضح، وهو من يبدّد الثروة ويضيّعها. فالآية صريحة، ولكن يأتي من يقول: إن معنى السفهاء هنا النساء[٢]؛ لأنه يعيش في محيط إذا ذُكرت فيه المرأة يقال: أجلّك الله عنها، فسكب ما في نفسه على النصّ. فهذا التفسير تفسير لما في رأس المفسّر لا تفسير للنص.

فالآية الكريمة تقول: إن الله متكفّل بالرزق، فكما يرزق هذه الكائنات يرزقكم، ولكن ليس معنى ذلك أن نترك العمل اعتماداً على هذا، بل ينبغي أن يكون التوكّل على الله توكّلاً واعياً كما قلنا؛ فمن لا يأكل من عرقه لا يشعر بالكرامة أبداً.

المبحث الرابع: لمحة من مواقف الأنصار مع المهاجرين

ثم قالت الآية: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ فهو سميع بما قاله الصحابة للنبي ﷺ في سبب النزول الذي ذكرناه، فهم قالوا له: ليس عندنا دار نسكنها، ولا من ينفق علينا، ولا عمل لنا هناك، وسوف نضيع. فقال لهم القرآن: إن الله يسمع قولكم ويعلم حاجتكم. وهذا هو الذي صار فعلاً، فقد استقبلهم الأنصار وقاسموهم بيوتهم، فجاء كلّ أنصاري بمهاجر أو أكثر وأسكنه معه في البيت، وقاسموهم رغيف عيشهم، حتى وصل الأمر إلى درجة أكثر من مقاسمة رغيف العيش، فصاروا يعطونهم الرغيف ويبقون جائعين: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٣].

ومسحوا عنهم غربتهم. فالإنسان إذا خرج عن وطنه يشعر بالغربة والضياع،

---

(١) النساء: ٥.

(٢) مجمع البيان ٣: ١٧، ونسبه إلى جماعة. الجامع لأحكام القرآن ١: ٥٣.

(٣) الحشر: ٩.

ويشعر أنه ترك وراءه أوطاره وإخوانه ورفاقه، فيحتاج إلى من يمسح ألمه وغربته، فمسح الأنصار غربة المهاجرين حتى أنسوهم أنهم ضائعون غرباء، واستقبلت المدينة المهاجرين استقبالاً لا حدود له.

ولكن يؤخذ على المدينة ـ مع الأسف ـ أنها ما وفت لما واعدت به رسول الله ﷺ وعاهدته به، فقد كان الإمام الصادق إذا قرأ هذه الآية: **﴿قُل لا أسألُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى﴾**[1] يقول: «اللهم اشدد وطأتك عليهم؛ إنهم ما وفوا لنا بما وعدونا». لأنهم قالوا للنبي ﷺ: أوَهل فينا من لا يَوَدّ ذوي قُرباك؟ لكنهم لم يفوا بهذا العهد، ولم تقف المدينة الموقف الذي ينبغي أن تقفه. وإلّا فليس من المنتظر من المدينة أن الناعي لما أتى بنعي الحسين﴿ يقف أحدهم فيها فيقول:

عجت نساءُ بني زياد عَجةً ... كعجيجِ نِسوتِنا غداةَ الأرنبِ[2]

ولذلك خرجت إحدى بنات عبد الرحمن بن عقيل وهي تقول:

ماذا تقولون لو قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأممِ

بعترتي أهلِ بيتي بعد مفتقدِي ... منهم أُسارَى ومنهُم ضُرِّجوا بِدَمِ[3]

وشعرت عائلة الحسين﴿ في المدينة بالغربة؛ لأن ديارها ظلّت خالية، فأي دار منها لم تكن خالية؟ تمرّ على دور آل عقيل فتجدها خالية ليس فيها إلّا الأسى، وكذلك بيوت آل جعفر وبيوت آل علي مثلها، وهاهو دعبل بن علي في تائيته يصوّر هذه اللوعة عندما يمر بهذا المنظر:

قفا نسألِ الدارَ التي بادَ أهلُها ... متى عهدُها بالصّومِ والصّلواتِ

وأينَ الأُلى شَطّت بهم غُربةُ النّوى ... أفانينَ بالآفاقِ مُفترقَاتِ

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) الإرشاد ٢: ١٢٣.

(٣) الإرشاد ٢: ١٢٤.

دِيـارُ عـليٍّ والحسينِ وجـعفرٍ وحـمزةَ والسجادِ ذي الثَّفِنَاتِ[1]

ووقفت عقيلة الطالبيين عندما واجهت دار الحسين:

وحكّ لو چـهيت الدار ألاگـيها بـدمع سـچابْ

أشـوف ارسـومكم بيها واشـتم ريـحة الاحبابْ

واتـذكر شـناياكـم واتكـسوّم اگـبال البـابْ

* * *

بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا وخـلفوا فـي سـويدا القـلب نـيرانا

نـذرٌ عـليّ لئـن عـادوا وإن رجـعوا لأزرعـنَّ طـريقَ الطُّـف رَيـحانا[2]

---

(١) ديوان دعبل: ٣٨. (٢) شجرة طوبى ١: ٩١.



﴿٦٣﴾

العقل عند الإمامية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[1].

المباحث العامّة في النص الشريف

تعد هذه السلسلة من الآيات الكريمة ذات محتوى أخلاقي عالٍ، وكل ما في القرآن الكريم عالٍ، لكنْ لهذه الآيات اعتبار خاصّ؛ لأن الله تعالى -كما سيمرّ بنا- قد أدّب بها نبيهﷺ، وألقى له فيها جملة من مكارم الأخلاق. ومن الموادّ التربوية ما هو في غاية السموّ والعلوّ، وسوف نرى كيف مرّت هذه الآيات بهذا التسلسل، أو بهذا النوع من الأداء الذي يرتبط بعضه ببعض.

المبحث الأول: معنى ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ والآراء فيه

فالنصّ الشريف ابتدأ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، لكن يرد هنا سؤال، وهو أن تدثر النبيﷺ هل كان حالة من الحالات الطارئة التي تصيب أي إنسان، فهوﷺ كان لسبب من الأسباب قد ادّثّر، أم أنها من الحالات الدائمة؟

فما هو سبب تدثّرهﷺ؟ للمفسرين آراء مختلفة في ذلك، وهو اختلاف منشؤه

---

(١) المدثر: ١ ـ ٣.

هل إن التدثّر آنذاك كان ظاهرة طبيعية، بمعنى أنه ﷺ أحسّ بشيء من البرد فتدثّر، أم لا، أي أن هناك سبباً آخر دفعه لذلك؟

الرأي الأوّل: أنه خطاب لطف وتدليل

وهذا الشيء لا يستأثر بأهمّيّة، ولكن هناك شيء واحد أُحبّ أن أُلفت النظر إليه، وهو أن هذا النعت الذي نعت الله عزّ وجلّ به نبيّه ﷺ هو من باب الملاطفة والتدليل الذي يعبّر عنه بعض المفسرين بأنه تلطّف من الكريم إلى الحبيب، يعني أن النبي ﷺ خوطب بهذا الخطاب في وقت كان فيه مدّثراً.

فالمسألة هي مسألة لطف، وقد رأيت أن بعض المفسّرين يعقّبون على هذا المعنى، ومن جملة هؤلاء المفسّرين القرطبي، فقد عقّب على هذا المعنى بقوله: «هذا الخطاب من الله عز وجل لنبيه ﷺ بقوله: ﴿**يا أيها المدّثر**﴾ هو نوع من أنواع التدليل واللطف، كخطاب رسول الله ﷺ لعلي ﷺ لمّا رآه نائماً وقد خلص التراب إلى جسمه: «قم أبا تراب»...»[1].

أي أن القرطبي يعني بذلك أن هذا الخطاب هو خطاب لطف وتدليل ورقّة، فكما أن الله عزّ وجلّ خاطب نبيه ﷺ خطاب رقّة وتدليل ولطف بقوله: ﴿**يا أيها المدّثر**﴾، فإن النبي ﷺ خاطب الإمام علياً ﷺ خطاب رقّة وتدليل ولطف بقوله ﷺ: «قم أبا تراب».

ثم يذكر القرطبي السبب في نوم علي ﷺ على التراب، وينصّ على أن النبي ﷺ رآه نائماً عندما خرج مغاضباً لفاطمة ﷺ[2]، والمسألة في الواقع ليست كذلك، ولم يكن علي ﷺ خارجاً وهو مغاضب لفاطمة ﷺ؛ لأن أمير المؤمنين ﷺ لم يكن يصدر منه ما يسبّب الغضب لفاطمة ﷺ، وهي ﷺ لا يصدر منها ما يسبّب الغضب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٦٠. (٢) المصدر نفسه.

لعلي بن أبي طالب عليه السلام. فالناس العاديّون من ذوي التربية العالية لا يصدر منهم ذلك فضلاً عن المعصومين عليهم السلام، فإن كنا نعتقد بعصمتهم فلا يمكن أن نتصوّر ذلك، أما من لا يعتقد بعصمتهم فهو على الأقل يعتبرهم على نمط من أنماط التربية العالية؛ فلا يتصوّر ذلك أيضاً.

فكل ما في الأمر، أن علياً عليه السلام دخل البيت، ثم خرج إلى المسجد فأدركه النوم؛ لأنه كان يعمل في النهار، ويكدح كدحاً شديداً، فلمّا أدركه النعاس نام، فسقط رداؤه فخلص التراب إلى ظهره، فأجلسه النبي صلى الله عليه وآله بهذه العبارة الرقيقة، حيث قال له: «قم أبا تراب»، ولذلك كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يفرح أشدّ الفرح إذا دُعي بها؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله هو الذي نعته بها، في حين أن الأمويّين كانوا يتصوّرون أنها سُبّة، أو منقصة، فكانوا يشتمون علي بن أبي طالب عليه السلام بها، والحال أن الذي كان هو العكس، فهي من الألقاب المحبّبة إليه عليه السلام.

الحجاج يستفتي الشعبي

وبالمناسبة أذكر هنا حادثة لها علاقة بذلك، يذكر المؤرخون أن الحجّاج استدعى يوماً الشعبي رجل الفقه المعروف، فكانت له معه محاورة، ومن جملة أجزاء تلك المحاورة أن الحجّاج سأله: ما تقول في أمٍّ وأُختٍ، وجدٍّ؟ يعني لو أنّ رجلاً توفي وترك أُمّاً وأُختاً وجدّاً، فكيف توزع التركة؟ فقال الشعبي: اختلف في هذه المسألة خمسة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله: زيد، وعبد الله بن مسعود، وعثمان، وعلي، وعبد الله بن عباس. فقال الحجاج: اذكر لي آراءهم وابدأ بابن عباس؛ فلقد كان متّقياً.

فذكر الشعبي رأي ابن عباس، وقد اعتبر ابن عباس الجدَّ أباً، فأعطاه ثلثي

التركة، وللأُم الثلث تأخذ بحكم نصّ الآية: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾[١] إذا انحصر الميراث بأب وأُم، فهما الطبقة الأُولى؛ فيحجبان غيرهم ولم يعطِ الأُخت شيئاً؛ لأنها من الطبقة الثانية. فإذا كان الأبوان موجودين، باعتبار أن الجدّ أب على رأي ابن عباس، فالأب يأخذ الثلثين، والأُم تأخذ الثلث.

فقال الحجاج: ما كان رأي أمير المؤمنين عثمان فيها؟ قال الشعبي: رأي عثمان أن الميراث أثلاث، ثلث يأخذه الجد، وثلث تأخذه الأُم، وثلث تأخذه الأُخت.

فقال: ما كان رأي أبي تراب؟ قال الشعبي: رأي أبي تراب أن التركة توزع ستة أسهم: ثلاثة أسهم للأُم، وسهمان للجد، وسهم للأُخت.

والمؤرّخون هنا لم يذكروا توجيه المسألة؛ لأنها تختلف باختلاف الفرض، فهل إن الجد كان من جهة الأُم أو من جهة الأب؟ وهل إن الأُخت لأبوين، أو من الأُم، أو من الأب؟ إن الأنصبة تختلف تبعاً لذلك. ولا يعنينا هنا أن نتتبّع الأنصبة، ولكن الذي يعنينا هو تعبير الحجاج المشار إليه بنعته أمير المؤمنين‏ﷺ بأبي تراب، قال الشعبي: هذا رأي أبي تراب. يقول المسعودي في (مروج الذهب): فضرب الحجّاج بيده على أنفه وقال: «إنه المرء لا يرغب عن قوله».

وإذا كان علي‏ﷺ كما يقول الحجاج: «لا يرغب عن قوله»، فهذا يوجب على الحجاج أن يأخذ برأيه، باعتبار أنه لا يرغب عن قوله، فهل أخذ الحجاج برأيه؟ كلا، بل التفت إلى القاضي قائلاً: أمِرَّها على رأي أمير المؤمنين عثمان[٢].

وهذه مفارقة غريبة طبعاً. فالحجّاج من جهة يستحسن النظرية، ويضرب بيده على أنفه، أو ينعته بأنه المرء لا يرغب عن رأيه، ومن جهة أُخرى لا يأخذ برأيه.

وهنالك نظائر عديدة لهذه المفارقة في تأريخنا – مع الأسف – أذكر منها مثلاً

---

(١) النساء: ١١.

(٢) مروج الذهب ٣: ١٦٤ ـ ١٦٥.

أن أحد الرواة يقول: سألوا النبي ﷺ: كيف نصلي عليك؟ قال: **«لا تصلوا عليَّ الصلاة البتراء»**، إذا أردتم أن تصلوا عليَّ فقولوا: **«اللهمَّ صلِّ على محمد وآل محمد»**. وبعد أن يذكر الراوي هذه الرواية يقول: «هكذا قال صلى الله عليه وسلم»!

فانظر إلى هذا الراوي الذي ذكر أن النبي ﷺ قال: **«لا تصلوا عليَّ الصلاة البتراء»**، ثم يصلي هو عليه الصلاة البتراء، فيقول: «صلى الله عليه وسلم» دون أن يذكر «آله»!

ونحن عندما نذكر مثل هذه الحوادث والمفارقات، فإنما نريد أن نسلط الأضواء على ثغرات التفسير والتاريخ والعقائد عندنا؛ لأن الإنسان لابد له من معرفة مرضه، ليعرف العلاج المناسب لهذا المرض، وإلّا فإنه سيبقى مريضاً. والنوايا والأهداف المخلصة التي تحاول معالجة الأمراض الاجتماعية والعقيدية ينبغي أن يكون رائدها وجه الله تعالى، وتكون المهمة هي إزالة العقبات عن طريق المسلمين.

إذن الآية الكريمة أول ما يلفت النظر فيها قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾**، وقلنا: إن هذا الخطاب هو خطاب تدليل، أي إنه خطاب من الكريم إلى الحبيب.

الرأي الثاني: أنه خطاب عتاب وتوجيه

فهناك بعض التعليلات تقول: إن النبي ﷺ عندما تدثر، كان راجعاً من مجتمع قريش، وكانوا يشيرون إليه بقولهم: هذا الساحر، هذا المجنون. فتضايق النبي ﷺ وتألم وتأذّى، وعندما رجع اضطجع ووضع على بدنه الدثار[1]، فكأن جبرئيل عليه السلام يقول له: هذا الذي رأيته من ثغرات في مجتمعك لا تعالجه بالنوم، لا تتدثر وتُدِر

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩: ٦٠.

ظهرك لهم، لا بل عليك أن تقوم، وتعالجه بطريق آخر، وهذا الطريق هو الإنذار. فاطلب الراحة بالإنذار لا بالدّثار. يقول أحد شعراء العرب:

أوْرَدَها سعدٌ وسعدٌ مُشْتَمِلْ   ما هكذا تُورَدُ يا سعدُ الإبلْ[1]

يعني أنك عندما تريد أن تسقي إبلك فلا تشتمل، بل تهيأ واستعدّ. فالقرآن الكريم يقول للنبي ﷺ: لا تعالج ثغرات هؤلاء القوم بالنوم؛ لأنك صاحب قضية كبيرة وهدف أكبر، ومن كان كذلك لا يصل إليهما بالنوم، بل عليه أن يكون يقظاً ويتتبّع هدفه بالعمل. ورحم الله أبا الطيب المتنبي حيث يقول:

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مرامها الأجسام[2]

يعني أن صاحب الهدف عليه أن يتعب، ولا يواجه القضية بالنوم، أو الإعراض عنها. وبتعبير آخر: إن المشكلة لا تواجه بالإعراض عنها، فذلك هو الهروب من المشكلة؛ لذلك قلنا: إن هذه الآيات تلقي إلى النبي ﷺ هذه الصفات السامية، وتقول له: إن مثلك من يحمل هذا العبء؛ لأن الله عز وجل عندما اختارك لأداء الرسالة فهو يعرف الطاقات التي عندك، فلا تحوِّل هذه الطاقات إلى الإعراض؛ لأن الإعراض هروب، فلا تتدثر وتترك المشكلة، بل قم وقابل المشكلة بالجد والعمل والصراع، حتى تنتهي إلى هدفك؛ لأن الأهداف لا تنال إلا بالمعاناة، وأنت أهل لذلك؛ ولهذا قال القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[3].

أي أن الله تعالى عندما أرسلك للناس بشيراً ونذيراً فهو جلّ وعلا يعرف الطاقات العالية التي تمتلكها وتتوفّر عليها، فالواجب عليك ألّا تجمّدها وتقتلها،

---

(١) مجمع البيان ١٠: ١٧٤.   (٢) ديوان المتنبي ٢: ٢٦١.
(٣) الأنعام: ١٢٤.

بل عليك أن تواجه قومك بإنذارهم وتخويفهم من الله تعالى.

المبحث الثاني: في معنى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾

ثم قال تعالى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾، وفي هذه الآية ثلاثة آراء:

الرأي الأول: إنذار المعادين بالعذاب

وعليه فيكون معنى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: قم وقف في وجه الجبابرة، وأعلمهم أنهم إن لم يؤمنوا فسينتظرهم عذاب شديد. وهنا يرد سؤال هو: لماذا هذا الموقف المتصلّب المتشدّد من الكافرين؟ وما هو السر في ذلك؟ وسبب هذا التساؤل هو أننا ـ وهو من الغريب ـ هذه الأيام نقرأ ـ خصوصاً لأصحاب الشهادات العليا ـ آراء تقول: إن الدين الإسلامي لا يُكره الناس على ترك عقائدهم.

نعم، الدين الإسلامي لا يُكره الناس على ترك عقائدهم، أما الكفر فلا يسمى عقيدة، فالإسلام إذا دخل بلداً فيه نصارى أو يهود أو من عنده شبهة كتاب فلا يحملهم على ترك دينهم، بشرط أن يحافظوا على المواطنة الصالحة في الدولة الإسلامية.

فالإسلام إذن لا يُجبر على ترك العقيدة عند وجودها، لكن عند عدمها ـ كما في الإلحاد والكفر ـ فالإسلام يجبره ويكرهه، لماذا؟ لأن الإسلام يعتبر الملحد المعطِّل خطراً، أما صاحب الدين فليس خطراً؛ لأن عنده رادعاً وتربية دينية، يمنعانه من الاعتداء، فليس هناك دين سماوي يأمر بالاعتداء على الناس.

وقد يقول قائل: أليس هؤلاء اليهود وأذناب اليهود يشكلون خطراً كبيراً، مع أنهم أصحاب دين سماويّ؟

فنقول: إن هذا الاعتداء والخطر من اليهود ليس من دينهم أبداً، فعقيدتهم لا تأمر بهذا الاعتداء، بل إن هذا الخطر له بواعث قومية ودنيوية أُخرى، وليس هو

آتياً من الرسالة السماوية. وإلّا فإننا إذا رجعنا إلىٰ الوصايا العشر، أو إلىٰ التوراة غير المحرفة فلن نجد فيها ما يأمر بالاعتداء والتعالي على عباد الله. فـالأديان السماوية لم تنزل إلّا رحمة لكنَّ هؤلاء حرَّفوا، وهذا التحريف هـو الذي خـلق المشكلة.

ونحن نشكر الله تعالىٰ علىٰ أن القرآن الكريم ليس فيه تحريف ـ أي أن النص الأصلي ليس فيه تحريف ـ لكن مع الأسف تسرب التحريف إلىٰ التـفسير، وإلّا فالنصوص القرآنية كما هي، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]، فهذا هو القرآن وهو ما بين الدفتين بلا زيادة ولا نقص. وآمل إن شاء الله أن تنتهي هذه التقولات التي تتهم الشيعة بالقول بتحريف القرآن، وألّا نسمع كلّ يـوم مـن بعض الكتاب من يقول: هؤلاء الشيعة عندهم قرآن غير هذا القرآن!

ونتمنى أن يأتينا أحدهم بنسخة واحدة من هذا القرآن المزعوم، فنكون له من الشاكرين، وإلّا فعليه أن يصحح ما في ذهنه من هذا الزعم. وها قد مضى (١٤٠٠) سنة ولم يحصلوا على نسخة واحدة من القرآن المزعوم عند الشيعة، فهل هو إلّا في مخيلتهم وأفكارهم؟

يقولون لنا: توجد عندكم روايات تنصّ على التحريف، وينسون أن عـندهم آلاف الروايات التي تقول بالتحريف[2]، لكننا لم نـلاحقهم ونـتتبعهم؛ لعـلمنا أن عقيدتهم هي القول بعدم التحريف، وعدم الالتزام بهذه الروايات.

فالفكر الموضوعي ينبغي أن يحمل الناس على التصرّف المسؤول، والتصرف المسؤول أنني أُتابع وأرى، فهل صحيح أنه يوجد قرآن يُعمل به غير هذا؟ أو أن

---

(١) الحجر: ٩.

(٢) مرّ مناقشة ذلك في ج١ ص ٢١٠ ـ ٢١١ من كتابنا هذا.

الواقع غير هذا، وأن هناك شخصاً ما كتب ذلك في التاريخ فاتبعت قوله؟ وهل إن كلّ ما يكتب في التاريخ يتّبع؟

وهناك في التاريخ ما تقرؤه وتجزم به تماماً، ثم تجد من لا يلتزم بذلك، فمثلاً قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1]، فقد ورد في تفاسير متعددة وموثوقة أن هذه الآية الكريمة نزلت في أهل بيت النبي ﷺ وهم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. ومن جملة من يذهب إلىٰ هذا الطبري في تفسيره[2]، هذا التفسير الذي يصفه أحد العلماء بأنه تفسير لا يقبل المناقشة؛ ذلك أن الطبري صادق، وتفسيره لا ينقل إلّا الأخبار الصحاح الموثوقة التي لا يتطرق إليها النقاش أبداً. ونسأل: هل يلتزم هذا بقوله؟ كلا فهو عندما يأتي لهذه الآية يقول فيها: ادعى البعض أنها نزلت في أهل البيت عليهم السلام، وباتفاق أهل العلم أن هذا كذب[3]!

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) جامع البيان، المجلد ١٢، ج٢٢: ٩ ـ ١٣ / ٢١٧٢٧ ـ ٢١٧٣٩.

(٣) قال: إن الله تعالى لم يخبر أنه طهر جميع أهل البيت وأذهب عنهم الرجس. فإن هذا كذب على الله. كيف ونحن نعلم أن في بني هاشم من ليس بمطهر من الذنوب ولا أذهب عنهم الرجس؟ منهاج السنة ٤: ٢٥٩.

وله غير هذا الكثير، ومنه قوله: وأما سورة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ﴾، فمن قال: إنها نزلت فيه وفي فاطمة وابنيهما فهذا كذب؛ لأنها مكيّة والحسن والحسين إنما ولدا في المدينة. وبتقدير صحته فليس فيه أن من أطعم مسكيناً ويتيماً وأسيراً أفضل الصحابة. بل الآية عامة مشتركة فيمن فعل هذا، وتدل على استحقاقه للثواب على هذا العمل مع أن غيره من الأعمال من الإيمان بالله والصلاة في وقتها والجهاد أفضل منه. مجموع الفتاوى ٤: ٤١٩.

وقد نقل ابن الجوزي في زاد المسير ٨: ١٤١ في مكان نزول هذه الآية الكريمة ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها مدنية كلها. قاله الجمهور منهم مجاهد وقتادة.

والثاني: مكية. قاله ابن يسار ومقاتل، وحكي عن ابن عباس.

والثالث: أن فيها مكيّاً ومدنيّاً. ثم في ذلك قولان:

والحال أن هناك عشرات الروايات في أنها فيمن ذكرنا. ثمّ يأتي هذا ويقول: «باتفاق أهل العلم». وهذا الذي نتكلم عنه ليس شخصاً عادياً، إنما هو ابن تيمية الذي يحتل مساحة كبيرة في المجتمع الإسلامي.

ونحن ـ كما قلنا ـ نريد أن نتعرف على مواضع الثغرات في فكرنا، لأن وحدة المسلمين أهم بكثير من قول الشيخ الفلاني أو العالم الفلاني، فالذي يهمنا ألّا يُمزَّق مليار وربع مليار مسلم، بل أن يعيشوا تحت لواء «لا إله إلّا الله». ولا يعنينا أن يأتي من يسكب حقده في تأريخ المسلمين، من أجل هدف ما.

إذن الآية الكريمة تقول للنبي ﷺ: المطلوب منك أن تقف في وجه هؤلاء الكفّار، وتنذرهم بأنهم إن لم يؤمنوا فسوف يتعرّضون لعقاب شديد، وعذاب أليم.

وقد يسأل سائل فيقول: لماذا هذا الإكراه؟ فالعلماني إذا أراد أن يحتفظ بعلمانيته، فما شأن الدين بذلك؟ وهؤلاء قد يتذرّعون بذرائع مختلفة فيقولون مثلاً: إن أصحاب الأديان والعقائد يتناحرون فيما بينهم، فدعنا نبتعد عن عقائدهم لكي

☚ أحدهما: أن المكي منها آية، وهو قوله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾، وباقيها جميعه مدني. قاله الحسن وعكرمة.

والثاني: أن أولها مدني إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾، ومن هذه الآية إلى آخرها مكي، حكاه الماوردي. وكذا نقل الشوكاني في فتح القدير ٥: ٣٤٣.

ويلاحظ أن القائلين بكونها مكية أقل عدداً من القائلين بكونها مدنية. وحتى الذين قالوا: إن فيها مكيّاً ومدنيّاً جعلوا الآيات الأُول منها مدنياً، والقسم الأكبر منها كذلك.

ثم إنه قال بعد أن نقل رواية التطهير موضوع المقام: والجواب أن يقال: إن الفضائل الثابتة في الأحاديث الصحيحة لأبي بكر وعمر أكثر وأعظم من الفضائل الثابتة لعلي.

ثم قال: والصحيح الذي فيها ـ أخبار مدح أمير المؤمنين ﷺ ـ ليس فيه ما يدل على إمامة علي ولا على فضيلته على أبي بكر وعمر، بل وليست من خصائصه بل هي فضائل شاركه فيها غيره بخلاف ما ثبت من فضائل أبي بكر وعمر فإن كثيراً منها خصائص لهما لا سيما فضائل أبي بكر فإن عامتها خصائص لم يشركه فيها غيره. منهاج السنة ٥: ٧ ـ ٥.

نكون بعيدين عن هذا التناحر والعراك.

الجواب: أن هذا التناحر والعراك ـ كما قلنا ـ ليس بسبب العقائد، واختلاف الرأي لا يؤدي إلىٰ العراك أبداً، والرأي العلمي لا يزعج، فلديك دليل ما، ولدى فلان دليل آخر، وهذا الدليل يقارع ذاك الدليل، وليس في ذلك بأس، لكن العراك يأتي من شيء خارج هذا. فليس مبرراً أن نقول: إن أصحاب العقائد يتناحرون، فدعنا نكن بعيدين عن الدين والتناحر.

والذي أُريد هنا قوله: إن الآية الكريمة أرادت شيئاً مهماً وهو أن هذا العلماني، الخالي من الدين، سوف يبقى مادة قابلة لأن تتحول إلىٰ أداة تدمير، بمعنى أنه أشبه شيء بالإناء الخالي، الذي يمكن أن تملأه ماءً فيكون مفيداً، او أن تملأه مخدرات وخمراً وسماً، فيتحول الإناء إلىٰ لعنة. والإنسان هكذا، اذا استطعنا أن نملأه بمفاهيم الخير فسوف نملؤه بالعطاء والأخلاق والإنسانية والتهذيب. وليعلم أنه ليس هناك من يأتي إلىٰ الدنيا وهو شرير، وإنما الحضارة هي التي تصوغ الإنسان، مثلاً: ترى أحداً ولد في جو أخلاقي فنسمعه يقول:

إنـــي غـفرت لظالمي ظلمي	وشكــرت ذاك له عـلى علمِ
ورأيـــته أســدى إليَّ يــداً	لمـــا أبـان بـجهله حـلمي
رجـعت إسـاءته إليـه وإحـ	ـساني فعاد مضاعف الجرمِ
ورجـعت ذا أجـرٍ ومـحمدةٍ	وغدا بكسب الوزر والإثـمِ[1]

فهذا الشاعر يقول: إن هذا الذي ظلمني هو في الحقيقة إنما استثمر طاقات العفو عندي، فقد جعلني أعفو عنه، فشكرته؛ لأنه علمني كيف أكون حليماً، وما قابلت

(١) الأبيات لمحمود الوراق. شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٧٨، وفيه: شكرت لظالمي ظلمي... وغفرت ذاك له.

ظلمه؛ لأنني ارتفعت عن مستوى الحيوان.

فهذا قد نشأ في أجواء أخلاقية مثالية، فتبلور عنده هذا الرأي، وتكوّن عنده هذا الاتجاه، فطفح على لسانه هذا اللون من الكلام.

وترى شخصاً ثانياً ولد في بيئة مخالفة لهذه البيئة، فيقول:

إذا لم تكن ذئباً على الأرض أجردا ... كثير الأذى بالت عليك الثعالبُ

فهذا يختلف عن ذاك، لأنّ كلّاً منهما نشأ في بيئة ربّته تربية مختلفة. انظر إلى الفرد الأوروبي، فهو لا يعلم ماذا يصنع بنفسه، فيوماً يحلق رأسه، ويوماً يصنع له مثل عرف الديك[1]، ويوماً يخرج عرياناً؛ فهو في فراغ ذهني لا يستطيع أن يملأه بشيء من القيم أو الأخلاق أو الموجّهات. وعلى كلّ حال فهو بشر إذا أُتيح له من يربيه، فيمكن أن يستثمره أحسن استثمار.

ولذلك فهنالك مسؤولية كبيرة على حملة العقائد والفكر في التبشير لهذا الدين العظيم الذي يعتبر ثروة ضخمة تربّي الإنسان.

أما إذا أُتيح لهذا الإنسان من يربّيه على الشرّ والعدوان، فسوف يحوله إلى أداة تدمير. وهذا هو السرّ في مكافحة الإسلام لمن لا عقيدة له، فهو خطر على الإنسانية، بل أداة تدمير.

الرأي الثاني: أنه خلّص عقل الكافر من ظلمه له

فهذا الكافر يظلم عقله على حد تعبير القرآن: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2]؛ لأنه عندما يجعل لله شريكاً، أو أنه لا يعترف بالله، فهو يظلم عقله وتفكيره والمقاييس كافّة. فهذا الكافر يرى الدلائل العقليّة أمام عينيه ثم لا يعترف بوجود خالق، إنه يعترف بأن السيارة لم توجد صدفة، وكلّ شيء أمام عينيه لابدّ له من مهندس

---

(١) المعروفة بقصة البانكو. (٢) لقمان: ١٣.

وصانع، وتضافرت جهود كبيرة على صنع هذه المنتجات، ومع ذلك هو يقول: إن الكون وجد صدفة. مع أن هذه المليارات من المجاميع النجميّة التي يكتشفها العلم يومياً، والتي تبعد عنا ملايين بل مليارات السنوات الضوئية.. هذه النجوم بما فيها من إبداع وإتقان صنعة، لا يمكن أن توجد صدفة، فإذا كانت السيارة الصغيرة لا بد لها من صانع فالكون أولىٰ. انظر إلىٰ قاع البحر، انظر إلىٰ الأسماك، تجد في كلّ سمكة خريطة معينة من الألوان الجميلة، قف على حديقة بسيطة، وانظر إلىٰ ألوان الورود الجميلة، واسأل نفسك: هل يمكن أن توجد هذه صدفة؟ لماذا لا يحدث شيء أمام أعيننا صدفة؟ لماذا لا يأتيك رغيف الخبز صدفة؟

فالكافر يظلم نفسه بهذا التفكير، ويظلم عقله، ويضيع أثمن طاقة لديه وهي العقل مع أن الدين يحاسب على تضييع الطاقات، فلو أنني رميت درهماً واحداً في التراب فإن الإسلام يحاسبني ويعتبرني سفيهاً، ويقول لي: هذه طاقة يمكن الاستفادة منها، فيُشبع جائعاً، أو يقضي حاجة، فلماذا رميته في التراب؟

فإذا كنت أُحاسب علىٰ تضييع الدرهم الواحد وينعتني الشارع المقدس بالسفه، فكيف بمن يضيع العقل الذي هو ثمرة وجود الإنسان؟ كيف أُعطل هذه الطاقات التي تدفعني دفعاً للاعتقاد بوجود الله ولا يحاسبني عليها؟ فكل الطاقات العقلية تدفع للاعتقاد بوجود الله، ولذلك نجد أن العباقرة في الدنيا كلهم يعترفون بوجود علة أُولى لهذا الكون، وأنه لم يأت صدفة[1].

إذن معنىٰ ﴿قُمْ فَأَنْذِرِ﴾: قم ولا تضيّع هذه الطاقة الفكرية التي عند الكافر، ولتجعل الناس يستفيدون منها.

---

(١) انظر كتاب الله يتجلى في عصر العلم لنخبة من كبار أساتذة العلوم في الجامعات الأوروبية والأمريكية.

الرأي الثالث: أن طلب الراحة بالإنذار لا بالادثار

فمعنى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ هنا أنك عندما تتدثر فإنك تطلب الراحة بالتدثر، والراحة الحقيقية هي في الإنذار. ونحن نقول في أمثالنا: «اطلب الموت توهَب لك الحياة»[1]، فنحن مثلاً لا يمكن أن نحمي أوطاننا ونبنيها، ونجعلها منتجة، دون تعب وعطاء. وقف أحد ملوك الأندلس يبكي بعد أن أخذوا ملكه واحتلوا بلده، فوقفت له أُمّه قائلة:

ابكِ مثل النساءِ ملكاً مضاعاً ... لم تدافعْ عنه دفـاعَ الرجـالِ

فالحياة لا تستمر لك إلا أن تعطي فيها؛ لأن العطاء هو الذي يولِّد الأخذ. فإذا لم تعط لا تأخذ، وانتظر ضياع طاقاتك وبلدك وكل شيء، ولكن إذا وقفت ودافعت وأعطيت فستأخذ أحسن النتائج. وقد علمتنا الحياة ألّا نأخذ دون أن نعطي، فكل شخص عندما يريد أن يكسب فعليه أن يعطي أولاً ثم يحصل على نتيجة. وهو حينما يعطي من نومه، وراحته، ويتعب جسده، ويتحمل كلمة شديدة نابية، فإنما يتحمل كلّ ذلك من أجل أن يحصل على ما يطعم به نفسه وعائلته، فقد أعطى، ثم أخذ. فالله تعالى يقول للنبي ﷺ: إن الطلب عن طريق الإنذار سوف يوصلك إلى نتائج كريمة وكبيرة.

وهذا حق؛ إذ لولا عطاء النبي ﷺ لما وصلتنا هذه النتائج العظيمة.. هذه النتائج التي لم نكن لنحصل عليها بغير جهاد النبي ﷺ وجهاد صحابته الروّاد الأوائل الذين زرعوا الإسلام في الأرض فترعرع فيها ونما. فهؤلاء سقوا هذه الشجرة

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ٢٧٣، ٧: ٣٠٥، غريب الحديث ٢: ٤٦، وقالت الخنساء:

نهين النفوس وهون النفو ... س يوم الكريهة أوقى لها

ديوان الخنساء: ١٢٠.

المباركة بدمائهم وأتعابهم، فأعطوا ثم أخذوا وأعطوا للأجيال.

المبحث الثالث: في معنى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، وللمفسّرين في هذا المقطع ثلاثة آراء أيضاً:

الرأي الأول: أنه افتتاح الصلاة

يقول المفسرون: إن الصلاة عندما فرضت، سأل الصحابة رسول الله ﷺ: كيف نعرف أنك دخلت في الصلاة؟ وما هو العمل الذي يجعلنا نعرف أننا خرجنا من الصلاة؟ فأجابهم ﷺ بأن الدخول في الصلاة بتكبيرة الإحرام، والخروج منها بالتسليم[1].

ولا أُريد هنا أن أذكر ما ينص عليه بعض المذاهب الإسلامية من كيفية الدخول للصلاة والخروج منها، لأن فيه نوعاً من التهريج والإساءة اللذين أُنزه المنبر عنهما، فأنت عندما تقرأ للغزالي في (المستصفى) حول صلاة أبي حنيفة، وكيفية الدخول بها والخروج منها، وكيفية الصلاة فستستغرب ذلك كثيراً. مع أن هذه المفارقات يذكرونها دون ذكر الدليل. وهذا ـ مع الأسف ـ هو نوع من التراشق بين المذاهب الإسلامية، فيرمي أحدهم الآخر برأي ويحمّله لازم القول، فمثلاً يقول أحدهم: لماذا يجيز الإمام مالك أن يتزوج الرجل ابنته؟ في حين أن دليل مالك هو أن الولد للفراش، فلا يعتبر الولد ولداً لأبيه إلا أن يكون متولداً عن عقد شرعي والفراش هو العقد[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩: ٦٢ ـ ٦٣، الدر المنثور ٦: ٢٨١.

(٢) انظر: المجموع شرح المهذب ١٦: ٢١٩، ٢٢٢، المبسوط (السرخسي) ٤: ٢٠٦، المغني (ابن قدامة) ٧: ٤٨٥، الشرح الكبير (ابن قدامة) ٧: ٤٨٣، مواهب الجليل ٥: ١٠٩.
وقد مرّ مفصلاً في ج ٢ ص٢٢٦ من كتابنا هذا.

نعم هناك خطأ في التطبيق، فمثلاً الإمام أبو حنيفة يقول: إذا غاب الزوج عن زوجته، وأُخبرت زوجته أنه مات، فتزوجت وولدت ثم عاد الزوج الأول فإن هذا الولد هو للزوج الأول، باعتبار أن الفراش ـ وهو العقد الأول ـ لا زال مستمراً ولم ينته[1].

فهذا خطأ في التطبيق. فأنا عندما أذكر الرأي فعلي ألّا أُهرج وأسيء، بل عليّ أن أذكر الدليل، ثم أُبين الأدلة المخالفة، وأستنتج أن هناك خللاً في التطبيق.

فرأي الإمام مالك أن الولد للفراش فقط، أما الولد لغير فراش فهو أجنبي، فإذا اعتدى رجل على امرأة فولدت له بنتاً فهي أجنبية عنه، ويجوز له الزواج بها بهذا اللحاظ؛ فلا حرمة لماء الزنا.

فعلى المتعجب من فتوى الإمام مالك أن يذكر المسألة مع الدليل، أما إنه يهرج ويتعجب من فتواه، ويسيء إليه فهذا شيء مرفوض.

الرأي الثاني: أنه لا كبير إلا الله

فلا تعتبر أحداً كبيراً إلا الله؛ لأن كلّ كبير هو صغير عند الله، وكل من تعتقد أنه عظيم تراه في لحظة من اللحظات يحوّل إلى هباء منثور.

فتأمل هذا الجبار الذي يصعّر خده، تمر عليه لحظة من اللحظات تراه يقلّب كالخرقة البالية، ورحم الله الشريف الرضي حيث يقول:

ومسنّدين على الجُنوب كأنهم ... شِرب تخاذل بالطلا أعضاؤهُ
تحت الصعيد لغير إشفاق إلى ... يوم المعاد يضمّهم أحشاؤهُ

---

(١) انظر المبسوط (السرخسي) ١٧: ١٦١، وله أيضاً كما في المجموع شرح المهذب ١٧: ٤٠٩ أنه إذا تزوج رجلان أُختين فغلطا بهما عند الدخول، فزفت كل واحدة منهما إلى زوج الأُخرى فوطئها وحملت منه فإنه لا يكون الولد للواطئ وإنما يكون للزوج.

أكــلتهمُ الأرضُ التــي ولدتــهُمْ أكلَ الضّروس حلت لـ أكـلاؤهُ[١]

فالنتيجة أن هذا الجسد تناولته الديدان تمزقه، وتعبث به كيف تريد، وهل هذا عظيم؟ يقولون: إن الإسكندر كان يمشي ووراءه جيش جرار، لا تسمع منه إلّا صليل السلاح ووجيب الخيل وصكصكة اللجم، فوجد رجلاً جالساً يصلي في الصحراء دون أن يعبأ بهذه الجلبة فقد كان منغمراً في الدعاء، فأقبل عليه الإسكندر قائلاً: أما راعتك كثرة جنودي؟ قال: لا. فقال الإسكندر: لماذا؟ قال: كنت أُناجي من هو أكثر منك جنوداً[٢].

والدنيا الآن كلّها مستنفرة من أجل فيروس صغير، وفي كلّ يوم يظهر فيروس جديد يتمرد على الدنيا، وهؤلاء قضوا على مرض السل وانتهت عصيّات كوخ بالمضادات الحيوية، ثم استفحلت هذه المكروبات فصارت عندها مناعة ضد المضادات الحيوية. والعلماء الآن في حيرة، وجهد للعثور على مضادات أُخرى. فانظر إلىٰ ميكروب صغير لا يرى إلا بالمجهر يشغل العالم بأسره.

فالآية تقول: كلّ ما عدا ربك فليس بكبير، فكل كبير ينتهي إلىٰ الصغر، تقول الرواية: «عظم الخالق عندك يصغّر المخلوق في عينك»[٣]، فالقوي الكبير هو الذي لا يحتاج ولا يمرض ولا يذل ولا يموت، وهو الله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٤].

الرأي الثالث: اجعل ربك أكبر من حاجات الإنسان

فالحاجات التي يفتقر إليها الإنسان كثيرة، حتى هذا الذي نسميه كبيراً فهو لا

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ١٧٤.

(٢) قريب منه في شرح نهج البلاغة ١١: ١٥٨، تاريخ دمشق ١٧: ٣٥٥.

(٣) خصائص الأيمة: ١٠١. (٤) الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧.

يستغني عن الحاجة، فهو بحاجة إلىٰ الصاحبة والى الولد، أما الله تعالى فليس بحاجة لهما ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً﴾[1].

فالإنسان يحتاج إلىٰ الزوجة لإشباع غريزة وحاجة اجتماعية، ويحتاج للولد؛ لأنه يعتبره الامتداد الطبيعي له، وإذا كبر وأصابه العجز والوهن فإنه يضع يده على كتف ابنه.

ومن المؤكد أن الصاحبة اذا جمعت خصال الصحبة فليس من السهل على الإنسان أن يستغني عنها أبداً، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾[2] يعني أنها جزء لا يتجزأ من النفس والكيان. وليس من شك أن المرأة الصالحة خير من الدنيا وما فيها، تقول الرواية: «ليس للمرأة خطر؛ لا لصالحتهن ولا لطالحتهن»[3].

فالطالحة لا تساوي شيئاً لأنها كلّها أذىً، والصالحة تعدل الدنيا وما فيها، ومن سعادة المرء أن يرزق بالمرأة الصالحة، وهي تأخذ مكانة من نفسه لا تساويها مكانة أُخرى.

ولهذا يقول المؤرخون عن أسماء لما دخل أمير المؤمنين ﷺ في آخر مرة عاد فيها من المسجد: كانت سيدتي فاطمة ﷺ مضطجعة في حجرتها، وفارقت روحها الدنيا، والإمام الحسن والحسين ﷺ جالسان عند رأسها يبكيان، فلما دخل أمير المؤمنين ﷺ اشتدّ الوجد عليه. والذي يدل على هذا أن أبا ذر لما جاء إليه ودخل إلى الدار وأراد أمير المؤمنين ﷺ حمل فاطمة ﷺ، التفت إلىٰ أبي ذر، وقال: «ياعم يا أبا ذر، أعني على حملها»[4].

---

(١) الجن: ٣. (٢) الروم: ٢١.

(٣) تهذيب الأحكام ٧: ٤٠٢ / ١٦٠٤.

(٤) انظر: معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٩٢، بحار

وهذا غريب؛ فعلي بن أبي طالب عليه السلام الذي يحمل باب خيبر ذا الثمانية عشر ذراعاً في عشرة أذرع والسُّمك ستة أشبار[1]، يحمله ويقذفه ولا يحمل الزهراء عليها السلام؟ انظر كيف أخذت المصيبة منه. حمل أبو ذر طرفاً من الفراش وحمل أمير المؤمنين عليه السلام الطرف الآخر واستقبل بها قبر النبي صلى الله عليه وآله وقال: «السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة بجوارك، المختار لها الله سرعة اللحاق بك». إلى أن قال: «واختُلست الزهراء عليها السلام، فما أقبح الخضراء والغبراء»[2] أضجعها وقام بتجهيزها وأخرجها كما أوصته ليلاً عندما نامت العيون وهدأت الأصوات، فأوصلها إلى القبر، ثمّ جلس على شفير القبر:

مالي وقفت على القبور مسلماً	قبر الحبيب فلم يردّ جوابي
أحبيب مالك لم تردّ جوابنا	أنسيت بعدي خلّة الأحباب

* * *

صد وضاكت بعينه الوسيعه	نادى يا رسول الله الوديعه

ردت ليك والمهله سريعة

* * *

أرى علل الدنيا علي كثيرة	وصاحبها حتى الممات عليلُ[3]

---

(١) المسترشد في الإمامة: ٣٢٧. ☚ الأنوار ٤٣: ١٥٩.
(٢) الكافي ١: ٤٥٩ / ٣.
(٣) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٨٧.



﴿٦٤﴾

مسؤوليّة الفقهاء تجاه الأُمّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُو القَادِرُ علىٰ أن يَبْعَثَ عَـليكُم عَذَاباً مِنْ فَوقِكُمْ أَو مِنْ تَحتِ أرجُـلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعضَكُمْ بَأسَ بَـعضٍ أُنـظرْ كَـيْفَ نُـصَرِّفُ الآيَـاتِ لَـعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: حول التقبيح والتحسين

كل مقدور لله عز وجل ليس لازماً عليه أن يفعله. فالأشياء وإن كانت مقدورة له تعالى، لكنه لا يفعلها كلها، فمنها ما لا يفعلها لقبحها مع أنه تعالىٰ قادر عـليها. فهو تعالىٰ قادر علىٰ أن يظلم، لكنه لا يظلم؛ لأن الظلم قبيح، والله منزّه عن القبيح. فهذه الأشياء التي ذكرتها الآية الكريمة كلّها مقدورة لله تعالى، لكنه لا يفعلها؛ لأنها قبيحة لذاتها.

وهذه المسألة تسمىٰ عند المتكلّمين المسلمين بـ«القبح والحُسن الذاتـيين»،

---

(١) الأنعام: ٦٥.

وهي من المسائل التي وقع فيها النزاع بين المذاهب الإسلامية، وملخصها هو: هل إن الأفعال بذاتها توصف بالحسن والقبح، أم أن الحسن والقبح يدخلها من ناحية الدين؟ أو بصورة أُخرىٰ: هل هي قبيحة لذاتها أم أنها أصبحت قبيحة لأن الدين حرّمها؟ فبعض المذاهب يقول: إن القبح والحسن ليسا ذاتيين، فلولا أن الله حرّم الكذب لم يكن به قبح ذاتي، وكذلك في كون الصدق حسناً. فالقبح والحسن في نظرهم شرعيان لا ذاتيان.

وهذا من المغالطات المخالفة للبديهيات التي لا تحتاج إلىٰ المناقشة، وذلك كمثل وجود الشعاع في الشمس، فهو لا يحتاج إلىٰ من يأتي ليبرهن علىٰ وجوده. فالأفعال فيها حسن وقبح ذاتيان.

وأحكام الشرع هي في الغالب إرشادية[1]، فالمشرّع يرشدنا إلىٰ حكم العقل باعتبار أنه سيد العقلاء. فالخيانة والكذب إنما نهانا الشارع عنهما لأنهما قبيحان، والصدق والأمانة إنما حثّ عليهما؛ لأنهما حسنان.

فالأفعال فيها حُسن وقُبح ذاتيان كما ذكرنا، ولو سئل شخص يعيش عيشة بدائية عن رأيه في السرقة لقال: إنها قبيحة، وكذلك قوله في الأفعال الأُخرىٰ. وهذا الرأي مفروغ منه عند الإمامية والمعتزلة، وكذلك عند بعض الفقهاء من المذاهب الأخرىٰ كابن القيم الجوزية[2] وغيره[3]، وحتىٰ عند المفكرين والفلاسفة

---

(١) وهي التي تقع مقابل الأوامر المولوية. (٢) انظر درء التعارض ٨: ٢٢، ١١٠.

(٣) انظر في كل ذلك: الذريعة: ٨٦ - ٩٢، العدة في الأُصول ٢: ٥٦٣، الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: ٨٦، المعتمد ١: ٣٣٥، الإحكام في أُصول الأحكام (الآمدي) ١: ٣٧، أُصول الدين (الجرجاني): ٢٥١، الاعتقاد (البيهقي): ١١٤، ١٢٤، مذاهب الإسلاميين: ٤٤٩، ٥٥٥، ٧٤٣، الإنصاف (الباقلاني): ٦٢.

من غير المسلمين، فالفيلسوف الإنكليزي «سبنسر» يقول: «إن في داخلنا قوة أدبية وفطرة خلقية تخبرنا بمواطن القبح والجمال في الأفعال بغضّ النظر عن أي منفعة أو أي مذهب».

فالآية الكريمة بيّنت أن الله تعالىٰ وإن كان قادراً علىٰ كلّ شيء، لكنه لا يفعل ما يقدر عليه، إلّا إذا اقتضت المصلحة ذلك كالتأديب مثلاً، أو بناء المجتمعات، فإنه تعالىٰ حينئذٍ يسلّط علىٰ بعض عباده النقمة تأديباً.

المبحث الثاني: معنىٰ العذاب في الآية

تقول الآية: ﴿قُلْ هُو القَادِرُ علىٰ أن يَبعَثَ عَليكُم عَذَاباً مِنْ فَوقِكُمْ أو مِنْ تَحتِ أرجُلِكُمْ﴾، وللمفسّرين في معنىٰ هذا العذاب ثلاثة آراء:

الرأي الأوّل: أنه حبس المطر والنبات

فما كان من فوقنا فهو حبس المطر، وما كان من تحت أرجلنا فهو حبس النبات. فنحن نشرب الماء من الينابيع أو من الأنهار، والمدد الذي يمدها هو المطر، فإذا انحبس المطر انحبس أصل الحياة؛ لأن الماء هو أصل الحياة[1]. وقد سأل رجل الإمام الصادقعليه السلام فقال: إن لكل واحد من السوائل طعماً، فما طعم الماء؟ قالعليه السلام: «طعمه طعم الحياة»[2].

والمطر من الأمور التي يكون فيها تخطيط وتسخير، لا كما يقول البعض من أنه مجرّد عوامل طبيعية تحدث فتسبّبه. فلو كان مجرّد العامل الطبيعي هو الفاعل فيها لما حدثت في مكان دون آخر، ولا في زمان دون زمان. فلا بد من يد مهندس من

---

(١) قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنبياء: ٣٠.
(٢) الكافي ٦: ٣٨١/ ٧.

وراء ذلك التخطيط والتنسيق.

الرأي الثاني: أنه الصواعق والخسف والزلازل

فالعذاب الذي يكون من فوق الرؤوس هو من قبيل رمي الحجارة التي رُمي بها أصحاب الفيل، أو من قبيل الصواعق التي يصاب بها بعض الناس. أما العذاب الذي يكون من تحت الأرجل فمن قبيل الخسف والزلازل التي تبتلع مدناً بكاملها. وكل التعليلات العلمية التي تُقال عن حدوث الزلازل تنخرم في مناطق وتصدق في مناطق أُخرىٰ، فيبقىٰ أن فوق كلّ هذه التعليلات يداً خفية هي التي تخطّط وتريد.

الرأي الثالث: أنه جور الأمراء والغوغاء

فهذا الرأي معنوي في العذاب، وهو مروي عن ابن عباس، ويقول فيه: العذاب الذي من فوقنا هو جور الأمراء، والذي من تحت أرجلنا هو جور الطبقات التي تكون تحت أيدينا من الغوغاء والخدم[1].

وهذه نظرية هامّة؛ فلا تظن أن الله يعذب أُمة أكثر من أن يرميها بأمير جائر ظالم؛ فكلّ أقسام العذاب يمكن تفاديها، لكن هذا اللون من العذاب يصعب تفاديه. ولو رجعت إلىٰ تأريخ الأمم لوجدت أنها ابتُليت بظَلَمة وجائرين كانوا من ألعن سياط العذاب.

فالحاكم الجائر يفتك بالدماء والأعراض والكرامات. وعلىٰ سبيل المثال نذكر أنّ أحدهم قام للحجاج وهو يخطب حتىٰ غابت الشمس، فقال له: أصلحك الله، الوقت لا ينتظرك، والرب لا يعذرك. فقال له الحجاج: ما تقوله صحيح، لكن مثلك

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧: ٩.

لا يأمر مثلي. ثم أمر به فسجن[١].

انظر إلىٰ هذا الجبروت وهذه العجرفة والتفاهة، وانظر بالعكس إلىٰ عظماء الناس كيف كانوا رحمة للناس، فالأنبياء أكرم الخلق علىٰ الله يقوم لهم سوقة الناس يكلّمونهم بالكلام الغليظ، فيستقبلونهم برحابة صدر. سأل النبي محمدﷺ أحد الأعراب أثناء توزيع الغنائم: «هل تراني عدلت». فقال: لا والله ما عدلت ولا قسطت. فتألّم الصحابة من هذا الرد، لكن النبيﷺ دخل إلىٰ الدار فأخرج حصّته الخاصّة له من الغنائم فأعطاها للأعرابي، ثم سأله: «هل عدلت الآن؟». قال: أما الآن فنعم[٢].

أما العذاب من تحت الأرجل علىٰ هذا الرأي فهو من الغوغاء والخدم، وأنا في الواقع أقرأ الكثير من الصحف، وأستمع إلىٰ الكثير من وسائل الإعلام عن المآسي والمتاعب التي تسبّبها هذه الطبقة التي يسميها ابن عباس الغوغاء والخدم. وأنا آسَف شديد الأسف علىٰ ما أراه من أن البعض يأتي بالخدم من الشباب إلىٰ بيته، وليس في بيته سوىٰ زوجته وبنته مثلاً.

وأنا أستغرب من أمثال هؤلاء أن يسمي نفسه مسلماً وهو يُيسّر لأُسرته أن تنحدر إلىٰ مستوىٰ الرذيلة. وليس هناك من مبرر سوىٰ أنه يمتلك بعض الدراهم التي تمكّنه من تدمير قِيَمِه ودينه وأخلاقه. فما المانع من استخدام امرأة واحدة في البيت فتكون إلىٰ جانب زوجته؟ علىٰ أن المرأة المستخدمة لا بد أن يعاملها علىٰ أنها أجنبية، لها زوج أجنبي، وأن يحذر أن ينتهي به الأمر يوماً إلىٰ الرذيلة

---

(١) البيان والتبيين ١: ٣٦٠، المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ١٦، محاضرات الأُدباء ١: ٢٣٩.

(٢) لم نعثر عليه بنصه، وقريب منه ما في مسند أحمد ٢: ٢١٩.

والانحدار؛ فذلك مما يغضب الله ويسخطه.

وهذا اللون من العذاب الذي يسبّبه هؤلاء نسمع به كلّ يوم؛ فهذا البيت قتلوا فيه أطفالاً[1]، وهذا البيت اعتدوا به على بناته، وهذا البيت سرقوا منه أمواله، وذاك البيت أفسدوا أخلاق أهله، وهكذا. فهل تتصوّر عذاباً أكبر من هذا العذاب؟ إنه عذاب معنوي نشتريه بأموالنا. فالمربّي الذي نأتي به إلى البيت مسؤول عن العقول. فإن انحرف العقل فمن يملك القدرة على إرجاعه إلى الصواب؟

المبحث الثالث: دور الاستعمار في خلق الشّيَع

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعضَكُمْ بَأْسَ بَعضٍ﴾، أي يجعلكم طوائف ممزّقة يعتدي بعضها على بعض. وهذا قسم من أقسام العذاب لا يقل عن القسم الأول، وهو التناحر بدوافع الشّيَع والطوائف. وهذه الظاهرة يستغلّها الاستعمار دائماً، ويخلق بها ألف مشكلة ومشكلة وألف ذريعة للتدخل في شؤوننا. وهذا هو البلاء الذي تراه الآن أينما ذهبت.

وتعال إلى المذاهب الإسلامية وستجد من وراء الستار يداً خبيثة منكرة تحرّك جماعة إما أن يكونوا بُلهاء فتستغل بلاهتهم، أو أصحاب مصالح، يردّدون كلّ يوم ما عفا عليه الزمن وانتهى. والمفروض أن الله تعالى جاء بالدين الإسلامي ليوحّد المسلمين لا ليتمزّقوا فيذيق بعضهم بأس بعض، ويكون ذلك عن طريق القلم المسموم أو السلاح.

والفكرة تلعب دوراً مهماً في تحريك الإنسان، فالقلم يمكن أن يجعل من الأرض نعيماً ويمكن أن يجعل منها جحيماً. لذا فإن على القلم واللسان مسؤولية

---

(١) وقد نشر مؤخراً خبر قتل إحدى الخادمات طفلة مخدومها الكويتي بعد أن أذاقتها شتى صنوف التعذيب.

كبيرة أمام الله، فمن يوضع تحت تصرفه وسيلة إعلام خطرة كالتلفاز والإذاعة والصحيفة وغيرها يكن مسؤولاً مسؤولية كبيرة تجاه الله والأُمة كلها خصوصاً عندما يتكلم في العقائد، فإنه إذا أراد أن ينقل عقيدة مذهب من المذاهب فعليه أن يرجع إلىٰ كتبه المعتبرة.

فعلىٰ العبارة المنقولة مسؤولية أمام الله والضمير والأجيال، فنحن نقدم الزاد للمسلمين، ويجب أن نقدم الزاد المغذي النافع لا الزاد السامّ.

وقفة مع محمد فريد وجدي

وحينما تفتح كتاب (دائرة معارف القرن العشرين) للمؤلف المصري محمد فريد وجدي ـ وهو اسم لامع عاش في بلد حضاري هو مصر ـ فستقرأ في باب الشين عن الشيعة أنهم خمس فرق: الزيدية والإمامية والكيسانية والإسماعيلية والغلاة. وعندما نرجع إلىٰ كتب التراجم نجد أن الكيسانية فرقة صغيرة كانت في أيام محمد بن الحنفية، ويعدّون منهم خمسة: السيد الحميري، وكثير عزة، وأبو عبد الله الجدلي واثنين آخرين، والآن لو دُرت في أصقاع الدنيا كلها لما وجدت أثراً لكيساني.

ثم يأتي إلىٰ الغلاة فيعدّهم من فرق الشيعة، في حين أن كتب الشيعة الإمامية كلّها تقول: لو أن واحداً نسب أحد الأيمة نسبة غير صحيحة، فأعطاه منزلة فوق منزلته، أو ادّعىٰ له النبوّة، أو ادّعىٰ أنه شريك في النبوّة، فهو كافر لا نرثه ولا يرثنا، ولا يجوز لنا تغسيله أو تكفينه إن مات. فهل هذه الفرقة من فرق الشيعة؟ وأين هي الأمانة العلميّة التي يفترض أن تكون في مثل هذا الكتاب؟

إن هذه الكتب ما هي إلّا قاذورات يجب أن تدفن أو تحرق، فالكتاب الذي يمزّق وحدة المسلمين بأشياء مختلقة تافهة يجب أن يرمىٰ مع صاحبه في مزبلة

التاريخ. فهذه الكتب إن بقيت بقي معها التناحر والفرقة. يقول الشاعر:

وما من كاتبٍ إلا ستبقىٰ ... كتابتُه وإن فَنيت يَداهُ

فلا تكتبْ بكفّك غيرَ شيء ... يَسُرُّك في القيامة أن تَراهُ

ثم يعدُّ صاحب (دائرة المعارف) المشبهة من فرق الشيعة، وهذه كتبنا بأجمعها بعيدة كلّ البعد عن التشبيه، وليس المشبّه إلّا غيرنا من الفرق الإسلامية، وروايات الشيعة تقول: «من شبّه الله بخلقه فهو مشرك»[1]. وليس عندنا من يقول: إنه يجلس فيئطّ العرش من تحته[2]، أو من يقول: إن عرضه ثمانية أشبار، أو من يقول: إن طوله ستون ذراعاً[3].

إن هذه الأُمّة الكبيرة فيها من هو مخطئ أو مخرّف أو من عرضت له شبهة أو من هو مدسوس، فلا يصحّ أن ننسب أي رأي نجده إلىٰ الفئة التي ينتمي إليها صاحب الرأي فنحملها تبعة رأيه هذا أو أي رأي منسوب إليها وليس هو لها. وسوف يسألنا الله تعالىٰ عن ضريبة الفكر، وهي التثبّت والتأكّد: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[4]. فهل من المعقول أن يسألنا الله تعالىٰ يوم القيامة عن درهم واحد يضيع ولا يسألنا عن أُمّة بكاملها تضيع وتلوّث عقليّتها؟

كان محمود بن سبكتكين حاكماً علىٰ المشرق، وكان علىٰ المذهب الحنفي ثم انتقل إلىٰ المذهب الشافعي علىٰ أساس مناظرة بين الصلاتين في المذهبين، وهذه

(١) التوحيد: ٦٩ / ٢٥.
(٢) سنن الدارمي ٢: ٣٢٥، الدعاء (الطبراني): ٥٩٧، وغيرهما كثير.
(٣) صحيح البخاري ٧: ٢٢٥، صحيح مسلم ٨: ١٤٩.
(٤) الإسراء: ٣٦.

المناظرة يذكرها محمد فريد وجدي نفسه في دائرة معارفه التي ذكرناها في مادة «سبك».

وعندما تقرأ المناظرة لا تحس أن هذين مذهبين يتناظران، إنما تقرأ عن فئتين تتناحران، وهذا ليس له موجب أبداً، وليست هذه روح الإسلام، فلو فرضنا أن الفقيه أخطأ في بعض التطبيقات فلا يصح أن نهرّج عليه، إنما يجب أن نقيّمه تقييماً علميّاً بالأُسلوب الإسلامي المؤدّب. وقد كان أئمّة المسلمين يحملون هذا اللون من الخلق في مقابلة الإساءة بالصفح أو بمثلها في أسوأ الأحوال.

كان عمر بن عبد العزيز يوماً يجلس إلىٰ جانب سليمان بن عبد الملك أيام خلافة سليمان، فجيء بأحد الخوارج ـ وهم معروفون بالصلابة ـ وأُدخل علىٰ سليمان، فأراد سليمان أن يهيجه، فقال له: ما تقول في الحجاج؟ قال: يأتي يوم القيامة عن يمين أبيك، وعن شمال عمك. فأطرق سليمان، ثم قال للخارجي: أنا أُكلّمك، فلمَ لا ترفع رأسك إليّ؟ قال له الخارجي: إني أكره النظر إلىٰ وجه يكره الله النظر إليه.

فغضب سليمان، ثم التفت إلىٰ عمر بن عبد العزيز قائلاً: ما تقول؟ قال: اشتمه كما شتمك، وإلّا فاصفح عنه.

هذا هو الخلق الإسلامي الذي يقول: ﴿وَلا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، أما التهريج فليس من الإسلام في شيء، حتىٰ لو كان الدافع هو الغيرة علىٰ الإسلام، فهذا يقتضي نقد الرأي العلمي في حدود الآداب، لا بالتهريج. واعلم أن كلّ من تجده يهرّج فهو إنسان فارغ لا يملك إلّا بضع كلمات من العلم، بل هو لا يملك من العلم شيئاً، وإلّا فإن من يحمل العلم الصحيح لا يهرّج

---

(١) فصلت: ٣٤.

أبداً. فكلّما ازداد الإنسان علماً ازداد خلقاً وتواضعاً.

المبحث الرابع: معنى قوله تعالى: ﴿نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿**أُنظرْ كيفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**﴾، وتصريف الآيات هو ضرب الأمثلة من المعنويات أو الحسيات، لأجل التربية والتوجيه. فالقرآن يريد أن يبيّن لهم الأمثلة والشواهد، وينقل لهم القصص، ويضع أيديهم على الواقع كي يتأدّبوا بآدابه.

لكن الحشوية يقولون في هذه الآية: إنها أوجبت علينا أن نمتنع عن النظر والاستدلال، بمعنى أننا لا نشغل عقولنا وأفكارنا في تحليل الآيات، وعلينا أن نقنع بالظواهر فقط. والسبب هو أن تحليل الآيات وتشغيل العقل في ذلك يؤدي إلى الاختلاف، فعلينا أن نسد هذا الباب منعاً للاختلاف.

وهذا رأي أعوج واضح البطلان، وهو أشبه برأي بعض المذاهب الاجتماعية المعاصرة التي تقول لأتباعها: إياكم أن تقتربوا من الكتب الصفراء، فهي تسمم عقولكم. ويعنون بـ(الكتب الصفراء) الكتب الدينية. في حين أن الكتاب مهما كان فإنه لا يخلو من فائدة، وكلّما قرأ الإنسان أكثر انتفع أكثر، بشرط أن تكون عنده القابلية على هضم معلومات الكتاب الذي يقرؤه.

كنت يوماً في جلسة قبل الغروب في مصر الجديدة مع المحقق المعروف الأُستاذ محمد شاكر، بحضور الأديب يحيى حقّي، ومندوب صحيفة الجمهورية الذي كنا ضيوفاً عنده، فسألني المندوب قائلاً: ما هذه النظرية التي نسمعها عندكم وهي الخمس؟ قلت: إنها نظرية أوجبها علينا القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا**

أنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾[١].

قال: هذه في غنيمة الحرب. قلت: إنَّ صرف معنىٰ الآية إلىٰ غنيمة الحرب هو من باب تطبيق الكلّي علىٰ أحد مصاديقه، وذلك مثل لفظة الماء الذي يصدق علىٰ ماء البحر والنهر والماء في الإناء وغيره. فالغنيمة من مصاديقها ما يغنمه الإنسان في الحرب، ومن مصاديقها ما يحصل عليه الإنسان من أرباحه في التجارة وغيرها. وكل ربح هو غنيمة[٢]. هذا من جانب، ثم لماذا تأخذون برواية عن مروان، ولا تسمحون لنا بأخذ رواية عن الإمام الحسن أو الإمام الحسين عليهما السلام أو عمار بن ياسر أو جابر الجعفي أو غيرهم؟

ثم سألته: كم عندك في مكتبتك من كتب الشيعة؟ قال: فيها بعض الكتب. قلت: تعال إلىٰ مكتبتي، فستجد أن ٩٩٪ من كتبها من كتب السنة، فلماذا لا تكلفون أنفسكم وتقرؤون كتبنا، وهي ليست بعيدة عنكم؟

إن الاختلاف العلمي لا يخلق مشكلة، خذ مثلاً تحديد معنىٰ السكران الذي يقام عليه الحد عند المذاهب الإسلامية؛ فعند أبي حنيفة أنه الذي لا يميّز الأرض من السماء، ولا الرجل من المرأة[٣]، وعند مالك أن السكران هو الذي لا يعقل ما يقول وما يفعل، وعند الشافعي أنه الذي يتكلّم ويخبط علىٰ غير العادة[٤]، فهل في هذا الاختلاف ضير؟

خذ مثلاً آخر، فلو أن أحداً يُشمُّ من فمه رائحة الخمر، ولم يعترف بشربها، هل يقام عليه الحد أو لا؟ اختلف الفقهاء هنا: فأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل يقولون:

---

(١) الأنفال: ٤٠.
(٢) غريب الحديث ١: ٤٦ ـ الغنيمة.
(٣) انظر: البحر الرائق ٣: ٤٣١، ٥: ٤٦، ونسبه في الأخير إلى المذهب، حاشية رد المحتار ٢: ٣٢٢.
(٤) انظر جواهر العقود ٢: ١٠٢.

لا يقام عليه الحد[١]، في حين أن رأي مالك أنه يقام عليه الحد[٢]. فهل ترىٰ في مثل هذا الاختلاف بين هؤلاء الفقهاء موجباً للنزاع وتهريج بعضهم على بعض؟

إن الاختلاف لا يمكن منعه حتىٰ في المذهب الواحد، فقد يختلف فقهاء المذهب الواحد في المسألة المعينة، وليس في ذلك من بأس. فلو أنك سافرت مثلاً وقت الأذان ولم تصلِّ، ثم أدركك الوقت في الطريق وخفت أن يفوتك وأردت الصلاة، فهل تصلّي قصراً أو تماماً؟ يقول بعض فقهائنا: إنه خوطب بالصلاة في أوّل وقتها، فيجب عليه أن يصلي تماماً. وقال بعضهم: إن وقت الخطاب هو الوقت الذي يريد به إقامة الصلاة، وعلىٰ ذلك فيجب عليه القصر لا التمام.

وكذلك في مسألة شروط الإمام، فعند المذاهب الإسلامية أنه يشترط في الإمام العدالة، وعند الإمامية أنه يشترط فيه العصمة[٣]. والنتيجة واحدة وهي أنه لا يرتكب الخطأ.

وهذا الخطأ لا يوجب النزاع كما ترىٰ، بل النزاع يأتي من الغلّ والحسد والحقد والمصالح والنفوس اللئيمة، وخبث العقيدة. أما النظرية العلمية فلا تسبب ذلك[٤]؛ ولهذا يقول القرآن: ﴿أنظرْ كيفَ نُصَرِّفُ الآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، أي عليهم أن يفهموا المسائل العلمية بروح العلم والفقه، فالعلم لا يؤدّي إلىٰ النزاع.

وقد أمرنا الله تعالىٰ أن نعتصم من هذه الأسباب التي تسبب لنا العذاب بحبل

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١١: ٢٠١.

(٢) انظر: المغني ١٠: ٣٣٢، الشرح الكبير ١٠: ٣٣٥.

(٣) شرح أصول الكافي (المازندراني) ٥: ٢١٢.

(٤) قال الشاعر:

واختلاف الرأي لا يفـ ... ـسد في الودّ قضية

الله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾[1]، وحبل الله هو الذي يشير إليه الشافعي بقوله:

ولما رأيتُ الناسَ قد ذهبت بهم	مذاهبُهم في أبحُرِ الغَيّ والجهلِ
ركبتُ على اسمِ اللهِ في سُفُنِ النَّجا	وهم آلُ بيتِ المُصطفى سيدِ الرسلِ
وأمسكتُ حبلَ الله وهو ولاؤهم	كما قد أُمرنا بالتَّمسُّكِ بالحبلِ[2]

هذا الحبل الذي أوصىٰ به النبي ﷺ في حديث الثقلين بقوله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض»[3].

ولكن انظر إلىٰ الثقلين: فالكتاب نبذته أُمية ومزّقته[4]، وأما العترة عليهم السلام فأضحوا ضحايا علىٰ وجه الثرىٰ، يقول الشريف الرضي رحمه الله:

يا رسول اللهِ لو عاينتهم	وهُمُ ما بين قتلٍ وسبا
من رميضٍ يُمنعُ الظلَّ ومن	عاطشٍ يُسقى أنابيبَ القنا

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ٧٧، رشفة الصادي: ٢٥.

(٣) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدرامي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير.

(٤) كما فعل الوليد بن يزيد بن عبد الملك، قال القرطبي: وحكى الماوردي في كتاب (أدب الدنيا والدين) أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوماً في المصحف فخرج له قوله عز وجل: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ إبراهيم: ١٥. فمزّق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد	فها أنا ذاك جبار عنيدُ
إذا ما جئت ربك يوم حشر	فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث إلا أياماً حتى قتل شرّ قتلة، وصلب رأسه على قصره، ثم على سور بلده. الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٥٠.

ومسـسـوقٍ عـــاثرٍ يُسـعىٰ بـه إثـرَ مـحمولٍ علىٰ غيرِ وِطَا[1]

هذا المسوق العاثر استخلصه الشريف الرضي﵀ ممّا حدث في كربلاء، يوم جيء بالنياق الهُزّل، ونودي: هَلمُمن يا بنات عبد المطلب. فخرجت أُخت الإمام الحسين﵇ ونظرت إلىٰ النياق فرأتها قليلة لا تكفي للعائلة ومن معها من نساء بكر ابن وائل، ونساء بني حنظلة وبني أسد وغيرهن، فراحت تُركب النساء الأجنبيات حتىٰ إذا انتهت وقع المشي عليها وعلىٰ أخواتها، فمشت حتىٰ قاربت جسم الإمام الحسين﵇ فصاحت: «أودعتك الله السميع العليم، والله لو خيروني بين المقام عندك أو الرحيل عنك لاخترت المقام عندك ولو أن السباع تأكل من لحمي»[2].

أُخـــي مـــا عــودتني مــنك الجــفا فــعلامَ تــجفوني وتــجفو مــن مــعي

أنــعِم جــواباً يــا حسـينُ أمَا تـرىٰ شـمرَ الخَـنا بـالسَّوط ألهبَ أضـلُعي

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦٧. (٢) شجرة طوبى ٢: ٤٣٣.

﴿٦٥﴾

مصادر العظة والعبرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنها لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: طبيعة العبرة

جاءت هذه الآية الكريمة بعد قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾(٢)، فبعد أن ذكرت هذه الآية أن الله تعالى أهلك بعض المناطق بأهلها، وترك آثارهم على الأرض، أمرتنا الآية الثانية ـ آية المقام ـ أن نتجول في الأرض لأخذ العظة والعبرة. ومصادر العظة والعبرة والثروة العقلية إما أن يأخذها الإنسان عن طريق المطالعة والقراءة، أو عن طريق البصر وسائر الحواس التي تعتبر سبلاً للمعرفة.

والتجوّل في الدنيا يعتبر قراءة لكتاب الله التكويني؛ فنحن لدينا كتاب تدويني

---

(١) الحج: ٤٦. (٢) الحج: ٤٥.

وهو الكتاب المكتوب، وكتاب آخر تكويني، وهو الدنيا بما فيها من آثار وبشر وعادات ومعارف وأخلاق. وقراءة الإنسان لهذا الكتاب تزيده اطلاعاً ومعرفة وثروة عقلية.

المبحث الثاني: حجّية ظواهر القرآن

فهذه الآية حثّت على السفر، لكن المقطع الأخير فيها ـ كما عن ابن عباس ومقاتل ـ يروى أنه نزل في ابن أُمّ مكتوم الأعمى، وملخّص قصته أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1]، جاء إلى النبي ﷺ فقال له: روحي فداك، أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت الآية تبيّن أن العمى في الآية ليس عمى البصر إنما هو عمى القلب[2].

ومعنى هذا أن في القرآن الكريم آيات لا يمكن حملها على ظاهرها، بل لا بدّ من تأويلها، فظاهر القرآن حجّة عند جميع المسلمين بلا شكّ، ولكن الظاهر لا يمكن أحياناً حمله على ظاهره المحض، وذلك مثل لفظة أعمى، فإن ظاهرها العمى البصري، ولكن هل يمكن حمل ذلك على الظاهر؟ لأن المبتلى بالعمى في الدنيا هل يعقل أن يأتي يوم القيامة كذلك؟ وهل ارتكب ذنباً لأنه أعمى؟ فلا يمكن في مثل هذه الآية الحمل على الظاهر.

هذه ناحية، ومن ناحية أُخرى فإن هناك موارد تضطرّنا إلى الانتقال من الظاهر إلى تفسير آخر، فمثلاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[3]. فظاهر لفظ الكوثر هو عين الماء، ولكن سبب نزولها هو أن

---

(١) الإسراء: ٧٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢: ٧٧.
(٣) الكوثر: ١ ـ ٣.

العاص بن وائل وجماعة قالوا: إن محمداً أبتر لا نسب له، فنزلت الآيات[١]. فالمقصود بالكوثر هنا فاطمة عليها السلام[٢].

فنحن لا ننصرف عن ظاهر الآية اعتباطاً، وإنما نعتمد علىٰ روايات كثيرة معتبرة، خصوصاً إذا جاءت هذه الروايات عن أهل بيت العصمة عليهم السلام.

وقد سمعت أحد الوعّاظ ينتقد القول الذي يذهب إلىٰ تفسير اللؤلؤ والمرجان في قوله تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[٣] بالحسن والحسين عليهما السلام. ولكننا لا نأتي بكلام من عنديّاتنا، إنما ورد هذا التفسير في رواية[٤]. ثم إن هذه مجرد رواية غير قطعية عندنا، وليس فيها حكم شرعي، إنما يأتي اعتبار هذه الرواية من باب ما يسمىٰ عند علماء الأصول بـ«التسامح في أدلة السنن»[٥].

وكمثال على ما نقول انظر مثلاً إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[٦]، فهناك من العلماء من يفسره على أن من هؤلاء الثمانية أبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل ومالك، فهل نأتي نحن بالمقابل ونصف تفاسير المسلمين بأوصاف لا تليق بها اعتماداً علىٰ هذه الرواية؟ فاللائق بالعلماء أنهم عندما يجدون عند غيرهم رواية شاذة غير معتدّ بها، ألّا يتشبّثوا بها ويهرّجوا على

---

(١) مجمع البيان ١٠: ٤٥٩، أسباب نزول الآيات: ٣٠٧.

(٢) بحار الأنوار ٨٧: ٣٤٩، تفسير غريب القرآن: ٢٧٥.

(٣) الرحمن: ٢٢.

(٤) تفسير القمّي ٢: ٣٤٥.

(٥) إن قاعدة التسامح في أدلة السنن تعني إعمال المسامحة والمساهلة بالنسبة إلى سند الروايات الدالة على الحكم الاستحبابي، فكل رواية أفادت حكماً مستحباً إذا كان في سندها ضعف فإنها لا تترك ولا تسقط عن الاعتبار؛ وذلك لا لأجل كونها حجّة معتبرة، بل على أساس التسامح في أدلة السنن الثابت بالدليل الخاصّ.

(٦) الحاقة: ١٧.

أصحابها. فالمسلمون كلهم عندهم العشرات من أمثال هذه الروايات، لكن لا يمكن أن يؤاخذ مذهب ما بروايات ضعيفة جاءت عند بعض أفراده، فليس هذا هو الأُسلوب العلمي.

ضرورة التأريخ للألفاظ قبل التعامل معها

ويقول الكثير من المفسّرين من غير الإماميّة: إن الله تعالىٰ عاتب النبي صلى الله عليه وآله من أجل ابن أُم مكتوم، وذلك في سورة ﴿عَبَسَ﴾، بقوله تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾[1] فقد روت هذه التفاسير أن النبي صلى الله عليه وآله كان جالساً وإلىٰ جانبه كبار شخصيات قريش، فجاء ابن أُم مكتوم وأراد أن يسأل النبي صلى الله عليه وآله، فأدار النبي صلى الله عليه وآله وجهه عنه، ولم يكن ذلك تكبّراً من النبي صلى الله عليه وآله وإنما تزاحم عنده صلى الله عليه وآله المهم والأهم، فقدّم الأهم. وهذه الرواية وإن لم تكن مروية عندنا، لكني لا أرىٰ بها بأساً، فليس فيها قدح بذات النبي صلى الله عليه وآله أبداً.

وأُلفت النظر هنا إلىٰ شيء مهم ألا وهو أن بعض الألفاظ التي نقرؤها اليوم في القرآن لو أردنا أن نؤرخ لها فإنها لا تُعطي المعنىٰ نفسه الذي كانت تعطيه أيام النبي صلى الله عليه وآله، فنحن قد نفهم اليوم من لفظ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ معنىٰ غير المعنىٰ الذي كان علىٰ أيام النبي صلى الله عليه وآله؛ إذ نحن نفهم منهما أن فيهما شيئاً من الشدّة وعدم الخلق. فعندما نريد أن نناقش نصّاً أو رواية فلابدّ من أن نفهم أولاً ما المعنىٰ الذي كانت تفيده هذه الكلمة أيام صدورها، فنرجع إليه.

وكمثال على هذا فإن هناك جماعة ينتقدون (نهج البلاغة) مدّعين أن فيه ألفاظاً لم تكن معروفة في زمن علي عليه السلام وإنما عُرفت في زمن ترجمة الكتب الفلسفية

---

(١) عبس: ١ ـ ٢.

أوائل العصر العباسي، وذلك مثل لفظة «الحَدّ» أي الحد المنطقي وهو التعريف، أو «الأزل» أي قِدَم الزمان. وهذا الادعاء بمعناه الفلسفي صحيح، لكن هذا لا يعني أن هذه الألفاظ لم تكن موجودة في أيام النبي ﷺ أو أمير المؤمنين ؏، فهي كانت موجودة لكنها تستخدم بمعناها اللغوي لا الفلسفي. فالحد يستخدم في الفاصل بين الشيئين، قال تعالىٰ ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾[1]، فاستخدمها الإمام علي ؏ بمعناها اللغوي. فعليه يجب أن نعطي للكلمة معناها الذي كانت عليه أيام صدورها.

ومثل ذلك فإن لفظتي ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ لا تعطيان في زمن النبي ﷺ المعنىٰ المكروه الذي نعرفه نحن اليوم ويتبادر إلىٰ أذهاننا منهما.

ومثل ذلك أيضاً كلمة «صدقة» التي نفهم منها اليوم ما يخرج من المال ليعطىٰ إلىٰ الفقير، ولم يكن هذا هو معناها في القرآن الكريم أيام النبي ﷺ إنما كان معناها «الضريبة»؛ ولذلك لو منع الإنسان منها فلساً فإنه يقاتل عليها، فهل يقاتل علىٰ مستحب؟ فما يرىٰ إذن من كون هذا المعنىٰ نزل في النبي ﷺ أو لم ينزل ليس فيه الكثير من الحساسية.

المبحث الثالث: السفر قراءة لكتاب الله المفتوح

قال تعالىٰ في صدر الآية: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾، فهذه الآية تحثّ علىٰ السفر؛ لأن فيه قراءة لكتاب الله المفتوح. ولذا يقول النبي ﷺ: «لو يعلم الناس رحمة الله بالمسافر لكانوا علىٰ ظهر سفر، إن الله بالمسافر رحيم»[2].

---

(١) البقرة: ١٨٧.

(٢) كشف الخفاء ١: ٢٥٤ / ٧٨١، ٢: ١٥٨ / ٢١٠٤.

والسفر نوعان: سفر معصية وسفر طاعة. فسفر المعصية لا يعنينا أمره هنا، وهو ليس من مواضع الرحمة؛ ولذلك شرع للمسافر في مثل هذا السفر إتمام الصلاة إن كان يصلي[1]. أما سفر الطاعة فيرحم الله فيه المسافر حتىٰ في قصر الصلاة. وهذا علىٰ رأي الإمامية في كون القصر في السفر عزيمة[2] وليس رخصة[3] كما هو عند المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ.

أقسام سفر الطاعة

وسفر الطاعة تعتريه أربعة من الأحكام الإسلامية: الوجوب والاستحباب والإباحة والكراهة، أما الحرمة فتعتري سفر المعصية كما هو واضح.

١ ـ السفر الواجب

فالسفر يكون واجباً فيما إذا كان فراراً بالدين مثلاً، فإذا كان المسلم في مكان لا يستطيع أن يمارس طقوسه الدينية فيه بشكل طبيعي فإنه يجب عليه أن يسافر فراراً بدينه؛ لأن حفظ الدين واجب، ومقدمة الواجب واجبة[4]. قال الرسول الأكرم ﷺ: **«من فر بدينه من أرض إلىٰ أرض ولو كان شبراً وجبت له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد ﷺ»**[5].

وقد هاجر المسلمون الأوائل إلىٰ الحبشة فراراً بدينهم من قريش، ثم كانت الهجرة الثانية إلىٰ المدينة المنوّرة. وكانوا يتحمّلون أشدّ الظروف وأقساها؛ من وعثاء السفر، وبُعد المسافة وغير ذلك.

---

(١) الخلاف (الطوسي): ١: ٥٦٧ / المسألة: ٣١٩.

(٢) شرائع الإسلام ١: ١٠٢. (٣) تحفة الفقهاء ١: ١٤٩.

(٤) انظر الوافية: ٢١٩ ـ ٢٢٢.

(٥) مجمع البيان ٣: ١٧٢، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٣٤٧.

ومن السفر الواجب السفر لحفظ النفس، كأن يطلبه ظالم ليقتله، ذلك أن حفظ النفس واجب، ومقدمة الواجب واجبة كما مرّ. ومنه أيضاً ما إذا كان الإنسان مضطرّاً لإعالة أهله، ولا يستطيع أن يوفّر لهم لقمة العيش أبداً إلّا عن الطريق السفر، فإنه يجب عليه حينئذٍ.

٢ ـ السفر المستحب

أما موارد السفر المستحب فمنها خروج الإنسان في طلب المعيشة والرزق. وقد يكون هذا القسم من السفر واجباً كما مرّ، أما إذا لم يكن مضطراً ولكن كانت هناك شدّة وضيق فيكون السفر هنا مستحباً. فليس للمؤمن أن يذل نفسه، وليس هناك ذل أكبر من الفقر. دخل أحد الأعراب يوماً علىٰ أطفاله فرأىٰ علىٰ وجوههم البؤس والفقر، فقرّر أن يسافر ليوسّع عليهم في الرزق، وهنا أصبح بين محذورين: الأول الفقر، والثاني مفارقتهم وبعده عنهم، فالتفت إلىٰ زوجته قائلاً:

عُـدّي السـنينَ لِـفقدِنا وتَـصَبَّري ... وذَري الشُّـهورَ فـإنهنَّ قِـصَارُ

فقالت له:

اذكُـر صَـبابَتَنا إليك وشـوقَنا ... وارحَـمْ بَـناتِكَ إنـهنَّ صِغارُ

فترك السفر، وفضل أن يبقىٰ مع قلّة العيش علىٰ أن يفارق أهله[1]. ولا شك أن الإنسان إذا فارق أطفاله فإنه يبقىٰ ممزّق الشخصية، يحن إليهم، فهو كالموزّع قلبه، قِطَعاً في كل مكان. خرج أبو الطمحان القيني إلىٰ القتال جندياً، فلما بلغ الري بقي فيها زمناً طويلاً، وكان أطفاله في العراق، فخرج ذات يوم فرأىٰ حمامة تزقّ

---

(١) مجمع الأمثال ٢: ٢٢٤، الأغاني ٢: ١٧٠، المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ٩٤.

فراخها، فهزّه المنظر وهاجه، فقال:

افــي كُــلِّ يــومٍ غُــربةٌ ونُــزوحُ	أمَــا للـــنَّوىٰ مـــن أوبــةٍ فــنريحُ
لقــد طــلح البــينُ المُشِــدُّ ركَــائبي	فــهل أرَيَــنَّ البَــينَ وهْــوَ طَــليحُ
وأرّقــني بـــالريِّ نَــوحُ حَــمامةٍ	فــنُحتُ وذُو الشَّـجوِ الشَّـديدِ يَـنُوحُ
عَــلىٰ أنــها نــاحت ولم تُــذرِ دمــعةً	ونُـــحتُ وإذراءُ الدُّمـــوعِ سَـــفوحُ
ونــاحت وطِــفلاها بــحيثُ تَــراهُــما	ومَــا بــينَ أطــفالي مَــهَامِهُ فِــيحُ[1]

فموضوع السفر في طلب الرزق ومفارقة العيال ليس سهلاً، ولكن لو دار الأمر بين الشفقة علىٰ الأطفال وبين الوقوف علىٰ أعتاب الناس، فليس للمؤمن أن يذلّ نفسه، فيسافر طلباً للمعيشة.

ومن موارد السفر المستحب السفر في طلب العلم، وقد كان علماؤنا يقطعون آلاف الأميال في طلب حديث واحد من أحاديث النبي ﷺ يأخذونه عن أحد العلماء أو الرواة.

٣ ـ السفر المباح

أما السفر المباح فمن موارده الترويح عن النفس، ولعله يكون أقرب أقسام السفر إلى النظر في كتاب الله المفتوح؛ لما عليه الإنسان حينها من راحة نفس وعدم انشغال باله بمشاكل الحياة.

٤ ـ السفر المكروه

ويعتبر السفر مكروهاً فيما إذا كان يعرض الإنسان إلىٰ الغربة والضياع والذلّ

---

(١) تاريخ بغداد ٩: ٤٩٣، تاريخ مدينة دمشق ٢٩: ٢٢٧ ـ ٢٢٨، معجم البلدان ٣: ١١٩، وفيها أنها لأبي محلم.

من غير فائدة ترجى.

فالآية تدفع الناس إلىٰ السفر، لأن في السفر قراءة لكتاب الله المفتوح، فالمسافر يطّلع علىٰ الشعوب وعاداتها وتقاليدها ومعارفها، فينمّي ثروته العقلية.

المبحث الرابع: كيف نستفيد من تجارب الغير

ثم انتقلت الآية إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، والقرآن يعبر عن العقل بالقلب، وهذا اصطلاح العرب في هذه المسألة وإن كنا إلىٰ الآن لا نعلم هل إن مركز العقل هو الشبكة العصبية في المخ أو إنه القلب، فالعلم اليوم يذهب إلىٰ أن مركز العقل هو الشبكة العصبية، وقد يأتي رأي آخر للعلم في المستقبل يدحض هذا الرأي، فقد كانت الكثير من الآراء إلىٰ عهد قريب تعتبر من المسلمات والحقائق، لكنها مسخت وأصبحت خرافة.

وقد ورد في الآية قيد للعقل وهو أن يعقل الإنسان به، فما الداعي لهذا القيد؟ الغرض من هذا القيد هو أن بعض الناس يمتلك عقلاً غير أنه قد جمّده فلا يفكر به، أي أنه جعل عقله في أُذنه، يردد ما يسمع دون وعي أو تفكير. سألني أحدهم يوماً: هل صحيح أنكم في اليوم العاشر من المحرّم تأتون ببقرة تطعنونها بالسكاكين وتقولون: إن هذه أُم المؤمنين عائشة؟ فقلت له: أسأل الله لك العافية، وأسأله لمن أعطاك هذه المعلومة أن يعافي مخّه، فأنت تعيش معنا وترانا ماذا نفعل في اليوم العاشر، فأين رأيت هذا؟ إن أمثال هذا السائل يفكّر بأُذنه لا بعقله، ورحم الله الشاعر شوقيّاً:

يا لَهُ من ببغاءٍ ... عقلُه في أُذُنيه

فمن الناس من يصدق ما يسمع من الروايات دون أن يسأل نفسه: هل إن هذه

الروايات معقولة أو لا؟ لقي أحد الأشخاص يوماً أبا الشمقمق جالساً على الجسر وهو يأكل، فسأله: لم تأكل في الطرقات؟ إن الأكل في الطرقات يُذهب المروءات، أما تستحي من هؤلاء الناس؟ فقال له: وهل هؤلاء ناس؟ قال: فماذا إذن؟ قال: انظر ماذا أفعل. فصعد على عمود من أعمدة الجسر، فلما رآه الناس يوشك أن يسقط تجمعوا. فلما كثر عددهم صاح: أيها الناس، حدثني فلان عن فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه قال: من أخرج لسانه فوصل أرنبة أنفه دخل الجنة. فراح الناس الواقفون يخرجون ألسنتهم ويجربون ذلك. فقال أبو الشمقمق للرجل: هل ترى أن هؤلاء أُناس؟

إن أمثال هؤلاء الناس أمانة في عنق من يفهم ويعقل، ففي نفس الفرد منهم قداسة للكتاب والحديث النبوي ورجل الدين، فهم أمانة في عنق من يعقل ويفهم.

فالآية تريد من المسافر في الأرض أن يكون له عقل يفقه به، وأُذن يسمع بها الكلمة الطيبة.

وتحضرني هنا حادثة هي أن عبد الملك بن مروان سافر يوماً مع رفقة له، وكان عبد الملك أديباً واسع الاطّلاع والمعرفة، وكان بعيد الغور عميق التفكير، فانفرد عن أصحابه وبعد عنهم، فوجد أحد الأعراب جالساً على قارعة الطريق، فسلّم عليه ثم قال: هل تعرف عبد الملك بن مروان؟ قال: إي والله أعرفه، إنه خائر بائر جائر. قال عبد الملك: ويحك، أنا عبد الملك بن مروان. فقال الأعرابي: لا حياك الله ولا بياك؛ لقد أكلت مال الله، وأضعت عيال الله. فقال عبد الملك: ويحك، تقول ذلك وأنا أضرّ وأنفع؟ قال: أما نفعك فأسأل الله أن يغنيني عنه، وأما ضرك فأسأل الله أن يكفيني شرّه. فأطرق عبد الملك، وتأمّل قليلاً. ثم أقبلت الخيل وأحاطت بعبد الملك، فرفع الأعرابي رأسه إلى عبد الملك وقال: يا أمير المؤمنين، المجالس

بالأمانات، فاكتم ما جرىٰ بيني وبينك[1].

فالمسافر عليه أن يسمع كلمة الرشد ويستفيد منها، ويعرض ما يسمعه علىٰ العقل، لا أن يأخذ بالشيء بمجرد سماعه؛ فما أكثر ما نسمعه وهو ليس من الحقيقة في شيء. فعلينا أن نُرجع ما نسمعه إلىٰ المقاييس والضوابط والعقل، والقرآن يعلمنا علىٰ المنهج العلمي لا المنهج الغوغائي.

المبحث الخامس: عمى البصر والبصيرة

ثم قالت الآية: ﴿فَإِنها لا تَعْمَىٰ الأَبْصَارُ وَلكِنْ تَعْمَىٰ الْقُلُوْبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، ففي الدنيا من هو أعمىٰ لكنه يعادل دنيا من المبصرين، فعبد الله بن عباس قد عمي آخر عمره، وكان يقول:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ... ففي فؤادي وقلبي منهما نورُ[2]

وحدث يوماً أن ابن الزبير صعد المنبر وأراد أن ينال منه فقال: إن هاهنا رجلاً أعمى الله قلبه كما أعمىٰ عينيه، يزعم أن متعة النساء حلال من الله ورسوله، يُفتي في القملة والنملة... وكيف يُلام على ذلك وقد قاتل أُم المؤمنين وحواري رسول الله ﷺ، ومن وقاه بيده، يعني طلحة؟ فقال ابن عباس لقائده سعيد بن جبير مولى بني أسد بن خزيمة: استقبلْ بي ابن الزبير، ثم حَسر عن ذراعيه فقال: يابن الزبير: أمّا عيني فقد أخذ الله نورهما، ولكن عوّضني اليقين في قلبي والنور في بصيرتي.

وأما فُتياي في القملة والنملة فإن فيهما حكمين لا تعلمهما أنت ولا أصحابك.

---

(١) المحاضرات ١: ٢٣١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣: ٣٥٨، اختيار معرفة الرجال ١: ٢٧٢ / ١٠٣.

وأما المتعة فإن أول مجمرٍ سطع في المتعة مجْمرٌ في آل الزبير، فسل أُمك عن بُردي عوسجة.

وأما قتال أُم المؤمنين فبنا سميت أُم المؤمنين لا بك وبآبائك. وانطلق أبوك وخالك ـ يعني طلحة ـ فعمدا إلى حجاب مدّه الله عليها فهتكاه عنها ثم اتخذاها فئةً يقاتلان دونها، وصانا حلائلهما في بيوتهما، فوالله ما أنصفا الله ولا محمداً ﷺ في ذلك.

وأما قتالنا إياكم فإن كنا لقيناكم زحفاً ونحن كفار فقد كفرتم بفراركم من الزحف، وإن كنا مؤمنين فقد كفرتم بقتالكم إيانا. ثم قال له: وأيم الله لولا مكان خديجة فينا وصفية فيكم ما تركت لك عظماً مهموزاً إلّا كسرته[1].

وكان ابن عباس يستعين بغلام له يدلّه على الطريق، فأقبل إليه ذات يوم رجل فقال له: يابن عم رسول الله، لي إليك حاجة. قال: على الرحب والسعة، ما

---

(١) أنساب الأشراف ٤: ٥٥ ـ ٥٧، شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٢٩ ـ ١٣١، الدرجات الرفيعة: ١٣٤ ـ ١٣٦. وفيهما أنه لما نزل ابن الزبير سأل أُمه عن بردي عوسجة، فقالت: ألم أنهك عن ابن عباس وبني هاشم؛ فإنهم كُعُم الجواب إذا بُدهوا؟ قال: بلى فعصيتك. قالت: فاتّقه؛ فإن عنده فضائح قريش. وقال في ذلك أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي:

يابن الزبير لقد لاقيت بائقة ... من البوائق فالطُف لطف مُحتالِ
لاقيته هاشمياً طاب مغرسُهُ ... في منبتيه كريم العمّ والخالِ
ما زال يقرعُ منك العظم مقتدراً ... على الجواب بصوت مُسمع عالِ
حتى رأيتك مثل الكلب منجحراً ... خلف الغبيط وكنت البادئَ الغالي
إن ابن عباسٍ المعمول حكمته ... حبر الأنام له حالٌ من الحالِ
عيّرته المتعةَ المتبوعَ سُنّتُها ... وبالقتالِ وقد عَيّرت بالمالِ
لما رماك على رسلٍ بأسهُمِهِ ... جرى عليك كسوف الحال والبالِ
فاحتز مقولك الأعلى بشفرته ... حزاً وحسبياً بلا قيل ولا قالِ
فاعلم بأنك إن حاولت نقصته ... عادت عليك مخازٍ ذاتُ أذيالِ

ونظير هذه الحادثة هناك حادثة أُخرى وقعت بينهما، انظر الدرجات الرفيعة: ١٣٢ ـ ١٣٤.

حاجتك؟ قال: ولد لي الليلة مولود. قال: هنأك الله بالعطيّة. قال: وقد ماتت أمّه به في النفاس. قال: آجرك الله علىٰ الرزيّة. قال: وقد سميته باسمك تيمّناً، وليس عندي من يحضنه.

فقال لغلامه: يا غلام، كم بقي عندنا من نفقتنا؟ قال: مئة دينار. فدفعها إليه، وقال: اشترِ بها جارية تحضنه. ثم قال لغلامه: لقد وهبتك له فاذهب معه. ثم التفت للرجل فقال: يا هذا، إنك أتيتنا وفي العيش يبس وفي المال قلّة، ولو جئتنا في غير هذا الوقت لكان عطاؤنا غير هذا.

وأُلفت النظر هنا إلىٰ أن ابن عباس ابتُلي بتفسير منسوب إليه يدعىٰ (تنوير المقباس)، وهذا التفسير أغلب رواياته عن عكرمة الذي أخذ الروايات الإسرائيلية وأراد أن يلبسها اللباس العلمي فنسبها إلىٰ ابن عباس. ولهذا لا ينبغي التصديق بكل رواية نسمعها عن ابن عباس، فقد جاءته المصيبة من عكرمة هذا[1]، أو من غيره، وقد وُضع علىٰ لسانه الكثير من الروايات. وإلا فإن ابن عباس ترجمان القرآن[2]، وحبر الأُمّة، وكان غاية في الاطّلاع والمعرفة.

ومن المناسب هنا أن نذكر أن المنصور أسس في بغداد مؤسسة للعميان والأيتام والقواعد من النساء اللاتي ليس لهن مُعيل من زوج وغيره، وكان لهم مدير يتولّىٰ شؤون هذه المؤسسة، فبينما كان المدير جالساً ذات يوم إذ دخل عليه رجل ومعه طفل، فسأله عن حاله فقال: أصلحك الله، أريد أن تكتبني مع القواعد. قال: كيف وأنت رجل؟ قال: إذن اكتبني مع العميان. قال: أما هذه فنعم، فأنت أعمىٰ القلب. قال الرجل: واكتب ابني هذا مع الأيتام. قال: نعم، فحريٌّ بمن أنت

---

(١) مرّ تحقيق كونه كاذباً في ص٣١ من هذا المجلّد.

(٢) مجمع الزوائد ٩: ٢٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٣٩.

أبوه أن يكون يتيماً. فكتبه في الأيتام أيضاً.

إن عمىٰ العين بسيط إذا ما قيس بعمىٰ القلب، فقد يصل عمىٰ القلب إلىٰ أن ابن حزم يقول: إن يزيد مجتهد، وقد اجتهد في قتل الإمام الحسين﴿ع﴾ وأخطأ، فيكون له أجر واحد بدل أجرين. فهل يكون عمىٰ القلب غير هذا؟ وليت شعري، ماذا يقول المسلمون عندما يقرأون هذا الاجتهاد في قتل سيد شباب أهل الجنة[1]؟ وماذا يبقىٰ من الدين إذا فُتح هذا الباب؟ فمن يشرب الخمرة مجتهد، ومن يزني مجتهد، ومن يسرق مجتهد، وهكذا، وكل هؤلاء مأجورون! فهل هذا هو المنطق والعقل الذي نبحث عنه؟

وهذا بالتأكيد لا يضير الإمام الحسين﴿ع﴾، تلك القمة التي زُرعت علىٰ أرض الطف وستبقىٰ قائمة، وسيبقىٰ الشعار الذي تلتفّ حوله قلوب المؤمنين، يقول أحد الأدباء:

أُعَفِّرُ خدّي بعَفْرِ ثَراك ... بحيثُ دماؤك لم تنضَبِ
بحيثُ يُنلْعِلعُ ثغرُ أبىٰ ... بأنْ يحتسي الذُّل في مشربِ
وهامُ أبىٰ للطُّغاةِ الرُّكوعَ ... وإنْ فلقوا منهُ بالمضربِ

فالواقف علىٰ ذاك الثرىٰ يسمع ذلك الصوت الملعلع: «والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر فرار العبيد»[2].

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤، وفيها أقرّ إقرار.

وقفت تلك القمة وذاك العلم يرفع دماء الشهادة وهو يقول: «**اللهم بعينك ما نزل بنا**»، وذلك عندما جاءه السهم المثلث، فوقع في قلبه، فأراد أن يستخرجه من أمامه فلم يتمكن، فانحنىٰ علىٰ قربوس السرج فاستخرجه من قفاه، يقول الإمام عليه السلام: «**والله ما خرج السهم حتىٰ أخرج معه من قلب جدي الإمام الحسين عليه السلام**».

فأخذ من دماء الشهادة فخضّب به وجهه وقال: «**هكذا ألقىٰ الله وأنا مخضوب بدمي، مغصوب حقي**»[1]. ثم رمق السماء بطرفه وقد حال العطش بينه وبين السماء كالدخان[2].

أللهاشمي الماءُ يحلو ودونَهُ	**ثوتْ آله حَرّىٰ القُلوب علىٰ الثرىٰ**
وتهدأ عينُ الطّالبيّ وحولَها	**جفونُ بني مَروان ريًّا من الكَرىٰ**

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٥٣. (٢) بحار الأنوار ٤٤: ٢٤٥.



﴿٦٦﴾

إنما يعجل من يخاف الفوت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في أن الله يعاجل بالعقوبة

جرت العادة أن الله تعالىٰ لا يعاجل الظالمين؛ لأنه إنما يعجل من يخاف الفوت[2]، والله تعالى لا يخرج أي كائن عن قبضته ولا يفوته عز وجل. وتشير بعض الأحاديث النبوية إلىٰ ذلك حيث تقول: «**لا تزال أُمتي بخير ما لم يستعجلوا**». قيل: يا رسول الله وما «يستعجلوا؟»[3]. قال ﷺ: «**يقولون: دعَوْنا فلم يُستجب لنا**»[4].

---

(١) يوسف: ١١٠.

(٢) وقد ورد في دعاء السجّاد عليه السلام: «إنما يعجل من يخاف الفوت، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف». الصحيفة الكاملة السجادية: ٢٨٤، دعاؤه عليه السلام في ردّ كيد أعدائه، مصباح المتهجّد: ٣٧٠/ ٥٠١، وعدّه من آخر أدعية الصحيفة، ويدعى به بعد صلاتي الجمعة والأضحى.

(٣) حذفت نونها نصباً علىٰ الحكاية.

(٤) تنبيه الخواطر ١: ٦.

فالكثير من الناس يسأل دائماً: لماذا ندعو على الظالم فلا يستجاب لنا؟ مع أن الإنسان ليس عنده الإحاطة بما في السماء، ولا يدري ما هو تخطيطها، ولا يعرف ما هي المصالح والمفاسد، ولا يدري هل إن العجلة في مثل هذه الموارد أصوب أو التأخير أصوب، فكلّ ذلك لا يعرفه الناس[1]. فالله تعالىٰ لإحاطته بالأشياء يؤخّر عقوبته أحياناً للمجرم، فيقع في قلوب الرسل﴿﴾ ومخيّلتهم لون من ألوان اليأس، ويظنّون أن رحمة الله قد تشمل هؤلاء، فالرسل أعرف الناس برحمة الله تعالى.

الإمام الهادي﴿﴾ والمتوكل

وهذا المورد له تطبيقات كثيرة، منها أن زرافة الحاجب ينقل لنا واقعة هي أن المتوكل أراد أن يهين جماعة من الناس، وفي الوقت نفسه أراد أن يرفع من قدر وزيره الفتح بن خاقان، وكان عندهم يوم في السنة يعرضون فيه الجيش. فنادىٰ المنادي في يوم العرض أن يخرج الناس مشياً علىٰ أقدامهم، ولا يركب إلّا المتوكّل والفتح بن خاقان. فخرج الناس مشاة، وخرج معهم الإمام الهادي﴿﴾ ماشياً أيضاً. وكان الإمام بديناً، فكان العرق يتصبّب منه. يقول زرافة الحاجب: دنوت إليه، فقدمت له كتفي فوضع يده عليها، فسمعته يقول: «**والله، لست بأقل من ناقة صالح**»، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿**فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**﴾[2].

فلم أدرِ ماذا أراد الإمام بذلك، فلما انتهىٰ العرض عاد المتوكل مع وزيره، وقد أعطَوا الإذن للناس بالركوب، فقدّمت للإمام برذوناً فركبه وعاد إلىٰ البيت وهو

---

(١) وقد ورد في دعاء كميل لأمير المؤمنين﴿﴾: «ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي؛ لعلمك بعاقبة الأُمور». مصباح المتهجد: ٥٦٤ / ٦٦٤.

(٢) هود: ٦٥.

يتصبب عرقاً، ورجعت إلىٰ البيت.

وكان عندي مؤدب لأولادي يتشيع، فأقبلت إليه وقلت له: سمعت اليوم من إمامك شيئاً. قال: ما هو؟ فرويت له الحادثة، فقال: بالله عليك، أنت سمعت ذلك؟ قلت: نعم. قال: إذن هيِّئ نفسك، واجمع مالك وولدك، فسيحدث شيء بعد ثلاثة أيام. فقلت: من أين لك ذلك؟ قال: لا عليك.

فنهرته وأغلظت له القول، ولكن وقع في نفسي من قوله شيء، فأصلحت شأني، وخبأت ما كان عندي من أموال. وفي اليوم الثالث أصبحنا علىٰ أصوات الناس، وإذا ابنه المنتصر ومعه القواد الأتراك: وصيف وبغا وباغر وقد دخلوا عليه وبعجوه بسيوفهم هو ووزيره الفتح بن خاقان، وقطعوهم إرباً إرباً حتىٰ اختلط لحمهما مع الخمرة، وتناثر في الكؤوس.

والغريب أن التأريخ المزيف يسميه محيي السنة، ومميت البدعة[1]، فهو يروي من جهة أن لحمه وقع في كؤوس الخمرة، ومات بين أحضان الساقطات، وهذا ما أكده من نظم فيه من الشعراء[2] في عصره، ومن جهة يسميه محيي السنة ومميت

---

(١) ورد ذلك في أُرجوزة نقلها ابن كثير في البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩.

(٢) قد أكثر الشعراء في وصف هذه الوقعة؛ فمنهم أحمد بن إبراهيم الأسدي حيث يقول:

هكــذا فــلتكن مــنايا الكــرام ... بــين نــاي ومــزمر ومــدامِ

بــين كأســين أروتــاه جــميعاً ... كــأس لذّاتــه وكــأس الحــمامِ

بحار الأنوار ٥: ١٩٢ ـ ١٩٤ / ٩، ٩٢: ٢٣٤ ـ ٢٣٦ / ٣٠، ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ١٩١ ـ ١٩٠.

والغريب هنا أن الثعالبي يلقي كلاماً متناقضاً، فهو من جهة يصف ليلة قتل المتوكّل بأنها «ثلمة الإسلام، وعنوان سقوط الهيبة، وتاريخ تراجع الخلافة»، ومن جهة يصف مجلسه بأنه مجلس أُنس وقد أحدق به الندماء والمطربون ودارت الكؤوس وطابت النفوس فانقلب مجلس اللهو والطرب إلى مجلس الويل والحرب». وهذا نصّ عبارته، فهل الإسلام وهيبته يأمران بأن تكون المجالس كذلك؟

البدعة. أليس هذا تناقضاً صريحاً؟ فهل من سنة رسول الله ﷺ شرب الخمر؟ وهل من سنته أن يموت الإنسان في أحضان الساقطات؟

سبب قتل المتوكل

وكان سبب قتله أن ابنه المنتصر دخل عليه فوجد عبادة المخنث قد وضع وسادة علىٰ بطنه وأُخرىٰ علىٰ ظهره، وراح يرقّصه ويقول: جاء الأنزع البطين، جاء أمير المؤمنين، مستهزئاً بعلي بن أبي طالب﴿ع﴾، فقال له المنتصر: هذا لحمك، كُله أنت بنفسك، ولا تدع الكلاب تلغ فيه. فقال:

غار الفتىٰ لابن عمّه　　　رأسُ الفتىٰ في (حِرِ) امّه

وأوعز إلىٰ المغنين أن يغنوا بهذا. فانفعل المنتصر وقرر قتله[1].

وقد نهاه الإمام الهادي﴿ع﴾ عن هذا، فقد دخل علىٰ الإمام قبل أن يقوم بذلك، فقال له: سمعت المتوكل يشتم الزهراء﴿ع﴾ وجدك علياً﴿ع﴾. فقال له الإمام﴿ع﴾: «ولكنه أبوك، وسيقصر عمرك إن قتلته». فقال: لو عشت يوماً واحداً لقتلته. فخرج واتفّق مع الأتراك علىٰ قتله، فدخلوا معه عليه وقطعوه إرباً إرباً.

فالناس إذا اشتدّ عليهم البلاء يصيبهم اليأس، والإنسان خُلق من عجل، فهو يستعجل عقاب الله للظالمين المجرمين، لكنه لا يعرف التخطيط الإلهي. كان جماعة من المستهزئين ينتظرون مرور النبي ﷺ فيلقون علىٰ ظهره الفَرث والدم، ويتّبعون معه أخسّ الأساليب، فيحفرون له الحفائر ليقع فيها، ويرجمونه بالحجارة، ويتبعونه بالألفاظ البذيئة، ويقلّدونه في مشيته. فدعا عليهم، فنزل قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**﴾[2]. لكنها لم تنفذ في وقت نزولها، فقُتل قسم منهم

---

(١) شجرة طوبىٰ ١: ١٥٧.　　(٢) الحجر: ٩٥.

في بدر، وقسم بعد بدر. فالله لا يهمل الظالم، لكنه يمهله قليلاً

ومن هنا يقع في ظنّ الرسلﷺ شيء من اليأس بوقوع العذاب؛ لأنهم يعرفون رحمة الله، ويدركون أنها تسبق غضبه.

والدليل على ذلك أننا نرى كم من الناس من يفتح عينيه كلّ يوم وهم يواجهون الله بالعصيان والكفر والإلحاد، ومع ذلك فإن الله لا يقطع عنهم نعمته، فلا يقطع العافية ولا الماء ولا الطعام، ولا يسدّ بوجوههم أبواب رزقه. فما يقع في ظن الأنبياءﷺ هو أن الله قد يرحم هؤلاء، فهم أعرف الناس برحمته. كان النبيﷺ جالساً ذات يوم فرأىٰ امرأة حاملة طفلها تقبله وتحنو عليه، فالتفت إلىٰ أصحابه قائلاً: «أترونِ هذه المرأة؟». قالوا: بلىٰ. قال: «أطارحة هذه ولدها في النار؟». قالوا: لا يا رسول الله. قالﷺ: «لم؟». قالوا: لشفقتها. قال: «الله أرحم بكم منها بولدها»[1].

(اللهم إنا نسألك ألّا تحرمنا من رحمتك).

المبحث الثاني: في معنىٰ ﴿كُذِبُوا﴾ ونماذج من المكذبين

ثم قالت الآية: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾، وعند المفسرين وجوه متعدّدة في تفسير قوله تعالى: ﴿كُذِبُوا﴾ في هذه الآية، وأفضل هذه الوجوه وأنسبها وأسلمها أن الذي ظن الرسل أنه واقع هو التكذيب المحتمل من أتباعهم. فهؤلاء الأتباع كانوا سمعوا من الرسل أن الله سوف يعاقب هؤلاء الظالمين، ثم أبطأ العقاب، فتصوّر الرسل أن أتباعهم ومصدقيهم سوف يكذبونهم؛ ممّا يؤدي إلىٰ أن يبدأ في نفوس الأتباع الهمس أولاً، ثم يتطوّر الهمس إلىٰ الظن بأن الأنبياء أخبروهم بغير

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨: ١٠٣.

الواقع.

أنموذج قوم نوح

وقد وقع مثل هذا التكذيب للرسل ﷺ، فأتباع النبي نوح ﷺ استبطؤوا نـزول العذاب لمّا رأوا عبث قومه به. فقد كان ﷺ نجاراً، وكان قومه يمرون به كلّ يوم فيرونه يصنع أجزاء من سفينة، فيستهزئون به ويسخرون. فإذا ذهب عنها جاؤوا إليها ليتخذوها بيت خلاء، ويخربوا ما صنعه، إلىٰ أن طال به الألم، فجاء العذاب والطوفان.

أنموذج فرعون

وقد بلغ الطغيان من فرعون أنه قال لموسىٰ ﷺ: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[1]، واضطرّ موسىٰ وأصحابه أن يهاجروا بدينهم، ففلق الله لهم البحر، وتبعهم فرعون بخيله وجنوده، إلىٰ أن توسط البحر فأطبق عليه، فحاول في تلك الحال أن يستنجد فلم يجبه أحد.

أنموذج صحابة الرسول ﷺ

وقد وقع للنبي ﷺ في واقعة الخندق مثل ذلك، فقد أمر النبي ﷺ بحفر الخندق بإشارة من سلمان[2]، فضاق الأمر بهم واشتدّ عليهم، وأصبحت المدينة عرضة للغزو لحظة بعد لحظة من قريش وأحلافها وأتباعها من مختلف الجهات، فحفر الناس وحفر النبي ﷺ معهم. واستمرّ الحفر إلىٰ أيّام رمضان، وكان بعضهم صائماً فسقط من الجوع والتعب، وشدّ النبي ﷺ علىٰ بطنه حجر الجوع. وكان عند فاطمة ﷺ صاع من شعير فطحنته واختبزته وجاءت به إلىٰ النبي ﷺ، فوزّعه

---

(١) الشعراء: ٢٩.   (٢) عيون الأثر ٢: ٣٥.

ولم يبقِ منه كسرة له[١]. وبلغ الأمر بالصحابة مبلغاً عظيماً، فراحوا يتساءلون: لم لا ينصر الله نبيّه؟ ولم لا يهزم هؤلاء؟

وأراد النبي ﷺ أن يشدّ من عزائمهم، فضرب حجراً بفأسه فتطاير منه شرر، فكبّر النبي ﷺ وكبر معه الصحابة، فقال له أحد الصحابة: روحي فداك، لم كبّرت؟ قال: «تراءت لي قصور بُصرىٰ والشام كأنها أنياب الكلاب، وقد وعدني ربي أن يفتحها عليّ»[٢].

فتهامس المنافقون فيما بينهم، وقالوا: إنه يُخندق علىٰ نفسه ليحميها ويحمي رهطه، ويطمع أن يستولي علىٰ قصور بصرىٰ والشام، أي كلام هذا؟ فلم تمرّ إلّا أيام وليالٍ حتىٰ فتح الله له بصرىٰ والشام، وما هو أبعد من بصرىٰ والشام، وخفق لواء الإسلام علىٰ تلك المناطق.

فالناس دائماً يستعجلون، والأنبياء يظنون أنهم قد كذبوا؛ لأنهم يئسوا، كما قالوا مثلاً: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾[٣].

فالله تعالىٰ يريد أن ينشّئ العباد علىٰ أنّ من أبسط البديهيات عنده أنه لا يهمل الظالم: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[٤].

و ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾[٥]. وكل هذه الآيات تبيّن أن الله سوف ينتقم من الظالم، ولا يمكن أن يخرق الله هذه القاعدة، فإن رأيت ظالماً مُدَّ له في أجله فإنما هو إمهال لا إهمال.

أيّهما يجب الوفاء به علىٰ الله: الوعد أم الوعيد؟

---

(١) مسند زيد بن علي: ٤٦١.
(٢) الطبقات الكبرىٰ ٤: ٨٣.
(٣) البقرة: ٢١٤.
(٤) الكهف: ٢٩.
(٥) إبراهيم: ٤٢.

ومن المؤسف أن بعض المفسرين يقول: إن الأنبياء وقع في خلدهم أن السماء لم تعطهم الخبر الصحيح، وأن الوحي لم يصدقهم. ومعاذ الله أن يظن الأنبياء هذا. وهنا نقطة لا بد من إلفات النظر إليها وهي أن هناك اختلافاً بين المذاهب الإسلامية حول أمر هام هو: هل يجب على الله الوفاء بالوعد والوعيد أم لا؟ يقول قسم من المسلمين: إن الله لا يجب عليه شيء؛ لأنه يعمل في ملكه كيف يشاء: ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ**﴾[1] فيمكنه أن يعاقب المطيع وأن ينعّم العاصي[2].

وهذا القول غير مقبول؛ فالله وإن كان لا يسأل عما يفعل، لكنه لا يفعل القبيح، فلا يأتي إلى من قضى عمره في الصوم والصدقات والصلاة والخيرات فيعذّبه؛ فإن تعذيبه هنا قبيح، ولا يأتي إلى من قضى عمره في الشر فينعمّه؛ لأن تنعيمه قبيح أيضاً؛ فالعقل لا يقبل هذا. ولكن المشكلة في بعض المذاهب الإسلامية أنها لا تؤوّل النص وإن اصطدم ببعض القواعد الإسلاميّة.

وقسم من المذاهب الإسلامية يقول: يجب على الله الاثنان معاً: الوفاء بالوعد والوعيد؛ فإن أوعد أحداً النار فيجب عليه أن يرميه بالنار لئلا يخلف الله وعيده، وإن وعد أحداً الجنة فيجب أن يدخله الجنة لئلا يخلف وعده.

أما رأي الإماميّة ففيه تفصيل؛ فيجب عندهم على الله الوفاء بالوعد دون الوعيد، فإن وعد أحداً الجنة فقبيح عليه أن يخلف وعده؛ لأنه رب الخير والصدق والكمال والعطاء، أما إذا تهدّد أحداً بالنار فلا يجب عليه الوفاء؛ لأن عدم الوفاء بالوعيد ليس قبيحاً[3]، إنما القبيح ألّا يفي بالثواب، والعفو أفضل من الوفاء

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

(٢) الاقتصاد: ٨٢، المحصول ١: ١٠٧، سير أعلام النبلاء ١٥: ٨٩.

(٣) انظر الميزان في تفسير القرآن ٦: ٣٦١، ١١: ٣٥، وقد علّل ذلك بقوله: لأن الذي تعلّق به

بالتهديد إلّا إذا اقتضت المصلحة العذاب؛ لأن العذاب أحياناً قد يكون من التربية. وهذا هو المعنىٰ الذي يصوره بعض الأُدباء حيث يقول:

ربِّ فـي وجـهك الكـريمِ جـمالٌ	كـلُّ حُسـنٍ مِن فَيضِهِ مَوهُوبُ
ثمَّ عـنهُ سِحرُ الشُّروقِ ورَوضٌ	عَـبقريُّ الشَّـذىٰ ونَـبعٌ صَبِيبُ
مَـن أنـا كَـي أقـولَ أنت وإنّـي	ومَـتىٰ صَـحَّ بـيننا التَّـنسيبُ

إلىٰ أن يقول:

رحـــمةٌ أنتَ عـــندَ كُـلِّ مَكـانٍ	ومُـــحالٌ بِـــجنبِكَ التَّـــعذيبُ

ويعني بذلك أن الله موجود في كلّ مكان، وإذا كان الله في كلّ مكان، ووجوده رحمة، فهذا يعني أنْ لا عذاب مع وجوده. وفي هذا المعنىٰ نوع من التحايل؛ لأن العذاب قد يكون أحياناً رحمة. فأنت عندما تضرب عزيزاً عليك لتأديبه لا يكون هذا تعذيباً؛ لأن قصد التهذيب والتأديب رحمة. فالله ليس له مصلحة في تعذيب أحد؛ لأنه لا تضرّه معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه، وإنما هو تعالىٰ يريد مصلحة العباد إذا عذّبهم؛ ولذا يجب عليه الوفاء بالوعد، ولا يجب عليه الوفاء بالوعيد.

فالرسل ظنوا أن أتباعهم كذّبوهم، ومعاذ الله أن يتصوّر الأنبياء أن الله أخلف الوعد.

المبحث الثالث: من هو المجرم؟ وما هي الجريمة؟

☚ الوعد حق للموعود له وعدم الوفاء به إضاعة لحق الغير، وهو من الظلم. وأمّا الوعيد فهو جعل حق للموعِد علىٰ التخلف الذي يوعد به له، وليس من الواجب لصاحب الحق أن يستوفي حقه. وقد مرّ مفصّلاً في ص١٢٤ من هذا المجلّد.

ثم قالت الآية: ﴿ولا يُرَدُّ بأسُنا عن القَومِ المُجرِمِينَ﴾ فمن هو المجرم؟ وكيف نتصور ردّ البأس؟ وهنا أمران:

الأوّل: أننا لا يمكن أن نتصور أن أحداً أشد بأساً من الله ليرد بأس الله، فهذا الإنسان الذي يدّعي الجبروت والعظمة والكبرياء تعال إليه في لحظاته الأخيرة وانظر ما حاله، تجده مسكيناً يستدرُّ العطف والشفقة. فذاك الخدّ المصعّر، وتلك النفس المملوءة جبروتاً لا أثر لها، بل تجده مثل الخرقة، يقلّب طرفه بين أهل بيته ويستنجد، ولا يريد إلّا من يدفع عنه الألم وسكرات الموت فلا يجد. ولو اجتمعت الدنيا على أن تزيد عمره لحظة فلن تستطيع. فهل نتصور أن هناك من يستطيع رد بأس الله؟

الثاني: من هو المجرم؟ الجريمة والذنب مترادفان، ويعرف فقهاء القانون وفقهاء الشريعة الجريمة بأنها مخالفة بند من بنود القانون. فالمجرم هو الذي يخالف الأوامر والنواهي التي وضعتها السماء؛ فالسارق مجرم لأنه خالف بنداً من بنود الشريعة، وكذلك القاتل والمستغيب وهكذا.

وكذلك مخالفة أي بند من بنود القانون هي جريمة في نظر القانون، ولكن القانون يفرق عن الشريعة بأنه أحياناً يأخذ مادّته من العرف. أما الشريعة فلا تستمد حكمها من العرف، إنما قد تعتبر العرف موضوعاً لحكم ما. فمثلاً تعوّد الناس في الخليج أن يلبسوا لباسهم المعروف، فمن يلبس هذا اللباس لا ينتقده أحد. ولكن لو جاء رجل يلبس لباساً آخر كأن يكون طربوشاً ملوناً وحذاء من لون معين، ويكون عاري الصدر، فيكون موضع سخرية واستهزاء الناس، وهذا يسمىٰ في عرف الفقهاء «لباس الشهرة» وهو اللباس الذي يلفت النظر. وحكم الشريعة فيه أنه حرام. فليس للمؤمن أن يذلّ نفسه، فالعرف اعتبره الشارع هنا

مادة وموضوعاً رتّب عليه الحكم.

ومثل ذلك ما لو قام فقيه من الفقهاء بعمل لا يقوم به إلا السوقة، فهذا منهي عنه. لذا فإن العرف أحياناً قد يكون موضوعاً لحكم شرعي دون أن يحدده، فالسرقة ليست حراماً لأن العرف يحرّمها، بل السماء هي التي قالت: إن السرقة حرام. فمصدر الحكم هو السماء لا العرف. بعكس القانون الذي يكون أحياناً مصدره العرف.

العرف لا يصلح مصدراً للتشريع

ونجد عند القوانين المستمدة من العرف أن الجريمة مُترجرجة، فقد تجد فعلاً من الأفعال جريمة في مكان ولا تجده كذلك في مكان آخر. فقبائل «اللاساديم» مثلاً يحترمون الإنسان الكبير رجلاً كان أو امرأة، مثل المسلمين تماماً، لكن قبائل «السيتي» بالعكس من ذلك، فهم يقولون: إن الإنسان إذا صار كبيراً مسناً وجب أن نقتله؛ لأننا إن تركناه تركناه للآلام، فيبقىٰ يجترّ آلامه وذكرياته وأحزانه. يقول الشاعر:

المرءُ يأملُ أن يعيـ ... ـشَ وطولُ عيش قد يضرُّهْ
تَفنى بشاشتُه ويبـ ... ـقىٰ بعدَ حُلو العَيشِ مُرُّهْ[1]

فصار هذا الفعل جريمة في مكان وليس بجريمة في مكان آخر.

وبالمناسبة فقد نشأ أخيراً موضوع أثاره فقهاء القانون وطلبوا به رأي فقهاء

(١) البيتان لأبي العتاهية، وتمامهما:

وتخونه الأيّام حتـ ... ـى لا يرى شيئاً يسرّهْ
كم شامتٍ بي إن هلكـ ... ـت وقائلٍ للّه درّهْ

شرح نهج البلاغة ٨: ٢٩٣.

الشريعة، وهو القتل بدافع الشفقة، فمثلاً قد يدخل أحد إلىٰ المستشفىٰ وهو يعاني من مرض غير مأمول شفاؤه، فهو في مثل هذه الحالة يعاني من الآلام الشديدة ولا يرجو الشفاء. فهل يجوز القضاء عليه وقتله أم لا؟ القانون منع ذلك، والشريعة من قبله منعته؛ فمن يدري، ربما يعيش من نتوقع موته بعد ساعة، ويموت من نتوقع أن يعيش دهراً[1]. فالإقدام علىٰ إزهاق الروح ليس من حقّ إنسان، والله وحده هو خالق الروح ومن حقّه أن يستردّها، أو تستردّ بأمره[2].

خذ مثلاً آخر الانحراف الجنسي ـ وهو اللواط والعياذ بالله ـ هذا الفعل الشاذ القذر الذي تحرّمه الشرائع والأعراف والذوق والعقل، أصبح عند بعض الأُمم ليس بجريمة، فقد كان التشريع في جزيرة كريت يبيحه ويجيزه، وفي القرن العشرين أقره البرلمان البريطاني، واعتبره فعلاً مشروعاً لا يعاقب القانون عليه[3]. وأي نكسة للإنسانية أكبر من هذه النكسة؟ وإذا لم يكن هذا الفعل جريمة فما هي الجريمة إذن؟ فهذا الفعل الذي تعافه البهيمة بفطرتها ويقدم عليه الإنسان يعدّ في بلدٍ جريمةً وفي بلد آخر ليس كذلك.

وخذ مثلاً ثالثاً، ففي روما كانت الشرائع تعطي الحقّ لكبير الأُسرة أن يقتل أحد أفراد الأُسرة، ولا يعتبر ذلك جريمة، فيما تعتبر الشرائع القتل جريمة للقريب أو للبعيد.

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام:

فكم من صحيح مات من غير علّة   وكم من عليل عاش حيناً من الدهر

انظر: ديوان الإمام علي عليه السلام: ٦٩.

(٢) كإقامة الحدود والقود وغيرها.

(٣) كما حذت بعض البرلمانات الأوربية الأُخرىٰ حذوه كالبرلمان الدانماركي وغيره، وقد مرّ في ص٦١ من هذا المجلد.

والزنا، هذا العامل الذي يهدم المجتمع، ويقضي علىٰ طهارة الأُسرة ونقائها، يعتبر في الشرائع حراماً، وفي معظم القوانين يعتبر جريمة، لكن بعض الشعوب لا تعتبره جريمة. والمصيبة العظمىٰ والعار الكبير أنك تجد في قوانين بعض البلدان الإسلامية أن الزنا لا يعتبر جريمة الا إذا كان بالإكراه، أما إذا كان بالرضا فلا. فهل هذا كلام يقبله الدين؟ ألا نستحي من دساتيرنا التي نكتب فيها أن دين الدولة هو الإسلام؟ وهل يقرّ الإسلام هذا الفعل المنحرف؟ فمتىٰ نخلق المواطن الصالح الذي يذود عن عقيدته وأُمّته ووطنه وأخلاقه إذا ربيناه في حجر عاهر ملوث؟

فالجريمة يصعب تحديدها عرفاً؛ لأنك تجد الفعل الواحد في مكان جريمة وفي مكان آخر ليس بجريمة، فلا نستطيع أن نعتمد علىٰ العرف في تحديد الجريمة، بل نعتمد في تحديدها علىٰ الشرائع السماوية؛ لأنها راعت مرتبة الخلق حفظاً لهيكل المجتمع وبنيته.

منشأ الجريمة وأسبابها في المجتمعات

ونسأل سؤالاً آخر هو: هل يولد الإجرام مع الإنسان وينشأ معه، أو أن هناك عوامل تسبب الإجرام؟ بعض النظريات تقسم مسبّبات الجريمة إلىٰ أقسام: فبعضها يرىٰ أن سبب الإجرام هو المجتمع، وبعضها يعزو السبب إلىٰ التربية، والبعض منها يعزوه إلىٰ الفطرة. يقول المشرع الإيطالي «لومبروزو»: إن قسماً من المجرمين هم مجرمون بالفطرة . ويحدّد أوصاف «المجرمين بالفطرة» بأن لهم عيوناً خاصة وجبهة معينة وشكلاً معيّناً. فيولد هذا مجرماً بالفطرة.

وهذه النظرية لا نقبلها؛ فالشريعة الإسلامية تعتبر أن منشأ الاجرام هو المجتمع؛ فالمجتمع هو الذي يخلق الصالح أو المجرم، وليس هناك من يأتي إلىٰ الدنيا وهو مجرم أو صالح. فالناس يخرجون من بطون أُمهاتهم ورقة بيضاء،

والمجتمع هو الذي يصنعهم صالحين مؤدبين وذوي عفاف أو بالعكس. وأول تركيبة اجتماعية يتفاعل معها الطفل هي الأم والأب؛ فإن فتح عينيه على أمٍ صادقة لا تكذب فإنه ينشأ في نفسه مثل أخلاقي هو احترام الصدق، ولو نشأ بين أب وأم كاذبين فسيكون مصنعاً للكذب.

وهذا لون من الدراسة العملية التي تنطوي على إيحاء أبلغ من الفعل والقول، فالولد يتأثّر بالأب والأمّ تأثّراً كبيراً؛ ولذلك يوجّه الله تعالى التحذير للأبوين بقوله: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ ﴾[1]، فيكلف الأبوين بأن يكونا قدوة صالحة للولد.

ثم ينتقل الولد من هذه التركيبة الاجتماعية إلى التركيبة الثانية وهي المعلم، هذا الذي يصنع الأرواح والعقول. وللمعلم خطر أكبر من خطر الأبوين؛ لأن الولد يحمل في نفسه إكباراً للمعلم أكثر مما يحمل لأبويه؛ فقد يولد طفل له أب وأُم بسيطان عاديان لا علم لهما ولا معرفة، فيحترمهما الابن باعتبارهما أبوين، ولكن لا يعتبرهما قدوة. في حين أنه يعتبر المعلم موجّهاً وقائداً وبانياً لشخصيّته. فإن كان المعلم قدوة حسنة في أخلاقه فما من شك أن الولد سيتأدّب بآدابه وتهذيبه. وبالعكس لو كان المعلم كتلة من الانحراف.

فالبلاء ينبع من هنا؛ ذلك أن التلميذ أمانة في عنق المعلم؛ فمن السهل علينا أن نصلح باباً أخطأ النجار في صنعه، أو أن نصلح بيتاً أخطأ فيه المهندس، ولكن ليس من السهل علينا أن نعيد بناء الولد مرة ثانية إذا بناه المعلم بناء أعوج منحرفاً. ومن هنا ندرك أهمية المعلم.

وقد يتصوّر المعلم أن مسؤوليته تنحصر في بضع كلمات يحشو بها ذهن التلميذ

---

(١) التحريم: ٦.

ليس إلّا، وهو واقع أغلب المعلّمين، أما التهذيب وآداب السلوك والحديث وغيره فلا؛ لأنه لم يدرسها، فكيف يعلّمها غيره، وفاقد الشيء لا يعطيه! وهذه هي المأساة. وعلىٰ الأمم الراقية أن تفتح دورات أخلاقية إلىٰ جانب الدورات العلمية لمعلّميها؛ لأن المعلم نبيّ صغير[١]، وهو صانع الجيل، ولا يمكن أن نطالب الجيل بالأخلاق إذا لم يكن قد أخذها عن المعلم أو عن الأُسرة. وجزىٰ الله مساجد المسلمين خير الجزاء، فقد لعبت دوراً كبيراً في تهذيب وتربية الجيل، ونشر الخلق وبعثه؛ لأن المسجد بناء القرآن، والقرآن معلم الإنسانية؛ ولذلك نحن نحرص علىٰ أن يُقرأ القرآن في البيوت؛ كي يحصل التلميذ علىٰ التربية الخلقية من أبيه وأُمّه إن تعذّر عليه الحصول علىٰ ذلك من المدرسة.

فعلىٰ الأب مسؤولية كبيرة في توجيه الابن وتربيته، وهي مسؤولية أكبر من توفير لقمة الخبز والمعيشة له؛ فإن كان يسعىٰ إلىٰ حمايته من الجوع، فعليه أن يحميه من الجوع الفكري والأخلاقي أيضاً. فـ«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[٢].

إذن منشأ الجريمة هو المجتمع حسب نظرية الإسلام، وليس عندنا مجرم يولد بالفطرة: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾[٣].

نظرية العقاب بين الإسلام والقوانين الوضعية

---

(١) قال شوقي:

كاد المعلم أن يكون رسولا

ديوان أحمد شوقي: ١٨.

(٢) عوالي اللآلي ١: ١٢٩ / ٣، صحيح البخاري ١: ٢١٥.

(٣) النحل: ٧٧.

ويبقىٰ أن نطرح هذا السؤال: هل يعتبر الإسلام العقاب تحقيقاً للعدالة؟ أو يعتبره انتقاماً وثأراً للمجتمع؟ أو حماية للمجتمع؟ أو تربية للمجرم؟ فهذه أربع نظريات في المسألة.

فالنظرية الأولىٰ تقول: إن العقاب هو تحقيق للعدالة.

والثانية تقول: إنه انتقام وثأر للمجتمع.

والثالثة تقول: إن المجرم عندما يرتكب الجُرم فلا يمكننا إعادة آثار جريمته، فقتله بجرمه لا يعيد المقتول، لكننا نقتل المجرم لنمنع من ارتكاب الجريمة مرة ثانية في المستقبل.

والرابعة تقول: إن العقاب علاج للمجرم، فالمجرم يعاني من مرض اجتماعي، والعقاب يجب أن يأخذ صفة تربوية، علىٰ أساس فكرة الجزاء الإصلاحي.

ونظرية الإسلام هي بالدرجة الأُولىٰ إصلاح المجرم. والإسلام عندما يوقع العقاب فإنه يوقعه علىٰ شخصٍ مرتكبِ الجريمة، فمن يَقتل يُقتل هو نفسه، ولا شأن للمجتمع بذلك. أما أهله وأُسرته فلا دخل لهم في المسألة ولا ذنب لهم: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1].

وقد يسأل سائل: إننا عندما نعاقب المجرم، فإنما نعاقب تافهاً ربما يكون قد اعتدىٰ علىٰ من هو قمة من القمم، فكيف نعدل هذا بذاك؟ وهذا صحيح، لكنه الواقع الذي لا مفر منه، وقد تعرض المختار ﷺ لهذه المسألة، فقد جيء إليه برأس عمر بن سعد، ورأس ابنه حفص، بعد أن أمر بقتلهما، فأخذهما وقال: أهذا برأس الإمام الحسين عليه السلام؟ وهذا برأس علي الأكبر؟ والله لو قتلت ثلاثة أرباع أهل الأرض ما وفوا بأنملة من أنامل الإمام الحسين عليه السلام[2].

---

(١) الأنعام: ١٦٤.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٢٤٣.

وحق له أن يقول ذلك، فهذا كلّه لا يعدل حـرقة مـن حـرقات قـلب الإمـام الحسين؈ لما نزل علي الأكبر إلىٰ الساحة، وأخذ الإمام الحسين؈ يطيل النظر إليه.. نظر إليه نظر آيس منه، وأرخىٰ عينيه بالدموع، ثم شخص ببصره إلىٰ السماء وقال: «اللهم اشهد علىٰ هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس بنبيك خلقاً وخلقاً ومنطقاً، وكنا إذا اشتقنا إلىٰ رؤية نبيك نظرنا إلىٰ وجهه. اللهم امنعهم قطر السماء وبركات الأرض»[1].

وأخذ يلاحقه بعينيه إلىٰ أن نظر إليه وقد سقط علىٰ وجه الأرض، فأقبل إليه، حتىٰ إذا وصل سقطت رجلاه من الركاب، وسقط زمام فرسه من يده، وألقىٰ بنفسه عليه واحتضنه وصاح: «بني علي، علىٰ الدنيا بعدك العفا، أما أنت فقد استرحت من همّ الدنيا وغمها، وأبقيت أباك لهمها وغمها. وما أسرع اللحاق بك»[2].

فجثا وأقنع للسماء بشيبة ... مغمورة بمدامعٍ ودماءِ

يا عَدلُ قد قتلوا شبيه محمد ... أنزِلْ بساحتهم عظيمَ بلاءِ

قام يكفكف عينيه بمنديل كان في يده، ثم قال للهاشميين: «احملوا أخاكـم، والله لا طاقة لي عـلىٰ حـمله». فـحملوه إلىٰ المـخيم ورجـلاه تـخطّان الأرض، وطرحوه إلىٰ جانب النساء، وقعت عليه أُمه تحتضنه:

بـنيّ اقـتطعتك مـن مُـهجتي ... علامَ اقتطعتَ جميلَ الوصالِ

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٣.

(٢) الدمعة الساكبة ٤: ٣٣١.

﴿٦٧﴾

حب الله تعالىٰ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إلّا سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في معنىٰ اللغو

اللغو: هو ما يُطرح من الكلام. وكلُّ شيء من الكلام لا يُعتدُّ به ولا يُنتفع به يسمى لغواً. وقد قدم المفسرون أمثلة لما يسمَّى لغواً، فهم يقولون: من اللغو ثلاثة أشياء: الباطل، والفُحش، والفضول. وسوف نبين الآن ما معنى هذه الثلاثة التي نزَّه الله تعالى عنها مجتمع الجنَّة:

الأوّل: الباطل

يقول المفسرون: إن من جملته الغيبة. لكن لماذا جعل الله تعالى الغيبة من الباطل؟ السببِ في ذلك أن الإنسان لا يغتاب إنساناً في الدنيا دون هدف أو دافع معين، فلا توجد غيبة بدون دافع شخصي، فإذا ذكره بغيابه بما يكره، فهذا يعني أن هناك شيئاً دفعه لذلك، إمّا لعداوة، أو لأنه زاحمه بمصلحة ما من المصالح، أو لأنه

---

(١) مريم: ٦٢.

وقف في طريقه بأمر معين. فلا بدّ من سبب لهذه الغيبة.

وهذا المعنى ليس موجوداً في الجنة. فليس هناك من يزاحم غيره، فلا مصلحة يشترك فيها اثنان فيتزاحمان، فيضطر أحدهما لاغتياب الآخر، ولا دوافع انتقامية، فالقرآن الكريم يقول ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾[1] فلا يدخل أحدٌ الجنه إلا بعد أن يُنَظَّفَ، من الخبائث ومنها الغيبة التي تكون دوافعها في أغلب الأحيان شخصية؛ ولهذا عبَّرت عنها الروايات بأنها «إدام كلاب النار»[2]، يعني أنها طعام كلاب النار.

والغيبة من الذنوب التي لا يعفو عنها الله تعالى ما لم يعفُ عنها المغتاب. فمن الذنوب ما هو موكول إلى الله فيعفو عنها، ومنها ما هو حقوق شخصية، فاذا تعدَّيتَ على عرض إنسان فالله يقول لك: أنا آليت على نفسي أن أُحقق العدل، وعليك أن تُرضي المُتعدَّى عليه، ثم يوكل الأمر إليّ، إن شئت عفوت، وإن شئت عاقبت.

قيل للحسن البصري يوماً: إن فلاناً اغتابك. فاشترى الحسن طبقاً من الرطَب وأهداه لذلك الرجل، وقال له: بلغني أنك اغتبتني. فقال الرجل: أغتابُك وتُهدي إليّ رطباً؟ قال الحسن: نعم؛ لأنك أهديت إليّ حسناتِك فأردت أن أُكافئك، فأنا أُقابلك، وأُجازيك على إحسان إليّ[3].

ولذلك قال أحدهم: لو شئت أن أغتاب أحداً لاغتبتُ أبويَّ. قيل له: لماذا؟ قال: لأنني أُحبهما، وأعرف أن من يغتابهما تؤخذ ما لديه من حسنات فتُدفع للمغتاب، وأنا أريد أن تذهب حسناتي لأبويّ.

---

(١) الأعراف: ٤٣.
(٢) الآمالي (الصدوق): ٢٧٨ / ٣٠٨.
(٣) شرح نهج البلاغة ٩: ٦٦.

فالغيبة إذن من الأخلاق التي يأباها المُشرِّع الإسلامي في مجتمعنا، فهو يريد لمجتمعنا أن يكون نظيف اللسان. ثم إن الغيبة لا تُقَدِّم ولا تؤخِّر، فإذا ذكرت أحداً بسوء في غيبته، فماذا تُقدِّم؟ وماذا تؤخر؟ نعم إنك لا تقدم ولا تؤخر سوى أنك تضرُّ نفسك؛ لأن الغيبة لون مِن ألوان الشتم، والشتم لا يعود بالضرر إلّا علىٰ صاحبه. مع الإشارة إلىٰ نقطة هامّة هي أنه ربما كانت ترفع قدر الشخص المغتاب أو المشتوم، يقول أبو تمام:

وإذا أرادَ اللــهُ نَشْــرَ فـضيلةٍ ... طُـويت أتـاحَ لهـا لسـانَ حسـودِ
لولا اشـتعالُ النـار فيما جاورتْ ... ما كان يُعرَفُ طيبُ عَرفِ العـودِ[1]

إن بعض الناس يُخدَمون إذا شُتموا، ولا تظنّ أنّ أحداً خدمه الشتم بقدر ما خدم الإمام علياً عليه السلام، فما أكثر الذين شتموا علياً! وما أكثر الذين تقرّبوا لأعدائه بشتمه! وكانوا كلّما شتموه رفعوه إلى السماء[2]؛ لأن شتمهم ليس واقعاً، إنما بحثوا عن شيء يعيبونه به فلم يجدوا، فدفعهم الحقد لأن يشتموه. لكن هذا الشتم رفعه إلىٰ السماء، يقول أحد الشعراء في أمير المؤمنين عليه السلام:

أخذَتْكَ الجِراحُ حيّاً وميتاً ... فرأينـاك مـثخناً بـالجراحِ

أخذته جراح الحروب في حياته، فقد جيء به يوم أُحد فيه أربع وستون ضربة وطعنة، ويكاد جسمه يتقطع، فنبذ سيفه إلى فاطمة عليها السلام، وقرأ البيتين:

أفـاطمُ هـاكِ السيفَ غيرَ ذميمِ ... فـلستُ بـرِعديدٍ ولا بـمُليمِ

---

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٣١٦.

(٢) مرّ هذا المعنىٰ في كلام حمزة بن عبد الله بن الزبير في ج٢ ص ٢١ من كتابنا هذا.

لعمري لقد بالغتُ في نَصرِ أحمدٍ   وطـاعةِ ربٍّ بـالعبادِ رحـيمِ[1]

هذه الجراح في الحياة، أما الجراح بعد الممات فهي مختلفة وغـريبة، فـمثلاً: يقول أحد الكتاب: ليس من المعقول أن توجد خطبة فيما يسمىٰ بـ(نهج البلاغة) بهذا الحجم الكبير، ويحفظها أحد الجالسين المستمعين لأمير المؤمنين﴿ع﴾. فهذه الخطبُ مفتعلة ومصنوعة اختُرعت بعد رحيل أمير المؤمنين﴿ع﴾. ثم يـروي هـذا الكاتب نفسه أن رجلاً جاء بكتابٍ للمتنبي، فأخذه المتنبي، وكـان فـيه ثـلاثون ورقة، فقرأه وحفظ ما فيه وهو واقف، ثم أرجعه إليه.

ويروي أيضاً أن رجلاً كان يحفظ (٦٠٠) ألف بيت من الشعر، فلماذا يُعقَل ما ذكره عن المتنبي وعمّن يحفظ (٦٠٠) ألف بيت، ولا يُعقل أن تُحفظ خطبة لأمير المؤمنين﴿ع﴾؟ إنّ حُكمَ الامثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد.

وهذا مشابه لما يرويه أحد الكتّاب في مسألة حَـرْث المـتوكل لقـبر الإمـام الحسين﴿ع﴾، فقد ذكر المؤرخون أن المتوكل عندما أمر بحراثة القـبر الشـريف وتسليط الماء عليه، وصل الماء للقبر فحارَ حوله واستدار، ولم يُغطِّ[2] القبر، بمعنى أنها كانت كرامة للحسين﴿ع﴾، فيقول الكاتب المذكور: إن هذه خرافة، فهل للـماء عقل لكي يَعرف قبر الإمام الحسين ويقف عنده؟ ثم يذكر بعد هذا الكلام بصفحات أن دجلة فاضت في سنة من السنين، فجاء الماء إلىٰ قبر أحمد بن حنبل فوقف عند قبره، حتى إنه لم يحرِّك الغبار المجتمع علىٰ حصيرٍ فوق القبر. فإما أن يكون الماء بلا عقل فهو في الحالتين كذلك، وإما أن يكون ذا عقل فهو في الحـالتين كـذلك أيضاً، أما أن يكون عند قبر الإمام الحسين﴿ع﴾ بلا عقل وعند قبر أحمد بن حنبل ذا

---

(١) الفائق في غريب الحديث والأثر ٣: ٣٨٥ ـ هاء، شرح نهج البلاغة ١٥: ٣٥، وفيهما هاني، هاءٍ.

(٢) بحار الأنوار ٨٦: ٨٩.

عقل فهذا هو الغريب.

إن هؤلاء الرُّقعاء الذين يحاولون النيل من أمير المؤمنين ﷺ لم يستطيعوا أن يصلوا إليه بشعرة؛ لأن الله خلع عليه رضاه ورحمته، وهما ما لا نهاية، وكل هذا الكلام والتهريج ينحسر ويضمحل.

الثاني: الفحش

ومن اللغو الفحشاء، فهناك من يعوِّد لسانه على الكلمات البذيئة، وهذا كما أنه خلاف الأدب، فكذلك فيه إشاعة فاحشة. فالقرآن الكريم يحاول أن يجعل ألسنتنا نظيفة في التعبير إلّا في حالة الحدود فإنه يأتي باللفظة المباشرة، فهو في الزنا مثلاً يعبّر عن هذا المعنى بهذه اللفظة في باب الحدود، فيقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾[1]، ولكنه عند عدم الضرورة، وعدم وجود الحدود يقول: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾[2]. فيأتي بالكناية عن الزنا ولا يصرّح بهذه اللفظة؛ لأنه يريد أن يعوّد ألسنتنا على أن تكون مهذبة. فعلى المسلم أن يكون عفّ اللسان، أما إذا استخدم الكلمة البذيئة فإنه سوف يشيع الفاحشة وسوء الأدب بين الناس.

الثالث: الفضول

ومن اللغو الفضول، وهو فضول الكلام، بمعنى أنك إذا أردت معنىً من المعاني يمكنك الوصول إليه بجملة واحدة، فما زاد على ذلك فهو فضول؛ لأن الوقت له قيمة، والذوق له قيمة. ولكي نقرّب المعنى نذكر هذا المثال: نفرض أن أحد الأشخاص أراد ماءً، فإنه يمكنه أن يقول لشخص ما: «أُريدُ ماءً»، أما إذا قال له:

---

(١) الإسراء: ٣٢. (٢) الممتحنة: ١٢.

حيثُ إنني عطشان، وحيث إنك تقدر علىٰ أن تجلب لي الماء، وحيث إن عندك إناء، وحيث إن هناك نهراً، فاذهب واغترف الماء وهاته لي. فهذا من فضول الكلام الذي لا مبرر للإطالة فيه.

يذكر الأُدباء في هذا الباب قصة طريفة هي أن شحّاذاً وقف علىٰ باب بيت، فقال: أعطوني مما أعطاكم اللّٰه. فنادى صاحب البيت: يا مبارك، قل لرباح، ورباح فليقل لحسن، وحسن فليقل لحرب، وحرب فليقل لموسى، وموسى فليقل لهذا الشحاذ: أعطاك اللّٰه، فقال الشحاذ: يا رب قل لجبرئيل فليقل لميكائيل فليقل لعزرائيل: لتقبض روح هذا.

ويذكر المؤرخون أن المأمون أعجبته فصاحته يوماً وهو علىٰ المنبر، فخطب خطبة أطال فيها، مع أن المعنى كان يمكن أن يُفهم بأقل من ذلك بكثير، إلى أن فرغ من الخطبة، فسأل أعرابياً كان جالساً: ما تعدّون الفصاحة عندكم؟ قال: الفصاحة هي الإفادة مع الاختصار. فقال المأمون: ما تعدّون الفهاهة والعيّ؟ قال: ما كنتَ فيه منذ اليوم يرحمك الله[1].

ولهذا السبب يقال عن المبدع: إن عنده فصل الخطاب، يعني أن كلامه ذو جمل مضغوطة ومعبّرة، ولا تأخذ وقتاً طويلاً، فالفضول لا داعي له.

وهناك فضول بمعنى آخر، وهو التدخُّل في شؤون الناس دون طلب أو سؤال، فالفضولي هنا هو من يُقحم نفسه فيما لا يعنيه. فالإنسان تارة يكون مسؤولاً وعليه أن يجيب، وتارة يكون له شأن في المسألة ويوجد ما يُوجب التدخل والكلام، فيتدخل ويتكلم، أما إذا لم يكن هناك داعٍ للدخول فهو الفضول. وكما

---

(١) البيان والتبيين ١: ٦٩، وهو في مجمع الأمثال ٢: ٢٥ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن.

تقول الرواية: «البلاء موكَّلٌ بالمنطق»[1].

يقال: إن بهرام كان جالساً تحت شجرة فأصابه النعاس أراد أن ينام في ظلها ويهدأ، فجاء طيرٌ وأزعجه بصوته العالي، فأوتر قوسه ورماه فقتله، ثم قال: البلاء موكّل بالمنطق. أي أن هذا الطير لو كان ساكتاً لما قتل.

إذن على الإنسان أن يترك فضول الكلام وفضول العمل، وكل ما لا يؤدي إلى الانتفاع؛ لأن الله تعالى نهانا عن ممارسته. والقرآن الكريم يقول: إن الجنة ليس فيها غيبة، ولا فضول ولا فحش ولا غل ولا حقد ولا حسد؛ لأنها تؤذي القلب، والجنة دارُ نعيم.

المبحث الثاني: نوع الاستثناء في الآية

وانظر لتعبير القرآن ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إلّا سَلاماً﴾. وهذا استثناء كما ترى، فهل هذا الاستثناء متصل أو منقطع؟ فإن كان متصلاً فهذا يعني أن السلام جزء من اللغو، فما معنى أن يكون السلام من اللغو؟ يقول المفسرون: إن معنى السلام هو السلامة، فعندما تقول لأحدهم: «السلام عليكم»، فإنك تدعو له بالسلامة من الآفات والمكاره والعثرات[2]، والجنة ليس فيها مكاره، فلا معنى لدعائك لأحدٍ هناك بالسلامة، بل إن ذلك سيصبح لغواً لا معنى له. وهذا الرأي مبني على كون الاستثناء متصلاً. وإن كان الاستثناء منقطعاً، فمعناه أنهم لا يسمعون فيها إلا ما هو ضد اللغو، والسلام ضد اللغو؛ لأن السلام تطييبٌ للقلب، وإدخالٌ للسرور على نفس من تُسلم عليه.

والحقيقة أن السلام ينمُّ عن أدب المسلم والمجتمع، فإن الله تعالى شرّع لنا آداباً

---

(١) الفقيه ٤: ٣٧٨ / ٥٧٩٧، مسند شهاب ١: ١٦١ ـ ١٦٢ / ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٢) مجمع البيان ٤: ٦٥.

للطريق، وآداباً للأُسرة، فكما أنه وضع لنا منهجاً في البيت، فكذلك وضع لنا منهجاً في الطريق، فعندما تصادف أحداً أمامك؛ فإن كان مسلماً فحيِّه بتحية الإسلام: «السلام عليكم»، وإن كان غير مسلم فحيِّه بتحيته هو؛ لأن السلام علىٰ غير المسلم غير مشرّع[1].

المبحث الثالث: دلالة ﴿سلاماً﴾ علىٰ أن لغة أهل الجنة العربية وردّها

فالسلام في الجنة إذن ـ بناءً علىٰ هذا ـ هو ضد اللغو، ويستفيد بعض المفسرين من هذا المقطع أن لغة أهل الجنة هي اللغة العربية؛ لأن القرآن يقول: **﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلاماً﴾** والسلام لفظة عربية، ومعنى ذلك أن لغة أهل الجنة هي العربية.

وهذا الاستنتاج ليس ناهضاً بل هو ضعيف لأسباب منها:

أوّلاً: أن المراد بالسلام هنا التحية، والتحية قد تكون بالسلام وقد تكون بالإشارة، فأنت قد تحيي أحداً بقولك: «السلام عليكم»، وقد تحييه بالإشارة بيدك.

ثانياً: أنه إذا كانت العربية لغة أهل الجنة، فهذا يستقيم إذا كان سكان أهل الجنة من العرب فقط، أما إذا كانوا مختلفين **﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾**[2]، فأين تذهب هذه الأُمم من غير العرب؟

فهذا الذي يريد أن يُبرز بالطابع العربي يضر العرب ولا ينفعهم؛ لأن هذا لون من القومية المتطرفة الرّعناء، وهو أشبه بنظرية يحيىٰ بن أكثم في الكفاءة. فعندما يبحث فقهاء المسلمين موضوع المسلم الكفوء للمسلم الآخر، فإنهم يحددون أوّلاً معنى الأراذل في الآية الكريمة: **﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾**[3]. فيقول

---

(١) فيض القدير في الجامع الصغير ١: ٤٨٣.

(٢) آل عمران: ١٣٣.

(٣) هود: ٢٧.

يحيىٰ بن أكثم: الرذيل هو: الحجام والكناس من غير العرب. فإذا كانت الرذالة من المهنة، فما الفرق فيها إن زاولها العربي أو غير العربي؟ وإن كانت الرذالة في الجنس فما ذنب هؤلاء الذين منهم المؤمنون كما عند غيرهم.

نعم، من حق الإنسان أن يخدم دمه، ويعتز بجنسه، ولكن ليس معنى ذلك أن تحتقر الآخرين، يقول الإمام السجاد؈: «العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرىٰ الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه علىٰ الظلم»[1]. فليس من داعٍ لاحتقار القوميات الأُخرى، لأن الله خلق الناس متساوين في أصل المنشأ والخلقة، فلا فرق بين إنسان وآخر في أصل المنشأ والخلقة. فهذا اللون من التعصّب لا مورد له.

وقد يقول قائل: لماذا نُصرّ علىٰ اللغة العربية في الدنيا؟

والجواب: أننا نُصرّ علىٰ اللغة العربية في الممارسات العبادية فقط، كعقود الزواج مثلاً، أو عقود البيع والشراء، أو الأذان، أو قراءة الفاتحة. مع أن ذلك ليس عند كلّ المذاهب الإسلامية، فأبو حنيفة مثلاً يذهب إلى جواز القراءة بالفارسية، وجواز الاقتصار علىٰ آية واحدة في الصلاة: عملاً بقوله تعالىٰ ﴿فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ﴾[2]، فتُجزي في الصلاة عنده آية قصيرة مترجمة، ويجيز الأذان كذلك بغير العربية[3].

فالشارع المقدس يُصرّ على استعمال العربية في بعض الأُمور العبادية لحفظ

---

(١) الكافي ٢: ٣٠٨ / ٧. (٢) المزّمّل: ٢٠.

(٣) عنه في فتح القدير ٣: ٣٠٨ ـ ٣٠٩، بدائع الصنائع ١: ١١٢.

هوية المسلم، وكذلك يصر علىٰ عربية القرآن[١].

المبحث الرابع: حول ترجمة القرآن الكريم وخصوصيات العربية

وهنا لا بد من توضيح هذه النقطة المهمة المختصة بالقرآن وعدم ترجمته إلىٰ لغة أُخرىٰ، فاللغة تشترك مع المعنىٰ في إعطاء صورة معينة، فأنت عندما تقرأ: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾[٢]، وتسأل: ما الداعي إلى ذكر عبارة ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾، في حين أن سقوط السقف لا يكون إلّا من فوق؟ والجواب أن هذا التعبير مرتبط بحضارة العرب، فإن أرادوا أن يعبّروا عمَّن أُصيب ببلاء فإنهم يقولون: وقع البلاء علىٰ رأسه، فأراد القرآن أن يبين أن هؤلاء وقع عليهم البلاء بشدة، فراعىٰ هذا المعنىٰ، وإلّا فإنك قد تقول: إن هذه العبارة: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ زائدة في الآية. لكن الصورة لا تتضح وضوحاً كافياً عند عدم ذكر ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾.

مثال آخر: يقول القرآن الكريم عن أهل النار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾[٣]، وكان يمكنه أن يقول: يصرخون بدل ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾، لكن «يصرخ» لا تعطي معنىٰ «يصطرخ»؛ لأن الأخيرة فيها صخب وضوضاء وضخامة، فهي تعطي معنىٰ زائداً عن معنىٰ الصراخ[٤].

ومن ناحية أُخرىٰ فإن هناك أَلفاظاً لا يُقصد بها مدلولها الشائع عند الناس، فالساعة مثلاً، تعني عندنا الآن الآلة المختصة بضبط الوقت، ولكن عندما تقرأ في القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[٥] فالمقصود بالساعة هنا: يوم القيامة، فكيف

---

(١) بما يمكن التعبير عنه أنه اللغة الرسمية للدين فكما أن لكل دولة لغة رسمية وإن تعدّدت القوميات فيها، فكذلك الإسلام له لغته الرسمية وهي العربية.

(٢) النحل: ٢٦.

(٣) فاطر: ٣٧.

(٤) أي كما يقال: زيادة المباني تؤدي إلىٰ زيادة المعاني.

(٥) لقمان: ٣٤.

تنقل هذا اللفظ إلى لغة أُخرى؟ هل تقول: إنها آلة ضبط وقياس الوقت؟ أو تقول: إنها القيامة؟

فلا يمكن تغيير ألفاظ القرآن والعبادة، والمطلوب هنا الحد الأدنى لحفظ هوية المسلم إكراماً للغة القرآن، وللموطن الذي هبط فيه القرآن. والحد الأدنى هو أن المسلم يُفتَرض فيه أن يكون له إلمام بالأمور العبادية التي يشترط فيها العربية، وإلا ليس معنى ذلك أننا نُجبر من لا يحسن العربية على الأذان أو حتى بعض العقود. وعلى العموم ففي هذه المسألة تفصيل، ولكنني أحببت أن أُلفت إليه النظر فقط.

المبحث الخامس: في تحديد رزق أهل الجنة بكونه ﴿بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾، ﴿بُكْرَةً﴾ أي صباحاً، و﴿عَشِيّاً﴾ يعني في الليل، فهل معنى ذلك أن رزقهم أن يأكلوا صباحاً وليلاً فقط؟ وهل معنى ذلك أن الذي يأكل بين هذين الوقتين مذموم؟ عندنا الآن من يأكل ست أو سبع وجبات في اليوم، فهل هذا مذموم؟

الجواب: كلا؛ ذلك أن القرآن عندما يعبر هذا التعبير فهو يراعي حضارة العرب، فالعرب يعتبرون من يأكل في هذين الوقتين منعماً مرفّهاً، ذلك لأن بيئتهم كانت فقيرة، وقد يضطرون أحياناً أن يشاركوا الحيوانات في طعامها. وقد حدث في سنة من السنين جدبٌ، وذلك أيام عبد الملك بن مروان، فانحبس المطر، وقل الزرع، فجاء وفدٌ من العرب إلى عبد الملك، فدخلوا عليه، لكنهم هابوا أن يكلموه لعظم ما وجدوا من الأُبّهة، والمظاهر السلطانية، فقام من بينهم شاب عمره ستة عشر عاماً، فقال: أصلح الله الخليفة، سنة أذابت عندنا اللحم، وسنة أذابت العظم، وسنة ثالثة ذهبت بكل شيء، وعندك فضل من الأموال، فإن كانت هذه الأموال

لله، فلم تحجبها عن عباده؟ وإن كانت لهم فلم لا تدفع إليهم حقهم؟ وإن كانت لك فتصدَّقْ عليهم إن الله يجزي المتصدقين. فقال عبد الملك: والله ما تركت لي مفرّاً. فأمر لهم بمئة ألف درهم، ثم سأل الشاب: ألك حاجة؟ فرد عليه: أمَّا لي دون المسلمين فلا[١].

فكان هؤلاء إذا ضَنَّتْ عليهم السماء بالمطر يقتلهم الجوع، فكان من يأكل في الصباح والليل يُعبَّر عنه بالمنعّم، فالقرآن جاراهم في حضارتهم، فقال: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾.

هذا إذا كان المقصود بالرزق الأكل، وإلاّ فقد يكون المقصود بالرزق غير الأكل، لأننا لا نستطيع أن نعرف كلّ شيء عن أحوال ما وراء الطبيعة، ولا نستطيع أن نعرف بالتفصيل حياة الإنسان في الجنة، وهل إنه يأكل أو لا؟ وهناك من يقول: إنه يأكل الثمار، وورد في القرآن: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾[٢]، ففي هذه الآية قسم من أقسام الرزق، ولكن هناك رزق آخر، فقد ورد في بعض الروايات أنه لا نعيم أعظم من نظرهم إلىٰ وجه الله عزّ وجل، يعني انتظارهم رحمته وعطاءه. فالوجه هنا لا بمعنىٰ الجارحة، فالله منزّه عن الجارحة، وإنما هذا من نظير قولك لأحدٍ: «إني أنتظر وجهك»، تعني بذلك «أنتظر ذاتك، أو عطاءك». فالقرآن يقول: إن هؤلاء يشعرون بنوع من النعيم وهو رضوان الله تعالى، والقرب منه، والاستظلال بظلّ الله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه.

وهذا هو المعنىٰ الذي كان الإمام الحسين ﷺ يدعو له دائماً، فكان عندما يمرّ علىٰ المصارع يقول: «اللهم إن كنت حبست عنا النصر عاجلاً فاجعل لنا ولشيعتنا

---

(١) جمهرة خطب العرب ٣: ٢٦٠، البيان والتبيين ١: ٢٦٧، المستطرف ١: ١٠٨.
(٢) الواقعة: ٢٠ ـ ٢١.

منزلاً كريماً في مستقر رحمتك، واجمع بيننا وبينهم تحت ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلّا ظلُّك»[1].

وعند تدبُّر القرآن نلاحظ أنه عندما يعدّد نعيم الآخرة فإنه يختمه بقوله: **﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾**[2].

كان أحد الصوفية عندما يحين موعد الطعام أو الشراب ويدعىٰ له يقول: اتركوني فلست بحاجة إلىٰ الطعام أو الشراب. فقد يشعر بلذّة لا حدود لها في ساعات الخلوة مع الله تبارك وتعالىٰ.

والكثير من الناس ممن هام بحب الله تكون عنده اللذة التي لا تعادلها لذة في أن يكون في رحاب الله وكنفه، فينسىٰ كلّ شيء. يروي نافع بن هلال يقول: مررت على الإمام الحسينعليه السلام فرأيت شفتيه تتحركان، وقد مرّ عليه في حالةٍ كانت فيها الجراحات والألم النفسي والجسدي تستوعبه، فيسمع أصوات عائلته ترتفع، ويرىٰ الخيل قد هجمت علىٰ المخيم والجراحات أخذت منه كل مأخذ، والقتلىٰ إلىٰ جانبه. كلّ هذا كان يراه وهو ما بين الألم النفسي والجسدي، ولكنه مع ذلك كان منغمراً بحب الله، يقول:

تركت الخلق طرّاً في هواكا	**وأيتمت العيال لكي أراكا**
فلو قطّعتني بالحب إرباً	**لما مال الفؤاد إلىٰ سواكا**[3]

كان نافع يقول: إن كان يدعو علينا هلكنا ورب الكعبة... دنوت اليه لاسمع ما

---

(١) قريب منه في الإرشاد ٢: ١٠٨، مثير الأحزان ٥٢، تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، البداية والنهاية ٨: ٢٠٣.

(٢) التوبة: ٧٢.

(٣) لم نعثر على من ينسبهما للإمام الحسينعليه السلام، بل هما ينسبان لابن إبراهيم بن أدهم. تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦، وقد مرّ ذلك في ج٢ ص٣٣٧ من كتابنا هذا.

يقول، فإذا به يقول: «صبراً على قضائك يارب، يا غياث المستغيثين، لا معبود سواك». وأصوات عياله تتناهى إليه من داخل الخيمة... نور عيني ياحسين، يابن أمي ياحسين، إن كنت حيا أدركنا، هذه الخيل قد هجمت علينا، وإن كنت ميتا فأمرنا وأمرك إلى الله[١].

أناديك ما يشجيك انداي ... ولا تسمع اعتابي ونخواي

المن بعد يحسين منواي ... ظني انگطع وانگطع رجواي

شتهيّس يروحي بونتك هاي ... يكلها ضهدني السهم بحشاي

وعادة المصوَّب ينسكه الماي ... الماي وينه بولية اعداي

هذه هي التضحية التي قدمها الإمام الحسين، وتضحية زينب لا تقل عنها؛ لأنها صمدت أمام أعتى المصائب.. لم يبق عندها في اليوم العاشر من المحرم ولد ولا أخ ولا ابن عم، واليتامى يسحبون رداءها، والنار تلتهب في المخيم:

مشى الدَّهرُ يومَ الطَّفِّ أعمى فلم يَدَعْ ... عِماداً لها إلا وفيه تَعَثَّرا[٢]

وجشَّمَها المَسرى ببيداءَ قَفْرَةٍ ... ولم تدر قبل الطَّف ما البِيدُ والسُّرى

* * *

يرقُّ لها السَّوطُ إذ يلتوي ... عليها ويقسو لها الجالدُ

---

(١) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

(٢) ديوان السيد حيدر الحلي: ٧٨.

﴿٦٨﴾

الإسلام والإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾(١).

مباحث النص الشريف

المبحث الأوّل:

يتضح من الآية الكريمة الأُولى أن الإسلام دون الالتزام بالإيمان بمضامينه فكراً وتطبيقاً قد لا يُعطي المنزلة المرجوة، صحيح أننا في الدنيا نُرتب أحكام الإسلام على من يشهد الشهادتين: «أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله»، ولكن هل يترتب على مجرد ذلك ما أعدّ الله لعباده من ثواب ومنزلة مأمولة؟ هناك من يتشهد بالشهادتين لكنه لا إيمان له بمضامين الإسلام، وحتى لو قدر أنه أقرها نظرياً، لكنه بعيد عن التطبيق. ولتوضيح ذلك نقول: هل يتعامل أحدنا مع أفراد أُسرته المسلمة ضمن ضوابط الإسلام؟ فيعامل زوجته ووالده ووالدته بمثل ما رسمه الإسلام؟ كلا، إنه يتعامل مع زوجته بما في ذهنه من ميراث

---

(١) الزخرف: ٦٩ ـ ٧٠.

اجتماعي، ويتعامل مع أبويه بما عنده من تراث اجتماعي أيضاً. أما تطبيقاً لما جاء به الإسلام فليس من ذلك شيء. إذن ما فائدة الإسلام؟ إذا قلنا: إن فلاناً مسلم وهو لا يطبق الإسلام، فما فائدة الألفاظ؟

فلذلك يقول القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، فهو يريد من الفرد المسلم أن يكون عنده إيمان بالآيات تطبيقاً وفكراً؛ لكي يحصل على الأثر الآتي في الآية التالية.

وبالجملة يُفترض بالمسلم ألّا يعيش الإسلام على لسانه فقط، بل عليه أن ينزل إلىٰ ساحة التطبيق العملي ضمن نطاق الأُسرة والمجتمع والسوق، فهؤلاء الأفراد بهذه الصفة هم الذين يأتيهم النداء: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾.

المبحث الثاني: هل في تقديم الذكر تفضيل له على الأُنثىٰ

وأول ما يلفت النظر في هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾، فما هذا الترتيب: ﴿أنتم﴾ وبعدها ﴿أزواجكم﴾ مع أن المخاطَب بهذا الخطاب هم الجنسان من المسلمين (الذكور والإناث)؟ ثمّ هل في هذا الترتيب تفضيل لأحد الجنسين؟ وهل في تقديم الذكر على الأُنثى في قوله تعالى مثلاً: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾[1] تفضيل للذكر كما هنا في هذه الآية؟ أي هل في تقديم ﴿أَنْتُمْ﴾ على ﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾ تفضيل؟

الجواب: أن المقصود هنا ليس التفضيل، وإنما هو التنظيم، فالقرآن الكريم يُعنىٰ بالشكل كما يُعنىٰ بالمضمون، ويحرص على الشكل الخارجي في كثير من آياته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ

---

(١) النجم: ٤٥.

مَرْصُوصٌ ﴾[1]، فهو يهتم في كون الجمع الخارج للقتال صفاً؛ لأنه يحرص على التنظيم، والحرص على التنظيم هو من المظاهر الحضارية الحديثة. ويوجد الآن مايسمى بـ(فن الديكور)، فعندما تدخل إلىٰ محل لبيع السلع، فلا تستطيع الحصول على السلعة المطلوبة إذا لم تكن معروضة أمام عينيك. فالعالم المعاصر يهتم بالهيئة والشكل.

وهذا المعنى يظهر في كثير من الآيات والروايات، حيث إن الله تعالى يريد النظام، والقرآن الكريم يهتم بالشكل الخارجي كما يهتم بالمضمون، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفاً صَفاً ﴾[2]؛ لأن النظام يتجلّى في المضمون ويتجلى في الشكل. فعندما يقول: ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾، فليس في ذلك تفضيل؛ لأن النتيجة واحدة، وهي دخول الاثنين إلىٰ الجنة. فالمسألة إذن هي التعويد على النظام ليس إلّا، وما من شك في أن التعويد على النظام هو مظهر حضاري يعنىٰ به الإسلام، وأنت ترى الآن أن الأُمم الراقية المهذّبة تتعود على النظام في كلّ تصرفاتها.

أما التساؤلات التي تثار في تقديم الذكر على الأنثى، أو في تقديم السماء على الأرض في قوله تعالى: ﴿خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[3]، فغير واقعية، غاية ما في الأمر هو التنظيم في الأداء والصورة كما قلنا.

المبحث الثالث: في معنىٰ ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾

تقول الآية الكريمة ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾، فما معنى الأزواج هنا؟ للمفسرين في معناها ثلاثة آراء:

---

(١) الصف: ٤.　　(٢) الفجر: ٢٢.

(٣) البقرة: ١٦٤.

الرأي الأوّل: أنها الحور العين

ونحن لا نستطيع أن ندخل في تفاصيل هذا الأمر؛ لأنه خارج عن نطاق إدراكنا، وكل ما كان من شأن الجنة والآخرة فهو كذلك، فالجنة عالم لا نستطيع أن نعرف تفصيلاته، وهكذا كلّ قضايا ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا). فنحن نتوقف في هذه الأُمور عند قول المعصوم﵇، أما رأي المفسّر غير المستند إلىٰ قول المعصوم﵇ فلا نعبأ به، ولا نقبله؛ لأن عالم الآخرة عالم خارج عن إدراكنا ووعينا.

وهنا تُثار تساؤلات منها أن المؤمن إذا كانت له زوجة مؤمنة في هذه الدنيا، ثم دخلت معه الجنة، فهل تتزوج زوجاً من الحور العين هناك؟ وهل يتزوج الزوج من الحور العين هناك؟ وهل يُثير هذا المعنى سوء العلاقة بينهما هناك؟ فهذه المرأة المؤمنة هل تطيق أن ترى زوجها متزوجا هناك؟

الإجابات عن هذه الإشكالات لم تتكفل بها النصوص، فالقرآن الكريم لم يبين هذه التفاصيل، أما الروايات: فهناك روايات نادرة في هذا المجال، وليس معلوماً أن هذه الروايات يُعتمد عليها، فهي بحاجة إلىٰ بحث في السند والمتن. فالمسألة ليست سهلة كما ترى؛ ولذا فإننا نتوقف على البيان الوارد من المعصوم﵇ في قضايا الآخرة وما وراء الطبيعة.

وهنا من المفسرين من يُرسل هذا المعنى، فيقول: قيل في ذلك: أزواجهم من الحور العين.

إشكال حول هذا الرأي

وهنا يثار إشكال وهو أن الحور العين لما كانت داخل الجنة فما معنىٰ أن يقول القرآن الكريم: ﴿ادْخُلُوا﴾؟ وبعبارة أُخرىٰ فما معنى ﴿ادْخُلُوا﴾ هنا؟ وهل يقال

للداخل: ادخل؟ إن هذه الكلمة تقال لمن هو خارج، أما الداخل فلا يقال له؛ إذ لا معنىً لأن نقول له: ادخل؟

فكلمة ﴿ادْخُلُوا﴾ هنا قرينة على أن الازواج هنا لا تعني الحور؛ لأن فرض المسألة أن الحور العين موجودات داخل الجنة.

وفي هذا الشأن وردت أعداد هائلة من الروايات، لكنها لاتصمد أمام المناقشة، وفيها من التفصيل ما لم ينزل به الله من سلطان، وقد جاءت هذه الروايات – مع الاسف – من العناصر غير المسلمة التي دخلت إلى الإسلام فجاءت بما تحمله من رواسب في أديانها السابقة، ثم أدخلت تلك الرواسب في الفكر والتراث الإسلامي. فمن الامور المسلَّمة أن المهاجر إلى بلد جديد، لا ينسجم بسرعة مع تقاليد وثقافات ذلك البلد؛ وإنما يحتاج إلى مدة طويلة، وأجيال متعاقبة لكي ينسى ما يحمله من تقاليد وثقافات خاصة به. فالمسألة هنا كذلك، إذ ليس من المعقول أن ينسجم هذا المسلم الجديد مع الإسلام بسرعة، ويتخلى فجأة عما كان يحمله من أفكار وتعاليم في دينه السابق.

وهذا ما اصطُلح عليه فيما بعد بـ(الإسرائيليات)، وهناك جملة من الروايات والآراء من هذا القبيل، وهذه لا يمكن قبولها في حال من الأحوال، فحينما نجد مثلاً من يقول في قوله تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً﴾[1]: إن زواج الذكر من الذكر والأُنثى من الأُنثى جائز، فلا يمكن أن نقبله؛ لأن هذا ليس من الإسلام قطعاً، وإنما جاء من بيئة من تَبَنَّى هذا الرأي قبل دخوله في الإسلام.

وقد تعب العلماء تعباً شديداً في ملاحقة الإسرائيليات وأصحابها من أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبّه وغيرهم ممن كتب في التفسير والتاريخ كتابات لا

---

(١) الشورى: ٥٠.

تسرّ العين والفكر أبداً. فتجد هنا روايات غاية في الغرابة، ومنها ما يصوّر أن هذا الداخل إلىٰ الجنة ليس له من عمل سوى الجنس.

يقول أحدهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾[1]: إن شغلهم هو افتضاض العذارىٰ صباحاً ومساءً وفي كلّ حين[2]. وهذا من التفكير العجيب؛ لأن هذا القائل لا يعرف اللذة إلّا من هذا الطريق البهيمي، ونحن قد نجد من يعتبر هذه اللذة طريقاً بهيمياً حتى في الدنيا. فلماذا لا تكون هناك لذات روحية ممتعة، كالقرب من الله عز وجل والفوز برضوانه؟

الرأي الثاني: أنها الزوجة المؤمنة في الدنيا

وليس من شك أن المرأة المؤمنة الملتزمة بآداب الزواج كما رسمه الله تعالى هي من الأزواج المطهرة اللائي قال عنهن القرآن: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾[3]، فتقول الروايات: إن الله تعالى يصلحهم ويعيدهم شباناً.

وهذا هو المعنى الصحيح المناسب في هذا المقام، فالمعنى هنا أن سعادة المؤمن لا تتم إلّا أن يكون مع زوجته المؤمنة.

إشكال حول هذا الرأي

ويثار هنا أيضاً هذا الإشكال وهو أنه إذا تزوجت المرأة المؤمنة هنا في الدنيا أكثر من زوج، فمع من تكون في الجنة؟ فيجيب المفسرون عن ذلك بقولهم: إنها مع من تختار من أزواجها. وهذا الرأي إلىٰ هذا الحد لا مؤاخذة عليه، فالمؤمن مع زوجته المؤمنة هناك. ولا تدخل المرأة المؤمنة الجنة إلّا بعملها لا إكراماً لزوجها

---

(١) يس: ٥٥.

(٢) جامع البيان، المجلد ١٢، ج٢٣: ٢٢ / ٢٢٣٤٩، الجامع لأحكام القرآن ١٥: ٤٣.

(٣) البقرة: ٢٥.

لأنه مؤمن، قال تعالى: ﴿امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾[1].

فالأمر ليس بالتبعية وإنما هو بالعمل. يقول ﷺ: «اعملوا، والله لا أُغني عنكم من الله شيئاً»[2].

الرأي الثالث: أنها الأصناف التي ينتمون إليها

ومعنى ذلك أننا في الدنيا مثلاً لدينا أفكار متقاربة أو طباع متقاربة أو مهن متقاربة، وهؤلاء يضمّهم عنوان واحد، أو تراهم يميلون إلىٰ فكرة واحدة؛ فمثلاً هناك من يحب الخير، وهناك من يحب الشر والجريمة، فهؤلاء تجمعهم الجريمة، وأُولئك يجمعهم الخير. فهؤلاء أزواج بمعنى القرناء.

وقد دأب القرآن الكريم والحضارة الإسلامية على تصنيف الناس تبعا لذلك، ونذكر هنا نصوصاً موضحة لذلك:

أوّلاً: يقول المفسرون: إن النبي ﷺ لما أُسري به إلىٰ السماء، رأى أُناساً على هيئة القردة، فسأل جبرئيل ﷺ: «من هؤلاء؟». قال: «القَتَّاتون». يعني بذلك النمامين، الساعين بين الناس بالشحناء والبغضاء.

فالنمام ليس له عمل سوى أن ينقل من هذا لذاك، ويسعى بين الناس بالفساد والبغضاء، ولا تجد كلمة طيبة على لسانه أبداً، ولا تجد إلاّ كلمة السوء ينقلها ويحملها بين الناس. وهو عندما ينم فإنما يريد التقرب ممّن نمّ إليه، فهو يبين له أنه دافع عنه أمام فلان عندما ذكره بسوء. وهذه خصلة من خصال القرد؛ فكان الجزاء من جنس العمل الذي مارسه في الدنيا. وهؤلاء القتاتون جمعهم الفكر والخلق

---

(١) التحريم: ١٠.

(٢) كنز العمال ١٤: ٧٥ / ٣٧٩٧٦.

والصنف الواحد فهم أزواج حشروا علىٰ هيئة ما يعملون بعمله.

ثانياً: يقول المفسرون أيضاً: إن رسول الله ﷺ لما أُسري به رأى أقواماً يمضغون ألسنتهم فتسيل قيحاً، فيتقذَّرهم أهل الجمع، فقال ﷺ: «من هؤلاء ياجبرئيل؟». قال: «هؤلاء الخطباء والعلماء الذين خالفت أقوالَهم أفعالُهم».

ومن النوادر التي تُذكر في هذا المجال أن سقّاءً وجد عالماً على باب سلطان فقال له: لدي سؤال عن حكم شرعي وأُحب أن أسألك. فقال العالم مستنكراً: وهل هذا مكان للسؤال؟ فردَّ السقاء: وهل هذا موضع للعلماء؟

لقد أراد هذا السقاء أن يقول له: أنت عالم، ولا يليق بك أن تتسكّع على أبواب الظلمة، فأنت تنهانا أن نأتي أبواب الظالمين ونركن إليهم، وتذكرنا بقوله تعالى: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[1] ثم تأتي أبوابهم وتركن إليهم؟

فهؤلاء الخطباء والعلماء الذين يأمرون الناس بالبر، وتخالف أقوالَهم أفعالُهم تسيل ألسنتهم قيحاً، ويتقذرهم أهل الجمع.

ثالثاً: ويقول المفسرون أيضاً: إنه ﷺ رأى قوما مقطَّعة أيديهم وأرجلهم، فسأل جبرئيل ﷺ عنهم فقال: «هؤلاء الذين يؤذون جيرانهم»[2].

وهذه المشكلة أخذت تتضخّم في العصر الحديث، فقد كانت المنازل في القديم متباعدة، أما الآن فأصبح الناس يسكنون عمارات كبيرة، فيسكن بعضهم قرب بعض، وهنا يتضاعف أذى الجار لجاره، فمنهم من لا يهدأ صباحاً ولا مساء. فهؤلاء يحشرون مقطعة أيديهم وأرجلهم؛ لأن الجار ينبغي أن يكون عضداً لجاره، فهو أشبه بيده ورجله، لذا كان جزاؤهم من نوع العمل الذي مارسوه في الدنيا.

---

(١) هود: ١١٣.

(٢) انظر حول مسألة الإسراء والمعراج في بحار الأنوار ١٨: ٢٨٢ ـ ٤١٠.

فهذه الأصناف الثلاثة وغيرها أزواج، بمعنى القرناء المتشابهين المتقاربين في العمل أو السلوك، أو الطباع، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾[1]، ومعنى ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ هنا: أن القرين إلى جنب قرينه، فهؤلاء صنف واحد، وحقل واحد هو الحقل الإجرامي.

وهذه نظرية ضخمة ومهمة جداً، فعلماء الفقه الجنائي ينتقدون الآن نظرية السجون باعتبار أن من يخطئ خطأ بسيطاً كمن يخالف التسعيرة فإنه يؤخذ للسجن إلى جنب المجرمين المحترفين من السراق والقتلة، وبهذا سوف يتلوث هذا المخطئ بأجواء الإجرام، فهو في مدرسة لتعليم أساليب الإجرام. فينبغي أن يكون للسراق مكان معين، وللقتلة مكان معين، ولأمثال هذا المخالف لقانون التسعيرة مكان معين وهكذا، أما إذا جمعناهم معاً فإننا نعرض بذلك هذا المخالف للانهيار والدمار والسقوط في الجريمة.

فالقرآن الكريم يبين لنا أن المجرمين مقرنين، فهم أصناف منوّعة؛ فالقاتل مقرن الى القاتل، والسارق إلى السارق، وهكذا.

فمعنى ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي أصنافكم، وهذا المعنى واضح حتى في الدنيا، فملاحظ أن هنا في الدنيا كلّ صنف يميل إلى صنفه، ويسعد بهم ويأنس بالاجتماع بهم، فالعالم يأنس بالعلماء والتاجر بالتجار، وهؤلاء أزواج بمعنى متشاكلين[2]، ولذا نقول عن الشيئين المتشابهين: إنهما زوج.

---

(١) إبراهيم: ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) قيل: الطيور على أشكالها تقع. روضة العقلاء ١: ١٠٨، السيف الصقيل: ٩٣.

المبحث الرابع: في معنى ﴿تُحْبَرُونَ﴾

ثم قال تعالى: ﴿تُحْبَرُونَ﴾، وفي هذا المعنى ثلاثة آراء أيضاً:

الرأي الأوّل: أنه معنى تُكرمون

فالعطاء قد لا يشتمل على الإكرام، فما كلّ من أعطى أكرم المُعطَى، فقد يُعرِّضه لبيع ماء وجهه أو للامتهان أو لكلمة نابية أو لموقف خشن، فلا يحصل الإكرام بمعناه. يقول أحد أصحاب الإمام الرضا: كنت جالساً عند الإمام الرضا، فدخل عليه رجل طوال آدم، فقال: السلام عليك يابن رسول اللّه، رجل من محبيك ومحبي آبائك وأجدادك، مصدري من الحج، وقد افتقدت نفقتي، وما معي ما أبلغ مرحلة، فإن رأيت أن تُنهضني إلى بلدي ولله علي نعمة، فإذا بلغت بلدي تصدقت بالذي توليني عنك فلست موضع صدقة. فقال له: «اجلس رحمك الله». وأقبل على الناس يحدّثهم حتى تفرّقوا فقال: «أتأذنون لي في الدخول؟». فقال له سليمان: قدم الله أمرك. فقام فدخل الحجرة وبقي ساعة ثم خرج وردّ الباب وأخرج يده من أعلى الباب وقال: «أين الخراساني؟». فقال: ها أناذا. فقال: «خذ هذه المئتي دينار واستعن بها في مؤونتك ونفقتك وتبرك بها، ولا تَصَدَّق بها عني، واخرج فلا أراك ولا تراني». ثم خرج، فقال له سليمان: جعلت فداك لقد أجزلت ورحمت، فلماذا سترت وجهك عنه؟ فقال: «مخافة أن أرى ذلّ السؤال في وجهه، لقضائي حاجته. أما سمعت حديث رسول الله: المستتر بالحسنة يعدل سبعين حجة، والمذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بها مغفور له؟ أما سمعت قول الأوّل:

إذا جئته يوما اليه بحاجة رجعت إلى اهلي ووجهي بمائه»[1]

---

(١) الكافي ٤: ٢٤ / ٣، مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٧٠.

وهذا المعنى هو الذي يذكره أمير المؤمنين‌ﷺ بقوله: «السخاء ما كان ابتداء، فأما ما كان عن مسألة فحياء وتذمّم»[1]. فمعنى تُحبرون هنا أي تكرمون. فالطلب من الله ليس فيه ذل أبداً، فإن حصل هذا المعنى عند العباد فلا معنىً له عند الله. يقول الشاعر:

ربي روحي طليقةٌ في مناجا ... تك والجسمُ مُصفَدٌ مكبولُ

بَعُدَ الفرقُ بين روحي وجسمي ... جسدي آثمٌ وروحي بتولُ

وأنا السائلُ الملحُّ ويجلو ... وحشةَ الذلِّ أنك المسؤولُ

فليس من ذل في أن تمد يدك إلىٰ الله عز وجل، فعطايا الله ليس فيها مَنٌّ أبداً.

الرأي الثاني: أنه بمعنىٰ تفرحون

فليس كلُّ مُعطىً يشعر بالسعادة، فقد تدخل في الدنيا إلىٰ بيت من البيوت الفخمة ولا تجد فيه من يشعر بالسعادة أبدا، فتشعر كأنك في مقبرة، فالعلاقات فيه متوترة، والسعادة بعيدة عنه، والهموم متجمعة فيه. وقد تدخل بيتاً متواضعاً فتجد السعادة في كلّ ناحية من نواحيه. فالسعادة لا علاقة لها بالأموال، فقد تجد من يعيش على الذهب وفي داخله مأتم، وقد تجد من يعيش على رغيف من الخبز ووجهه يطفح بشرا وطلاقة فلا تطلب السعادة بالمال، ولا بالجاه:

والذي نفسُه بغير جمالٍ ... لا يَعدُّ الحياةَ شيئاً جميلا

ولهذه تأتي الإرشادات بالقناعة، فليس من شك أنك لو شئت أن يعطيك الله ما يكفيك، فالدنيا كلّها لا تكفيك، وإذا أردت ما يكفيك حقاً فما عليك إلاّ بالقناعة،

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٥٣.

فهي «كنز لا يفنى»[1].

ويقول أمير المؤمنين ﷺ: «القناعةُ كنزٌ لا ينفد»[2]. وليس معنى القناعة الكسل، لكن الإنسان إذا وصل إليه ما أعطاه الله عز وجل فعليه أن يقنع، ولا يُهلك نفسه حسراتٍ على الدنيا. هذا هو معنى القناعة، فالقناعة تخلق عند الإنسان شعوراً بالسعادة، أما الجشع فيجعل الإنسان يكدُّ في هذه الدنيا ثم يخرج وهو غير راضٍ.

الرأي الثالث ـ وهو رأي غريب ـ: أنه تحبرون بلذة السماع

ومعنى ذلك أن كلّ عضو من أعضاء الإنسان له لذة خاصة به، ولذة الأُذن السماع، فهي تلتذ بالنغمة، فهؤلاء الداخلون للجنة هم وأزواجهم يحبرون بهذه اللذة، وهي الموسيقى، فهم يسمعون الأنغام والموسيقى هناك.

يقول عبد الله بن عباس: لا تظنوا أن الأسماء التي عندكم هنا في الدنيا، وذكر القرآن أنها في الجنة هي بذاتها فيها، بل ليس عندكم منها هنا إلّا الأسماء، أما في الجنة فهي تختلف عما عندكم[3]. فعندما يقول القرآن ﴿أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ﴾[4] فليست كالخمر التي عندكم في الدنيا، وعندما يقول: إن في الجنة لبناً فليس كلبنكم هذا. وهكذا في الغناء والموسيقى، فهي هناك ليست كما هي هنا في الدنيا، فلو كان مثل هذا الغناء الذي في الدنيا، فلماذا يحرم الله هذا الغناء؟

في حدّ الغناء

وبما أننا مررنا بهذه النقطة التي هي محل ابتلاء، فدعنا نوضح ما تحتاج إليه من

---

(١) مشكاة الأنوار: ٢٣٣، العهود المحمدية: ١٣٣.

(٢) روضة الواعظين: ٤٥٤.

(٣) نسخة وكيع: ٥٤، تفسير الثعالبي ١: ٢٠٠، فتح القدير ١: ٥٥.

(٤) محمد: ١٥.

توضيح فنقول: ما هو تعريف الغناء؟ الغناء: هو الصوت المرجَّع المطرِب. دخل عبد الأعلى على الإمام الصادقعليه السلام فقال له: يابن رسول الله، إن القوم يروون أنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: «يجوز أن يقول القائل: جئناكم جئناكم حيونا حيّونا نحييكم». يعني بذلك أغنية من هذا النوع، فقال الإمام الصادقعليه السلام: «كذبوا، إن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾[1]»[2].

ونفهم من الرواية أن المحرَّم هو الكيفية الصوتية لا الكلامية، فالمفردات ليس فيها محرم كما نرى في الرواية، فالإنكار على الأداء الغنائي لهذه الألفاظ.

فالغناء إذن: الصوت المشتمل على ترجيع مطرب، أي إنه الطريقة التي تؤدّىٰ بها الألفاظ.

وهناك روايات تذهب إلىٰ أن الغناء في المفردات نفسها لا في الصوت فقط، فهناك كلمات تخدش الحياء، كمن يصف مفاتن المرأة ومحاسنها على وجه التفصيل بما يخدش الحياء، سأل أحدهم الإمام الصادقعليه السلام عن قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[3] قال الإمامعليه السلام: «الرجس هو الشطرنج، وقول الزور هو الغناء»[4].

ونفهم من هذه الرواية أن الغناء هو التلفظ بكلمات الزور أو الكلمات التي يتداولها أهل الفسوق.

---

(١) الأنبياء: ١٧ ـ ١٨. (٢) الكافي ٦: ٤٣٣ / ١٢.

(٣) الحج: ٣٠.

(٤) الكافي ٦: ٤٣٥ / ٣، ٤٣٦ / ٧. ومثلها قولهعليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ الفرقان: ٧٢. قالعليه السلام: «الغناء». الكافي ٦: ٤٣١ / ٦، ٤٣٣ / ١٣.

وهناك قسم ثالث من الروايات يقول: الغناء يصد عن سبيل الله فليس المعتبر فيه الصوت ولا الكلام، انما الغناء ما يشغل عن طاعة الله[١]؛ فهو محرم بهذا اللحاظ.

وقسم رابع من الروايات ينصبُّ على ما صاحبَ الغناء من آلات الطرب والجواري والرقص وغير ذلك[٢].

ويذهب أغلب فقهائنا إلىٰ الكيفية والأداء، أي الصوت المشتمل على الترجيع المناسب لالحان أهل الفسوق، وهذا الموضوع أشبعه الشيخ مرتضى الأنصاري ﷺ في المكاسب[٣]، وهناك مؤلفات أُخرىٰ[٤] أيضا استوعبت كلّ جوانبه.

أما عند المذاهب الإسلامية الأُخرى فهو مكروه[٥]، وبعضهم يستدل على الاباحة بما ورد من أن حسان بن ثابت مرَّ على جارية تغني فاستمع اليها، ثم دخل على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أعلي حرج في ذلك؟ قال ﷺ: «لا حرج عليك»[٦].

وينقل ابن قدامة في (المغني)[٧] عن أحمد، وأبو إسحاق الشيرازي في (المهذب) عن الشافعي إنه لا يرى كراهة في الغناء أبداً، فينقل عن الشافعي قوله:

---

(١) الارشاد ١: ٢٩٧. (٢) بحار الأنوار ٧٦: ٢٤.

(٣) انظر المكاسب المحرّمة ١: ٢٨٥ ـ ٣١٥ / المسألة: ١٣.

(٤) انظر مسالك الأفهام ١٤: ١٧٩ ـ ١٨١، المغني ١٢: ٤١، ونقل إباحته عن أبي بكر الخلاف وعبد العزيز.

(٥) المدوّنة الكبرىٰ ٤: ٤٢١، وفيها: أن مالكاً يكره بيع كتب الفقه ويكره الغناء.

(٦) قريب منه في كنز العمال ١٢: ٣٣٨ / ٣٦٩٥٣، وفيه: عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج وقد رش حسان فناء أطمة وأصحاب رسول الله ﷺ سماطان، وبينهم جارية لحسان يقال لها سيرين معها مزهر لها تغنيهم وهي تقول في غنائها:

هل علي ويحكم إن لهوت من حرجْ

فتبسم الرسول ﷺ، وقال: «لا حرج».

(٧) المغني ١٢: ٤١، ٤٢، وفيه أن أحمد سمع غناء عند ابنه ولم ينكر عليه.

ما رأيت أحدا من علماء الحجاز يُكرِّه الغناء.

أما الغزالي فقد عقد فصلاً كبيراً في الباب الأوّل من كتابه (إحياء علوم الدين) في باب الوجد والسماع، يقول: إن حرمة الغناء لا مدخل للعقل فيها، فنرجع فيها للنص الشرعي، وليس هناك نص شرعي على حرمته، وليس لدينا قياس يُحرمه. ثم يستدل بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾[1]، فيقول: إن الغناء زينة، ويستدل بمفهوم الآية: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[2]. فعندما يكون صوت الحمار أنكر الأصوات فهذا يعني أن الأصوات الجميلة يسوغ سماعها.

ويقول الغزالي أيضا: إن الله أباح أشياء معينة لأعضاء الإنسان، فالعين تلتذّ بالمنظر الجميل وليس في ذلك حرام، والأنف كذلك يشم أنواع الروائح ويلتذ بها وليس في ذلك حرام، وكذلك اللسان وغيره. فالأذن كذلك تسمع تغريد البلابل، وأصوات الطيور، وخرير الماء فتلتذ بذلك، فلماذا يحرم سماع الغناء؟ ومن جملة استدلالات الغزالي أيضاً أن النبيﷺ عندما دخل المدينة في هجرته استقبلته نساء المدينة وبأيديهن الدفوف، وقد صعدن إلى السطوح وهن يرددن:

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالامر المطاع

ولم ينههن النبيﷺ عن ذلك، وفي هذا دليل على الإباحة. هذه وجهة نظر الغزالي.

---

(١) الأعراف: ٣٢. (٢) لقمان: ١٩.

أما فقهاء الإماميّة فهم مجمعون على الحرمة[١]، وكثير من فقهاء المذاهب الأُخرى ينفردون أيضا في القول بالحرمة[٢].

ويقال للغزالي: هل كان في ذلك الشعر والأصوات ترجيع مطرب يقتضي الحرمة، أو كان ضربا بالدفوف للتعبير عن الفرحة؟ وعلى العموم فنحن نجهل الأجواء التي كانت هناك عند دخول النبي ﷺ فلا يمكننا الجزم بكون ذلك غناء كي نستدل على الحرمة أو الإباحة.

نعم، إن المدينة فرحت فرحاً عظيماً بدخول النبي ﷺ، ولم يدخل النبي ﷺ حتى لحق به علي عليه السلام. فقد كتب ﷺ لعلي عليه السلام: «احمل إليّ الفواطم». فخرج أمير المؤمنين عليه السلام يقود ظعينة الفواطم، وهن: فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ قبل أن يتزوج بها أمير المؤمنين عليه السلام، وفاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين عليه السلام، وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب، وكان معه أيمن بن أم أيمن، وأبو واقد الليثي، فلمّا لحقته قريش ألحّ أبو واقد الليثي على النياق ـ وكان سائقها ـ لأنه خاف قريشاً وسطوتها، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «رفقاً بالفواطم». فإنهن لم يتعودن السير والألم والشمس[٣]. فأخذ هذا المعنى السيد حيدر الحلي رحمه الله فوجهه إلى حادي نياق الطف، فخاطبه:

فترفّقْ بها فما هي إلّا	ناظرٌ دامعٌ وقلبٌ مروعٌ
لا تسفها جذبَ البُرى أوَتدري	ربّةُ الخدر ما البُرى والنُّسوعُ

---

(١) النهاية: ٣٦٥، تحرير الأحكام ٢: ٢٥٩، إيضاح الفوائد ١: ٤٠٥.

(٢) المجموع شرح المهذب ١٢: ٣٢٢، نقله عن مالك، البحر الرائق ٨: ٣٦، حاشية ردّ المحتار ٤: ٥١٦.

(٣) انظر شجرة طوبى ١: ٦٤ ـ ٦٦.

وقد نظر الإمام السجادﷺ ليلة، فوجد عمّته تصلّي من جلوس، فقال لها: «ياعمة، هذا خلاف عادتك، فأنت صلّيت واقفة حتى في الليلة الحادية عشرة من المحرم؟». قالت: «يابن الأخ، من الضعف الذي ألمّ بي»:

شصار بأهالينا ونسونه   بديار غربه ضيعونه

نشچي التعب ما يرحمونه

فترفقْ بها فما هي إلّا   ناظر دامع وقلب مروع

* * *

ندبت ندبها على البين ثكلى   ودم الدمع بالخدود استهلا

يا مُجدُ السرى رويدك مهلا   (فترفق بها فما هي الا

ناظر دامع وقلب مروع)



﴿٦٩﴾

فلسفة الجهاد عند أمير المؤمنين عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: لمحات من جهاده عليه السلام بالسيف

الجهاد كما يُعرّفه الفقهاء هو: بذل النفس والمال في سبيل إعلاء كلمة الله[2]، وهو مشتق من الجهد والتعب الذي يبذله الإنسان في سبيل ذلك. وانطلاقاً من هذا فإن أي نشاط يستهدف إعلاء كلمة الإسلام، وخدمة دين الله يكون جهاداً. فإذا وُجد مضمون التعريف السابق للجهاد في أي عمل فإنه يعتبر جهاداً.

ولعل الجهاد هو أبرز الملامح في حياة أمير المؤمنين عليه السلام، وسوف نتناول هذا الجانب من جوانب حياته؛ لنرىٰ كيف أن الجهاد انبسط على كلّ أبعاد حياته؛ فهو مجاهد بالسيف والقلم والكدح والكدّ على العيال.

ولم يكن علي عليه السلام يرى أن عياله من يدور عليهم سور بيته، إنما كان يرىٰ المسلمين عيالاً له. فدعنا نظر بعض صفات الجهاد في حياته: فعلي عليه السلام لازمه

(١) النساء: ٩٥.

(٢) الروضة البهية ٢: ٣٧٩.

الجهاد من بواكير حياته، وشاء الله له أن يقترن بالدعوة الإسلامية ولا يبعد عنها. والدعوة الإسلامية لم تكن تلاقي طريقاً سهلاً سمحاً، وإنما كانت تحتاج دائماً للجهاد؛ لما كانت تواجهه من صدّ من المشركين، فانبرى هذا الرجل للجهاد منذ أن ترعرع.

جاء الإسلام وعلي صبي، فكان يضع يده على حسامه ويمشي وراء النبي أينما ذهب، فيذود عنه المشركين المعتدين.

ثم نزلت أول سورة من القرآن الكريم، فوعاها علي بن أبي طالب ﷺ، وخرج رسول الله ﷺ يبلغ بها فتبعه علي ﷺ ويده على قائم سيفه. ومرت الأيّام، ولم يؤذَن للنبي ﷺ بالقتال في مكة، فمكث علي ﷺ معه لمجرد حمايته من الأعداء، ثم بدأ الجهاد الفعلي عنده عندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة، واستدعى علياً ﷺ وطلب منه أن ينقل ظعينته إليه. ومن هنا تبدأ نقطة حاسمة في تأريخه، فهو ﷺ خرج وهو لا يزال صبيّاً، وكانت قريش يومذاك بعنفوانها وقوتها وعددها وعديدها، فيما كان المسلمون يعدون بالأنامل، وخرج علي ﷺ يتحداهم، عندما أمره النبي ﷺ أن ينقل الظعينة، فأخرج الظعينة وهو صبي لم يتجاوز العشرين ـ أو تجاوزها بسنة ـ وقبل خروجه مر على نوادي قريش، فقال لهم: «**يا معشر قريش لا تقولوا: جبن ابن أبي طالب وخرج من حيث لا نشعر، ها أنا ذا خارج بظعينة محمد ﷺ ومن أحب منكم أن يتبعني فليفعل**». فخرج وليس معه إلّا شخصان: سائق للنياق وقائد لها، وهو ثالثهم وانبرت له قريش بما تملك من جبروت وطغيان، وانبرى لهم علي ﷺ، فاستبقهم وضرب عبداً لأبي جهل سبق إليه، فقده بسيفه فتراجع عنه القوم، وأقبل بظعينة النبي ﷺ إلى أن دخل إلى

المدينة[١]. فالنقطة الحاسمة في حياته عليه السلام ابتدأت من ذلك اليوم.

وما كادت قدمه تطأ تراب المدينة حتى تهيأ للجهاد بالسيف بأوسع ما لهذه الكلمة من معنى، دعنا نرَ ما يصفه به رسول الله صلى الله عليه وآله وقد استدعاه يوماً فقال له: يا «علي أنت يعسوب المؤمنين» أو «يعسوب المسلمين»[٢]. يقول أهل اللغة: إن اليعسوب هو ذكر النحل الذي تحتمي به جماعة النحل أو المستوطنة[٣]، ويكون أمامها. فالنبي صلى الله عليه وآله يقول لعلي عليه السلام: «أنت يعسوب المسلمين» أي يحتمي بك المسلمون. وقد كان حقاً الذائد عن الإسلام والمسلمين في غزواته وحروبه وإن أراد التاريخ أن يقف موقفاً غاية في السلبية. فمثلاً يقول أرباب السير: لما نزل علي عليه السلام إلى عمرو بن عبد ود توَّجهُ النبي صلى الله عليه وآله بقوله: «والله لضربة علي عليه السلام لعمرو ابن عبدود تعدل عبادة أُمتي إلى يوم القيامة»[٤]. ويمر الذهبي على هذه الكلمة في (ميزان الاعتدال) فيقول: لا شك في أن هذا الحديث موضوع؛ فلا يمكن أن تكون ضربة تعدل عبادة الأُمة.

ويقال للذهبي: إن عشرات المصادر من مختلف كتب المسلمين ذكرتها، وبطرق موثوقة وصحيحة، ولكنها لعلي بن أبي طالب عليه السلام!

يعقب أحد علمائنا على ذلك فيقول: والله لو شهد الثقلان، وجاءت الملائكة وشهدت لَكذَّبها الذهبي.

ومن نعم الله تعالى علينا أن نجد شيئاً من سيرة علي عليه السلام في تأريخنا، لأن المتتبع إذا وقف على العقبات التي وُضعت بين الناس وبين علي بن أبي طالب عليه السلام

---

(١) شجرة طوبى ١: ٦٤ ـ ٦٦. (٢) المعجم الكبير ٦: ٢٦٩.

(٣) غريب الحديث ٣: ٤٣٩ ـ عسب، لسان العرب ١: ٥٩٩ ـ عسب.

(٤) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٥٧، عوالي اللآلي ٤: ٨٦ / ١٠٢، ينابيع المودّة ١: ٤١٢ / ٥.

فسيعرف ما في التأريخ من دواهٍ حالت بيننا وبين الوصول إلى ما ورد في علي عليه السلام في مختلف الأبعاد. فمن نعم الله تعالى علينا أن نحصل على شيء من الروايات التي تذكر الحقائق عن هذا الرجل، ورحم الله من قال:

والحق ينطلق منصفاً وعنيدا

يقول أحد الأدباء:

سيدي يا أبا تراب عجيبٌ	لو تأتّى لنا إليك وصولُ
فبراكينُ الحقدِ ألهبت التأ	ريخ واستلهمتْ لظاها النقولُ
ولها من دمٍ بسيفك في عد	سيا قريش مبرّرٌ مقبولُ
كتبتْها أوشالُ بدرٍ وأحدٍ	وإلى الآن خبلُها موصولُ
هو صوت الأحقاد هيهات يعلو	ولو استُنفرت إليه الطبولُ
أرسلتْهُ السما لأحمدَ وحياً	في عليٍّ وجبرئيلُ الرسولُ

فالحمدُ لله أن في التأريخ شيء من الضمير الحيّ الذي يفتح لنا منفذاً للوصول إلى حقيقة هذا الرجل، وإلا فقد وقف التأريخ والمؤرخون من هذا الرجل موقفاً شديد العداوة، ونحنُ نعرفُ أن التأريخ كتبه أعداء علي عليه السلام، في الفترة الملغمة التي أعقبت مقتل أمير المؤمنين عليه السلام، وماذا تنتظر من الحجاج بن يوسف والي الأمويين على الكوفة إذا أراد أن يكتب تأريخ علي عليه السلام! الحجّاج هذا الذي يصعد على منبر الكوفة فيقول: إن هؤلاء المسلمين لا يعقلون، فهم يطوفون حول قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وليس فيه غير العظام البالية، لم لا يطوفون بقصر عبد الملك بن مروان؟[1].

---

(١) الكامل في الأدب ١: ٢٢٢، وقال المبرد فيه: إن ذلك ممّا كفّرت به الفقهاء الحجّاج، شرح

أوَتظن أن والياً مثل هذا يحمل للنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته أو لعلي عليه السلام شيئاً من الاحترام أو التقدير؟ أوَتظن أن أمثال هذا كالزهري الذي عاش على موائد الأمويين وأموالهم وجوائزهم يستطيع أن يكتب شيئاً يُثني به على علي بن أبي طالب عليه السلام.

فمن النعم أن يتسرّب شيء من الحقيقة من بعض المنافذ فيما يسلط الضوء على حياة أمير المؤمنين عليه السلام وإلا فمواقفه من الشجاعة لا يستطيع أن يبرهن عليها الإنسان، فقد بدأ منذ أن وطئت أقدامه المدينة ينزل في لهوات الحرب، وعلى الصورة التي رواها لنا التأريخ.

يقول بعض المؤرخين: أهدى رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي بن أبي طالب عليه السلام فرساً، فقال عليه السلام: «مالي وللخيل يارسول الله». قال صلى الله عليه وآله: «لماذا؟». قال: «إني لا أتبع مُدبراً، ولا أفر من أحد وإذا ارتديت سيفي لا أضعه إلا لمن ارتديت له السيف». ولذلك كان يمتطي بغلاً إذا نزل للحرب، فكان لا يتبع مدبراً، ولا يفر من أحد، وكانت الفرسان تتحاشاه. وقد سمعه تأريخ الحروب وهو يقول:

«قد عرف الحرب العوان أني	بازل عامين حديث السنّ[1]
سنحنح الليل كأني جنّي	أستقبل الحرب بكلّ فنّ
معي سلاحي ومعي مجنّي	وصارم يُذهب كلّ ضغنِ
أمضي به كلّ عدوّ عنّي	لمثل هذا ولدتني أمّي

☚ نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(١) البازل: الكامل المعرفة. المعجم الوسيط: ٥٤ - بزل. يريد عليه السلام أنه عرك الحروب وهو صغير السن. أو هو من «بزل السنّ» إذا طلع.

ما ترقب الحرب العوان مني»[1]

بدأت الحروب تتوالى، وهو يعسوب المسلمين أمامهم، يحملُ اللواء، ويدف إلى الحرب ويرجع وقد كلِّلت جسده الأوسمة، يقول المجلسي: «مرّ عليه رسول الله ﷺ عند منصرفه من واقعة أُحد، فرآه ينقل القتائل من جرح إلىٰ جرح، وكان فيه ثمانون جرحاً. ونظر إليه كأنه مُضغة (قطعة من اللحم) موضوعة على نُطع، ومن حوله من يضمد جراحه، فبكى رسول الله ﷺ وقال: «حقٌّ لمن أُصيب لله بهذا أن يفعل الله به كذا وكذا، ويعطيه كذا وكذا». وأخذ النبي ﷺ يعدّد ما أعدّ الله له، فقال: «يا رسول الله، إني حمدتُ الله أني ما ابتعدت عنك، ولا فررتُ، وسأبقى ذلك المقاتل بين يديك». فقال النبي ﷺ: «إن بينكم وبين أبي سفيان موعداً، وقد أرسل لي أنه سيلاقيكم عند حمراء الأسد». فالحرب لم تنتهِ، فقال ﷺ: «والله يا رسول الله، لو حملوني على الأيدي ما تركت القتال بين يديك ولا فررت عنك»، فنزلت الآية: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾[2] الآية».

انظر إلىٰ عبارة الشيخ المجلسي ﷺ: «كأنه مُضغة» وهو مع ذلك يداوي جراحه، ويرمي السيف إلى فاطمة ﷺ ويقول:

أفاطمُ هاكِ السيف غير ذميمِ ... فلست برعديدٍ ولا بمُليمِ
لعمري لقد بالغتُ في نصر أحمدٍ ... وطاعة ربٍّ بالعباد رحيمِ[3]

---

(١) الكافي ٨: ١١٢ / ٩١، ونقل بعضها كلّ من محمد بن سليمان الكوفي في مناقب أمير المؤمنين ﷺ ٢: ٥٦٩، الفائق في غريب الحديث والأثر ١: ٩٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ١٦١، المناقب (الخوارزمي): ١٥٨. (٢) آل عمران: ١٤٦.

(٣) الإرشاد ١: ٩٠، الأمالي (الطوسي): ١٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ٣٥، المستدرك على الصحيحين ٣: ٢٤، مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ٦٧، وغيرها كثير.

وأي واقعة خاضها المسلمون لم يكن لعلي عليه السلام فيها الساعد الأطول؟ أربع وثمانون غزوة ما تخلّف فيها علي عليه السلام عن ساحات الجهاد، وكان المجاهد الأول والمدافع عن حمى المسلمين. وقد رسم لنا القرآن أوقاتاً من أحرج ما مر على المسلمين، ورسم لنا التأريخ وقوف علي عليه السلام فيها ممّا وصل إلينا من بعض الضمائر الحيّة. يقول القرآن الكريم ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾[1]، في مثل هذا الموقف ينزل علي عليه السلام ليقول:

نصرَ الحجارةَ من سَفاهةِ رأيِـه	ونصرتُ دينَ محمدٍ بصوابـي
فــضربته فــتركته مــتجدلاً	كـالجذع بـين دكـادكٍ ورَوابِ
وعففتُ عـن أثـوابـه ولـو انـني	كـنتُ المُـجدّل بـزّني أثـوابـي
لا تــحسبنَّ الله خـاذل ديـنه	ونـبيّهُ يـا مـعشر الأحـزابِ[2]

فهذا الصوت الذي انطلق في الملاحم مدوياً، وذلك الساعد الذي امتد ليفري، وذلك الرمح الذي كان ينال الأبعد، وتلك الروح الكبيرة التي ما وهنت ولا ضعفت أبداً في أي مرحلة من مراحل حياتها، كل هذه سوف تبقىٰ هكذا، ويبقى صوت الجهاد مدوياً في حياة علي، ويبقىٰ علي عليه السلام السيف الذي زكته السماء بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾[3].

ولم يكن جهاد علي عليه السلام سوى ابتغاء مرضاة الله، فهل ذكر لنا التأريخ بأن علياً عليه السلام جاهد لنيل منزلة من المنازل؟ أو ليحوز شيئاً من الأموال؟

---

(١) الأحزاب: ١٠.

(٢) شرح الأخبار ١: ٢٩٤ ـ ٢٩٦، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٣٣ ـ ١٣٤، البداية والنهاية ٤: ١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) البقرة: ٢٠٧. وانظر الإيمان: ٣٠٣، شواهد التنزيل ١: ١٣٠ / ١٤٠ ـ ١٤١.

لقد امتدّت مرحلة الجهاد بالسيف على مدى ثمانين غزوة وكلها في سبيل الله تعالى، بحيث أصبح الحديث عن جهاد علي﵇ لا يستأثر بالاهتمام؛ لأنه أصبح من الضروريات، فالمتحدث عنه كالمتحدث عن نور الشمس بقوله: «الشمس مضيئة».

ولذا يُعقِّب بعض العلماء على كلمة النبيﷺ في علي﵇: «لَضربة علي لعمرو تعدل عبادة أمتي»، بقوله: «فلو لم يُقتل عمرو بن ود ذلك اليوم، ولم يُهزم الأحزاب لأصبح الإسلام في الأمس الدّابر».

فهو إذن المجاهد بالسيف، وله من جراحاته ومواقفه شواهد وشواهد لا تندثر على مدى التأريخ، ولا تمحوها الأيام، ثم يمتدُّ هذا الجهاد في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين، يقول المؤرخون عنه يوم الجمل: نزل علي﵇ ودفع اللواء لولده محمد بن الحنفية وقال له «تِدْ في الأرض قدمك، عضَّ على ناجذك». فلما نزل محمد أتته رشقة من السهام فتلكأ قليلاً لتنكشف السهام، فما أحس إلا بنَفس أبيه بين كتفيه وهو يقول: «أدركك عرق من أُمك؟». ثم أخذ الراية فهزها، ثم قال:

« اطعن بها طعن أبيك تحمدِ ... لا خير في الحرب إذا لم توقدِ

بالمشرفي والقنا المسدّدِ »

ثم حمل وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصرة[1].

يقول المؤرخون: كان للضرب على البَيض والهامات قَرعٌ، ونزل علي﵇ فما رده أحد حتى انتهى إلى الجمل فطعنه ورجع. ووقف بعد الواقعة على مصارع أعدائه، فلم يكن يهون عليه أن ينظر إلى جملة من رُفقاء السلاح الذين قادهم

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٢٤٣.

سوء الطالع أن يُقتلوا، ولقد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «ويلٌ لمن سل سيفه عليك، وسللت سيفَك عليه».

المبحث الثاني: لمحات من جهاده عليه السلام بالقلم والفكر

هذا في ساحة الحرب، أما الجهاد على مستوى القلم، وفي ساحة الفكر، فبين أيدينا تأريخ المسلمين والعلوم الإسلامية، فهل ترى ـ بالله عليك ـ مكاناً خالياً من أثر لعلي عليه السلام[1]؟ كلا، إنك تجد آثاره في كلّ مكان بالرغم مما ذكرناه سلفاً من أن الأقلام حاولت أن تُلقي ستاراً على نشاطه عليه السلام في كلّ أبعاد المعرفة، ولكن شاء الله لهذا الرجل أن يبقى كالشمس الطالعة لا يسترها الغربال. قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «يا أبا الحسن، ليُهنك العلم، فلقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً»[2]. فأخذ علي عليه السلام هذا العلم ليجنده للجهاد في سبيل الله.

تأمل معي قليلاً في (نهج البلاغة)، ولنمر بهذا الكتاب الذي حاول البعض أن يُبعده عن علي عليه السلام؛ لما فيه من جموح العبقرية، وهي محاولة من المحاولات التي كان هدفها التغطية على جهاده، فقيل: إنه منحول وليس لعلي عليه السلام. ودعنا نمر لننظر نظريات علي بن أبي طالب عليه السلام، فكل خطبة من خطبه في (نهج البلاغة) تتضمن من أبعاد المعرفة ما يملأ النفس إعجاباً. وكان عليه السلام في حياة النبي صلى الله عليه وآله هو المسدد، فيشير إليه النبي ويُحيل السائل إليه، وذهب إلى اليمن فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله، ومسح بيده على صدره، وما ابتعد عن ساحة المعرفة ساعة من الساعات في حياة النبي صلى الله عليه وآله.

---

(١) قد مرّ في ج ١ ص ٣٤٨ سؤال الحجّاج من الحسن وعامر الشعبي وواصل بن عطاء وعمرو ابن عبيد حول مسألة القضاء والقدر، وكيف أجابوه كلّهم بما وردهم عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهذا مثل متواضع من دوره عليه السلام في مجال الفكر والعلوم.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٤٩٢ / ١٠٧٧، كنز العمال ١٣: ١٧٧ / ٣٦٥٢٤.

ثم جنَّد نفسه بعد وفاة النبيﷺ لخدمة المسلمين في حقول المعرفة، فنرى مجالس الخلفاء الثلاثة تحفل بالكثير من القضايا كان علي بن أبي طالب﷣ ينبري للإجابة عليها، بل إن معاوية كما ذكر ابن عبد البر في (الاستيعاب)، كان إذا نزلت به ملمة أو مسألة علمية يُرسل إلىٰ علي﷣ يسأله، ولا يبخل علي﷣ بالإجابه عليه مع ما كان بين الأُمويين وبينه﷣، ولكنه﷣ كان يرى في ذلك نوعاً من أنواع الجهاد في ساحة المعرفة وفي سبيل الله. ولم يتوانَ في تجنيد قلمه وفكره في أيام الخلفاء أو في أيامه هو لخدمة المسلمين، حتى سُئل ابن عباس عن مقدار علمه قياساً لعلم علي﷣ فقال: «كقطرة إلىٰ بحرٍ محيط»[١].

لقد أجاب علي﷣ عن جملة من القضايا، وبين تفسير الآيات، وترك لنا تراثاً ضخماً في هذا المجال، وبوسعك أن تعود إلىٰ (نهج البلاغة)، فترى لعلي﷣ رأياً في الاجتماع، وفي التربية، وفي السلوك.

يقول﷣: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»[٢]، ويقول﷣: «من كانت هِمَّتُهُ بطنُه كانت قيمتُه ما يخرج منها»[٣]، ويقول﷣: «المرء مخبوء تحت طي لسانه»[٤] لا تحت طيلسانه.

يُقَيِّم علي﷣ أبعاد الحياة كلّها فيربطها بوجه الله عز وجل، فيضيف عليها المعنى الجهادي، ويريد لكل نشاط أن يُجنَّد في سبيل الله.

وهكذا ترك لنا ثروة ضخمة في (نهج البلاغة)، وكان يتصدّى بنفسه للإجابة،

---

(١) الصراط المستقيم ١: ١٥٥. (٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٨١.

(٣) لم نعثر عليه، وفي عيون المواعظ: ١٢٤، أنه﷣ قال: «أمقت العباد إلى الله من كان همّه بطنه وفرجه».

(٤) نهج البلاغة / الحكمة ١٤٨، ٤٩٢، عيون الحكم والمواعظ: ١٨، ٢٠١.

وكان يجول في أسواق المسلمين منذ الصباح الباكر أيام خلافته، ثم يعود ليجلس على دكَّة القضاء ويتصدى للإجابة عن مسائل ومرافعات الناس.

جاءه يوماً طفل يبكي، فسأله‌ﷺ: «ما بالك؟». قال: سيدي هؤلاء الأربعة خرجوا بأبي إلىٰ السفر، ورجعوا ولم يرجع أبي، وادَّعوا أنه فُقِد، ولم يُعيدوا إليَّ شيئاً من أمواله. فقال‌ﷺ: «وهل ذهبت إلىٰ القضاء؟». قال: نعم، ذهبت إلىٰ شريح فطلب مني أن آتيه بشهود بينة على أنّ أبي كان معهم، ومعه كذا من الأموال. فاستشهد‌ﷺ بهذا البيت:

أوردها سعدٌ وسعدٌ مشتملْ   ما هكذا تورِدُ يا سعدُ الإبلْ

ثم قال: «أهون السقي التشريع»، وهذا مثلٌ يضرب لمن لا يُتعِب نفسه في استخراج الفكر، أو في تناول أي شيء، ومعناه أن أسهل ما في سقي الإبل وجود شريعة على حافة البئر، فإذا وُجِدت الشريعة فلا يتعب الساقي في سقي إبله. فالإمام‌ﷺ يقول عن شريح: إنه لم يُتعب نفسه في استخراج الدليل والتوصل إلىٰ النتيجة. ثم قال ﷺ: «هاتوا إليَّ هؤلاء الأربعة»، فأمر بتفريقهم ثم جيء بواحدٍ فسأله: «متى خرجتم؟». قال: في يوم كذا. قال‌ﷺ: «في أية ساعة؟». قال: في ساعة كذا. ثم أخذ يسأله ويسأله وهو يجيب وشهادته تُدَوَّن، إلىٰ أن أكمل الإجابات فأخرجه وجاء بالثاني فسأله كما سأل صاحبه، وهكذا فعل بالآخرين، فاختلفت أقوال الأربعة، وعندئذ جمعهم وتوعَّدهم فأقروا بقتله وأخْذِ الأموال، فاسترجع الأموال وأخذ عليهم القود[1].

كان قضاؤه كلّه مستنتج من القرآن الكريم، وتجري علىٰ أحسن التراتيب

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ١٩٩، فيض القدير ١: ٥٨٨.

الإدارية، كان ﷺ متصدّياً للقضاء بنفسه، فلا يكاد يبارح مسجد الكوفة يوماً. أما في أيام الخلفاء فقد ذكر التاريخ لنا كمّاً هائلاً من قضاياه العجيبة، فترك لنا ثروة كبيرة في القضاء. والمتأمل في قضائه ﷺ يستغرب من وجود الفكر النافذ في ذلك الزمان، ولكن لا غرابة واقعاً لأن علياً ﷺ تلميذ القرآن والإسلام، فلا بد أن يكون بارعاً. فهو مجاهد بالعلم والقلم، ولا سبيل إلّا إلى الإذعان لذلك. فقد جند المعاني لتكون في طريق الله، ومن أجل كلمة الله. يقول ﷺ في مناجاته لنوف البكالي: «يا نوف، طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين بالآخرة، أُولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً والقرآن شعاراً والدعاء دثاراً، ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح»[1].

المبحث الثالث: جهاده ﷺ في ساحة الكدح على العيال

أما الجهاد في ساحة الكد والكدح، فقد وقف يجاهد في هذه الساحة أيما جهادٍ، في حين أننا ما حُدِّثنا عن رجل كان يتولى العمل في خلافته حتى يُصيب يديه المَجَل[2]. نعم ما كان ذلك إلّا من علي ﷺ فقد أصاب يديه المجل من كثرة العمل، فكان منذ الصباح الباكر يتناول مسحاةً له ويخرج إلى الأرض فيصلحها ويفلحها، ويستنبط منها العيون حتى أصاب يديه المجل. كان يتناول قوته من عرقه ﷺ، يقول الإمام زين العابدين ﷺ: «والله ما كان يأكل إلّا العجوة وقليلاً من الخبز»[3]. وقد أعتق ألف مملوك من كدّ يده، فكان يستنبط العين ثم يبيعها ويشتري بثمنها عبيداً فيعتقهم[4].

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٤. (٢) الغارات ١: ٩٢.
(٣) قريب منه في قرب الإسناد: ١١٣ / ٣٩١، بحار الأنوار ٦٣: ٥٦ / ١، عن الصادق ﷺ.
(٤) انظر الهامش السابق.

وكان عليه السلام يؤجّر نفسه في بساتين لبعض اليهود ليأخذ بضعة دريهمات، ثم يتصدق بها في سبيل الله، ويعود إلى البيت لا يحمل شيئاً[1]. وإذا احتاج إلى شيء من اللباس فإنه يقتطع من أجور عمله ما يشتري به ثوباً من الثياب العادية.

وهكذا وقف يكد ويكدح حتى مجلت يداه وبلغ به الأمر حدّاً وقفت معه فاطمة عليها السلام يوماً على النبي صلى الله عليه وآله وهي باكية، فسألها صلى الله عليه وآله: «ما يُبكيكِ؟». قالت عليها السلام: «دخلت علي نسوة من قريش، فعيرنني بأن علياً عليه السلام فقير». فقال لها: «بنية، أما رضيت أنني زوجتك أكثرهم علماً، وأرجحهم حلماً، وأقدمهم سلماً.. لقد زوجتك سيداً في الدنيا وفي الآخرة». فطفح البشر على وجهها[2].

وبلغ به الأمر أن انبرى له أبناء عمّه من العباسيّين فعيّروه بالفقر، فوقف مروان ابن أبي حفصة يشتم علياً عليه السلام، ويعيّره بالفقر، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله زوّج ابنته بمسكين، فوقف له الحسين بن الحجاج من شعراء الشيعة فقال:

وكان قولك بالزهراء فاطمةٍ	قولَ امرىء لَهِجٍ بالنصب مفتونِ
عيّرتها بالرّحى والحبّ تطحنُه	لازال زادُكَ حبّاً غير مطحونِ
وقلت إن رسولَ الله زوّجها	مسكينةً بنت مسكين لمسكينِ
وهي التي بغدٍ في الحشر يخدمها	أهلُ الجنان بحورِ الخُرّدِ العينِ[3]

هكذا كان عليه السلام يكدّ ويتعب، ثم يتصدّق بما يكسبه على الفقراء والمساكين في

---

(١) المعيار والموازنة: ٢٣٨.

(٢) أُسد الغابة ٥: ٥٢٠، كنز العمّال ١١: ٦٠٥ / ٣٢٩٢٦ـ٣٢٩٢٧، ١٣: ١١٤ / ٣٦٣٧٠، ولم يذكر طرف القصة.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ١١٥.

سبيل الله، ويقنع بقليل من الخبز أو بشيء من التمر يأكله ويمسح بيده على بطنه ويقول: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله»[١].

يقول بعض أصحابه: دخلت عليه وهو في طريقه إلىٰ الحجاز، فوجدت جراباً معلقاً ومختوماً. فلما حان وقت الظهر أنزل ذلك الجراب ومد يده فيه ثم أخـرج شيئاً من السَّويق. فقلت: يا سيدي، أراك قد أغلقته! قال﵇: «أوَتظن ذلك لبخل؟ لا والله ولكن هذا طعامٌ من أرض أنا أزرعها منذ كنت بالحجاز، والآن يزرعها أهلي ثم يبعثون لي منها، وأنا آكل منه ولا أُحب أن يدخل بطني إلّا الطعام الطيب»[٢].

وقد حدثّنا في نهجه فقال: «أما والله لأروضن نفسي رياضة تـهش مـعها إلىٰ القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً»[٣].

خلاصة البحث

لقد كان علي﵇ مجاهداً بالسيف والقلم والعمل، فهو سيد المجاهدين في سبيل الله، وقد قال تعالى: ﴿ وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾. لقد كان جهاده دفاعاً عن الدين وعن النبي ﷺ، وعن الأُمة. ولئن كان المجاهد في ميدان العمل يجاهد عن أسرة، فعلي﵇ كان يجاهد عن أُمة بكاملها، فيرىٰ أن المسلمين عياله وأهله. ولذلك استدعى في مثل هذه الليلة (الحادية والعشرين من رمضان)

---

(١) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين﵇ (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

(٢) لم نعثر عليه بنصه، وقريب منه ما في (تم).

(٣) حلية الأبرار ٢: ٢٣٢ / ٢٠، نثر الدرر (الوزير أبو سعيد منصور بن الحسين الآبي) ١: ٢٤٣ ـ ٢٤٤، مخطوط في دار الكتب المصرية برقم: ٢٦٠٤. وقد مرّ في ج٢ ص٣٢٩ من كتابنا هذا.

أولاده بعد أن اشتد عليه الم ضربته فقال لهم: «الله الله في اليتامى لا تغبُّوا أفواههم»[1]. أي تتأخروا عنهم في ارسال الطعام فتغبّ أفواههم، أي تحدث فيها رائحة بسبب تأخر الطعام. وصل عطفُه حتى إلى من ضربه، فقد أُدخل عليه في هذه الليلة عبد الرحمن بن ملجم، فرفع الإمام ﷺ رأسه إليه قائلاً: «أي إمام كنت لك؟ ألم أُحسن إليك؟ ألم أُعطك عطاءك؟». وأخذ يعدد له ويُذكره بنعمته عليه. فقال ابن ملجم: افأنت تُنقذ من في النار؟ فأطرق علي ﷺ ثم التفت إلى الحسن ﷺ وقال له: «اسقوه من شرابي، وأطعموه من طعامي، ولا تُمثّلوا به، إن أنا عشت فأنا ولي دمي، وإن أنا مت فاضربوه ضربة بضربة، ولا تمثلوا بالرجل فإن المثلة حرام ولو بالكلب العقور»[2].

أيتها النفس المطمئنة المجاهدة، يا نفس علي بن أبي طالب ﷺ أطلّي علينا من عليائك.. امنحينا من العطاء الذي عندك.. احملينا على أن نسير في الطريق الذي سرت فيه.. ابعثي في نفوس المسلمين ما كان فيك من شفقة ورحمة، تنبسط على هذه الدنيا، وسلامٌ على نفحاتك أبا الحسن وأنت تودّع حياة الجسد، ولا تودع حياة الروح، لأنك خالدٌ:

ومثلُ علي لا يُحدّ له عمر

مرّت عليه هذه الليلة وهو في أشد حالات الألم، يقول حبيب بن عمرو والأصبغ بن نباتة في دخولهم عليه: إننا وجدناه معصباً بعصابة صفراء، والله ما ندري أوجهه أشد اصفراراً أم العصابة، يقول الأصبغ: جلست ومعي جماعة من

---

(١) نهج البلاغة / الوصية: ٤٧.
(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

أصحابنا، فسمعنا البكاء من داخل الدار فارتفعت أصواتنا بالبكاء، ثم خرج الإمام الحسن ﷺ وقال: «إن أمير المؤمنين ﷺ يقول لكم: انصرفوا يرحمكم اللّه»، فانصرف القوم إلّا أنا، ثم سمعت البكاء مرة أُخرى فعلا صوتي بالنحيب، فخرج الحسن ﷺ فقال: «ألم أقل لكم: انصرفوا؟». فقلت: سيدي، إن نفسي لا تطاوعني ورجليّ لا تحملانني، فلابدّ أن أراه. فدخل الحسن ﷺ ثم خرج، فقال: «ادخل». فلما دخلت وجدت أمير المؤمنين ﷺ معصب الرأس، مصفرّ الوجه، وقد اشتدّت عليه حرارة السمّ، فوقعت عليه أُقبله وأبكي، فقال: «يا أصبغ لا تبكِ، إنها والله الجنّة». قلت: سيدي، أنا أعلم أنها الجنّة ولكني أبكي لفراقك. عند ذلك سمعت النساء قد علا ضجيجهن بالبكاء[1]:

يبوية من عگب عينك	عسن لا طالت الله اعمار
الدنيا موحشة بعدك	يواليـنا وظلمه الدار
لسا بعد جرح امي	بـاجي بالگلب نـغّار
ويفجعني زماني بيك	ويطفي النور بعيوني

* * *

يا مصباحنه بالليل	يا خيمة هلي كلها
تجمّعنه على نورك	تنام ونگعد بظلها

ولما سمع بكاءهن قال للحسن ﷺ: «أسكتهن»، وقال لأُم كلثوم: «بنية، لا تؤذيني، والله لو ترين كما أرى لما بكيتِ». فقال له الحسن ﷺ: «وماذا ترى يا أبه؟». قال: «هذا جدّك رسول الله ﷺ ومعه النبيون وهم يقولون: مرحباً بك، وإن ما أمامك

(١) الأنوار العلوية: ٣٨٢.

خيرٌ لك مما أنت فيه».

عند ذاك ارتفعت أصوات النساء مرة أُخرى، وأقبلن إلى محراب أمير المؤمنين عليه السلام:

يحامي الحمه مولى الموالي   يالشلت راس الدين عالي

الليلة بكه المحراب خالي



﴿٧٠﴾

دور المساجد في بناء المجتمعات الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في ماهية العبادة وشموليتها

المجتمع الإسلامي ولد بولادة المسجد، فإذا اردنا أن نرجع إلى تاريخ المسجد فسوف نجد أنه العامل الأول في بناء الشخصية الإسلامية. وقد يتصور البعض أن المسجد مقصور على العبادة فقط، لكن الواقع أنه أوسع بكثير من هذا المعنى، وإن كانت العبادة بالمعنى الأشمل أكبر من الصوم والصلاة والعبادات التكليفية المعروفة، فقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] هل يمكن أن يُتصور أن الناس على ضوئه يتمحضون للصوم والصلاة ولا يمارسون أي عمل آخر سوى هذه العبادات التكليفية؟ ثم أين تصير أعمالهم الأُخرى من الكد على العيال والكسب والأعمال التجارية والزراعية وغيرها؟

---

(١) التوبة: ١٠٨.

(٢) الذاريات: ٥٦.

فالأمر إذن لا كما يتصوره البعض، ولا كما يقولون عن هذه الآية من أن العبادة هي أظهر التصرفات أو أهم الأُمور؛ فلذلك ذكرها القرآن، باعتبار أنهم ينصرفون إلىٰ الأهم. كلا، الواقع ليس هكذا، وإنما مفهوم العبادة ينبسط علىٰ كلّ نشاط يُراعىٰ فيه وجه الله.

فالخارج من بيته بنيّة الكسب من الحلال، ونية عدم التطاول والاعتداء على العباد ومدّ اليد إلىٰ ما حرم الله، ليس من شك أنه في حالة عبادة بل هو في حال يعدّ من أقرب القربات عند اللّه؛ لأنه صيانة للوجه عن السؤال، وللعيال عن التكفف.

وكذلك مَن يذهب لعيادة مريض بدوافع إنسانية صِرفة ولوجه اللّه تعالىٰ دون مصلحة أو مجاملة، فعمله هذا عبادة مقربة إلىٰ الله من غير شك. وكذلك قضاء حاجات الناس لوجه الله.

فالعبادة لا تقتصر على الصلاة والصوم والحج وغيرها، وإنما تشمل مجالات الحياة كافة، وكل ما يُراعى فيه وجه الله فهو عمل عبادي.

المبحث الثاني: رسالة المسجد

أما المسجد فقد روعي فيه أن يكون محلاً لأفضل أنواع العبادة؛ لأن الأعمال العبادية، منها ما هو للقلب ومنها ما هو للروح ومنها ما هو للجسد. فأهم أعمال الروح وأعلاها وأشرفها الأعمال العلمية، فلذة طلب العلم لذة روحية، وهي لذة لا حدود لها. والفرق بين اللذة الروحية واللذة المادية، أن اللذة المادية يشعر بها الإنسان ما دام متلبّساً بها، فهو يشعر بلذة الطعام مادام في فمه، وكذلك اللباس والشراب، والمسكن. أما لّذة الوصول إلىٰ نظرية معينة، أو فهم مسألة من

المسائل العلمية فلا تذهب أبداً؛ لأن اللذات الروحية من جنس الروح فلا تفنى ولا تتلاشى.

وعليه فإن أعظم عمل روحي هو الأُمور العلمية، والمسجد لعب دوراً مهماً في العلم وبناء الشخصية العلمية الإسلامية، فعندما نرجع إلىٰ تأريخنا ونقرأ عن الفلاسفة، والعباقرة والعلماء نجد أنهم من خريجي المساجد، وقد أعطوا نتاجاً ضخماً يعجز عنه خريجو الجامعات الحديثة. فهل يوجد في هذا العصر من يعطينا نتاجاً بقدر ما أعطاناه الشيخ الطوسي أو العلامة الحلي أو الغزالي أو نظائرهم؟ هؤلاء العباقرة وأمثالهم خريجو جوامع لا جامعات.

فالجامع إذن وعاء غذّى الروح بلذة لا تنضب، وهذه الظاهرة موجودة في جوامع المسلمين جميعاً، فأينما ولد الجامع ولد معه العلم، لا الخرافة كما حدث للأديان الأُخرىٰ التي تحولت فيها دور العبادة عندهم إلىٰ محل للخرافة، حتىٰ إن النظريات العلمية تعرضت للاضطهاد من هذه الدور العبادية، كما حدث لمن قال بكرويّة الأرض من التعذيب والإعدام[1].

ويروىٰ أنه دخل أحدهم على الإمام الصادق عليه السلام فقال له: يابن رسول الله، أُريد أن أستدل على وجود الله تعالى، لكنني قبل الاستدلال أُقدّم الشك في وجود الله ثم أسوق البراهين والأدلة، فهل أتحمل إثماً في هذا؟ فقال الإمام عليه السلام: «هذا هو الإيمان». وهذه النظرية من النظريات الضخمة، وإن كان البعض ينسبها إلىٰ علماء اليونان أو فيما بعد إلى العلماء الفرنسيين، لكنها في تراثنا موجودة، وهي أن ينتقل الانسان من الشك الى اليقين.

---

(١) كما حدث مع كوبرنيكوس وغاليلو.

وقد أغنى المسجد القلب والنفس بالعواطف الكريمة، فمن يدخل إلىٰ المسجد ويصلّ إلىٰ جانب الخليفة، أو الحاكم العام أو التاجر الكبير أو العامل أو غيرهم من النماذج الممثلة للمجتمع، فإنه يشعر بزوال الفوارق التي تميز الناس بعضهم عن البعض الآخر، ولا تبقى، إلّا الإنسانية. وهذا يُغذّي عنده الشعور بالمساواة مع الآخرين.

ثم يأتي القرآن الذي يُتلى في المسجد فيدعم هذه النظرية ويعززها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

كما أغنى المسجد الجانب الجسدي عند الإنسان، فقبل أن يدخل المسلم الجامع عليه أن يتطهر: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ وعليه أن يحافظ على نظافة جسده بل تعدى ذلك إلىٰ إبعاد كلّ ما يؤدي إلىٰ إزعاج الآخرين عن الجامع، قال النبي ﷺ: «من أكل من هذه البقلة الخبيثة فلا يقربن مسجدنا»[2]. وهذه البقلة هي الثوم.

فالإسلام يحرص على تجنيب المسجد الروائح المزعجة للآخرين. ولا يوجد بناء للشخصية أكبر من هذا البناء القلبي والروحي والجسدي الذي يحققه المسجد، وهل هناك من الجامعات من يعنىٰ ببناء الإنسان بهذا الشكل الواسع والدقيق؟

فتاريخ ولادتنا إذن هو ولادة الجامع، فهو عندما ولد ولدت معه المكتبة والعلم. وتأريخ الجوامع تاريخ علم؛ في حلقات الدرس، وفي الدورات العلمية،

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) دعائم الإسلام ١: ١٥٠، مسند أحمد ٢: ٤٢٩.

وفي المؤسّسات المكتبيّة وغير ذلك من أُمور العلم.

وقفة مع التاريخ

وكلّ جوامع المسلمين لعبت هذا الدور، ولكن ـ مع شديد الأسف ـ هناك نقطة سوداء في تاريخ المساجد، وهي تسليط الضوء على جوامع معينة لأسباب عديدة، وإهمال جوامع أُخرى لها أهميّة كبرى، فنجد شهرة واسعة لجامع الزيتونة والجامع الأزهر ومسجد النبي ﷺ، فيما نجد تعتيماً على مسجدالكوفة وإن كانت الكوفة تعرضت إلى هضم وظلم وإهمال لا حدود له، ليس في جامعها فقط وإنما في مجتمعها أيضاً، وتركيبتها السكانية، ومراكزها العلمية، مع العلم أن الكوفة خرّجت من الأعلام من لا نظير له إلىٰ هذا العصر.

يقول الوشّاء: دخلت مسجد الكوفة فوجدت أربعمئة شيخ، كلّ يقول حدثني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام[1]. نعم، أربعمئة حلقة دراسية تدرس لغة العرب وتفسير القرآن والفقه والأُصول والأنساب والتاريخ وأيام العرب، فكان جامعة من الجامعات الضخمة، ولكن كلّ شيء يرتبط بعلي بن أبي طالب عليه السلام أصبح عرضه لهدم المعاول، غير أن كلّ تلك المعاول انهزمت وبقي علي عليه السلام، وسيبقىٰ هكذا على مدى التأريخ.

وحاصل الأمر أن الأضواء لم تُسلّط على جامع الكوفة كما سُلّطت على غيره من الجوامع، وإلّا فإنه لعب دوراً لا يضارعه دورٌ آخر.

وفي الجامع جانب آخر مهم ينبغي أن يشدّ المسلم إليه، فقد ورد في الحديث القدسي: «المساجد بيوتي في الأرض، نطوبىٰ لعبدٍ تطهّر في بيته ثمّ زارني في

---

(١) رجال النجاشي: ٤٠ / ٨٠، وفيه: تسعمئة شيخ.

بيتي»[1]، وفي تأريخنا وحضارتنا أن من يدخل بيت غيره يصبح في أمان مهما كان عنده من جريمة، فعندما يقول الله تعالى عن المساجد: إنها بيوتي، فمعناه أن الداخل إليها سيكون في حمى الله تعالى.

المبحث الثالث: في سبب نزول الآية

لقد كان سبب نزول الآية، المذكورة أن النبي ﷺ عند دخوله إلى المدينة، كان أول الواقفين في وجهه أبو عامر الفاسق، ولما رأى علوّ شأن النبي ﷺ وشأن الإسلام أضمر من الحقد ما لا مثيل له، ورأى نفسه لا يستطيع أن يعمل شيئاً، فهرب إلى مكة، ثم إلى الشام.

وكان النبي ﷺ قد أسس في المدينة مسجد قُبا، وهو المسجد الذي تذكره الآية السابقة، كما أسس المسجد النبوي، فكتب أبو عامر الفاسق من الشام إلى أصحابه في المدينة أن يبنوا له مسجداً، وأخبرهم أنه سيأتي إليهم ومعه جنود الروم، ليزيلوا النبي ﷺ عن المدينة، ثم يُصَلُّوا في المسجد الذي عُرف فيما بعد بـ«مسجد ضرار»، ولما أتمّ أصحابه بناء المسجد نزلت الآية الكريمة، فأرسل النبي أصحابه ليهدموا المسجد، ويحولوه إلى محل للقمامة.

ومن هنا نعرف أن البناء يجب أن يُقصد في تأسيسه وجه الله، وأن يكون ذا هدف مشروع، فبناء المسجد يكون لوجه الله لا للرياء ولا للمضارّة. وهذا المعنى يجب أن يكون في كلّ بناء لا في المسجد فقط؛ لأن الهدف الخالد هو وجه الله تعالى.

ومن الغريب في أمر أبي عامر الفاسق، أن له ولداً كان آية في الإيمان والتقوى

(١) الفقيه ١: ٢٣٩ / ٧٢٠، صحيح مسلم ٢: ١٣١.

والتضحية، وهو حنظلة المعروف بغسيل الملائكة. فقد ذهب حنظلة في صبيحة ليلة عرسه إلىٰ أُحد، وقاتل فيها قتالاً شديداً حتىٰ قتل فلما مرّ عليه النبيﷺ أطال الوقوف والنظر اليه، وبدا عليه التأثر الشديد، فلما سأله أصحابه قالﷺ: رأيت الملائكة تغسله، إن صاحبكم خرج وهو جُنب فغسّلته الملائكة[1]، فعُرف فيما بعد بهذا اللقب.

ومن هذا نعرف أن الإنسان تربّيه البيئة الاجتماعية أكثر من تربية البيت، فقد تجد اثنين تربَّيا في بيت واحد ويكون أحدهما طيّباً والآخر خبيثاً.

لقد درس علماء الاجتماع ما يسمىٰ بـ« نظرية التوائم المتماثلة » ليعرفوا ما إذا كانت التربية الاجتماعية هي الأكثر تأثيراً في الفرد أو الوراثة، فأخذوا اثنين وُلِدا لأبٍ وأمٍّ ووضعاهما في بلدين مختلفين فرأوا أنهما أصبحا مختلفين الواحد عن الآخر، فانتهوا إلىٰ نتيجة مفادها أن الحضارة هي التي تصنع السلوك، وأن الإنسان يربّيه المحيط الذي يعيش فيه.

وممّا يُذكر في هذا المجال أن مالك بن أنس صاحب (الموطأ) وإمام المذهب المالكي كان له ولدٌ وبنت، فكان الولد يلعب بالحمام، وينشغل بملاعبة الطيور، وكثيراً ما يُزعج أباه بذلك، أما البنت فكانت تستوعب (المُوطَّأ) الذي كان يُدرِّسه، وكانت إذا سمعت من أبيها أثناء الدرس أنه لم يُعطِ أحد المطالب حقّها، أو أخطأ في مسألة ما، فإنها تضرب الأرض بالعصا لإشعاره بذلك. فكان مالك يقول: الأدب أدب الله. قال الشاعر:

أبوك أبي والجدّ لا شك واحدٌ ... ولكننا عودان يباسٌ وخروعُ

---

(١) أُسد الغابة ٢: ٢٤١، الإصابة ٢: ١١٩ / ١٨٦٨.

المبحث الرابع: في معنىٰ التقوىٰ وإشكالية كونها تروكاً

تقول الآية: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، فما هي التقوى؟ التقوىٰ تروكٌ، بمعنىٰ أن يترك المسلم أشياء محذورة، فالمُتَّقي لا يأكل الحرام ولا يترك العبادات، ولا يستغيب فهي إذن تروك. فكيف نتصور تأسيس المسجد علىٰ التقوىٰ؟ يريد القرآن أن يقول: إن هؤلاء المؤسسين للمسجد أسسوه استجابة لأمر الله، وتركوا المثبطات، فأجبروا أنفسهم علىٰ تجاوز المثبطات. فمن المثبطات أن بناء المسجد يكلف أموالاً، فبذلوا الأموال وأجبروا أنفسهم علىٰ السخاء، ومن المثبطات أن بناء المسجد يحتاج إلىٰ الوقت فأجبروا أنفسهم علىٰ ترك أوقات عملهم والعمل في بناء المسجد، ويكلف المسجد معارضة من الآخرين ومضارة وآلاماً نفسية، لكنهم تركوا كلّ هذه المثبطات واستجابوا لنداء الله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...﴾[1]. فكانت دوافعهم سليمة، وهي دوافع التقوى.

المبحث الخامس: في معنىٰ ﴿أَحَقُّ﴾ وتصريفها

ثم قال تعالى: ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ فما معنى أحق في هذه الآية؟ وهل هي «أفعل تفضيل»؟ فهذا المسجد الذي بناه أبو عامر الفاسق هل هو حق فيكون القيام في غيره أحق منه[2]؟ كلا، إن ذلك المسجد لم يكن يصح القيام به من الأصل، فلا تكون لفظة ﴿أَحَقُّ﴾ هنا بمعنى التفضيل، وإنما هي بمعنى «حقيق»، أي يتعين عليك

---

(١) التوبة: ١٨.

(٢) من حيث إنه يكون بين المتفاضلين اشتراك في جهة معينة، فلا يصح مثلاً أن نقول: السكّر أحلىٰ من الملح؛ لأن الملح لا حلاوة فيه، فإن كانت لفظة ﴿أَحَقُّ﴾ هنا للتفضيل فمعنىٰ ذلك أن مسجد أبي عامر الفاسق من الحق أن يصلىٰ فيه لكن غيره أحقّ منه، والواقع خلافه.

القيام فيه، وليس المعنى أنك يسوغ لك القيام في المسجد الذي بناه أبو عامر الفاسق.

أما لماذا هذا التعيين؟ ولماذا أراد الله من نبيه ﷺ أن يقوم في هذا المسجد الذي أسس على التقوى؟ فالجواب: لأن الله تعالى أراد من نبيه أن يقف إلىٰ جانب الهدف الخير، وأراد منا أن نتأسى بالنبي ﷺ فنقف إلىٰ جانب الهدف الخير أيضا، وأن نبتعد عن الهدف المشبوه حتى لو حاول ذلك الهدف أن يتقرب منّا.

فالقرآن الكريم يقول للنبي ﷺ: يتعين عليك أن تغذي نفسك وغيرك بالممارسات السليمة التي ليس فيها زور أو إفك أو دوافع غير حقيقية، وعليك أن تغذيهما بالخلق الكريم.

حرف دور المساجد

ونريد هنا أن نقف قليلا مع مساجدنا لنرى هل إن دوافعها تقوم على التقوى؟ أقول: مع الأسف إن مساجدنا ليس فقط لا تقوم على أساس التقوى، وإنما تزرع الضلال في كثير من الأحيان، ونبقى نحن من حيث نتوقع الهدى يصلنا الضلال. فنحن نعرف مثلاً أن البيت بيت الله، والعباد عيال الله وهم أهل «لا إله إلّا الله» فهم أُسرة واحدة، ويظلهم لواء واحد، ولكننا لا زلنا نمر بالمسجد فنسمع من يرفع عقيرته بالنداء: هؤلاء الضالون، المشركون. فهو يوزع الضلال على أهل «لا إله إلّا الله» كما يشاء، وكأن الضلال بيده يعطي من يشاء ويمنع من يشاء.

إن تربية الفرد المسلم لا تكون هكذا، فنحن عندما نقرأ مثلاً نظرية عند بعض المسلمين تقول: إن الله تعالى يجلس على العرش فيئط من تحته[1] (أي تسمع له

---

(١) سنن الدارمي ٢: ٣٢٥، الدعاء (الطبراني): ٥٩٧، وغيرهما كثير.

صوتا)، فعلينا أن نقول: إن صاحب هذه النظرية قد أخطأ الدليل؛ لأن الله تعالى ليس بجسم، وعلى صاحب هذه النظرية أن يغير عقيدته بها، لان الله لو كان جسماً صار محدوداً، وإذا صار محدوداً صار محتاجاً، وإذا صار محتاجاً صار فقيراً. فتترتب المشكلات الكبرى على هذا القول، ولا يستطيع صاحبه أن يأتي بدليل ناهض. فعلينا إذن أن نناقش النظرية نقاشاً علمياً بعيداً عن التهريج والرمي بالضلال والشرك فليس هذا من روح الإسلام في شيء.

فنحن حينما نتوضأ ونمسح على أرجلنا، فإننا إنما استفدنا المسح من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[1]. وعلى فرض أنني أخطأت الدليل فلا يحق للآخر أن يهرج ويشتم؛ لأنه ليس أفضل من الآخرين الذين يرجعون لفقه آل محمد ﷺ، والينابيع الإسلامية الصحيحة.

فمن أدب المسلم الذي يدخل بيت الله، ويعلّم عباد الله أن يرى أن عباد الله عيال الله، وأن يرى أن وظيفته أن ينقل إلى المسلمين الزاد السليم لا الحقد والبغضاء، وأن يستشعر التقوى؛ لأن المسجد الذي لا يقوم على التقوى يقوم على العصبية والتشنج والزور، وذلك ينافي إرادة الله في مساجده في أن تكون مصادر للاشعاع والنور والمعرفة والتقوى.

المبحث السادس: معنى التطهّر

ثم قالت الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾، وفي معنى التطهر هنا رأيان:

الرأي الاول: أنه التطهر من الخبائث المادية

فالأنصار كانوا دائماً على طهارة في وقت كان يعسر فيه الحصول على الماء،

---

(١) المائدة: ٦.

فلم يكن الماء كما هو عليه اليوم. فقد كان الصحابة يستخرجون الماء منذ الليل من البئر ليتوضؤوا به صباحاً، فالماء كان قليلاً جداً. ومن هنا نجد اليوم في كتب الفقه مايسمى بفقه الآبار، وقد يمر عليه بعض الفقهاء اليوم فيعتبره فقهاً ميتاً لا موضوع له؛ باعتبار أن العصر الحديث لا يعتمد في المياه على البئر مباشرة. وإنما أصبحت أنابيب المياه داخل البيوت. ولكن هذا ليس صحيحاً، فلا زالت الكثير من بقاع الدنيا تعتمد إلى الآن على الآبار.

لقد كان الصحابة في تلك الظروف يستعملون التجمير، وهو استعمال الحصى والأحجار في الطهارة، وقليل منهم من يستعمل الماء لقلته أولا، ولوجود الكسل عن استعماله عند بعضهم ثانياً. فقد كان بعضهم يتكاسل في استعمال الماء حتى عند وجوده، ولا تستغرب من ذلك، فمن الناس في زماننا هذا من هو كذلك، فهو يتثاقل من استعمال الماء مع وفرته وقلّة تكلفته.

لقد كان الأنصار يبالغون في التطهر، فيستعملون الماء بكثرة، ويدخلون المسجد وهم طاهرون طيبون على العكس من غيرهم. دخل يوما أبو الاحوص الجشمي إلى المسجد، فرآه النبي ﷺ وسخ الثياب نتن الرائحة، فقال ﷺ له: «**هل عندك أموال؟**». قال: نعم. فقال ﷺ: «من أيها؟». قال: أعطاني الله من كلّها، من الابل والبقر والغنم والمزارع والتجارة. فقال ﷺ: «**أما وجدت ما تلبسه؟**». ألم تجد ما تغسل به بدنك؟

وهذا الرأي في معنى التطهر هو الرأي السائد؛ فالحائض والجنب والنفساء لا يجوز لهم أن يمكثوا في المسجد، وهناك أحكام خاصة بالمسجد تفرض على المسلم أن يكون طاهراً عند دخوله إليه .

الرأي الثاني: أنه التطهر من الذنوب

فالمسلمون تطهرهم الصلاة من الذنوب، يقول النبي ﷺ: **«مثل الصلاة كمثل النهر الجاري على باب أحدكم»**(١).

فالصلاة أشبه بالنهر الجاري الذي يغتسل فيه الإنسان خمس مرات يومياً، وهي مطهرة للإنسان المسلم من الحقد والجشع والطمع، فعندما يقول: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾**(٢) ثم يخرج من المسجد والجشع والطمع نصب عينيه يكاد يعبدهما فهو ما عبد الله حقاً، وإنما عبد مادة وقيمة من القيم الاجتماعية.

وعندما يقول **﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾**(٣) ثم يسير في طريق ضلالة فإنما يخادع الله. ومن يدخل إلى المسجد وكلّه حقد فليس من المتطهرين؛ لأن المسجد يعلمنا أن الفرد جزء من العباد وأن رحمة الله للعباد كافة.

فالتطهر هنا يعني التطهر من الأدران والذنوب والخبائث المعنوية، والصلاة مطهرة من هذه الموبقات، والله يحب المتطهرين. ولذا كان الإمام موسى بن جعفر﴿ إذا دخل إلى المسجد يطيل السجود فيه، ويقول: **«إلهي عُبيدك بفنائك، إلهي فقيرك بفنائك، يامحسن قد أتاك المسيء تجاوز عن قبيح ماعندنا بجميل ما عندك»**(٤).

وهذا هو ديدن أهل البيت﴿، فقد كانوا يقضون معظم أوقاتهم في المسجد، وقد تلا الإمام السجاد﴿ الصحيفة السجادية المعروفة بإنجيل آل محمد في

---

(١) تهذيب الأحكام ٢: ٣٧ / ٩٣٨، علل الدارقطني ٤: ٣٤٣ / ٦١٥.
(٢) الحمد: ٥. (٣) الحمد: ٦.
(٤) ورد هذا الدعاء بصيغ كثيرة عن السجاد﴿، انظر كمال الدين: ٤٧١ ـ ٤٧٢، دلائل الإمامة: ٥٤٤.

مسجد النبي ﷺ؛ لأن الإمام السجاد عليه السلام واجه في حياته حالة من الانصراف إلى الدنيا عند المجتمع الإسلامي، فقد كثرت الفتوحات، وانفتحت الدنيا على المسلمين، فجاء الروم والفرس والأحباش وأبناء الحضارات الأُخرىٰ إلىٰ بلاد الإسلام وهم يحملون معهم عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم، وحدثت طفرة مادية في المجتمع الإسلامي، فأصبح الذهب يُكسَّر بالفؤوس. فكان أن واجه الإمام السجاد عليه السلام هذه الحالة من الابتعاد عن الله بالدعاء، فكان يقف في مسجد النبي ﷺ في كلّ جمعة ويدعو بهذه الأدعية، وهي في الحقيقة دروس من أروع الدروس في التوحيد والآداب والأخلاق، فكان الإمام يعالج ما وفد على المجتمع الإسلامي من انحرافات عن طريق المسجد، فكان يقضي معظم وقته في مسجد النبي ﷺ.

وهكذا كان ديدن الأئمة عليهم السلام؛ فهم يقضون معظم وقتهم في المسجد، سواء في مسجد النبي ﷺ أو مسجد الكوفة أو في بيوتهم التي اتخذوها مساجد، فالداخل إلى بيوتهم يجد أنها تحولت إلىٰ مساجد للعبادة. يقول سعيد حاجب المتوكل: دخلت على الإمام الهادي عليه السلام لما أمرني المتوكل باقتحام بيته، فوجدته يفترش حصيراً، وقد حول وجه إلىٰ القبلة[1].

ويقول أحدهم: أردت أن أدخل على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فأتيت رجلاً واقفاً على باب كوخ، فسألته: أين الإمام؟ قال: في هذا الكوخ، لِج لا حاجب ولا بوّاب. فدخلت وإذا به يفترش الحصباء ودموعه تجري على خديه، وهو يردّد قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾[2].

(١) انظر هذه القصة في مروج الذهب ٤: ١٠٢ ـ ١٠٣، ولم يذكر سعيداً هذا، بل ذكر القول فقط.
(٢) الحاقة: ١٨.

لقد كان أئمة أهل البيت يحولون أي موضع يحلّون فيه إلىٰ محل للعبادة، وفي أية حالة من الحالات لا تفتر ألسنتُهم عن ذكر الله.

يقول هلال بن نافع: مررت على الإمام الحسين فرأيت شفتيه تتحركان وهو في لحظاته الأخيرة. فقلت: إن كان يدعو علينا هلكنا ورب الكعبة. فدنوت منه فسمعته يقول: «صبراً على قضائك يا رب، يا غياث المستغيثين، لا معبود سواك»[1].

تركت الخلق طراً في هواكا ... وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطعتني بالحب اربأ ... لما مال الفؤاد إلىٰ سواكا

وكانت هناك رغبة في نفوس عياله وفي نفس زينب أن يودّعوه وهو في لحظاته الأخيرة، ولكنها امتنعت لأن الإمام الحسين أوصاها، قال: «أخية لا تشمتي بنا الأعداء». فكظمت غيظها، وانطوت على ألمها وبقيت حتى جن الليل، فخرجت ومن ورائها لفيف الأرامل واليتامى:

منه انصدع يا بين صدعي ... والنار تسعر تحت ضلعي

أخبي عن الشمات دمعي ... واضم ونتي حتى على سمعي

واذكرك بنص الليل و العي

* * *

وثواكل بالنوح تسعد مثلها ... أرأيت ذا ثكل يكون سعيدا

حنت فلم تر مثلهن نوائحا ... (اذ ليس مثل فقيدهن فقيدا)

---

(١) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

﴿٧١﴾

من وصايا أمير المؤمنين عليه السلام ليلة استشهاده

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1].

مقدّمة في معنى الوصيّة، وبعض وصاياه العهدية

فرض الإسلام على كلّ مسلم ألّا يبيت إلّا ووصيّته تحت رأسه. ويقسم الفقهاء الوصيّة إلى قسمين، عهديّة وتمليكيّة. فالتمليكيّة هي تمليك عين أو منفعة بعد الموت، والعهدية هي أن يوصي المحتضر بالقيام بأشياء من بعده.

الوصيّة الأولى: حفر أربعة قبور له للتعمية

وأمير المؤمنين عليه السلام في مثل هذه الليلة كانت عنده وصايا تمليكيّة ووصايا عهديّة، وعنده تركة من القسمين، فله تركة معنوية وأُخرى ماديّة. فمن الوصايا العهدية التي أوصى بها هذه الليلة، أوصى أن تحفر له أربعة قبور فيدفن في أحدها، وأمر أن يحفر أحدها في دار جعدة بن هبيرة ابن أُخته أُم هاني فاختة بنت أبي

---

(١) البقرة: ١٨٠.

طالب، وهو البيت الذي سكنه الإمام أمير المؤمنين ﷺ، فحفر هذا القبر للتعمية. وقبر آخر حفروه في الرحبة وهو للتعمية أيضاً، وقبر ثالث للتعمية أيضاً حفر بجانب مسجد الكوفة. والقبر الرابع حفر في الغري بين ذكوات بيض أربع وهو القبر الذي دفن فيه، وعلم به الإمام الحسن والحسين ﷺ ووضعا عليه علامة، والأئمة من بعدهم تناوبوا على تبيان تلك العلامة لأصحابهم. فكان أصحاب أمير المؤمنين والأئمة يأخذون ذلك بالتسالم بعضهم عن بعض.

وكان الهدف من حفر القبور الأربعة واضحاً. فنحن نعرف أن الحكم انتقل من بعده مباشرة إلى الأمويين، والأُمويون معروفون بإقدامهم على ارتكاب أي عمل من الأعمال مع خصومهم. وهذا التاريخ واضح بين أيدينا، فقد قتلوا عبد الله بن الزبير في الكعبة أقدس تربة على وجه الأرض، وقد جعلها الله حرماً آمناً، ومع ذلك سلطوا عليها المنجنيقات ورموها وهدموها وأحرقوا أستارها وأجروا الدماء في داخلها. والغريب أن تاريخنا ما يزال يمر بهم ويعتبرهم من الأبطال والرواد، وكأن الإسلام لا يعنيهم من قريب ولا من بعيد. وقد صنعوا ذلك مرتين في الكعبة[1]. فجعلوا الكعبة مجرى للدم، ومرمى تقع عليه المنجنيقات. وأسالوا فيها الدماء وصلبوا فيها ابن الزبير.

أما زيد الشهيد فأخرجوه من القبر وصلبوه أربع سنين حتى عشّشت الفاختة في جوفه، وحتى استرسل جلده على عورته فسترها. فليس عندهم مانع أن يخرجوا جثمان أمير المؤمنين ﷺ ويصلبوه أو يفعلوا معه ما فعلوا مع غيره فيما بعد.

ولم يكن أمير المؤمنين مبالياً أن هؤلاء سوف يُخرجون جسمه ويمثلون به.

---

(١) انظر ج٢ ص ٧٠ من كتابنا هذا.

إنما الذي يعنيه ألّا تحدث وصمة كهذه في تأريخ الإسلام، وإلّا فإن علياً كان نهباً مشاعاً للرماح والسيوف في طاعة الله. وقد وضع جسمه في حياته ليقطع إرباً إرباً من أجل الإسلام وما عناه ذلك. فما كان يعنيه أن يقطع جسمه بعد الموت.

وقد كان ابن الزبير يقول لأُمه أسماء بنت أبي بكر: أخشى من الأُمويّين أن يمثلوا بي بعد موتي. فقالت له: يا بني، إن الشاة لا يضرّها السلخ بعد الموت. وهذا هو الواقع. فلم يكن عليعليه السلام مهتمّاً أن يأخذوا جسمه فيمثلوا به، لكنه لم يرد أن تحدث هذه المثلبة في حضارة إسلامية، وإلّا فإن جسم عليعليه السلام كان أهون ما عند علي في سبيل الله.

ومن العبث أن نقول: إن علياًعليه السلام يحويه قبر. فإن كلّ المسلمين بالإجماع يقولون: إن النبي لا يبقى بعد موته في قبره أكثر من ثلاثة أيام، ثم يُرفع، والكثير من العلماء يذهب إلى أن الإمام كذلك. وللجمع بين الروايات يقال: إنه يعرج بروحه ويبقى جسمه. فالقبر لا يضم رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم، ولا نستطيع أن نلتمسه في حفنة من التراب في قبر مبني من باللبن، ولا نلتمس علياًعليه السلام في حفنة من التراب في قبر، يقول أحد الشعراء:

فإن قيل هذا قبره قلت أربعوا ... أهذا الكيان الضخم بجمعه قبرُ

ولكنه بابٌ إلى معطياته ... يعدُّ غِناه من بساحته فَقرُ

فلا يعنينا أن تكون منطقة ما قبراً لعلي، فكم أرادوا أن يسلطوا التشكيك على مكان القبر، فجاء الخطيب البغدادي ومن بعده كثيرون، وسخّر الأُمويون شعراءهم، وادعوا أن نعش علي وضع على بعير وضلّ البعير طريقه. وراح شاعرهم يقول:

فإن يكُ قد ضلّ البعير بحمله ... فما كان مهديّاً وما كان هادياً[1]

ولكن انحسرت تلك الافتراءات والأكاذيب والادعاءات، وظل علي ﷺ أكبر من أن يحويه قبر أو أن يحلّ بقبر. وهو ﷺ لا يهمه أن يمثل بجسمه وهو يعلم سلفاً أن الجسم يعطى لله، وقد خلّد الله علياً ﷺ على العصور فلا يضيره جسم تمزق أو تحول إلى تراب.

كانت هذه أُولى وصاياه العهدية التي أوصى بها هذه الليلة.

وصاياه ﷺ التمليكية

الأولى: أنه ﷺ أوصى بكتبه وسلاحه ولوائه

وهذه الوصية هي من الوصايا التمليكية، فقد أوصى بكتبه وسلاحه ولوائه، فقد كان عنده لواء مكتوب عليه هذا البيت:

هذا علي والهدى يقوده ... من خير فتيان قريش عوده[2]

وكان عنده درع صدر لا ظهر لها، مكتوب عليها هذان البيتان:

أي يوميّ من الموت أفِرّ ... يوم لا يُقدر أم يوم قُدِرْ

يوم لا يقدر لا أخشى الوغى ... يوم قد قُدِّر لا يغني الحذرْ[3]

وترك أربعة عشر كتاباً من مؤلفاته وتراثه العلمي وهي: كتاب القضاء، وهو مجموع القضايا التي قضى بها على دكّة القضاء في مسجد الكوفة وغيره. وكتب

---

(١) انظر الغارات ٢: ٥١٩، شرح نهج البلاغة ٤: ٨٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٨٧، بحار الأنوار ٤٢: ٦٠.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٨٤، بحار الأنوار ٤٢: ٥٨.

فيها جماعة من العلماء وما تزال حتى الآن مبثوثة في ثنايا الكتب. وهذه القضايا بعضها انفرد به وبعضها لم ينفرد به. فمما انفرد به مثلاً القضاء بشاهد ويمين إذا عدم الشاهدان.

ومن كتبه أيضاً كتاب الأحكام الفقهية، وهو مجموع الفتاوى التي كان يستفتى فيها ويجيب عليها، وكانت إجابته مباشرة من القرآن. فالفقيه الآن إذا أراد أن يستنبط الحكم يبحث عن الأصل ويستعمل الأدوات الفنية ومجموعة من العلوم، ويناقش الروايات متناً ودلالة وسنداً ثم يدرس الرواية وهل هي معارضة أو ليست معارضة، وغير ذلك من الأدوات الفنية كي يصل إلى الحكم، أما أمير المؤمنين عليه السلام فكانت يده على المنبع مباشرة. فهو يقول: «فتح لي رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كلّ باب ألف باب»[1]. وكان رسول الله يقول: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[2].

فكان يعطي الجواب مباشرة لأن يده كانت على الحكم بشكل مباشر، وقد أخذ ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته.

ومن جملة الكتب الأربعة عشر تفسير القرآن، فقد كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا نزلت آية يسأل عنها رسول الله صلى الله عليه وآله فيكتبها ويكتب تفسيرها. وتفسير القرآن يطلق عليه كلمة «الوحي»، قال تعالى: ﴿وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[3] أي تفسيره. فقد كان النبي إذا نزلت الآية يأمر الكتّاب أن يكتبوها، ويبين لهم المعنى ثم يسجّل المعنى. وهذا القرآن الذي جمعه أمير المؤمنين هو

---

(١) الخصال: ٥٧٢ / ١، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٨٥.

(٢) الخصال: ٥٧٤ / ١، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٦، ١٢٧، المعجم الكبير ١١: ٥٥.

(٣) طه: ١١٤.

الذي يقول عنه الإمام الصادق: إنه «مصحف فاطمة»، وإنه «مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات»، و«ما فيه من قرآنكم شيء»[١]. فهو تفسير للقرآن وليس هو القرآن.

وهذا القرآن هو الذي بدأت الأقلام الرخيصة تتجه إلى القول فيه: إن للشيعة قراناً يخالف قرآن المسلمين. فأين هو هذا القرآن؟ فهذه آراؤنا وآراء علمائنا صريحةٌ في أن ما بين الدفتين هو القرآن، والذي يقول بالتحريف غيرنا. وبين يديّ دراسة ضخمة لعلّي أوفّق لإنجازها إنشاء الله، وهي تبين بالإحصاء من الذي يقول بتحريف القرآن. إن الذي يقول بالتحريف غيرنا لا نحنُ. وما عندنا إلا آراء شاذة لا يعتمد عليها. أما الآخرون فهم الذين يذهبون إلى التحريف.

وهذا الذي نقول عنه مصحف فاطمة ما هو إلا تفسير القرآن الذي كان يأخذه علي عن رسول ويكتبه، وهذا هو الذي شغله بعد وفاة النبي عن الخروج، فلم يخرج إلا بعد إكمال القرآن. فما كان يترك آية إلّا وقد دوّنها مع شرحها وتفسيرها.

ومن الكتب التي تركها (الجَفر) و(الجامعة) و(صحيفة الدولة). فالجفر جلد جدي مدبوغ مكتوب فيه بعض الملاحم وما سيحدث خلال الزمان. وهذا الجفر هو الذي يشير إليه أبو العلاء المعري:

لقد عجبوا لأهل البيت لما	أتاهم علمهم في مسك جفرِ
ومرآة المنجّم وهي صغرى	أرتـه كلّ عـامرة وقـفرِ[٢]

وكان في هذا الجفر حتى أرش الخدش[٣] كما يقول الإمام الصادق. أما (صحيفة الدولة) فكتب بها أحوال بني العباس ودولتهم وما يسبقها وما يجري

(١) الكافي ١: ٢٣٩ / ١، بحار الأنوار ٢٦: ٣٩ / ٦٩.
(٢) اللزوميات: ٣٥٣.
(٣) الكافي ١: ٢٤١ / ٥، معاني الأخبار: ١٠٢ / ٤.

فيها. وقد أخذ هذه الصحيفة محمد بن الحنفية، طلبها من الحسنين، فأعطوه اياها فدفعها إلى ولده أبي هاشم، ودفعها أبو هاشم إلى أولاد عبد الله بن الحسن. ولما لاحقهم مروان آخر خلفاء بني أُمية دفنوها في الصحراء بين دمشق والمدينة في مكان يسمى الحميمة أو الجميمة من أرض الشراة، ثم بحثوا عنها بعد ذلك فلم يجدوها[1].

أدلّة كون (نهج البلاغة) له عليه السلام

وهناك مجموعة من الكتب تركها أمير المؤمنين من ضمنها (نهج البلاغة)، وقد صار موضع أخذ ورد. وقد اتبع العلماء في إثبات (نهج البلاغة) لعلي منهجاً من عدة شعب، منها:

الأوّل: منهج الأسلوب الأدبي

درسوا الأُسلوب، فمن عنده تذوق للأدب وعرضت عليه قطعة شعرية فإنه يعرف لمن: للبحتري أو لأبي فراس أو لأبي تمام أو للمتنبي؛ لأنه يأنس بالذوق فيصبح تخصصه. وهذا أشبه بعالم الآثار الذي يؤتى إليه بقطعة حجرية فيعرف أنها من عهد ما قبل التاريخ أو من العصر الأول أو الثاني أو غير ذلك. فمنهج علي منهج متميز له ديباجة وأُسلوب خاص، فإن وضعت قطعة من قطع علي بن أبي طالب إلى جانب القطع الأُخرى تجدها متميزة واضحة. وهذا الأمر يعرفه الأدباء وأهل الفن.

الثاني: وجود خطب النهج قبل ولادة الرضي

وهناك منهج آخر هو أنهم فزعوا إلى الروايات التي سبقت الشريف الرضي،

---

(١) بحار الأنوار ٤٢: ١٠٣، شرح نهج البلاغة ٧: ١٤٩.

فالمتأخرون ادعوا أن (النهج) اخترعه الشريف الرضي ونسبه إلى أمير المؤمنين﷣. لكن الواقع هو أن أُسلوب الشريف الرضي معروف وأسلوب علي معروف. ومن ناحية ثانية فإن خطب النهج موجودة قبل أن يولد الرضي بمئة سنة. وهذا ما ينص عليه العلماء.

الثالث: منهج التمحيص

فقد ادعى جماعة أن في (نهج البلاغة) ألفاظاً لم تكن موجودة في زمن علي وإنما هي مستحدثة أيام العباسيين من بعد ما حدثت الترجمة، وذلك مثل كلمة الأزل والحد. فالحد في اللغة هو الفاصل، ومعناه العلمي هو التعريف. فعندما نعرّف الفرس نقول: إنها حيوان صاهل، والإنسان نقول عنه: حيوان ناطق. وهذا لم يكن موجوداً أيام علي حتى يقول: «من حده فقد عده»[1].

وهذه مغالطة، فإن أمير المؤمنين لم يستخدم لفظة الحد بمعناها الفني، إنما استخدمها بمعناها اللغوي. فمن حده أي من جعل له حداً وأنه جسم جالس على العرش.

وهناك مناهج متعددة استعملت وسلطت على (نهج البلاغة) فدلت على أنه من عطاء علي. يقول أحد الأُدباء:

شهد النَّبر أنه لعلي ... ربُّ قولٍ عليه منه دليلُ

كل فصل أبو تراب به يبـ ... ـدو فتهتز بالهدير الفصولُ

فـ(نهج البلاغة) برونقه وعطائه وديباجته وبهائه هو من عطاء هذا الرجل. فكان هذا (النهج) مما تركه من الكتب. ومما ترك من الكتب (جنة الأسماء) وهو

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١، ١٥٢.

الذي شرحه الغزالي. وقد نص على هذا من كتب في معاجم المؤلفين[1].

هذه الكتب أعطاها لولده الحسن عليه السلام بالإضافة إلى اللواء والسيوف التي تركها ومنها ذو الفقار، ومنها حديدةُ هُبَل التي أخذها عندما صعد على ظهر الكعبة وأخذ الأصنام فحطمها.

وبالأمس سمعت مذيعاً يذكر فتح مكة ويقول: دخل المسلمون إلى الكعبة فحطموا الأصنام، ولم يذكر علياً عليه السلام بقليل ولا بكثير، ورحمة الله على الإمام أحمد ابن حنبل لما سئل يوماً: ما بال الصحابة كلّهم كأنهم أُخوة وعلي كأنه ابن عَلّة؟ قال: لأن علياً سبقهم سلماً، وفاقهم علماً، وبزّهم شجاعة فحسدوه[2].

كان علي عليه السلام في الصلاة فدخل سائل يقول: من منكم يقرض الله قرضاً حسناً، ويتصدق علي؟ فأشار إليه بأنملته، فتناول منه الخاتم وخرج، فلم يبرح الإمام حتى هبط الأمين جبريل يحمل هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[3]، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله يحمل الآية ويقول: «بشراك يابن أبي طالب؛ لقد أنزل الله فيك قرآناً»[4]. ثم قرأ عليه الآية. وهذا ما اتّفق عليه جمهور مؤرّخي المسلمين.

---

(١) انظر كشف الظنون ١: ٦٠٦ ـ ٦٠٧، هدية العارفين ١: ٦٦٧، وشرح جنة الأسماء للغزالي موجود في مكتبة مخطوطات آية اللّه السيد الگلپايگاني في قم برقم ١ / ش ٩٥٠، ورقم ٢١٣ أيضاً.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٦٠٨ ـ ٦٠٩ / ١٢٥٦، بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١ / ٣، وفيهما عن الخليل بن أحمد الفراهيدي.

(٣) المائدة: ٥٥، وانظر: شواهد التنزيل ١: ٢١٧ / ٢٢٥، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٢٢١، تفسير القرآن العظيم ٢: ٧٤.

(٤) شواهد التنزيل ٢: ٣٤٧ / ٩٨٩، وأورده في قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ التحريم: ٤.

الثانية: وصيته بوقف حوائطه

وكان علي ﷺ يتختم بأربعة خواتم، تصدّق بأحدها وبقيت ثلاثة: واحد من عقيق والثاني من فيروزج وخاتم آخر، وكانت ضمن التركة التي أعطاها للإمام الحسن ﷺ. ومما تركه من وصاياه التمليكية الحوائط الضخمة (البساتين)؛ لأنه كان يستغل قوّته ويخرج بنفسه يستنبط الماء ويزرع النخل ويفلح الأرض، حتى إذا اكتملت وقفها في سبيل الله. وكان عنده سبعة مناطق، منها ينبع وأدينة وديمة وأبو نيزر والبغيبغة والعفرتان، وكلّها كان له فيها نخيل وعيون ماء. وكتب بيده وبخطّه أن يحبس أصلها ويُنفَق واردها في سبيل الله.

وهذه وصية لجهات لا لوجوه، فقد ملكها لله، وكانت هذه البساتين تغل عليه وارداً كبيراً. وقد دفع معاوية في أبي نيزر والبغيبغة الملايين من الدراهم، لكن الإمام الحسن ﷺ امتنع[1] وقال: «هذه صدقات أبي، ولا أبيعها». فكانت تنفق كلّها في سبيل الله.

وكان علي ﷺ ينفقها في حياته ثم يعود إلى سوق الكوفة فينادي: «من يشتري مني هذا السيف؟ والله لو كان عندي ثمن إزار ما بعته»[2]:

أيها المالُ ما خدعتَ علياً   حسبُه منكَ بُلغةٌ لعشائه

حتى إن أحد هذه الحوائط السبعة كان فيه عبيد ثلاثة من جملتهم أبو نيزر، فأوصى الإمام ﷺ أن يُعتقوا من بعده شرط أن يبقوا بالحوائط خمس سنين.

الثالثة: وصيته ﷺ بعتق مماليكه وأُمهات الأولاد عنده

وأوصى بعتق مماليكه، وكان قد أعتق في حياته ألف مملوك من كدّ يده، ومما

---

(١) معجم البلدان ٤: ١٧٦ ـ البغيبغة.

(٢) الغارات ١: ٦٣، مكارم الأخلاق: ١١٤.

كان يعرق به[1]. ولم يكن يمد يده إلى بيت المال، فكان يصبح عليه الصباح فيأخذ مسحاته، وله معها تاريخ طويل، فيأتي إلى الأرض ويسكب فيها عرقه، ويستصلحها ويبيع أحياناً بعض البساتين ويشتري بها عبيداً يعتقهم لوجه الله. ومن كان عنده وقت الضربة والوفاة أوصى بعتقهم في سبيل الله.

ومن وصاياه في هذه الليلة أنه كان عنده أُمهات أولاد[2] عددهن سبع عشرة، فأوصى بعتق من لم تكن حاملاً، والحامل تحسب من نصيب ولدها وتعتق بعد ذلك.

أما من النقود فإن راتب علي عليه السلام من بيت المال لم يكن يتميز عن راتب قنبر، ولذا لما جاءه عقيل أخوه يحمل صبيانه وهم جياع، أو كما يقول عنهم أمير المؤمنين: «فرأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم، كأنما سوّدت وجوههم بالعظلم»[3]، وطالبه بزيادة الراتب، أجابه الإمام عليه السلام بأنه لو كان عنده وفر ما بخل به عليه. وأنه عليه السلام لا يمدّ يده إلىٰ مال المسلمين. ثمّ قال له: «انتظر حتى يخرج عطائي من بيت المال فأعطيك إياه. أو أن تأخذ بيدي إلى سوق الصرّافين حتى أسرق لك». فقال: معاذ الله أن أُكلفك هذا. قال: «فما الفرق في أن أمدّ يدي إلى بيت المال أو أسرق من الناس؟». وانتظر عطاءه، حتى إذا جاء قال لابنه الحسن: «اكسُ عمّك جبة».

فهذا الراتب الذي كان يأخذه أمير المؤمنين عليه السلام كان يقتطع منه قليلاً قليلاً، حتى جمع منه سبعمئة درهم. وهذه كلّ تركته التي ينص عليها كلّ من كتب في تاريخه.

---

(١) الكافي ٥: ٧٤ / ٢، ٤، ٨: ١٦٣ / ١٧٣، ١٦٥ / ١٧٥، ينابيع المودّة ١: ٤٤٦.

(٢) أُم الولد: الأمة التي يطؤها مولاها فتحمل وتلد منه.

(٣) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

وقد جمعها ليشتري بها جارية تساعد أهله في خدمة البيت. فهو ﷺ ضَمِنَ ما كان خارج البيت من نقل الحطب والماء وجلب الحاجات. وممّا يذكر هنا أن الزهراء ﷺ نفسها كانت تضمن ما بداخل البيت، فكانت تكنس البيت وترضع الإمام الحسن والحسين ﷺ، وتغسل الثياب، وتطحن الحبّ بالرحى، وتطهو الطعام وتقوم بالأعمال البيتيّة. حتى قال المؤرخون: إن يدها مجلت من الرحى[1]. وقد جاءت يوماً إلى النبي ﷺ فقالت له: «يارسول الله روحي فداك، لقد مجلت يداي من الجاروش». وكان رسول الله يعرف ذلك؛ لأنه مر يوماً فوجد علياً وفاطمة يتعاونان على إدارة الجاروش فجلس بينهما يعينهما[2].

وأتذكر هنا عبارة لأحد العلماء يقول فيها: والله لو أُعطيت جزءاً مما كان في هذا الجاروش لكان أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس. هذا الجاروش الذي كانت تديره فاطمة كان العبّاسيّون وشعراؤهم يعيّرون به فاطمة وأنها مسكينة وأن أباها مسكين زوجها لمسكين مثله، وأنها كانت تطحن الحب بالرحى. وقد تصدّى لهم الحسين بن الحجاج النيلي المدفون عند رجلي الإمام الكاظم ﷺ، صاحب القصيدة الفائية. ومما قال ردّاً على مروان بن أبي حفصة شاعر البلاط العباسي:

وكان قولُك بالزهراءِ فاطمةٍ	قولَ امرئٍ لَهِجٍ بالنصبِ مفتونِ
عيرتَها بالرَّحى والحبِ تطحنه	لا زالَ زادُك حباً غيرَ مطحونِ
وقلتَ إنَّ رسولَ الله زوَّجَها	مسكينة بنت مسكينٍ لمسكينِ
وهي التي في غدٍ بالحشر يخدمُها	أهلُ الجِنان بِحورِ الخُرَّدِ العِينِ

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٠، مسند أحمد ٦: ٢٩٨.

(٢) بحار الأنوار ٤٣: ٥١ / ٤٧.

فكانت الزهراء تطحن بتلك الرحى.

ودخل عليها الرسول صلى الله عليه وآله يوماً فرأى الإمام الحسين عليه السلام يبكي على صدرها والبيت يحتاج إلى كنس، والملابس تحتاج إلى غسل، وهي تدير الرحى، فقال: «يا فاطمة تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة»[1]. ثم ذهب واشترى لها جاريتها فضة لتعينها في أُمور البيت.

فكان الإمام علي يريد أن يشتري جارية تعين أهله. فقد كانوا يديرون شؤون البيت بأنفسهم، وكان جميع ما ترك سبعمئة درهم أراد أن يشتري بها جارية تعين أهله، وأدركه الموت. فكانت تلك تركته من الدنيا.

وقد وجدت رواية تقول: إن الإمام أوصى أن تُقسم الدار إلى ثلاثة أقسام، فأي دار هذه؟ أنا لا أعرف داراً لعلي في الكوفة. وهذه يمكن أن تكون الحجرة التي كانت في المدينة. والحجرة التي كانت في المدينة لم يقسمها لأنها كانت صغيرة وظل فيها أولاد الحسن. وكان بابها على المسجد، فلما جاء عبد الملك بن مروان أراد أن يوسع المسجد، فقيل له: هذه الدار لعلي بن أبي طالب وفيها ولده. قال: يخرجون منها. فامتنع الحسن أن يخرج حتى ضرب بالسياط، وهدموها وأدخلوها إلى المسجد[2].

فلم يكن لأمير المؤمنين دار، ولا أدري ما هو منشأ هذه الرواية، فعلي لم يملك داراً، ولم يضع حجراً على حجر وهذه عبارة المؤرخين.

هذا كلّ ما تركه علي من الأموال، أما الثياب فلم يترك منها شيئاً، نعم ترك تلك المدرعة التي يقول عنها هارون بن عنترة أحد أصحابه: دخلت عليه في الخورنق

---

(١) التمحيص (الإسكافي): ٦، شواهد التنزيل ٢: ٤٤٥، كنز العمّال ٢: ٤٢٢ / ٣٥٤٧٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٨، بحار الأنوار ٣٩: ٢٩ / ١١.

والسدير فرأيت عليه سمل قطيفة، فقلت له: إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في بيت المال حقاً. قال: «إني أكره أن أرزأكم من أموالكم شيئاً، إن الله يعلم أنها القطيفة التي خرجت بها من أهلي في المدينة، وإن خرجت منكم بغيرها فأنا خائن».

تتمة وصاياه العهدية

الثانية: وصيته بابن ملجم (لع)

أما وصاياه العهدية فهي حفر القبور الأربعة لتضييع القبر كما ذكرنا. والوصيّة الأُخرى أنه قال: «إن عشت فأنا ولي دمي، وإن متّ فاضربوه ضربة بضربة»[1]. يعني أنكم أولياء الدم، فإن شئتم قتلتموه وإن شئتم عفوتم عنه.

وأُقسم أن علياً﴿ لو عاش بعد تلك الضربة لأطلق سراح ابن ملجم؛ لأنه ظفر بمن هو أشدّ منه نكاية فعفا عنه، فابن ملجم جرح جسم علي، ولكن هناك أُناس جرحوا الإسلام فظفر بهم علي وأطلق سراحهم[2]. وهذا كان دأبه وديدنه، فهو تلميذ القرآن: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾[3].

وهكذا أوصاهم بعبد الرحمن أن إذا عشت فأنا ولي دمي، وإن قضيت نحبي فلا تمثّلوا به؛ «فإني سمعت رسول الله﴿ يقول: المثلة حرام ولو بالكلب العقور... اضربوه ضربة بضربة».

الثالثة: وصيته بلوازم دفنه

ومن وصاياه العهديّة أنه أوصى الإمام الحسن بأن هناك بقايا حنوط من رسول

---

(١) انظر نهج البلاغة / الوصية: ٤٧، قرب الاسناد: ١٤٣ / ٥١٥، تاريخ الطبري ٤: ١١٤.

(٢) كما حصل مع عمرو بن العاص، وبسر بن أرطاة وغيرهم.

(٣) فصّلت: ٣٤.

الله هبط به جبرئيل من الجنة، وكان الإمام قد قسم هذا الحنوط خمسة أقسام: فقسم منه حنّط به رسول الله ﷺ، وقسم حنط به الزهراء، وقسم اختص به نفسه، وقال لهم: «ادخروا الباقي لكم».

وأوصاهم أن يحملوا مؤخر السرير فيُكفَوا مُقدَّمَه.

الرابعة: وصيته بتعاهد المساجد

وأوصاهم ألّا يتركوا مسجد ربهم، وقال لهم: «لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تُناظَروا»[1]. فالمساجد مجد المسلمين وعزّهم. وأوصاهم بالصلاة عمود الدين. وأوصاهم بصلة الأرحام وأوصاهم بأهل بيت نبيهم، وصحابة جدهم رسول الله ﷺ. إلى غير ذلك من الوصايا المتعدّدة التي أوصى بها في هذه الليلة.

لقد ترك علي تركة مادية وقد ذكرناها، وتركة معنوية، فقد ترك على التربة التي دفن فيها بصماته، فهذه التربة منذ دفن فيها علي تحولت إلى مدرسة للحكمة والعلم والفكر والقرآن بكلّ أبعاده. وبصماته لا زالت فيها، ومن يعرف تأريخ المدارس الإسلامية كالأزهر والزيتونة يلاحظ بصمات علي واضحة على النجف. فالذي يدرس في النجف يعرف قيمة تراثها العلمي، يقول أحد الشعراء:

أيا صاحِ هذا مربعٌ في تُرابِهِ ... لحيدرةٍ جِسمٌ وفي أُفقِهِ فِكرُ

ثلاثٌ وعشرٌ من قُرونٍ تَصَرَّمت ... وما زالَ منه فوقَ هذا الثَّرى عِطرُ

وأزمنةٌ مَرَّت بكلِ صُروفِها ... يَشُدُّ بها زيدٌ ويَدفَعُها عَمرو

تَمُرُّ عليه وهي سوداءُ غيمةٌ ... فيمشي إليها وهو مُنبَلِجٌ بَدرُ

نعم، هذا تراب أمير المؤمنين، مأوى أرواح المؤمنين، ومحراب الفكر،

(١) نهج البلاغة / الوصية: ٤٧.

ومركز العبادة، وهذه بصمات علي على هذا التراب الذي يودّ العلماء أن يحصلوا على شبر منه ليضطجعوا فيه، كتب النراقي إلى معاصره السيد مهدي بحر العلوم:

ألا قُل لسكان أرضِ الغري لقد فُزتمُ بجنانِ الخلودْ
أفيضُوا علينا من الماء أو فنحنُ عُطاشى وأنتم ورودْ(1)

هذا التراب المقدس الذي يعبر عنه عبد الباقي العمري بقوله:

إذا نحن زرناها وجدنا نسيمها يفوح لنا كالعنبر المتنفِّسِ
ونمشي حفاةً في ثراها تَقَدُّساً نرى أننا نمشي بوادٍ مُقدسِ(2)

وهذا من تراثه المعنوي والنفسي، والمسلمون يعتقدون ببقاء النفس الناطقة، وكذلك اليونانيون، فكانوا إذا أعضلت عليهم مشكلة جلسوا إلى قبور حكمائهم يستجلونها. فمدفن علي محراب فكر.

الإمام عنوان الأحرار

وممّا ترك علي دماءه ودماء الشهداء من أبنائه ألوية ترفرف للأحرار على مدى الزمان، ورحم الله أبا العلاء المعري حيث يقول:

وعلى الدهر من دماء الشهيـ ـدين علي ونجله شاهدانِ
فهما في أواخر الليل فجرا ن وفي أولياتِهِ شفقانِ
ثبتا في قميصه ليجيء الـ ـحشر مستعدياً إلى الرحمنِ(3)

(1) الفوائد الرجالية ١: ٧٤ / مقدمة المحقق.
(2) لم نعثر عليهما لعبد الباقي العمري، بل هما للبهاء زهير في ديوانه: ١٧٧.
(3) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢١٣، درر السمط: ٩٣.

نعم ترك دماءه الطاهرة ودماء أبنائه ألوية على طريق الشهادة والشهداء تشير للأجيال أن الدم الحرّ هو الذي ينير الطريق وحده. فكلّما احتاج الزمان إلى لواء استجلى بعض تلك الألوية التي تركها علي من دمائه ودماء أبنائه:

وتــركتَ للأحــرار حــين يــلزُّهم عَنَتُ السُّرى ويضيقُ فيه المَهرَبُ
جُثَثَ الضحــايا مــن بــنيك تُــريهمُ أنَّ الحــقوقَ بــمثل ذلك تُــطلبُ

فعلي ﷺ أبو الشهداء والأحرار، وهو مفترع طريق الشهادة، وهو من ترك الدم لواءً يرفرف خفّاقاً على طريق الأحرار والحرية. وترك أيضاً جلال المصرع في محرابه، وصورة يختزنها الفكر إذا دخل إلى مسجد الكوفة وواجه محراب علي وكأنه يرى البيت:

قتلتم الصلاةَ في محرابها يا قاتليه وهو في محرابهِ

نعم، سقط في المحراب والصلاة بين شفتيه، ولسانه عامر بذكر الله، وقلبه عامر بذكره، فترك جلال المصرع في هذا المكان. وماذا ترك علي بعد؟ ترك لوعة في قلوب شيعته ودمعة حرّىٰ في عيونهم:

أرقُّ مــن دمــعةٍ شــيعيةٍ تبكي عليَّ بنَ أبي طـالبِ

كل هذا تركه علي في مثل هذه الليلة وقد اجتمع حوله أولاده وأصحابه وأهل بيته، وكان ﷺ هذه الليلة يتلفت يميناً وشمالاً، يقول له الحسن: أبه، «ما لي أراك تتلفّت؟». فيقول له: «بني، هذا جدّك رسول الله، وهذا عمّي حمزة، وهذا أخي جعفر، ورسول الله يقول لي: إنك صائر إلينا عن قريب».

فلما سمعت بناته صوته تعالى بكاؤهن ونشيجهن وارتفعت أصواتهن بالنحيب،

فقال أمير المؤمنين: «مهلاً لا تؤذوا إمامكم ببكائكم».

ودخل عليه ذلك اليوم مجموعة من أصحابه منهم الأصبغ، يقول الأصبغ: نظرت إلى وجهه مصفراً وقد عصبوه بعصابة صفراء، والله ما أدري أوجهه أشدّ اصفراراً أم العصابة. فلما وقع بصري عليه انتحبت باكياً، فقال لي: «يا أصبغ لا تبكِ، إنها والله الجنة». قلت: سيدي أنا أعلم أنها الجنة ولكن أبكي لفراقك يا أمير المؤمنين. فهدأ أمير المؤمنين قليلاً، ثم رفع رأسه إليهم، قال: «بالأمس أنا صاحبكم، واليوم أنا عبرة لكم، وغداً أنا مفارقكم». فلما سمعت النساء ذلك علت أصواتهن بالبكاء[1]:

يبويه عليه مجبل العيد   أعلل ايتامك بالمواعيد

واكولن ذخرنا بلچن يعيد

فلما اشتدّت عليه الحالة أخذ أصحابه يتبرّكون بالدنوّ منه والسلام. فصاح الإمام الحسن: «خفّفوا على إمامكم؛ فقد احمرّت قدماه، واشتدّ عليه الألم، وثقل جفناه». فأطرق الإمام برأسه على صدر ولده الحسن، وهو يمسح ما تلاصق بجبينه من العرق، حتى إذا اشتدّت حالته سجّاه الإمام الحسن ﷺ إلى القبلة، وأسبل يديه ورجليه، وغمض عينيه، وقضى نحبه.

---

(١) الأنوار العلوية: ٣٨٢.

المحتويات